

جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليا

الدولة العباسية في عهد الخليفة المكتفي بالله علي بن أحمد (289-295هـ/902-908م)

إعداد

شافي عبد اللطيف محمد بشارات

إشراف

د. عامر القبج

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2021م

الدولة العباسية في عهد الخليفة المكتفي بالله علي بن أحمد (289-295هـ/902-908م)

إعداد

شافي عبد اللطيف محمد بشارات

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2021/06/24م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

1. د. عامر القبيج / مشرفاً ورئيساً

.....

2. د. شوكت حجة / ممتحناً خارجياً

.....

3. د. محمد الخطيب / ممتحناً داخلياً

.....

الإهداء

إلى الذين جعلوا من دمائهم مداداً ندون به تاريخ أمتنا العظيم

إلى والدي ووالدتي.. "وقل ربّي ارحمها كما ربّياني صغيراً"

إلى أخي محمد وزوجته وأبنائه: حلا، وهور، وحسن

الشكر والتقدير

عرفاناً مني بالفضل الكبير، أتوجّه بجزيل الشكر والعرفان إلى مَنْ كان له عظيم الفضل في إخراج هذه الدراسة وفق صورتها الحالية: الدكتور عامر القَبَج، سائلاً المولى عزَّ وجل أن يجزيه عني خير جزاء، ويثيبه الأجر إن شاء الله.

وأ تقدّم بخالص شكري وتقديري من أعضاء لجنة المناقشة: الدكتور شوكت حجة، والدكتور محمد الخطيب؛ على ما بذلوه من جهد في قراءة هذه الدراسة وتقويمها.

وإلى أساتذتي في قسم التاريخ: الدكتور عدنان ملحم، والدكتور أمين أبو بكر، والأستاذ محمود كعابنه، أتقدّم بالشكر والتقدير، لما قدّموه من عونٍ ونُصحٍ لي طوال فترة دراستي.

كما أتوجه بالشكر إلى جميع العاملين في مكتبة جامعة النّجاح الوطنيّة، والشكر موصول إلى كلّ مَنْ قدّم لي المساعدة؛ من أجل إخراج هذه الدراسة إلى حيّز الوجود.

شافي

الإقرار

أنا الموقع أدناه، مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الدولة العباسية في عهد الخليفة المكتفي بالله

علي بن أحمد (289-295هـ/902-908م)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة علمية أو بحث علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:

اسم الطالب: شافي عبد اللطيف محمد بشارات

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ: 2021/06/24م

قائمة المختصرات والرُموز

1. يُشار إلى المصادر والمراجع في الهوامش كالاتي:

- يُشار للمصدر كالاتي: اسم الشهرة، والجزء (إن كان المصدر مكوناً من غير جزء)،
والصفحة، مثل:

الطَّبْرِي، ج4، ص 55.

النيسابوري، ص69.

- إذا كان للمؤلف غير كتاب واحد، تُكتب الكلمة الأولى من العنوان، مثل:

الذهبي، تاريخ، ج7، ص88.

الذهبي، سير، ج9، ص44.

- وإذا تشابهت للمؤلف نفسه الكلمة الأولى من العنوان في غير كتاب، تُضاف الكلمة الثانية،
مثل:

الحموي، معجم البلدان، ج6، ص58.

الحموي، معجم الأدباء، ج3، ص95.

- يُشار للمرجع كالاتي: اسم الشهرة، الجزء (إن كان المرجع مكوناً من غير جزء)، الصفحة،
مثل:

هنتس، ص69.

المقحفي، ج3، ص64.

- إذا كان للمؤلف غير كتاب واحد، تُكتب الكلمة الأولى من العنوان، مثل:

الدوري، العصر، ص83.

الدوري، دراسات، ص99.

- وإذا كان للمرجع مؤلفان أو ثلاثة، يُكتَب اسم الشهرة لكلّ منهم، وإن كانوا فوق ثلاثة، يُكتَب اسم الشهرة للأول، ثمّ تضاف كلمة وآخرون، مثل:

جواد؛ سوسة، ص66.

أنيس، وآخرون، ص89.

- يُشار للرسائل العلميّة والأبحاث المنشورة وفق النمط المتّبع في المراجع الحديثة، مثل: الألسي، ص36.

السامرائي، ص99.

- يُشار للموسوعات العلميّة كالآتي: اسم الشهرة، المادة، الموسوعة، الجزء، الصفحة، مثل: سوتر، إسحاق بن حنين، موجز دائرة المعارف الإسلاميّة، ج3، ص709.

2. الرموز:

- ص: صفحة.
- ج: جزء.
- ط: طبعة.
- ت: توقّي.
- هـ: هجري.
- م: ميلادي.
- ق: قرن.
- د. ط: دون طبعة.
- د. ن: دون ناشر.
- د. م: دون مكان نشر.
- د. ت: دون تاريخ نشر.
- ما يحمل نجمة في المتن مُعرّف في الهامش.

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	قائمة المختصرات والرموز
ح	فهرس المحتويات
ي	الملخص
1	المقدمة
4	دراسة في المصادر
20	الفصل الأول: المكتفي بالله حتى توليه الخلافة
21	نسبه، وصفاته، ونشأته، وثقافته
26	أسرته وأبناؤه
29	دوره السياسي والإداري
34	مبايعته بولاية العهد والخلافة، وحدود دولته ونطاقها الجغرافي
44	الفصل الثاني: سياسة الدولة تجاه الثورات الداخلية
45	سياسة المكتفي بالله تجاه أبناء الأسرة العباسية والعلوية
48	التخلص من بدر المعتضدي 289هـ/902م
56	الثورات في شهرزور وأصبهان وأذربيجان
57	الثورات في العراق وبلاد الشام
61	ثورة الخليجي في مصر 292-293هـ/905-906م
75	الفصل الثالث: الثورات الشيعية
76	الدعوة الإسماعيلية والقرمطية
88	ثورات القرامطة في الشام والعراق
89	ثورة صاحب الناقة 289-290هـ/902-903م
96	ثورة صاحب الشامة 290-291هـ/903م
116	ثورة أبي غانم نصر 293هـ/905-906م
120	ثورة القاسم بن أحمد 293هـ/906م

124	ثورة زكرويه 293-294هـ/906-907م
139	قرامطة البحرين
140	الشيعة الزيدية والإسماعيلية في اليمن
153	الفصل الرابع: سياسة الدولة تجاه الدويلات المستقلة
154	الدولة السامانية 261-389هـ/874-999م
160	الدولة الطولونية 254-292هـ/868-905م
174	الدولة الأغلبية 184-296هـ/800-909م
179	الفصل الخامس: السياسة الخارجية
180	الأعمال الحربية المتبادلة بين العباسيين والبيزنطيين في مناطق النُّغور
186	حملة الأسطول الإسلامي على مدينة سالونيك 291هـ/904م
204	سفارة الأميرة بيرثا ابنة لوثير الثاني الكارولنجي إلى المكتفي بالله 293هـ/906م
209	الفصل السادس: نظم الحكم والإدارة
210	الوزارة
228	القضاء
233	ولاية العهد
241	الفصل السابع: الأحوال الاقتصادية والعلمية والعمرانية
242	الإدارة المالية
250	الزراعة، والصناعة، والتجارة
259	الأحوال العلمية
264	الأحوال العمرانية
269	الخاتمة
272	قائمة المصادر والمراجع
291	الملاحق
B	Abstract

جدول الملاحق

رقم الملحق	عنوان الملحق	الصفحة
ملحق (1)	خلفاء العصر العباسي الثاني (232-334هـ/847-946م)	292
ملحق (2)	كتاب العامل عامر بن عيسى العنقائي إلى صاحب الشّامة	294
ملحق (3)	رسالة الاميرة بيرثا بنة لوثير الثاني الكارولنجي إلى المكتفي بالله	296
ملحق (4)	كتاب المكتفي بالله الذي ردّ فيه على الأميرة بيرثا	298
ملحق (5)	شكل (1) الحملة الإسلامية على مدينة سالونيك وفق احدى الرسومات البيزنطية	301
ملحق (6)	شكل (2) دينار ذهبي ضُرب في عهد المكتفي بالله عام 292هـ/904م	301
ملحق (7)	شكل (3) جامع الخلفاء بغداد	302
ملحق (8)	خريطة (1): بغداد خلال القرن الثالث الهجري	303
ملحق (9)	خريطة (2): سورية والعراق وبلاد ما بين النهرين	304
ملحق (10)	خريطة (3): بلاد المشرق الإسلامي.	305
ملحق (11)	خريطة (4): بلاد المغرب الإسلامي	306
ملحق (12)	خريطة (5): شبه الجزيرة العربية	307
ملحق (13)	خريطة (6): طريق الحج العراقي	308
ملحق (14)	خريطة (7): الحدود مع الإمبراطورية البيزنطية	309
ملحق (15)	خريطة (8): مسار حملة غلام زرافة على مدينة سالونيك	310

الدولة العباسية في عهد المكتفي بالله علي بن أحمد
(289-295هـ/902-908هـ)

إعداد

شافي عبد اللطيف محمد بشارات

إشراف

د. عامر القبيج

الملخص

وُلِدَ المكتفي بالله، أبو محمد، علي بن أحمد المعتضد بالله سنة 264هـ/877م، ونشأ في كنف والده وجده الموفق بالله اللذين خصّصا لتأديبه ابن أبي الدنيا، أحد خيرة علماء عصره، ما أكسبه درجة ثقافية وأدبية رفيعة، ورُزِقَ بغير ابن، كان لهم أدوار مهمة في التاريخ العباسي السياسي والحضاري. وحرص المعتضد بالله على إشراك ولده علي في شؤون الحكم والإدارة؛ وبخاصة بعد أن عهد إليه بولاية إقليم الجبال، ومن ثمّ ولّاه قنسرين والعواصم والجزيرة، وعُقِدَت بيعة الخلافة له عند وفاة والده سنة 289هـ/902م، إلّا أنّه ورث دولة تعاني من خطر الحركات الانفصالية، فحاول جاهداً استعادة وحدتها، وكان إنجازَه الأبرز في هذا المجال إعادة بلاد الشام ومصر إلى حوزة الدولة.

واستهلّ المكتفي بالله عهده بالتخلّص من القائد بدر المعتضدي، وشهدت ولايات الدولة العباسية اندلاع عديد من الثورات التي غلب عليها طابع الضعف، باستثناء ثورة الخليجي في مصر، وكانت خلافة المكتفي بالله شاهدة على السنوات الأخيرة من عمر الدعوة الإسماعيلية، وفشلت جهوده في إلقاء القبض على إمام هذه الدعوة عبيد الله المهدي، الذي تمكّن من الهرب من سلمية إلى بلاد المغرب، حيث أعلن قيام الدولة الفاطمية سنة 296هـ/909م، وانفرد زكرويه وأولاده بزعامة قرامطة العراق والشام، وقد فجر الأخير، مستعيناً بأولاده ودعاته عديداً من الثورات التي لاقت جميعها فشلاً ذريعاً، بعد أن قُتِلَ جميع قادتها بما فيهم زكرويه، في حين حقّق قرامطة البحرين نجاحاً لافتاً بقيادة أبي سعيد الجنابي الذي تمكّن بعد سنة 290هـ/903م من الاستقلال ببلاد البحرين، وعلى الرّغم من النجاح الذي حقّقه الدعوة الإسماعلية في بلاد اليمن خلال عهد المكتفي بالله، إلّا أنّها ما لبثت أن فقدت إنجازاتها بعد أن انقلب عليها الداعية الإسماعيلي علي بن الفضل سنة 297هـ/910م. وكحال

أسلافه أقرّ المكتفي بالله سيادة السّامانيّين على مناطق نفوذهم، وبدروه حرص إسماعيل بن أحمد السّاماني على تعزيز علاقته بالخلافة العبّاسيّة، وفيما يتعلّق بالدّولة الطّولونيّة، فما أن دبّ الوهن في كيانه حتّى رأى المكتفي بالله في ذلك فرصة للقضاء عليها سنة 292هـ/905م، ودفع تعاضم نفوذ داعي الدعاة أبي عبد الله الشيعي في بلاد المغرب الأمير الأغلبي زيادة الله الثّالث إلى تعزيز علاقته بالخلافة العبّاسيّة؛ أملاً في الحصول على مؤازرتها في مجابهة خطره.

وجرّدت خلال خلافة المكتفي بالله غير حملة عسكريّة عباسية بيزنطية متبادلة، وشكّل الانتصار الأبرز في هذا المجال قيام البحرية الإسلاميّة بشنّ حملة ناجحة على مدينة سالونيك سنة 291هـ/904م، وسعى الطرفان غير مرّة إلى عقد اتفاقيات تبادل للأسرى، سنة 292هـ/905م، وسنة 295هـ/908م، وعلى الصعيد الخارجي أيضاً، استقبل الخليفة سفارة من الأميرة بيرثا الكارولونجية سنة 293هـ/906م. ومن ناحية أخرى، فقد تعاقب على منصب الوزارة في عهده كلّ من القاسم ابن عبيد الله، ثمّ العباس بن الحسن، اللّذان تمتّعوا بنفوذ كبير، وأسهما باقتدار في إدارة شؤون الدّولة، وأدّى الجيش مهامّه العسكريّة بكفاءة، دون أن يكون له أيّ دور في الحكم، وشهد عهد المكتفي بالله تولية عدد من القضاة الأكفاء الذين أسهموا في إضفاء صفتي النزاهة والاستقلاليّة على مؤسّسة القضاء. وحول ولاية عهد الخليفة؛ فإنّه كان قد أوصى قبيل وفاته سنة 295هـ/908م بولاية عهده لأخيه جعفر، فكان له ذلك. وأخيراً، فقد انتهج المكتفي بالله سياسة ماليّة قائمة على ضبط الموارد والنفقات، فانتعشت خزينة الدّولة، وازدهرت الأحوال الحضاريّة.

المقدمة

عُدَّ العصر العباسيُّ الثاني (232-334هـ/847-946م) فترة انتقاليَّة مهمَّة في التاريخ الإسلامي؛ فقد احتدمت خلاله الصِّراعات السِّياسيَّة الداخليَّة؛ ما أدَّى إلى حدوث تحولات جذريَّة حدَّت من نفوذ مؤسَّسة الخلافة ودورها في الحُكم، حيث جُرِّد الخلفاء في نهاية هذا العصر من سلطاتهم السِّياسيَّة لصالح القادة والمتنفِّذين الذين راحوا يتلاعبون بهم وفق مصالحهم وأهوائهم، وعلى الرِّغم من ذلك؛ فقد استطاعت مؤسَّسة الخلافة خلال الأعوام (279-295هـ/892-908م) تحقيق صحوة مؤقَّتة استعادت خلالها هيبتها ونفوذها الفعلي؛ ما أدَّى إلى حدوث استقرار سياسيٍّ نسبيٍّ، ازدهر بفعله النِّشاط الاقتصادي والحضاري داخل الدَّولة.

وجاءت هذه الدِّراسة الموسومة بـ: "الدَّولة العباسيَّة في عهد المكتفي بالله علي بن أحمد (289-295هـ/902-908هـ)" بهدف تسليط الضَّوء على عهد الخليفة المذكور، من خلال دراسة مختلف جوانب الحياة السِّياسيَّة الداخليَّة والخارجيَّة، وانعكاس ذلك كلِّه على مظاهر الحياة الاقتصاديَّة والحضاريَّة في عهده.

وعلى الرِّغم من كثرة الدراسات التي تناولت التاريخ العباسي عموماً، والعصر الثاني على وجه الخصوص، فإنَّ الباحث لم يقف علي أيِّ دراسة علميَّة سابقة تختصَّ بتناول عهد المكتفي بالله على وجه التَّحديد، ومع ذلك أفادت الدِّراسة من بعض المؤلَّفات التي تطرَّقت إلى بعض جوانب الحياة السِّياسيَّة والإداريَّة والحضاريَّة المتعلِّقة بهذا الموضوع، وهي: "تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرَّابِع الهجري" لعبد العزيز الدَّوري، رسالة دكتوراه منشورة، أُجيزت عام 1942م من جامعة لندن، تناول فيها الباحث النِّشاط الاقتصادي، والإدارة الماليَّة، والآثار المتربِّبة على ذلك كلِّه، فأسهمت في توضيح بعض جوانب الحياة الاقتصاديَّة خلال عهد المعتضد بالله، وابنه المكتفي بالله.

أمَّا دراسة "النِّفقات وإدارتها في الدَّولة العباسيَّة من سنة (132-334هـ/749-945)" لصيف الله الزهراني، رسالة دكتوراه منشورة، أُجيزت عام 1984م من جامعة أم القرى، تطرَّق فيها الباحث إلى مفهوم موارد الإنفاق في الدَّولة العباسيَّة ومقدراها في عهد كلِّ خليفة، وكان من ضمنهم المكتفي بالله. ثمَّ تأتي بعد ذلك "الدَّولة العباسيَّة في عصر المعتضد بالله (279-289هـ/892-902م)"

لناريمان الألشي، رسالة دكتوراه غير منشورة، أُجيزت عام 1988م من جامعة أم القرى، التي تُعد واحدة من غير دراسة تناولت عهده، وأسهمت في تسليط الضوء على سياسته تجاه الدُولات المستقلة عن جسم الدّولة العبّاسيّة، كما قدّمت بعض المعلومات عن الحياة الاقتصاديّة خلال عهده.

ومن الدّراسات السّابقة أيضاً: "القرامطة في السّود وبلاد الشّام في القرنين الثّالث والرّابع الهجريّين" لزياد سلمان أبو سنيّة، رسالة دكتوراه غير منشورة، أُجيزت عام 1998م من الجامعة الأردنيّة، استعرض فيها الباحث بإيجاز مجريات ثورات قرامطة الشّام والعراق خلال عهد المكتفي بالله، وقد خصّص القسم الأكبر لتنظيمات القرامطة الاجتماعيّة، وماهية تراثهم العقدي والفكري. وأمّا الدّراسة الموسومة بـ "الخلاف بين الجيش والدّولة في ظلّ العبّاسيين خلال الفترة (247-334هـ/861-945)" لمحمد فياض العزّي، رسالة ماجستير غير منشورة، فأجيزت عام 2001م من جامعة اليرموك، تحدّث فيها الباحث عن فرق الجيش وتنظيماته، ثمّ تطرّق إلى طبيعة الدّور العسكري والسياسي والإداري الذي قامت به المؤسّسة العسكريّة خلال هذه الفترة.

وأما "ولاية العهد في العصر العبّاسي الثّاني (247-334هـ/861-945م)" لمُسامح يوسف حجو، رسالة ماجستير غير منشورة، فأجيزت عام 2012م من الجامعة الإسلاميّة في غزة، تناول فيها الباحث المفهوم السياسي والفقه لولاية العهد، وآلية انعقاد هذا المنصب وفق النّمط الموضوعي، والقوى المؤثرة فيه، وآثاره السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة على الدّولة العبّاسيّة، وتناول الباحث بإيجاز ظروف بيعة المكتفي بالله، والمقتدر بالله، ولم يخلُ ذلك من بعض المغالطات، وبخاصّة عند حديثه عن دوافع تنصيب الأخير. وأخيراً تناولت دراسة "التّاريخ الاقتصادي للدولة العبّاسيّة في العصر العبّاسي الثّاني (247-334هـ)" لفهد المطيري، رسالة دكتوراه غير منشورة، أُجيزت عام 2015م من جامعة اليرموك، مظاهر الحياة الاقتصاديّة العبّاسيّة خلال العصر المذكور.

وفيما يتعلّق بدراستنا هذه، فقد استُهلّت بدراسة لأهمّ مصادرها، تلاها سبعة فصول، تناول الأوّل فيها حياة المكتفي بالله حتّى تولّيه الخلافة، من حيث نسبه، ونشأته، وثقافته، وأسرته وأولاده، ودوره السياسي والإداري، ومبايعته بولاية العهد والخلافة، ونطاق الدّولة السياسي والجغرافي خلال عهده.

وتحدث الفصل الثاني عن الثورات والاضطرابات السياسية الداخلية، وكانت البداية مع سياسة المكتفي بالله تجاه أبناء الأسرة العباسية والعلوية، ثم تحدث عن ثورة بدر المعتضدي، وما تلا ذلك من ثورات أخرى اندلعت في بعض ولايات الدولة العباسية، في حين تناول الفصل الثالث النشاط الدعوي والثوري للحركات الشيعية، وهي: الإسماعيلية، والقرامطة، والزيدية.

واستعرض الفصل الرابع سياسة المكتفي بالله تجاه كل من الدولة السامانية، والطولونية، والأغلبية، وأتى الفصل الخامس على ذكر السياسة الخارجية في عهده، وما تخلل ذلك كله من عمليات حربية وعلاقات سياسية متبادلة، خاصة تجاه الإمبراطورية البيزنطية، والأميرة بيرثا الكارولونجية.

وتتناول الفصل السادس نظم الحكم والإدارة، وهي: الوزارة، والقضاء، وولاية العهد، وأخيراً تحدث في الفصل السابع عن الأحوال الاقتصادية والعلمية والعمرانية في عهد المكتفي بالله، وانتهت الدراسة بخاتمة اشتملت على أبرز النتائج التي خلصت إليها.

دراسة في المصادر

تاريخ الرسل والملوك، للطبري، أبي جعفر، محمد بن جرير (ت. 310هـ/922م)، اشتهر بالطبري؛ نسبة إلى موطنه طبرستان* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 3)⁽¹⁾، وانكب منذ نعومة أظفاره على تحصيل العلوم الدينية؛ فقد أتم حفظ القرآن في سن مبكرة، ودرس الحديث، وما إن شبَّ عوده حتَّى ارتحل في طلب العلم متنقلاً بين الأقاليم الإسلاميَّة، قاصداً مراكزها العلميَّة، وقد استقرَّ به المطاف في بغداد التي سبق له أن زارها غير مرَّة، حيث تفرَّغ فيها للعلم والتدريس والتأليف⁽²⁾، فنَبغ في علوم التفسير والحديث والفقه والتاريخ، وغير ذلك من أصناف العلوم⁽³⁾، ونال شهرة واسعة حتَّى وُصِفَ بأنَّه: "كان إماماً في فنون كثيرة"⁽⁴⁾؛ وحظي بفعل ذلك بمكانة مرموقة جعلت منه شخصيَّة مقربة من مجالس الحكَّام، بمن فيهم المكتفي بالله ووزيره العبَّاس بن الحسن، اللذين حرصا على أن ينهلا من علمه؛ ولطالما كلَّفاه بإعداد بعض المصنَّفات؛ بهدف الوقوف على ما خلصت إليه آراؤه واجتهاداته العلميَّة، وعلى الرِّغم من ذلك، كان يرفض الأعطيات المقدَّرة له جراء خدماته المقدَّمة للخليفة ووزير⁽⁵⁾.

وترك الطبري قرابة ستة وأربعين مؤلِّفاً، غطَّى فيها سائر أنواع العلوم التي اشتغل بها، إلَّا أن أذيع مصنفاته وأشهرها على الإطلاق: "تاريخ الرسل والملوك"، وتفسيره الشهير بـ "جامع البيان في تأويل القرآن"⁽⁶⁾. ويعدُّ الأوَّل ذروة ما توصلت إليه الكتابة التاريخيَّة عند المسلمين خلال عصر التكوين⁽⁷⁾، ويُصنَّف هذا المؤلَّف بأنَّه من ضمن كتب التاريخ الموسوعي؛ فقد تناول فيه المؤلَّف الأحداث

* طبرستان: إقليم جغرافي يقع إلى الجنوب من بحر قزوين (بحر الخزر قديماً)، ويحدّه من الغرب إقليم الديلم، وسمي بهذا الاسم؛ بسبب كثرة أشجاره، ويمتاز بمنعته، وكثرة حصونه، ويشتهر كذلك بوفرة خيراته الطبيعيَّة، ومن أبرز مدنه: أمل وهي أكبرها، وسارية، ويشكِّل الآن جزءاً من أراضي إيران، ويُعرَف بولاية مازنْدان. يُنظر: الجُميري، ص (383-385). سورديل، ص 838.

(1) ابن خلِّكان، ج 4، ص (191-192).

(2) الحموي، معجم الأدباء، ج 6، ص (2441-2443).

(3) الحموي، معجم الأدباء، ج 6، ص (2441-2442). ابن خلِّكان، ج 4، ص (191-192).

(4) ابن خلِّكان، ج 4، ص 191.

(5) ابن عساكر، ج 52، ص 194. الذهبي، سير، ج 14، ص (270-272).

(6) ابن خلِّكان، ج 4، ص 191.

(7) الدوري، نشأة، ص 48.

التاريخية منذ نشوء الخليفة حتى عام 302هـ/915م، وعرض مادته الخاصة بفترة ما بعد الإسلام حسب الأساس الحولي، وقد استقى القسم الأكبر منها وصولاً إلى الحقبة التي عاصرها من كتب الإخباريين السابقين، وقد حرص على تدوين أسمائهم في أسانيد رواياتهم.

وتتبع أهمية تاريخ الطبري في أنه من المصادر المعاصرة للفترة الزمنية التي تتناولها الدراسة، ومما زاد من حيوية هذا الدور طبيعة العرض المسهب الذي يقدمه المؤلف عن مادته التاريخية على اختلاف فتراتها الزمنية، ولم يصرح الطبري داخل القسم الأكبر من هذه المادة عن مصادره؛ على اعتبار أنه هو المصدر الرئيس للمعلومة الواردة فيها، وفيما تبقى منها توزعت مصادره التي أُشير إليها بين الوثائق الرسمية التي كنت ترد إلى العاصمة بغداد على شكل كتب رسمية كانت تُوجه إليها من ولايات الدولة وأقاليمها تعرض للسلطة المركزية ما استجد من أحداث وتطورات داخلها، ويضاف إليها الكتب التي كانت تُحمل بوساطة السفارات الوافدة من الكيانات السياسية المتاخمة للدولة العباسية، وفي بعض الأحيان شكّل كبار موظفي الدولة مصدراً مهماً لمادته التاريخية، كحال محمد بن داود بن الجراح متولّي ديوان الخراج والجيش، الذي اعتمد عليه في سرد قسم كبير من مجريات ثورات القرامطة في العراق وبلاد الشام، ومن الموارد الأخرى التي اعتمد عليها: الأخبار المتداولة على السنة العامة، خاصة أنّ الجزء الأكبر منها كان يُحمل إلى بغداد بوساطة الوافدين إليها من التجار، وغيرهم، وقد عزّز ذلك كلّ من قيمة ما دونه الطبري، وجعل مادته مرجعاً أساسياً للمصادر اللاحقة.

وعلى الرغم من اعتماد الطبري على المنهج الحولي في عرض مادته التاريخية، إلا أنه لجأ في بعض الأحيان، خاصة عند حديثه عن ثورات القرامطة وما شابهها، إلى عرض ملخص عن كلّ ثورة، ثم يتابع في الفترات التي يليها سرد مجريات هذا الحدث، مراعيًا التسلسل الزمني.

وخدمت مادة الطبري بإسهاب، وفق درجات متفاوتة، فصول الدراسة كافة، باستثناء الفصلين الأخيرين المتعلقين بالنواحي الإدارية والحضارية؛ فقد جاءت معلوماته حولهما شحيحة ومقتضبة إلى حدّ كبير. فقد عرض الطبري ترجمة موجزة عن حياة المكتفي بالله بعد أن فرغ من خبر وفاته، وبحكم طبيعة الفترة الزمنية التي يتناولها الكتاب، والتي تنتهي عند عام 302هـ/915م، فقد تعدّر عليه تقديم أيّ

معلومات عن أسرة المكتفي بالله، خاصة أولاده الذين ارتبط دورهم السياسي والحضاري بالفترات اللاحقة، وقد استثنى من ذلك ابنه الأكبر محمداً الذي كانت خلافة والده شاهدة على بعض محطات حياته، كزواجه من ابنة الوزير القاسم بن عبيد الله عام 290هـ/903م، وأسهب الطبري في أثناء حديثه عن الدور السياسي والإداري الذي قام به المكتفي بالله قبل توليه الخلافة، مشيراً في الوقت نفسه إلى حيوية هذا الدور الذي أسهم إسهاماً كبيراً في تقديمه وتهيئته للحكم، وعلى الرغم من ذلك، فقد تجنّب الطبري الخوض في الظروف الداخليّة التي بويع فيها المكتفي بالله، حيث انتقل مباشرة من وفاة المعتضد بالله إلى مراسم تعيينه.

وتناول الطبري باسترسال دوافع التخلّص من بدر المعتضدي وظروفه، محملاً الوزير القاسم بن عبيد الله المسؤولية الرئيسة عما انتهى إليه مصير هذا القائد، ونوّه الطبري إلى حالة الضعف التي انشمت بها الثورات السياسيّة التي شهدتها ولايات الشرق الأقصى والشرق الإسلامي، بما فيها بلاد الشام والعراق، ويؤخّذ عليه في هذا الجانب عدم تطرّقه لثورات الأكراد التي اندلعت في ولاية الموصل، وعلى الرغم من تناوله مجريات ثورة الخليجي، فإنّ مادته قصرت مقارنة مع المصادر المصريّة المتقدّمة منها، والمتأخّرة عن عرض تفاصيل هذه الثّورة، وتتبع أحداثها الدائرة في مصر؛ وقد يكون ذلك منطقياً إذا ما علمنا أنّ مصدره الوحيد عنها كان الكتب الرسمية الموجهة إلى بغداد من الفسطاط، التي كان أغلبها موجزاً لما انتهت إليه آخر التطورات الحاصلة في مصر.

وتحدث الطبري بإسهاب عن الثّورات المتتالية التي قام بها القرامطة في بلاد الشام والعراق، مشيراً إلى مدى ضراوتها، وحجم الدمار الكبير الذي خلفته، وأشار إلى نجاح القرامطة في حشد قوة هائلة مكّنتهم من مجابهة الدولة العبّاسيّة والصمود في وجهها لفترة طويلة من الزمن؛ ما أدى إلى استنزاف قدر كبير من مقومات الدولة العسكريّة والماليّة، إلى أن تمكّنت من القضاء على هذا التهديد. وعلى الرغم من أهمية ما كتبه الطبري بهذا الخصوص، فقد جاءت مادته مختصرة في بعض موضوعاتها أحياناً؛ ما جعلها تقتصر إلى التجانس الكفيل بخلق نوع من الترابط الموضوعي بين مختلف جزئياتها، إن لم يكن داخل الجزئية الواحدة، وما زاد من صعوبة الأمر، تعدّد الروايات التي يقدّمها حول الموضوع الواحد، وقد استحال على الباحث دراسة هذه المادة من دون الرجوع إلى المصادر الأخرى، التي سدت بدورها جوانب النقص لدى الطبري، وفيما يتعلّق بقرامطة البحرين؛ فقد كانت مادته

مجتزأة، اعتمد فيها على ما كان يصل إلى بغداد من كتب رسمية بخصوص التطورات الحاصلة هناك، ولم يُعَب عنه خلال ذلك استحضار الدور الفعال الذي قامت به السلطات العباسية في مقاومة المدّ القرمطي هناك، كما لم يحظَ النّشاط الزيدي والإسماعيلي في اليمن باهتمامه؛ فقد كانت مادته المتعلّقة بهذه الجانب مقتضبة ومبهمة، يُستحال فهمها من دون الرجوع إلى المصادر اليمانية، وبخصوص الدعوة الإسماعيلية عموماً؛ فقد أهمل الطّبري وجود أيّ إمام إسماعيلي على رأس هذه الدعوة التي لم يصرّح حتّى باسمها.

وأتى تاريخ الطّبري على ذكر العلاقات العباسية السّامانية؛ فقد أشار إلى الدور الكبير الذي لعبه إسماعيل بن أحمد في إخماد ثورة محمد بن هارون في الري، حيث كان ذلك عاملاً رئيساً في تولية الخليفة له على هذه المدينة، وحرص إسماعيل بدوره على توطيد علاقته بالخلافة العباسية من خلال الكتب التي كان يوجهها للخليفة، زافاً البشائر إليه بانتصاراته على الترك على امتداد جبهته، وبدوره حافظ المكتفي بالله على سيرورة هذه العلاقة حين بادر بعد وفاة إسماعيل إلى إقرار ولده أحمد مكانه، وتحدث الطّبري بإيجاز عن الحملة التي شنّها العباسيون على الأراضي الطّولونية في بلاد الشّام ومصر، حتّى إنّه اكتفى بذكر هارون بن خمارويه على اعتبار أنّه آخر حكام هذه السلالة، ولم يعرض أيّ معلومات عن الأغالبة باستثناء السفارة التي وجهها زيادة الله الثّالث إلى المكتفي بالله عام 295هـ/908م.

وتناول الطّبري بإسهاب الصّراع العباسي البيزنطي في منطقة الثّغور، وما تخلّل ذلك من عمليّات حربية متبادلة، مؤكداً خلال ذلك على تفوّق البيزنطيين في أثناء السنوات الأولى من خلافة المكتفي بالله، في حين شهدت السنوات الأخيرة من حكم الأخير تفوّقاً إسلامياً ملحوظاً في هذا الخصوص، وفي أثناء حديثه عن الحملة الإسلاميّة التي استهدفت ثغر سالونيك عام 291هـ/904م وقع في مغالطة كبيرة، حيث ذكر أنّ أنطاليا هي من تعرّضت لهذا الهجوم دون سالونيك، وأشار الطّبري إلى السفارات المتبادلة بين العباسيين والبيزنطيين، التي تمخض عنها حدوث فدائين للأسرى.

ولم تأتِ مادة الطّبري على ذكر كثير فيما يتعلّق بالنواحي الإداريّة والحضاريّة، ولعل طبيعة المادة التّاريخيّة التي يشتمل عليها تاريخ الرسل والملوك، التي تعنى بالتّاريخ السياسي بالدرجة الأولى،

كانت العامل الرئيس وراء ذلك، كما صمت تاريخه عن جوانب مهمة، كسفارة الأميرة بيرثا ابنة لوثير الثاني الكارولنجي إلى المكتفي بالله عام 293هـ/906م، وعن الوزارة ودورها في هذه الفترة، وتجنّب الخوض في مسألة ولاية عهد المكتفي بالله، وماهيّة الظروف التي بويع فيها المقندر بالله من بعده.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، والتنبيه والإشراف، للمسعودي، أبي الحسن، علي بن الحسين (ت. 346هـ/957م). اشتهر بالمسعودي؛ لانحداره من نسل الصاحب الجليل عبد الله بن مسعود (ت. 32هـ/652م)، وكان قد وُلِدَ في بغداد⁽¹⁾، حوالي عام 287هـ/900م⁽²⁾، وغادرها عام 309هـ/921م، ففضى ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً متنقلاً في رحلات متواصلة، جاب خلالها أرجاء العالم الإسلامي، باحثاً ومتقصياً عن الحقائق والمعلومات التاريخية والجغرافية، واستقر به المطاف في مصر عام 336هـ/948م، إلى أن توفي⁽³⁾، وكان "إخبارياً، صاحب مُلَح وغرائب وعجائب وفنون"⁽⁴⁾، ووُصِفَ كذلك بأنّه: "كثير التصانيف في التواريخ، وأيام الناس، وعجائب البلاد والبحار"⁽⁵⁾؛ فقد خلف ما يقرب الثلاثين كتاباً، فقدَ معظمها باستثناء مروج الذهب ومعادن الجوهر، والتنبيه والإشراف، وأخبار الزمان الذي لم يتبقَّ منه إلا جزء واحد من أصل ثلاثين⁽⁶⁾.

ولمؤلفات المسعودي قيمة عالية للدراسة؛ فقد عاصر صاحبها إطارها الزمني، وكان شاهداً عليه، وقد دوّن مادته التاريخية المتعلقة بها بعد انقضاء هذه المدة بوقت قصير، وعلى الرغم من الإيجاز الذي اتّسمت به مصنفاته؛ فقد لعب دوراً كبيراً في تعزيز قيمة ما كتبه الطبري وتأكيده. وكان المسعودي قد شرع في تأليف كتابه **مروج الذهب ومعادن الجوهر** عام 332هـ/944م، وفرغ منه عام 336هـ/948م، وعُدَّ من كتب التاريخ الموسوعي، حيث تناول فيه الأحداث التاريخية منذ نشوء الخليقة حتّى عام 336هـ/948م، واعتمد في عرض مادته التاريخية منذ بداية العصر الراشدي على أساس الدول؛ فقد عمد إلى ذكر فترة كلّ خليفة وفق التسلسل الزمني، موضّحاً خلال ذلك أهمّ

(1) الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص1705. الذهبي، سير، ج15، ص569.

(2) الخربوطلي، ص22.

(3) الخربوطلي، ص49.

(4) الذهبي، سير، ج15، ص569.

(5) الذهبي، تاريخ، ج7، ص829.

(6) مقدمة التنبيه والإشراف.

الأحداث التي شهدها كلَّ عهدٍ وفق النمط الموضوعي، وحوّت مادته جوانب مختلفة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية المتعلقة بهؤلاء الخلفاء، وتناول في مقدّمة مؤلّفه عرضاً لأهمّ المصادر التي اعتمد عليها.

وأفاد هذا الكتاب بعض فصول الدّراسة بدرجات متفاوتة، وقد جاء قسم من هذه المادة متفقاً مع ما ذكره الطّبري في تاريخه. فقد أشار المسعودي إلى ثقافة المكتفي بالله من خلال حديثه عن مدى درايته بالشعر ونظمه له، وتطرّق أيضاً إلى الأعمال التي قام بها؛ بهدف التقرب من العامّة بعد أن بويع بالخلافة، وباستثناء التخلّص من بدر المعتضدي لم يتطرّق الكتاب إلى تفاصيل أيّ من الثّورات السياسيّة التي اندلعت في عهده، وبخصوص هذه الجزئية فقد قدّم المسعودي نبذة مختصرة عن حياة القائد بدر، وأكّد فيما بعد على حجم الارتياح والفرحة التي أبدّاها المكتفي بالله حين عرض رأس بدر بين يديه. واقتصر الكتاب في حديثه عن العلاقات العبّاسيّة البيزنطية على ذكر الفدائيّين اللّذين شهدتهما خلافة المكتفي بالله، ويُنسب إليه أنّه أوّل من أطلق مصطلح (فداء الغدر) على الفداء الأوّل، و(فداء التمام) على الفداء الثّاني.

وتناول المسعودي ظروف مقتل عبد الواحد بن الموفّق بالله، وانفرد عن غيره بحمل مسؤولية ذلك للوزير القاسم بن عبيد الله، وبخصوص هذا الوزير، فقد سلّط الكتاب الضوء على جوانب مختلفة من سياسته التي غلب عليها طابع القوة والجبروت الذي انتهجه نحو كلّ من العامّة والخاصّة، وخلال حديثه عن ظروف وفاة المكتفي بالله، انفرد بأن كان أوّل من أشار إلى إصابته بمرض الذرب، وإن كانت معلوماته بهذا الخصوص خالية من أيّ تفاصيل، وفي أثناء تطرّقه إلى ولاية عهد المكتفي بالله، يُعدّ أيضاً أوّل من أشار إلى وصيته بخلافة أخيه جعفر له، وأشار الكتاب إلى بعض جوانب الإدارة الماليّة من خلال حديثه عن نفقات طعام المكتفي بالله، ومدى حرص الأخير على الاقتصاد بها.

ويحتلّ كتاب **التنبية والإشراف** المرتبة الثّانية في مؤلّفات المسعودي بالنسبة للدراسة، ويصنّف هذا المصدر على أنّه كتاب تاريخي جغرافي؛ تناول المؤلّف في الربع الأوّل منه جغرافيّة الأرض من خلال حديثه عن النجوم والرياح ومسطّح الأرض والأقاليم والبحار، ثمّ أتى بعد ذلك على ذكر ملوك

الأمم السابقة، وصولاً إلى فترة البعثة، وبعد أن انتهى من ذلك تطرّق إلى التاريخ الإسلامي؛ حيث تتناول فترة البعثة وفق الأساس الحولي، ثمّ تحدث باقتضاب شديد عن فترة كلّ خليفة حتّى بدايات عهد المطيع لله (334-363هـ/946-973م)*، ويبدو أنّ المسعودي أولى عناية خاصّة بالخلفاء الذين عاصروهم؛ وقد اتضح ذلك من خلال حجم المادة التي خصّصها لهم مقارنة بغيرهم، ولم يأت في هذا المؤلّف على ذكر شيء بخصوص مصادره التي اعتمد عليها في هذا الكتاب.

وبلغت عدد صفحات كتاب التنبيه والإشراف المتعلّقة بفترة الدّراسة ما يقرب ست صفحات، وقد خدمت هذه المادة غير فصل فيها. وأفاد هذا الكتاب خصوصاً الفصل المتعلّق بالحركات الشيعيّة، حيث قدّم فيه عرضاً مكثفاً عن نشاط قرامطة الشّام والعراق؛ وجاءت مادته متّقة في قسم كبير منها مع ما طرحه الطّبري، وعلى الرّغم من ذلك فقد اختلف معه في بعض المواضع، وانفرد عنه كذلك في ذكر سرد تفاصيل بعض الثّورات.

وعالج المسعودي باقتضاب أسباب قضاء العبّاسيين على الحكم الطّولوني في مصر وبلاد الشّام، ودوافعه، وخلال حديثه عن السّياسة الخارجيّة تناول لجوء أندرونيقوس إلى المكتفي بالله، وأشار إلى بعض التفاصيل المتعلّقة به، كتاريخ وفاته، وهروب ولده قسطنطين في السنة نفسها إلى الأرضي البيزنطية، وتمرّده على الإمبراطور قسطنطين السابع، ومقتله بعد مدّة قصيرة. وانفرد المسعودي في هذا الكتاب عن سائر المصادر الإسلاميّة بالإشارة إلى وجهة الحملة الإسلاميّة التي استهدفت ثغر سالونيك سنة 291هـ/904م، وجاء عرضه عن الفدائيّين متفقاً مع ما ذكره في كتابه السابق.

الولاية وكتاب القضاة، للكندي، أبي عمر، محمد بن يوسف (ت. بعد 350هـ/961م). وُلد في مصر عام 283هـ/896م، ووُصِفَ في زمانه بأنّه من أعلم الناس في تاريخ مصر وأهلها وعمّالها وثغورها، وقد صنّف في ذلك عدداً من المؤلّفات التي كان في مقدمتها الولاية وكتاب القضاة، وفضائل مصر

* المطيع لله: أبو القاسم، الفضل بن المقتدر بالله، وُلد عام 301هـ/913م، ثمّ تولّى الحكم بعد خلع المستكفي بالله، وفي أيامه عظم نفوذ البويهيين، ولم يكن له من الخلافة إلّا الخطبة، فُلِحَ المطيع لله في أواخر عمره فخلع نفسه، وعهد بالحكم إلى ابنه عبد الكريم الطائع لله (363-381هـ/973-991م)، وما لبث أن توفّي بعد شهرين من ذلك. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج8، ص231. الزركلي، ج5، ص147.

الذي صنّفه لكافور الإخشيدي(355-357هـ/966-968م)*، وسيرة الخليفة الأموي مروان بن الجعد(127-132هـ/745-750م)**، ولم يصل إلينا إلا الكتابين الأوّل، والثاني⁽¹⁾.

ويتناول الكندي -بشكل منفصل- ولاية مصر وقضاتها في العصر الإسلامي وفق التسلسل الزمني الذي اقتضته فترة كلّ خليفة، وصولاً إلى الفتح الفاطمي لمصر عام 362هـ/973م، وصرّح المؤلف داخل القسم الأكبر من هذه المادة بمصادره، باستثناء الفترة التي عاصرها، حيث كان نادراً ما يذكر مصادره فيها، وتتبع أهمية الكتاب؛ كونه من المصادر المتخصصة في تاريخ مصر المعاصرة لفترة الدراسة، وعلى الرّغم من وجود نقص في المادة؛ نتيجة ضياع بعض نصوصها، غير أنّ هذا الكتاب سدّ النقص الحاصل عند المصادر الأخرى، خاصّة العراقية منها، وشكّل مرجعاً أساسياً في تناول هذه الفترة بالنسبة للمصادر المصريّة اللاحقة.

أشار الكندي إلى ثورة الخليجي على نحو موجز ومكثّف؛ فقد تحدث عن الحروب التي خاضها أبو الأغرّ قبل رجوعه إلى الشّام، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى قدوم كلّ من فاتك ودميانه، واندلاع معركة النويرة التي قضت على قوة الخليجي العسكريّة، وتطرّق بعد ذلك بإيجاز إلى دخول الجيوش العبّاسيّة إلى الفسطاط، ونجاحها بإلقاء القبض على الخليجي، ويؤخّذ عليه عدم تحدّثه عن الجهد الذي بذله والي عيسى النوشري في إضعاف قوة هذه الثّورة، والمعارك التي خاضها فيما بعد ضدّ قوات الخليجي.

وساعد هذا الكتاب الدارسة على تقديم نبذة عن طبيعة العلاقات العبّاسيّة الطّولونيّة، وشخص الكندي -على نحو يتوافق مع الطّبري- الدوافع والأسباب التي شجّعت العبّاسيين على اتخاذ قرار إعلان

* كافور الإخشيدي: أبو المسك، كافور بن عبد الله الإخشيدي، كان عبداً عند محمد بن طغج الإخشيدي(323-334هـ/935-945م)، ثمّ أعتقه، وُصِفَ بأنّه كان فطناً ذكياً حسن السّياسة، تولّى تدبير شؤون مصر حوالي عشرين عاماً، ثمّ استقلّ بحكمها عام 355هـ/966م، توفي سنة 357هـ/968م. يُنظر: الزركلي، ج5، ص216.

** مروان بن محمد: أبو عبد الملك، مروان بن محمد بن الحكم، اشتهر بالجعدي؛ نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم(ت. 118هـ/736م)، وهو آخر خلفاء بني أميّة، تولّى الحكم عام 127هـ/745م، وكان حازماً مدبراً شجاعاً، وقد حاول جاهداً إصلاح حال الدّولة الأموية، غير أنّ الضعف الذي ألّم بها كان أكبر من أن يعالجه، قتله العبّاسيون في بوصير بمصر سنة 132هـ/750م. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج3، ص(732-735). الزركلي، ج7، ص209.

(1) مقدمة كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص(4-25). الزركلي، ج7، ص148.

الحرب على الطولونيين، وخلال حديثه عن مجريات هذا الصراع، وعلى الرغم من أن مادته جاءت موجزة في بعض مراحلها إذا ما قورنت بالمصادر المصرية اللاحقة، إلا أن الكندي كان صاحب الريادة في تناوله التطورات الحاصلة داخل الجبهة المصرية التي كان من ضمنها حالة الانقسام الحاصلة في الجيش الطولوني، ومقتل هارون بن خمارويه على يد أعمامه شيبان وعدي، وتولية شيبان بعد ذلك، والتداعيات التي خلفها هذا الاغتيال، وانفرد بتناوله مجريات إخضاع الجبهة الشامية، ثم أتى على ذكر الحروب التي خاضها الأسطول العباسي خلال إخضاعه السواحل والموانئ المصرية، وانفرد أيضاً بحديثه عن الإجراءات الإدارية التي قام بها محمد بن سليمان، كتنظيم شؤون مصر وبلاد الشام بعد قضائه على الوجود الطولوني، وتجنب الكندي الخوض في سياسة شيبان بن أحمد والإجراءات التي حاول من خلالها ترميم الوضع الداخلي لدولته، على أمل أن ينجح في إيقاف العدوان العباسي وردعه. وتحدث عن أحوال مؤسسة القضاء في عهد المكتفي بالله، من خلال تناوله لأشهر قضاة مصر في هذه الفترة، وقد أكد في ضوء ذلك على نزاهة القضاء واستقلاليتيه.

سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، لعلي بن محمد بن عبيد الله(ت). منتصف القرن 10هـ/10م)، وهو من أبناء عمّ الهادي وأحد رفاقه الذين صاحبه في بلاد اليمن، التي كان قد قدمها عام 898هـ/285م بناءً على طلب والده الذي كان من أخصّ رجال الإمام الزيدي وأعظمهم مكانة عنده، وبعد أن قُتل والده انتظم هو في خدمة الهادي إلى الحق، وظلّ ملازماً له حتى وفاته، وقد دوّن خلال هذه المدة سيرة الإمام الزيدي في هذا الكتاب⁽¹⁾.

ويتناول هذا الكتاب سيرة الإمام الهادي إلى الحق منذ دخوله إلى اليمن عام 280هـ/893م، وما تلا ذلك من جهود بذلها في نشر دعوته، وإخضاع هذه البلاد لسلطانه، وما تخلّل ذلك من حروب خاضها ضد القوى المسيطرة هناك، بمن فيهم بني يعفر والإسماعيليين، ويضاف إلى ذلك فقد تناول المؤلف بعد وفاة الهادي إلى الحق سنة 298هـ/911م جانباً من سيرة أولاده حتى عام 317هـ/929م، وكونه شاهداً على هذه الفترة، فقد عرض مدوّن السيرة تفاصيل دقيقة عن الأحداث التي عاصرها؛ ما جعل مادته على درجة عالية من الأهمية، وعلى الرغم من اتباع المؤلف المنهج الحولي في عرض مادته، فإنّ ذلك لم يمنعه من اتباع النمط الموضوعي في بعض الأحيان، خاصّة عندما ذكر

(1) زكار، ج1، ص(162-163).

الإسماعيليين والقرامطة الذين خصّص لهم فصلاً كاملاً على الرّغم من تناوله لهم فيما مضى على شكل معلومات وُرّعت في ثنايا الكتاب، بما يتوافق مع التسلسل الزمني.

وتتبع أهمية هذا المصدر للدراسة؛ كونه من المؤلّفات المبكّرة التي تناولت الوجود الزيدي والإسماعيلي في بلاد اليمن، وقد شكّل المنبع الرئيس لمعلومات المادة المتعلّقة بهذه الجزئية. تناول العلوي بإسهاب الصّراع الدائر بين الإمام الزيدي وآل يعفر والإسماعيليين، وما نتج عنه من مدّ وجزر في نفوذ هذه الأطراف داخل بلاد اليمن، وقد تجلّى ذلك في محاولات السيطرة المتكررة والمتبادلة فيما بينهم على العاصمة صنعاء، وتتبع المصدر نشاط الدعوة الإسماعيليّة هناك، وما حقّقته من نجاحات مكنتها من إخضاع مناطق شاسعة من هذه البلاد لنفوذها، ثمّ تتطرّق إلى الانقسام الحاصل في صفوف هذه الدعوة، الذي بلغ ذروته في انفصال علي بن الفضل عن الحركة الإسماعيليّة، ومحاربتة فيما بعد لابن حوشب، وأشار المؤلّف إلى الانعطاف والتطرف الكبير الحاصل في فكر ابن الفضل ودعوته، حتّى عدّه مبشراً لدين جديد حاول من خلاله هدم الدين الإسلامي.

وأتى الكتاب على ذكر ولاية جفتم الثّانية والمظفر بن حاج، وما بذلاه خلال ذلك من جهود لاستعادة السيادة العبّاسيّة على اليمن، وقد أتاح ذلك تسليط الضوء على سياسة المكتفي بالله نُجَاه هذه الولاية، وكشفت هذه المحاولات عن طبيعة النفوذ العبّاسي الهشّ داخل بلاد اليمن.

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، للتنوشي، أبي علي، المحسن بن علي (ت. 384هـ/944م). ولّد عام 329هـ/941م⁽¹⁾ في البصرة⁽²⁾، وارتحل عنها إلى بغداد، وظلّ مقيماً بها إلى أن توفي⁽³⁾، وكان من مشاهير القضاة في القرن الرّابع الهجري/العاشر الميلادي؛ فقد تولّى قضاء نواحٍ عدّة لفترات زمنية طويلة⁽⁴⁾، وكان له حظوة ومكانة عالية عند الخلفاء العبّاسيين وأمراء بني بُويه⁽⁵⁾، ووُصِفَ بأنّه كان "أديباً شاعراً إخبارياً"⁽⁶⁾، وقد خلف عدداً من المؤلّفات، كان أبرزها نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، وهو أكبرها، والفرج بعد الشدّة.

(1) الحموي، معجم الأديباء، ج5، ص2280.

(2) الحموي، معجم الأديباء، ج5، ص2280. ابن خلّكان، ج4، ص162.

(3) ابن خلّكان، ج4، ص160.

(4) الحموي، معجم الأديباء، ج5، ص2280. ابن خلّكان، ج4، ص159.

(5) مقدّمة نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ص(25-28).

(6) ابن خلّكان، ج4، ص160.

ويُعدّ كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة من الكتب الرائدة والنادرة في موضوعها؛ فهو عبارة عن مؤلّف ضخم للأسمار ومحاسن الكلام الذي شهدته مجالس الخواصّ والعوامّ على امتداد التّاريخ الإسلامي، وما تخلّل ذلك كلّ من صور حية عن مظاهر الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والحضاريّة التي كانت رائجة في تلك العصور، ومكثّ التّوخي في تأليف هذا الكتاب ما يقرب من عشرين عاماً، وقد اشترط على نفسه ألاّ يودّع فيه خبراً نقله عن كتاب آخر، وعلى الرّغم من تناوله لفترات تاريخيّة مختلفة، إلّا أنّه عني بالإطار الزمنيّ الممتدّ بين منتصف القرن الثّالث الهجري/التاسع الميلادي، وصولاً إلى الحقبة التي عاصرها، وحرص المؤلّف على ذكر مصادره في كلّ موقف يسرده، باستثناء ما ارتبط به من أحداث كان شاهداً عليها، فكان ينسبها لنفسه.

وأفاد هذا المصدر -بشكل كبير- الفصل السّادس من الدّراسة؛ فقد أشار إلى جوانب من سياسة المكتفي بالله نُجاء العامّة والخاصّة، مشيراً خلال ذلك إلى مدى حرص الخليفة عن رفع الظلم وإحقاق العدل، وتناول بإسهاب محاور مختلفة من حياة الوزير القاسم بن عبيد الله وسياسته التي غلب عليها طابع الحرص واليقظة والبطش ضدّ كلّ من يرى فيه تهديداً لنفوذه ومركزه، وعند حديثه عن وزارة العباس بن الحسن، كان من أوائل الذين أشاروا إلى الدور الذي لعبه القاسم في استوزاره، وقدم التّوخي نبذة عن الدور السّياسي والإداري الذي لعبه العباس قبل تولّيه الوزارة، مؤكّداً على مدى الكفاية التي تمتّع الأخير بها.

وأتى الكتاب على ذكر أحوال مؤسّسة القضاء من خلال سرده بعض القصص التي ارتبطت بقضاة بغداد خلال عهد المكتفي بالله، ويُعدّ التّوخي في هذا المصدر أوّل من شخّص إصابة المكتفي بالله بداء الخنازير، كما يُعدّ أوّل من أشار بإسهاب إلى الدور الذي لعبه علي بن الفرات في إقناع الوزير العباس بن الحسن بضرورة تولية جعفر مكان أخيه الخليفة؛ وذلك بعد أن بيّن له الخطوات الكفيلة بتحقيق ذلك.

استتار الإمام -عليه السلام- وتفرّق الدعاة في الجزائر لطلبه، للنيسابوري، أحمد بن إبراهيم(ت).
أواخر ق 4/10م)، وهو أحد رجالات البلاط الفاطمي في عهد المعزّ لدين الله(341-
365هـ/953-976م)*، وقد حظي بمكانة رفيعة داخل هذا البلاط، ويبدو أنّه كان واسع الاطلاع
على أخبار الدعوة الإسماعيليّة، ويُحتمل أن يكون قد انخرط في عدد من أحداثها المبكرة⁽¹⁾.

وتتناول هذا الكتيّب البالغ عدد صفحاته ثلاث عشرة صفحة أخبار الأئمة الإسماعيليين منذ نزولهم
في سلمية حتّى استقرار عبيد الله المهدي(296-322هـ/909-934م) في بلاد المغرب، ويُعنى هذا
المصدر خصوصاً بدراسة حال بيت الإمامة في عهد المهدي، وبالتحديد السنوات الأخيرة التي سبقت
قيام الدولة الفاطمية، ولم ينوّه المؤلف إلى مصادره التي استقى منها معلوماته، ومع ذلك تُعدّ هذه
المادة على درجة عالية من الأهمية؛ فهي من المصادر الإسماعيليّة المبكرة التي تسلّط الضوء على
الشأن الداخلي الإسماعيلي خلال هذه المرحلة المهمّة من عمر الدعوة، وقد ساعدت أيضاً على
توضيح طبيعة العلاقة القائمة بين الإمام الإسماعيلي وقرامطة الشّام.

وأتى النيسابوري على ذكر الدور الذي لعبه قادة قرامطة الشّام في الدعوة الإسماعيليّة قبل انفصالهم
عنها، وعند شرحه الأسباب الكامنة وراء هذا الانشقاق أكّد أنّ إقصاء الإمام لهم عن الدعوة هو
الدافع الرئيس لانقلابهم عليه، ومحاولتهم فيما بعد قتله؛ للاستئثار بالدعوة، وعند سرده مجريات ثورة
صاحب الناقة وصاحب الشّامة، عرض تفاصيل لم يسبق أن تناولتها مصادر أخرى، وممّا انفرد به
تعريفه لهما بأنّهما من أبناء الداعية أبي محمد الكوفي الذي سبق أن توفّي قبل خروج ولديه، ناسفاً
بذلك أيّ علاقة قد تربطهم بذكرويه، وقد تجنّب ذكر الأخير، والحديث عن أيّ دور له في هذه
الثّورات، كما ساعد النيسابوري الدّراسة على اقتفاء أثر المهدي منذ خروجه من سلمية حتّى نزوله
في المغرب من خلال تناوله بعض محطات هذه الرحلة.

* المعزّ لدين الله: أبو تميم، معد بن إسماعيل المنصور بن محمد القائم بن عبيد الله المهدي، وُلِدَ عام 319هـ/931م، ثمّ
تولّى حكم الدولة الفاطمية بعد وفاة والده سنة 341هـ/935م، وضمّ إليها مصر، التي نقل مقر حكمه إليها عام 361هـ/972م،
وتوفّي سنة 365هـ/976م. يُنظر: ابن خلّكان، ج5، ص(224-227). الذهبي، تاريخ، ج8، ص(248-251).
⁽¹⁾ زكار، ج1، ص(163-164).

الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، للصائبى، أبي الحسن، هلال بن المحسن (448هـ/1056م). وُلِدَ في بغداد عام 359هـ/970م، وشبَّ صابئياً على دين والده وأجداده، إلا أنه اعتنق الإسلام في أواخر عمره، وأثّر عنه أنه حسن إسلامه⁽¹⁾، ولم يمنعه دينه من طلب العلم؛ فقد كان مواظباً على حلقات العلم التي كان يديرها العلماء المسلمون⁽²⁾، ونال مكانة مرموقة بين أقرانه الكتاب حتى وُصِفَ بأنه: "ثقة صدوق... كاتب فاضل، له معرفة بالعربية واللغة"⁽³⁾، صنّف ما يقرب من أحد عشر كتاباً فُقدت جميعها عدا قسم بسيط منها⁽⁴⁾.

ويُعدّ كتاب الوزراء من أهمّ المصادر الإسلامية التي تتناول التاريخ الإداري للدولة العباسية في الفترة الممتدة بين نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري/الربع الأول من القرن العاشر الميلادي، وعني خصوصاً بتناول أحوال مؤسسة الوزارة في خلافة المقتدر بالله، من خلال حديثه عن أهمّ وزيرين في عهد الأخير، وهما علي بن الفرات وعلي بن عيسى، وقد قدّم ابن الصّائبى عرضاً واضحاً عن الدور الإداري الذي لعبه الوزيران بما فيه الفترات التي سبقت تولّيهم لهذا المنصب، وكونهما من أبرز كتاب الدواوين في عهد المكتفي بالله، فقد ارتبط نشاطهم الإداري خلال هذه الفترة في هذا الخليفة ووزرائه وكتاب دواوينه؛ ما أعطى خلفية واضحة عن طبيعة عمل المؤسسات الإدارية في عهد المكتفي بالله، خاصة الوزارة، واتّبع ابن الصّائبى المنهج الموضوعي في عرض مادته دون مراعاة للتسلسل الزمني الرابط بين المواضيع، وحرص داخل القسم الأكبر من كتابه على ذكر مصادره التي اعتمد عليها في سرد مادّته التاريخية.

وتتناول الكتاب بإسهاب أحوال مؤسسة الوزارة في عهد المكتفي بالله؛ حيث تطرّق إلى فعالية الدور الإداري الذي لعبه هؤلاء الوزراء، وأشار إلى طبيعة العلاقة التي كانت تربطهم بالخليفة، مؤكّداً على حجم النفوذ الكبير الذي حظوا به، ومدى تأثيرهم عليه، غير أنّ ذلك لا يعنى استبدادهم به وتغلبهم عليه، وقد نوّه إلى ذلك في أثناء حديثه عن الدور الذي قام به المكتفي بالله في إدارة مؤسسات

(1) الحموي، معجم الأدباء، ج6، ص2783، ص2785. الذهبي، تاريخ، ج9، ص720.

(2) الذهبي، تاريخ، ج9، ص720.

(3) الحموي، معجم الأدباء، ج6، ص2783. الذهبي، تاريخ، ج9، ص720.

(4) نصر، ص(21-24).

الدولة، فكان له عظيم الأثر في حفظ التوازن القائم فيما بينها، وأتى ابن الصّائب على مسألة ولاية العهد خلال حديثه عن الدور الذي قام به العباس بن الحسن في اختيار المقتدر بالله ومبايعته في الخلافة.

وسلّط ابن الصّائب الضوء على جانب مهمّ من سياسة الدولة الماليّة؛ حيث أشار إلى مقدار بعض الضرائب المُتحصّل عليها في عهد المكتفي بالله، وتناول أيضاً نفقات الدولة من خلال حديثه عن أعطيات بعض موظّفي الدولة المدنيين والعسكريين بمن فيهم الوزراء، وعلى الرّغم من السّياسة الماليّة الحكيمة التي انتهجها المكتفي بالله، غير أنّ ذلك لم يمنع ظهور بعض مظاهر الفساد المالي.

الذخائر والتحف، لابن الزبير، أبي الحسن، القاضي الرشيد أحمد (ت. القرن 5هـ/11م). لم تعثر الدّراسة له على ترجمة، ويُرجّح أنّه من وفيات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي⁽¹⁾. ويُعدّ كتاب الذخائر والتحف من المؤلّفات النادرة والفريدة في موضوعها؛ إذ إنّهُ يتطرّق إلى غير جانب من جوانب الحضارة الإسلاميّة، من خلال تناوله مظاهر الحياة السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي عاشتها نخبة الطبقة الحاكمة في التّاريخ الإسلامي، ويُضاف إلى ذلك، فقد شكّل العدد الكبير من الصلات السّياسيّة الخارجيّة -التي أشار إليها- مصدراً مهمّاً لدراسة العلاقات السّياسيّة الخارجيّة الإسلاميّة في العصر الوسيط.

وتناول ابن الزبير بإسهاب سفارة الأميرة بيرثا ابنة لوثير إلى المكتفي بالله على نحو فاق بكثير ما حوته باقي المصادر التي أشارت باقتضاب إلى هذه السفارة، وقد جعل ذلك منه مصدراً أساسياً في كتابة المادة المتعلّقة بهذه الجزئية، وفي ضوء ذلك أكّد على مدى رغبة الطرفين في إنجاح هذه السفارة، والتوصل إلى اتفاق من شأنه تعزيز العلاقات السّياسيّة بينهما، في حين كان الدافع الرئيس وراء هذا التقارب تضيق الخناق على الإمبراطورية البيزنطية التي ستغدو عدواً مشتركاً للحليفين المستقبليين لو قدّر لهذه السفارة أن تحقّق نتائج عمليّة. وأشار الكتاب إلى مقتطفات من الإدارة الماليّة للدولة من خلال حديثه عن مقدار بعض الموارد والنفقات الحاصلة في عهد المكتفي بالله.

(1) مقدمة الذخائر والتحف، ص(11-14).

الكامل في التاريخ، لابن الأثير، أبي الحسن، عز الدين علي بن محمد (ت. 630هـ/1232م). وُلِدَ في جزيرة ابن عمر* عام 555هـ/1160م، فاشتهر بالجزري، ثم انتقل مع عائلته إلى الموصل، وارتحل في طلب العلم، حيث قصد بلاد الشام، وهناك أقام بالقدس مدة من الزمن، واطب خلالها على تلقي العلوم⁽¹⁾، وحاز منزلة عالية حتى وُصِفَ بأنه: "كان إماماً، نساباً، مؤرخاً إخبارياً، أديباً، نبيلاً، محتشماً"⁽²⁾، وصنّف بدوره عديداً من المؤلفات كان أبرزها أسد الغابة في معرفة أحوال الصحابة، واختصر أيضاً كتاب الأنساب للسمعاني (ت. 562هـ/1166م) تحت عنوان البيان في تهذيب الأنساب، ويُعدّ تاريخ ابن الأثير المعروف بالكامل في التاريخ أشهر مؤلفاته على الإطلاق⁽³⁾.

ويُصنّف الكامل في التاريخ على أنه من كتب التاريخ الموسوعي، حيث تناول فيه المؤلف مجريات التاريخ الإنساني منذ بدء الخليقة حتى عام 628هـ/1320م، وعرض مادته في القسم الخاص بفترة ما بعد الإسلام وفق الأساس الحولي، ولم يصرّح في أثناء ذلك إلى مصادره، غير أنه بيّن في مقدّمة كتابه أهمّ مصادره التي كان في مقدمتها تاريخ الطبري، الذي أخذ عنه بشكل كبير حتى عام 302هـ/914م، وعلى الرغم من ذلك فقد اتّبع منهجية مخالفة في توثيق هذه المادة، وتدوينها. وكحال تاريخ الرسل والملوك، فقد أفاد الكامل في التاريخ فصول الدّراسة كلّها جيداً باستثناء الفصلين الأخيرين، وبالمقارنة مع ما كتبه الطبري، فقد جاءت مادة ابن الأثير موجزة وأكثر تنظيماً، يضاف إلى ذلك أنه انفرد عنه بسرد بعض التفاصيل المتعلقة ببعض الأحداث التاريخيّة.

وأتى ابن الأثير على ذكر الظروف التي تمّت بها بيعة المكتفي بالله، مؤكّداً على فعالية الدور الذي لعبه القادة في إتمامها، وعند تناوله الفصل الثّاني انفرد عن الطبري بذكر ثورات الأكراد الهذبانية، وأشار في أثناء حديثه عن الدعوة الإسماعيليّة إلى وجود الإمام المهدي، وتناول رحلته من سلمية حتى وصوله إلى بلاد المغرب، وفيما يتعلّق بنشاط قرامطة الشام والعراق والبحرين وإسماعيليّة اليمن؛ فقد نقل مادته بدقة عن ثابت بن سنان، وتمنّع ابن الأثير ببعض الخصوصية عند تناوله مادة الفصل

* جزيرة ابن عمر: تحيط بنهر دجلة، وتقع بالقرب من الموصل، اختلفَ في سبب تسميتها؛ وعلى الأغلب أنها تُسبِت إلى الحسن بن عمر بن خطّاب التغلبي، الذي يُعدّ أول من سكنها وعمرّها. يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص138.

(1) ابن خلّكان، ج3، ص(348-349). الذهبي، تاريخ، ج13، ص927.

(2) الذهبي، تاريخ، ج13، ص927.

(3) ابن خلّكان، ج3، ص(347-348). الذهبي، تاريخ، ج13، ص927. يُنظر أيضاً: الزركلي، ج4، ص331.

الرّابع؛ فقد كان رائداً في تناوله جانباً من العلاقات العباسيّة السّامانيّة، ويضاف إلى ذلك تفوّقه على الطّبري في عرضه بعض تفاصيل الحرب العباسيّة الطّولونيّة، حيث كانت مادته أكثر تماشياً مع الحقائق التّاريخيّة المتعلّقة بأبعاد هذا الحدث، والتي كان منها إشارته لشيبان بن أحمد على أنّه آخر حكام الدّولة الطّولونيّة.

ولم يأتِ الكامل في التّاريخ بأيّ جديد حول السّياسيّة الخارجيّة، وعلى الرّغم من المغالطة التي وقع بها الطّبري عند حديثه عن الحملة الإسلاميّة على مدينة سالونيك؛ فقد فاقم ابن الأثير من هذا الخطأ حين بدّل أنطاليا بأنطاكية، متناسياً أنّ الأخيرة كانت آنذاك ضمن دائرة الحكم الإسلامي، وعند حديثه عن نظم الحكم والإدارة؛ فقد أشار إلى وصية المكتفي بالله بتولية أخيه جعفر من بعده، وتناول بإسهاب مشورة الوزير العباس بن الحسن للكتاب بخصوص ولاية العهد، وما كان لعلي بن الفرات من رأي في هذه المسألة.

بالإضافة إلى ما ذكّر من مصادر مبكرة، فقد اعتمدت الدّراسة على مجموعة من المصادر المتأخّرة التي كان في طليعتها كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الواهب (ت. 733هـ/1332م)، وأفاد هذا الكتاب الدّراسة بدرجة كبيرة على امتداد فصوله باستثناء الفصول المتعلّقة بالنواحي الحضاريّة، وبرزت أهمية مؤلّفه النويري خصوصاً عند دراسة نشاط الإسماعيليين والقرامطة؛ فقد تناول بإسهاب بعض مجريات هذه الثّورات على نحو لم يسبقه إليه غيره من المصادر؛ ما كان له عظيم الأثر في مساعدة الباحث على إزاحة الغموض واللبس الذي اعتري بعضاً من جوانب هذه الأحداث، وربط مفاصل هذه الثّورات، وعرض مجرياتها بما يتناسب مع تسلسلها الزمني، ويضاف إلى هذه المصادر كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، أبي المحاسن، جمال الدين يوسف (ت. 874هـ/1470م)، الذي يُعدّ من أكثر المصادر المصريّة إسهاباً في الحديث عن الأحوال الدّاخليّة في مصر خلال عهد المكتفي بالله.

الفصل الأول

المكتفي بالله حتى تولّيه الخلافة

الفصل الأول

المكتفي بالله حتى تولّيه الخلافة

نسبه، وصفاته، ونشأته، وثقافته

المكتفي بالله، أبو محمد⁽¹⁾، علي بن أحمد المعتضد بالله بن محمد الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم⁽²⁾، وُلِدَ في شهر رجب 264هـ/يوليو 877م⁽³⁾، لأمّ كانت في الأصل جارية تركية⁽⁴⁾، اُخْتُلِفَ في اسمها؛ فقيل: جيجك⁽⁵⁾ أو جيجق⁽⁶⁾، وقيل: خاضع⁽⁷⁾، وظلوم⁽⁸⁾، وخنجو⁽⁹⁾، وغير ذلك من الأسماء والألقاب⁽¹⁰⁾، وعلى الأرجح أنّها لم تترك خلافته⁽¹¹⁾، وما يؤكّد ذلك خلوّ المصادر التاريخية من ورود أيّ إشارة تذكر قيامها بأيّ دور سياسي أو إداري خلال فترة حكمه، في مرحلة كانت فيها الحريم تسهم بقوة في صياغة قرارات الدولة السياسية والإدارية، وينفرد المكتفي بالله باسمه عن سائر الخلفاء الأمويين والعبّاسيين؛ فهو الوحيد الذي حمل اسم علي بعد الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب (35-40هـ/665-660م)⁽¹²⁾.

(1) الطُّبري، ج 10، ص 138. ابن عبد ربه، ص 383. المسعودي، التنبيه، ص 321. الكندي، ص 243. الخطيب البغدادي، ج 13، ص 212.

(2) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 212. النويري، ج 23، ص 3.

(3) ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. الخطيب البغدادي، ج 13، ص 214. ابن الجوزي، ج 13، ص 3. ابن كثير، ج 14، ص 724.

(4) الطُّبري، ج 10، ص 138. ابن سعيد القرطبي، ص 27. ابن العمراني، ص 150. ابن الأثير، ج 6، ص 438. الذهبي، سير، ج 13، ص 484.

(5) الطُّبري، ج 10، ص 138. ابن الأثير، ج 6، ص 438. النويري، ج 23، ص 3. الصفدي، ج 20، ص 18.

(6) ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. المسعودي، التنبيه، ص 321.

(7) ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. المسعودي، التنبيه، ص 321. النويري، ج 23، ص 3.

(8) المسعودي، مروج، ج 4، ص 232.

(9) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 241. ابن الجوزي، ج 13، ص 4.

(10) المسعودي، مروج، ج 4، ص 232. ابن العمراني، ص 150. ابن الجوزي، ج 13، ص 4. النويري، ج 23، ص 3.

(11) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 241. ابن الجوزي، ج 13، ص 4. الصفدي، ج 20، ص 18.

(12) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 213. ابن الجوزي، ج 13، ص 3. الصفدي، ج 10، ص 172. السيوطي، تاريخ، ص 581.

وتعددت الروايات بخصوص لقبه المكتفي بالله، وتاريخ اقترانه به؛ فقد ذكر ابن خلدون(ت). 808هـ/1406م) أنَّ والده أول مَنْ خلعه عليه، بعد أن عيّنه عام 286هـ/899م والياً على قنسرين*، والعواصم**، والجزيرة*** (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 2)⁽¹⁾، في حين نسب الصولي ذلك للشاعر عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر(ت. 300هـ/913م)*، الذي نظم قصيدة للمعتضد بالله، يذكر فيها ابنه علياً بلقب المكتفي بالله، راجياً من الخليفة جعله لقباً لابنه، بقوله:

(البحر الكامل).

المُكْتَفِي بِاللّهِ صَاحِبُ عَهْدِنَا فَاجْعَلْهُ نَحْلَتَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ

فلما تولى علي الخلافة أشاد بذلك، قائلاً: "سمّاني باسم لا أريد غيره"⁽²⁾، في حين تُجمع باقي المصادر على أنه عُرِفَ بهذا اللقب بعد انعقاد بيعة ولاية العهد له في أثناء مرض والده⁽³⁾.

* **قنسرين**: مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من حلب، كانت مدينة زاهرة عامرة بسكان، غير أنها تأثرت تأثراً كبيراً بالحروب الإسلامية البيزنطية الدائرة في محيطها، فنُكِبَت مراراً على يد البيزنطيين، ولم يطل بها الأمر حتّى لحق الخراب بها، وهجرها ما بقي من سكانها في منتصف القرن الرابع الهجري/منتصف القرن العاشر الميلادي. يُنظر: الحموي، ج4، ص(403-404).

** **العواصم**: المنطقة الحدودية الواقعة في الشمال والشمال الغربي من أراضي بلاد الشام المتاخمة للحدود البيزنطية، وعادة ما تقع خلف الثغور، وأحياناً تكون بعض الثغور جزءاً منها، وسميت العواصم؛ لأنها كانت تعصم المسلمين من الخطر عند اختراق البيزنطيين الثغور والتوغل داخل الأراضي الإسلامية، ومن أهم مدن العواصم: أنطاكية وهي قصبته، ومنبج، وقد اختلف في حلب حول ما إذا كانت جزءاً منها أم لا. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص(165-166). كانار، مادة العواصم، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج24، ص(7518-7521).

*** **الجزيرة**: إقليم جغرافي واسع، يشمل القسم الشمالي من المنطقة الواقعة بين ضفتي نهر دجلة والفرات، في حين يُسمّى القسم الجنوبي بالعراق، والفاصل بين المنطقتين تكريت على نهر دجلة، والأنبار وهي من جهة نهر الفرات، وتُعدّ الجزيرة إقليماً خصباً غنياً بالخيرات الزراعية، ومن أشهر مدنها: الموصل، وسنجار، ونصيبين، وآمد، والرقّة، والرّها، وتقع بلاد الجزيرة في الوقت الراهن ضمن أراضي كلّ من العراق وسورية وتركيا. يُنظر: زيدان، ج2، ص(46-47). سوريديل، ص(236-237).

(1) ابن خلدون، ج3، ص439.

* **عبيد الله بن عبد الله**: بن طاهر بن الحسين، وزير المأمون، وُلِدَ في نيسابور عام 223هـ/838م، وقد انتهت إليه زعامة أسرته، وعهد إليه بإمارة بغداد مدة من الزمن، وُصِفَ بأنه كان: "أديباً شاعراً محسناً فصيحاً مفوهاً جواداً"، وقد خلف ديواناً شعرياً وعديداً من المصنفات في الأدب والبلاغة، من أشهرها: الإشارة، وهو في اخبار الشعراء، والسياسة الملوكية، والبراعة والفصاحة. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج6، ص978. الزركلي، ج4، ص195.

(2) الصولي، أدب، ص(40-41).

(3) الكندي، ص243. سبط ابن الجوزي، ج16، ص256. ابن العديم، ج2، ص824.

ومنَّ الله على المكتفي بالله بقدر كبيرٍ من صفات الجمال والكمال، فبالغت المصادر التاريخية في وصف جماله (1) الذي كان مَضْرِباً للمثل (2)، ومحلَّ إعجاب الشعراء، ومصدر إلهام لهم عند التغني بصفات الجمال (3)، ووُصِفَ على لسان أحد معاصريه بأنَّه: "كان رجلاً ربعة؛ ليس بالطويل، ولا بالقصير، معتدل الجسم، حسن الخلق، جميل الوجه، أسود الشعر، وافر اللحية عريضها، دري اللون، لم يشب، كذا رأيته في خلافته" (4)، ومما وُصِفَ به أيضاً أنَّه: "كان دقيقاً أسمر اللون، أعين، قصيراً، حسن الشعر واللحية كبيرهما، حسن الوجه والبدن" (5)، ووُصِفَ كذلك بأنَّه: "معتدل القامة، جميل الصورة، رقيق البشرة، أسود الشعر، حسن اللحية" (6)، ونتيجة ذلك نُعِتَ المكتفي بالله بعدة ألقاب توضح درجة ذبوع صورته الجمالية، ومدى ارتباطها في أذهان العامة، فقد عُرِفَ بالمترف؛ لنعومة جسمه، والصنم؛ لحسن مظهره وجماله (7).

ولم يغفل الشعراء استحضار جماله في قصائدهم؛ ولعلَّ من أجمل ما قيل فيه ما نُسِبَ لعبد الله بن المعتز (ت. 296هـ / 908م):

(البحر الكامل)

قَايَسْتُ بَيْنَ جَمَالِهَا وَفِعَالِهَا فَإِذَا الْمَلَاَحَةُ بِالْخِيَانَةِ لَا تَفِي
وَاللَّهِ لَا كَلَمْتُهَا لَوْ أَنَّهَا كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْبَذْرِ أَوْ كَالْمُكْتَفِي (8)

(1) المسعودي، التنبيه، ص 321. ابن سعيد القرطبي، ص 27. الثعالبي، ثمار، ص 190. الخطيب البغدادي، ج 13، ص 241. ابن الأثير، ج 6، ص 437. ابن خلكان، ج 4، ص 340. الأربلي، ص 237. النويري، ج 23، ص 9. الذهبي، سير، ج 13، ص 479. الصفدي، ج 3، ص 73، ج 20، ص 18. الكتبي، ج 3، ص 6. ابن كثير، ج 14، ص 473. الدميري، ج 1، ص 130. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 162. ابن تغري بردي، موارد، ج 1، ص 176. السيوطي، تاريخ، ص 581.

(2) الثعالبي، ثمار، ص 190. الأربلي، ص 237. الذهبي، سير، ج 13، ص 479. السيوطي، تاريخ، ص 581.

(3) الثعالبي، ثمار، ص 190. ابن خلكان، ج 4، ص 340. الأربلي، ص 237. الصفدي، ج 3، ص 73، ج 20، ص 19. الكتبي، ج 3، ص 6. السيوطي، تاريخ، ص 581.

(4) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 214.

(5) المسعودي، التنبيه، ص 321.

(6) الأربلي، ص 237.

(7) الدواداري، ج 5، ص 314. الصفدي، ج 20، ص 18. الكتبي، ج 3، ص 5.

(8) الثعالبي، ثمار، ص 190. الصفدي، ج 20، ص 19. الكتبي، ج 3، ص 6.

واشتهرت هذه الأبيات، وتداولها الناس على ألسنتهم، حتّى إنهم "ملؤوا بها مجاميعهم"⁽¹⁾، وينسب الفضل في ذبوعها إلى محمد بن السري الشهير بأبي بكر السراج(ت. 316هـ/928م)*، وسبب ذلك؛ أنّ الأخير كان يهوى جارية له شديدة الجمال، غير أنّها بعد مدّة جافته وهجرته، ورافق ذلك دخول المكتفي بالله إلى بغداد خليفة في بداية عهده، فلما رآه أبو بكر السراج أُعجب بجماله الذي يضاهي جمال جاريته، فأنشد هذه الأبيات؛ لعلّه يخفّف من مصابه⁽²⁾، وراجت هذه الأبيات مع الزمن، حتّى إنّ الشاعر المصري ابن سناء الملك(ت. 608هـ/1212م)* تغنّى بها، وزاد عليها فقال:

(البحر الكامل)

وَمَلِيَّةٌ بِالْحُسْنِ يَسْخَرُ وَجْهَهُ _____
لَا أَرْتَضِي بِالشَّمْسِ تَشْبِيهَا لَهَا _____
بِالْبَدْرِ يَهْزَأُ رِفْقُهَا بِالْقُرْفِ _____
وَالْبَدْرُ بَلْ لَا أَكْتَفِي بِالمُكْتَفِي⁽³⁾

وبخصوص نشأة المكتفي بالله، ومن المرجّح أنّ نشأته كانت في كنف جدّه الموقّق بالله محمد(ت. 278هـ/891م)*، ووالده المعتضد بالله(279-289هـ/892-902م) اللّذين حرصا على تأديبه وتشجيعه على تحصيل العلوم الدينية واللّغوية؛ فقد خصّصا لتأديبه أبا بكر عبيد الله بن محمد الشهير بابن أبي الدنيا(ت. 281هـ/894م)، أحد عظماء علماء الأمة وفضلائها في ذلك العصر،

(1) ابن خلّكان، ج4، ص340.

* محمد بن السري: أبو بكر، أحد أعمدة العربية والأدب، صاحب المبرد (ت. 286هـ/899م)، وُصِفَ بأنّه كان "أديباً شاعراً، إماماً في النحو"، وله من المصنفات: الأصول في العربية، وكتاب شرح سيبويه، وغيرها من المؤلّفات. يُنظر: الحموي، معجم الأدباء، ج6، ص (2534-2538). الذهبي، تاريخ، ج7، ص(313-314).

(2) ابن خلّكان، ج4، ص340. الصفدي، ج3، ص73.

* ابن سناء الملك: أبو القاسم، القاضي السعيد، هبة الله بن جعفر بن سناء الملك محمد، وُلِدَ عام 550هـ/1155م، كان من فضلاء الناس ونبلائهم، اشتغل بالقضاء، وكان شاعراً مشهوراً، خلف عدّة دواوين شعرية في غاية النظم والرّقي، "وله مصنفات مشهورة في الأدب"، منها اختصاره لكتاب الحيوان للجاحظ(ت. 255هـ/869م) تحت عنوان روح الحيوان. يُنظر: ابن خلّكان، ج6، ص(61-67). الذهبي، تاريخ، ج13، ص(203-204).

(3) الصفدي، ج3، ص73، ج20، ص19. الكتّبي، ج3، ص6.

* الموقّق بالله محمد: أبو أحمد، محمد بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله، وقيل: إنّ اسمه طلحة، وُلِدَ عام 229هـ/844م، لم يلي الخلافة، وبإيعاز بولاية العهد أخوه المعتمد على الله(256-279هـ/870-892م)، على أنّ تكون له بعد ابنه جعفر، استبدّ بأخيه الخليفة، وكان صاحب رأي وتبدير في شؤون الحكم والإدارة، وقد بذل جهوداً عظيمة في النهوض بأحوال الخلافة العباسية، توفّي قبل المعتمد على الله ببضعة أشهر. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج2، ص(493-495).

مَنْ يُشْهَدَ لَهُ بِسَلَامَةِ الْخَلْقِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَغَزَاةِ الْعِلْمِ، وَقَدْ سَبَقَ لَهُ أَنْ أَدَّبَ وَالِدَهُ الْمَعْتَصِدَ بِاللَّهِ⁽¹⁾، وَمَنْ مُؤَدَّبِي الْمَكْتَفِي بِاللَّهِ أَيْضاً أَبُو يَعْقُوبَ الْجَبَانِ⁽²⁾).

شَبَّ عَلِيُّ بْنُ الْمَعْتَصِدِ بِاللَّهِ بَعِيداً عَنْ حَيَاةِ الْمَجُونِ وَاللَّهْوِ وَالتَّرَفِ الَّتِي انْغَمَسَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَقْرَانِهِ مِنْ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ، وَأَبْنَاءِ الْخَوَاصِّ مِنْ رَجَالَاتِ الدَّوْلَةِ، وَهَذَا مِنْ أَكْدَتِهِ الرِّوَايَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَنْقُلْ أَيُّ خَبَرٍ عَنْهُ يَفِيدُ عَكْسَ ذَلِكَ، سِوَاكَ كَانَ قَبْلَ خِلَافَتِهِ أَوْ بَعْدَهَا، وَكَانَ الْمَكْتَفِي بِاللَّهِ شَغُوفاً بِالصَّيْدِ، مَدْمِناً عَلَى مَوَاطِبَتِهِ، خَاصَّةً بِوَسَاطَةِ الْفَهْدِ وَالْعَقَابِ، وَكَانَ حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَبَاشِرَهُ بِنَفْسِهِ؛ لِشِدَّةِ تَمَسُّكِ بِهِ، وَارْتِيَاخِهِ لَهُ، وَغُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مُحِبّاً لِلْخَيْلِ، مَوَاطِباً عَلَى جَمْعِهَا وَاقْتِنَائِهَا وَمَدَاوِمَةِ رُكُوبِهَا؛ حَتَّى إِنَّهُ عَدَّ ذَلِكَ "أَكْبَرَ هِمَّتِهِ وَلَذَّتِهِ"⁽³⁾.

وَاكْتَسَبَ الْمَكْتَفِي بِاللَّهِ دَرَجَةً عَالِيَةً مِنَ الثَّقَافَةِ؛ فَقَدْ تَحَلَّى بِالْوَعْيِ وَالْإِدْرَاكِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ؛ تَفَادِياً لِلْوُقُوعِ بِالشَّبْهَاتِ، وَمِمَّا يَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "مَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَدَّعِيَ مَا لَا يَحْسُنُ، وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَطْلُبَ مَا لَا يَحْسُنُ حَتَّى يَتَعَلَّمَهُ"⁽⁴⁾.

وَعُرِفَ عَنِ الْمَكْتَفِي بِاللَّهِ نَظْمُهُ الشَّعْرَ⁽⁵⁾، وَدِرَافَتُهُ بِهِ؛ فَقَدْ كَانَ قَادِراً عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ جَيِّدِهِ وَرَدِيئِهِ⁽⁶⁾، وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ فِي نَفْسِهِ:

(البحر البسيط)

إِنِّي كَلِفْتُ، فَلَا تَلْحُوا، بِجَارِيَةٍ كَأَنَّهَا الشَّمْسُ، بَلْ زَادَتْ عَلَى الشَّمْسِ
لَهَا مِنَ الْحُسْنِ أَغْلَاهُ، فَرُؤْيُهَا سَعْدِي، وَغَيْبُهَا عَنْ نَاطِرِي نَحْسِي⁽⁷⁾

(1) ابن النديم، ص(263-237). الخطيب البغدادي، ج11، ص(293-294). سبط ابن الجوزي، ج16، ص175. الذهبي، سير، ج13، ص400. الصفدي، ج17، ص281.

* أبو يعقوب الجبان: لم يعثر له على ترجمة، وعلى الأرجح أنه من أصبهان. يُنظر: الصفدي، ج28، ص(115-116).

(2) الصفدي، ج28، ص(115-116).

(3) كشاجم، ص(7-8). بازيار العزيز بالله الفاطمي، ص48.

(4) الخطيب البغدادي، ج13، ص214.

(5) المسعودي، مروج، ج4، ص23. ابن الجوزي، ج13، ص4. سبط ابن الجوزي، ج16، ص338. الأريلي، ص238.

الصفدي، ج20، ص(18-19). الكتبي، ج3، ص(5-6). ابن كثير، ج14، ص743.

(6) المرزباني، ص243. الراغب الأصفهاني، ج1، ص781. سبط ابن الجوزي، ج16، ص337.

(7) المسعودي، مروج، ج4، ص230. ابن الجوزي، ج13، ص4.

وله كذلك:

(البحر السريع)

مَنْ لِي بِأَنْ يَعْلَمَ مَا أَلْقَى وَيَعْرِفَ الصَّبُوءَ وَالْعِشْقَا
مَا زَالَ لِي عَبْدٌ وَحُبِّي لَهُ صَيَّرَنِي عَبْدًا لَهُ رِقَا
أَعْتِقُ مِنْ رِقِّي وَلَكِنِّي مِنْ حُبِّهِ لَا أَمْلِكُ الْعِتْقَا⁽¹⁾

أسرته وأبناؤه

رُزِقَ المكتفي بالله بكثير من الأبناء؛ فقد تراوح عدد أبنائه الذكور ما يقرب بين الثمانية والعشرة⁽²⁾، وأسمائهم هي: محمد وهو أكبرهم وبه كُنِّي، وعبد الله وهو الخليفة المستكفي بالله (333-334هـ/944-946م)، وجعفر، وعبد الصمد، وعبد الملك، وعبد العزيز، وعيسى، وموسى، وهارون، والفضل⁽³⁾، في حين بلغ عدد بناته الإناث ثمانية، وأسمائهن: أسماء، وسارة، وأم الفضل، وأم محمد، وأم سلمة، وأم العباس، وأمة العزيز، وأمة الواحد⁽⁴⁾. وعلى الرغم من هذا العدد الكبير من الأبناء، فإن الدراسة لم تتمكن من التعرف إلى هوية أيّ واحدة من زوجاته، ولعل ذلك راجع إلى ضعف نفوذ الحريم في الحكم خلال عهده، ويُحتمل أيضاً أن تكون أغلب أمهات أولاده من الجواري.

ولعب أولاد المكتفي بالله أدواراً مختلفة ومتعددة في التاريخ العباسي السياسي والحضاري، كل حسب موقعه ونفوذه وميوله وثقافته؛ فقد ضُيق على بعضهم، وقُتل قسم منهم؛ جزاء وشايات أو محاولات فاشلة لاعتلاء سدة الحكم، ولم يتقلد الخلافة منهم إلا عبد الله بن علي الشهير بلقب المستكفي بالله، كما كان لبعضهم إسهاماته الخاصة في الإرث الحضاري لهذه الدولة. أما بخصوص بنات المكتفي

(1) المسعودي، مروج، ج4، ص230. ابن الجوزي، ج13، ص4. سبط ابن الجوزي، ج16، ص338. الأربلي، ص237. الصفدي، ج20، ص19. الكتبي، ج3، ص5.

(2) ابن سعيد القرطبي، ص27. القضاعي، ص488. ابن حزم، ص29. ابن الجوزي، ج13، ص5. ابن ظافر الأزدی، ج2، ص380. سبط ابن الجوزي، ج16، ص339. الأربلي، ص239. النويري، ج23، ص9. الذهبي، سير، ج13، ص484. ابن كثير، ج14، ص743. السيوطي، تاريخ، ص583.

(3) ابن سعيد القرطبي، ص27. ابن حزم، ص29. ابن الجوزي، ج13، ص5. سبط ابن الجوزي، ج16، ص339. الأربلي، ص239. الذهبي، سير، ج13، ص484. ابن كثير، ج14، ص743.

(4) ابن سعيد القرطبي، ص27. سبط ابن الجوزي، ج16، ص339. الأربلي، ص239.

بالله، فلم نقف على أي خبر يتعلّق بهنّ، باستثناء تاريخ وفاة ابنته أم العباس سنة (378هـ/988م)، عن عمر ناهز التسعين عاماً⁽¹⁾.

واتّجهت أنظار الخلفاء العبّاسيين ورجال الدّولة صوب أبي أحمد، محمد بن المكتفي بالله؛ نظراً لكونه أكبر إخوته سنّاً، جاعلاً ذلك منه مرشحاً قوياً للخلافة في حال طرأ أيّ تغيير على حال الخليفة القائم في حينه، وقد عرضة ذلك مراراً لتتكيل الخلفاء وبطشهم؛ فقد قبض عليه المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م) في آخر أيام عهده، وحبسه بعد أن بلغه سعي جماعة من رجالات الدّولة لمبايعته بالخلافة⁽²⁾، وبعد أن قُتل المقتدر بالله سنة 320هـ/932م اجتمع بعض أعيان الدّولة وقادتها على مبايعته بالخلافة، فرفض عرضهم؛ مراعاةً لحقّ عمّه محمد، وبذلك انعقدت البيعة للأخير، وتلقّب بالفاهر بالله (320-322هـ/932-934م)*⁽³⁾.

وسعى بعض القادة سنة 321هـ/933م لعزل الفاهر بالله، وتولية محمد بن المكتفي بالله، وتسربّ الخبر للفاهر بالله الذي سارع بقتل جميع المتآمرين، ثمّ قبض على محمد، وحبسه في دار شيدّ عليها حائطاً؛ حتّى لا يدخل إليه شيء، فمات بعد مدّة⁽⁴⁾، ويقال: إنّه قُتل بعصر خصيتيه⁽⁵⁾، ولاقى عبد الصمد بن المكتفي بالله المصير نفسه على يد الراضي بالله (322-329هـ/934-941م)*⁽⁶⁾ الذي

(1) سبط ابن الجوزي، ج18، ص30.

(2) الذهبي، سير، ج7، ص449.

* **الفاهر بالله**: أبو منصور، محمد بن المعتضد بالله بن محمد الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله، وُلد عام 287هـ/900م، حاول جاهداً التخلص من سلطة القادة والحاشية الذين استبدوا بأخيه المقتدر بالله، وقد انتهج في سبيل ذلك سياسية قاسية، عمل خلالها على سفك الدماء، وانتهاك المحارم؛ ما أثار استياء العامة والخاصة منه، فهاج عليه الجند وخلعوه سنة 322هـ/943م بعد أن سملوا عينيه، وبقي في سجنه إلى أن توفّي سنة 339هـ/950م. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج2، ص(193-194). السيوطي، تاريخ، ص(597-602).

(3) الهمداني، ص273. الذهبي، سير، ج7، ص449.

(4) الهمداني، ص (280-281). ابن الأثير، ج7، ص85. النويري، ج23، ص(60-61).

(5) ابن حزم، ص29.

* **الراضي بالله**: أبو العباس، محمد بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله، وُلد عام 297هـ/909م، وكثرت في عهده الحركات الانفصالية، وما لبثت الدّولة بعدها أن دخلت في فترة أمير الأمراء (324-334هـ/936-946م)، وبذلك ضاع ما تبقى من هبة الخلافة، ويعتبر الراضي بالله آخر خليفة انفرد بتدبير شؤون الجيش والأموال وغير ذلك من مراسيم الخلفاء واختصاصاتها. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج2، ص(520-522). السامرائي، المؤسسات، ص(78-81).

(6) ابن حزم، ص29. الهمداني، ص295. الارلي، ص239. الصفدي، ج17، ص(174-175).

قتله سنة 327هـ/939م؛ وذلك بعد أن راسل محمداً بن الرائق لمناصرتة، وأخذ البيعة له، مستغلاً غياب الخليفة عن بغداد، وما إن عاد الأخير إلى العاصمة حتى قضى على تمرده وقتله⁽¹⁾، وقبض الراضي بالله سنة 323هـ/323م على جعفر بن المكتفي بالله بعد وشاية وصلت إليه بخصوصه، غير أنه ما لبث أن أطلق سراحه بعد أن توسّط له أبو بكر الصولي(ت. 335هـ/946م)* ومعه عدد من جلساء الخليفة؛ مراعاةً لهم لحقّ المكتفي بالله؛ لما له من فضل عليهم⁽²⁾.

وفي شهر صفر 333هـ/سبتمبر 944م بويغ أبو القاسم عبد الله بن علي المكتفي بالله بالخلافة، ولُقّب بالمستكفي بالله، وانعقدت له البيعة وهو في سنّ الواحدة والأربعين، ولم يولّ الخلافة حتى عهده من بني العباس من هو بعمره إلا أبو جعفر المنصور (136-158هـ/754-775م)، ولم تطلّ خلافته طويلاً؛ ففي جمادى الآخرة 334هـ/يناير 946م خلعه⁽³⁾ بصورة مهينة معزّ الدولة البويهّي (334-356هـ/946-976م)* بعد اثني عشر يوماً من دخوله لبغداد⁽⁴⁾، وظلّ المستكفي بالله مقيماً في سجنه حتى توفّي في ربيع الآخر 338هـ/إبريل 949م⁽⁵⁾، وفي عام 349هـ/960م خرج أحد أبناء عيسى بن المكتفي بالله في منطقة أذربيجان* وأرمينيا* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 3)،

(1) الصولي، اخبار، ص 133. الهمذاني، ص 295. الصفدي، ج 17، ص (174-175).

* أبو بكر الصولي: محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي، من أعلام الأدب في العصر العباسي، وصف بأنه "كان من ألعاب أهل زمانه بالشرنج"، نادم عديد من الخلفاء، ودون عدة مصنفات كان منها؛ أشعار أولاد الخلفاء، واخبار الراضي والمتقي، وآداب الكتاب. يُنظر: الذهبي، سير، ج 15، ص (301-302). الزركلي، ج 7، ص 136.

(2) الصولي، اخبار، ص 69.

(3) الخطيب البغدادي، ج 12، ص (179-180)

* معزّ الدولة البويهّي: أبو الحسن، أحمد بن بويه بن فناخسرو بن تمام، ويقال له الأقطع؛ لأنّ يده اليسرى قُطعت في إحدى معاركه مع الأكراد، دخل بغداد واستبد بالحكم، فشكل ذلك إيذاناً ببداية عصر التغلب البويهّي (334-447هـ/946-1.55م).

يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج 8، ص (92-93). طقوش، تاريخ الدولة، ص (22-23)

(4) الدوري، دراسات، ص 183. عمر، ص 111.

(5) الخطيب البغدادي، ج 12، ص (179-180)

* أذربيجان: إقليم واسع يقع إلى أقصى الشمال الشرقي من بلاد العراق، وهو بمحاذاة النصف الغربي الجنوبي من بحر قزوين، يمتاز بكثرة قلاعه، ومنعته، ووفرة خيراته الطبيعية، وقد شهد عبر التاريخ الإسلامي اندلاع عديد من الثورات والفتن، وتعدّ تبريز من أشهر مدنه، وتقع أراضيه حالياً بين أذربيجان وإيران. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص (128-129). سوردل، ص (76-77).

** أرمينيا: منطقة واسعة تقع إلى الغرب من أذربيجان، وتمتاز بمناخها القاسي، ومنعة موقعها المحاط بسلاسل جبلية شاهقة، وعلى الرّغم من عدم اعتناق أكثرية سكانها الدين الإسلامي، إلاّ أنّها بقيت في العصر الوسيط ضمن الحكم الإسلامي. يُنظر: سوردل، ص (87-88).

ودعا لنفسه بالخلافة، وتلقّب بالمستجير بالله، وأخذ بيعته على الرضاء من آل محمد، وأظهر الزهد، ونادى بالعدل، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فاجتذب إليه الأنصار، فكثر أتباعه، واستفحل أمره⁽¹⁾، وما لبث أن اصطدم مع عامل أذربيجان جستان بن المزريان، وتمكّن هذا الوالي من هزيمته بعد أن تخلى أنصاره عنه، وخذّله، وأخذ المستجير بالله بعدها أسيراً، ثم أُعِدِم⁽²⁾.

وعند الحديث عن الدور الحضاري لأولاد المستكفي بالله؛ فقد نبغ منهم أبو الفضل جعفر بن المكتفي بالله، الذي تميّز عن باقي إخوته بثقافته العالية، وإطلاعه الواسع على بعض فروع العلوم⁽³⁾، كما نبغ في علم الفلك؛ فقد كان عارفاً بعلم النجوم⁽⁴⁾، ودرس الفلسفة⁽⁵⁾، وتاريخ اللغات وأصولها، خاصّة اليونانية والرومانية⁽⁶⁾، ويبدو أنّ هذه الثقافة الواسعة جعلت منه ذا مكانة عالية عند حكام الدولة العبّاسيّة؛ فقد كانت له مكانته المرموقة عند عضد الدولة البويهّي (367-372هـ/978-983م)*؛ حيث أثير عن الأخير أنّه كان يكرمه ويُجلّه أيّما إجلال⁽⁷⁾، وطال عمر جعفر حتّى توفّي سنة 377هـ/987م عن عمرٍ ناهز ثلاثة وثمانين عاماً⁽⁸⁾.

دوره السّياسي والإداري

يُعَدّ عليّ المكتفي بالله أكبر أبناء المعتضد بالله سنّاً، وذلك بفارق كبير عن باقي إخوته؛ فهو يزيد عن ثاني إخوته من بعده جعفر المقتدر بالله ثمانية عشر عاماً⁽⁹⁾، وقد جعل ذلك منه الخيار الأوفر

(1) الهمذاني، ص391. ابن الجوزي، ج14، ص126. ابن الأثير، ج7، ص266. سبط ابن الجوزي، ج17، ص325. النويري، ج23، ص108.

(2) ابن الأثير، ج7، ص266. النويري، ج23، ص108.

(3) ابن النديم، ص18. سبط ابن الجوزي، ج18، ص341. الذهبي، سير، ج8، ص438. الصفدي، ج11، ص89.

(4) سبط ابن الجوزي، ج18، ص341. الذهبي، سير، ج8، ص438. الصفدي، ج11، ص89.

(5) الذهبي، سير، ج8، ص438.

(6) ابن النديم، ص18.

* **عضد الدولة البويهّي**: أبو شجاع، فنّأخسرو بن الحسن بن بويه، وُلِدَ عام 324هـ/936م، سيطر على العراق بعد تغلّبه على عمّه عزّ الدولة باختيار (356-367هـ/967-978م)، بلغ بنو بويه خلال عهده أوج قوتهم وعظمتهم، وصِفَ بأنّه "كان شديد الهيبة، جباراً عسوفاً"، وكان عالماً بالعربية والنحو، ويحسن نظم الشعر. يُنظر: الزركلي، ج5، ص156. سوريدي، ص(654-655).

(7) الذهبي، سير، ج8، ص438.

(8) ابن الجوزي، ج14، ص324. سبط ابن الجوزي، ج18، ص37. الذهبي، سير، ج8، ص438. الصفدي، ج11، ص89.

(9) الطّبري، ج10، ص36. ابن سعيد القرطبي، ص28. الخطيب البغدادي، ج8، ص127.

حظاً لخلافة أبيه الذي صبَّ بعد تولّيه الخلافة جانباً كبيراً من اهتمامه عليه؛ وذلك بغية تهيئته وإعداد لوراثته؛ وحتىّ يكسبه التجربة السّياسيّة والإداريّة الكافية عمد إلى إشراكه في شؤون الحكم والإدارة في فترة مبكرة من خلافته، ولعله أراد أن يتيح له مع مرور الزمن الوقت الكافي لإثراء هذه التجربة وصقل هذه الخبرة وصولاً إلى المستوى المطلوب الذي يؤهله للقيام بواجباته الموكلة إليه حال استلامه للحكم.

قُتل المعتضد بالله ابنه علياً في سنة 281هـ/894م ولاية الجبال* ومناطقها (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 3)، ويبدو أنّ قلة تجربته دفعت والده إلى تعيين أحمد بن أبي الأصْبَغ* كاتباً له حتّى يستعين به في الإشراف على شؤون الولاية⁽¹⁾، في حين أسدى إلى الحسين بن عمرو النصراني الشيرازي (ت. 290هـ/903م)* مهمة الإشراف على نفقات عسكره، وضياح مدينة الري⁽²⁾، وعلى الأغلب أنّ علياً أقام بالري خلال ولايته على الجبال⁽³⁾.

ولعب علي بن المعتضد بالله دوراً بارزاً في ضبط ولايات الشّرق الأقصى، كما أسهم في إدارة سياسة الدّولة العبّاسيّة تُجاه الدويلات المستقلة عنها في تلك الأثناء؛ فحال وصوله إلى الري نجح في إحكام قبضته على المدينة بعد إنهاء سيطرة الحسين بن علي بن كورة عليها، وكان الأخير قد ولّاه على المدينة رافع بن هرثمة، الذي سبق له أن تغلّب على بعض هذه الأثناء بعد أن أعلن تمرده

* **الجبال**: إقليم جغرافي يتميز بطابعه التضاريسي الوعر، ويضمّ عدداً من المدن والبلدات، ويقع إلى الشّرق من العراق، ويحيط به من الشّمال إقليم أذربيجان، وتعدّ همذان والري من أشهر مدنه، ويمثّل الآن القسم الأكبر من غربي الجمهورية الإيرانيّة. يُنظر: سوردِيل، ص 308.

** **أحمد بن أبي الأصْبَغ**: عمل في خدمة الموفق بالله والمعتضد بالله، وكان صاحب حنكة وخبرة سياسيّة؛ فقد كان رسولاً عُهِدَ إليه بمفاوضات ومهادنة عدد من الخارجيين والمتمردين، ويضاف إلى ذلك تعزيز علاقتهم بأمراء الدويلات المستقلة وخاصة الصفاريين. يُنظر: الطّبري، ج 9، ص (541-544)، ص (577-578)، ص 606، ج 10، ص 33.

⁽¹⁾ الطّبري، ج 10، ص 36. ابن الأثير، ج 6، ص 378. النويري، ج 22، ص 254. ابن كثير، ج 14، ص 656. ابن خلدون، ج 3، ص 434.

* **الحسين بن عمر النصراني**: من كبار كُتّاب الحضرة، قتله الوزير القاسم بن عبيد الله (ت. 291هـ/904م) بعد أن حاول الانقلاب عليه، وتولية أحد كُتّابه الوزارة عوضاً عنه. يُنظر: الطّبري، ج 10، ص (98-99). التّوخي، نشوار، ج 3، ص (268-272).

⁽²⁾ الطّبري، ج 10، ص 36.

⁽³⁾ الطّبري، ج 10، ص 47. ابن الوزير، ص 78. ابن خلّكان، ج 6، ص 425.

على الدولة العباسية، وأمن علي الحسين بن كورة ومعه ألف من رجاله، ثم وجههم إلى والده⁽¹⁾، ولم يطل تمرد رافع بن هرثمة؛ فقد نجح عمرو بن الليث الصفار (265-287هـ/879-900م)* سنة 283هـ/896م بالقضاء على ثورته، وقتله فيما بعد⁽²⁾، ويبدو أن عمراً استغل هذا النصر؛ لتعزيز نفوذه بعد أن حصل على وعود ضمنية من المعتضد بالله بولاية بلاد ما وراء النهر⁽³⁾، وفي سنة 285هـ/898م قرئ في دار الخليفة على جماعة من حجاج خراسان قرارٌ بعزل إسماعيل بن أحمد الساماني (279-295هـ/892-907م)* عن بلاد ما وراء النهر، وتولية عمرو بن الليث الصفار عوضاً عنه⁽⁴⁾.

ويرى ابن خلّكان (ت. 681هـ/1282م) أن القرار المذكور قد صدر عن علي أثناء مقامه بالري؛ وذلك بعد أن ماطل والده بتنفيذ وعده تجاه عمرو بن الليث⁽⁵⁾، وفي حال صح ذلك، حتى ولو أنه تم بتفويض مباشر من الخليفة، فقد جاء هذا القرار منسجماً -إلى حد كبير- مع سياسة أبيه الهادفة إلى إضعاف الدويلات المستقلة عن طريق ضرب بعضها ببعض، فالمعتضد بالله يعي جيداً حجم النفوذ الساماني القوي في بلاد ما وراء النهر، ومدى صعوبة إخضاعهم من عمرو⁽⁶⁾، وقد أدرك

(1) الطبري، ج 10، ص 37. ابن خلدون، ج 3، ص 434.

* عمرو بن الليث الصفار: ثاني أمراء الدولة الصفارية، تولى الحكم بعد وفاة أخيه المؤسس يعقوب (254-265هـ/867-879م)، وعظم حال الدولة في عهده، وُصف بأنه كان حسن السياسة عدلاً، وعلى الرغم من أنه افتتح عهده بالتقرب من الموفق بالله، إلا أنه فيما بعد اشتبك مراراً مع الخلافة العباسية. يُنظر: الذهبي، سير، ج 12، ص (516-517). الدوري، دراسات، ص (90-91).

(2) الطبري، ج 10، ص (77-78).

* بلاد ما وراء النهر: إقليم يشمل منطقة جغرافية شاسعة في آسيا الوسطى وراء نهر جيحون، يشتهر بثروته الزراعية، وموقعه الجغرافي المهم؛ حيث كان تعبر من خلاله طريق الحرير، وتعدّ بخارى وسمرقند وخوارزم من أشهر مدنه، ويضم الآن عدداً من الجمهوريات الإسلامية، منها: أوزبكستان، وطاجيكستان، وتركمانستان. يُنظر: سورديل، ص 237.

(3) ابن الأثير، ج 6، ص (401-402). ابن خلّكان، ج 6، ص 425.

* إسماعيل بن أحمد الساماني: أبو إبراهيم، وُلد عام 234هـ/748م، لقّب بالمنتصر، من أشهر أمراء الدولة السامانية، كان بطلاً شجاعاً وافر الهبة، ونجح في قمع عديد من الثورات، واعتمد عليه المعتضد بالله والمكتفي بالله في ضبط جزء كبير من ولايات الشرق الأقصى، وذكر عنه اشتغاله في علم الحديث. يُنظر: الذهبي، سير، ج 17، ص (92-93). الزركلي، ج 1، ص 308.

(4) الطبري، ج 10، ص 67. يُنظر أيضاً: الدوري، دراسات، ص 90.

(5) ابن خلّكان، ج 6، ص 425.

(6) الدوري، دراسات، ص (90-91).

الأخير حقيقة ذلك، وعبر عنه حين كتب إلى الخليفة -والأمل يحدوه- أن يحصل على دعم كبير منه مقابل تخلصه من السامانيين الذين لن يسلموا له بلادهم "إلا بمئة ألف سيف"⁽¹⁾، وفي سنة 287هـ/900م خرج عمرو بجيش كبير قاصداً بلاد ما وراء النهر، وهناك نجح إسماعيل الساماني في إنزال هزيمة قاسية بجيشه، ووقع بعدها عمرو أسيراً لديه، ولما وصل الخبر إلى المعتضد بالله فرح به وسره ما نزل بعمرو الذي قُيد إليه أسيراً سنة 288هـ/901م، ولم يطل مقام الأخير عنده؛ فما لبث أن قتله في سجنه في آخر أيام خلافته⁽²⁾.

وحرص المعتضد بالله على تتبع أخبار ابنه علي أثناء مقامه بالري؛ فقد كلف كاتبه أحمد بن أبي الأصبع بكتابة أخباره باستمرار إلى وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب (ت. 288هـ/901م)*، الذي سيوصلها بدوره إليه، وكلما صدر عن علي خطأ أو تقصير، كان والده حال اجتماعه به يكشفه ويعاتبه على ما بدر منه⁽³⁾، ويبدو أن ولاية علي بن المعتضد استمرت على منطقة الجبال والري حتى عامي 285-286هـ/898-899م؛ بدليل أن عام 285هـ/898م شهد خروجه من بغداد في أكثر من حملة باتجاه الولايات الشرقية⁽⁴⁾، في حين شهد عام 286هـ/899م تعيين والده له والياً على قنسرين والعواصم والنُّعُور* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 7)⁽⁵⁾.

(1) ابن خلّكان، ج6، ص426.

(2) الطُّبري، ج10، ص(76-77)، ص83، ص88.

* **عبيد الله بن سليمان بن وهب**: أبو القاسم، وُلِدَ عام 226هـ/841م، وكان من أفاضل الوزراء، وزر للمعتضد على الله، وحين ولي المعتضد بالله أقره، وطالت وزارته في عهده لمدة عشر سنين، وُصِفَ بأنه: "كَانَ شَهْمًا، مَهْيِيًّا، شَدِيدَ الوَطْأَةِ، قَوِيَّ السُّطُوَّةِ"، وقد قام بأعباء الوزارة على أكمل وجه. يُنظر: الذهبي، سير، ج13، ص(497-498). الصفدي، ج19، ص(247-249).

(3) ابن الوزير، ص78.

(4) الطُّبري، ج10، ص68، ص70. ابن الأثير، ج6، ص395. سبط ابن الجوزي، ج16، ص219. ابن كثير، ج14، ص656.

* **النُّعُور**: والنُّعُور هو كل موقع قريب من أرض العدو يخشى منه التعرض لأي هجوم، وهي المنطقة الفاصلة ما بين الأراضي الإسلامية والبيزنطية، وتشمل النُّعُور الإسلامية منطقة جغرافية واسعة تمتد على طول الحدود مع البيزنطيين، وتنقسم إلى ثلاث مناطق وهي: النُّعُور الشَّامِيَّة، والنُّعُور الجزرية، والنُّعُور البكرية، ومن أهم مدن النُّعُور؛ طرسوس، والمصيصة، ومرعش، والحدث، وسميساط. يُنظر: الجنزوري، ص(7-19). مؤنس، ص150.

(5) الطُّبري، ج6، ص71. ابن الأثير، ج6، ص397. ابن العديم، ج6، ص2725. ابن شداد، ج3، قسم 1، ص32. النويري، ج22، ص(258-259). ابن خلدون، ج3، ص439.

وانتدب المعتضد بالله ابنه علياً سنة 285هـ/898م من بغداد على رأس جيش لحرب محمد بن زيد العلوي (270-287هـ/884-900م)*؛ وذلك بعد أن عظم خطره في منطقة الجبال، وقبل أن يصل هذا الجيش إلى وجهته فرّ محمد إلى طبرستان، فعاد علي أدراجه إلى بغداد التي وصلها في ذي الحجة 285هـ/ديسمبر 898م، فاستقبله والده بحفاوة، مصطحباً معه جميع أرباب الدولة، وأمام هذا الحضور الرسمي أكد الأخير فضل ولده علي ومنزلته في دولته، ثم خلع عليه⁽¹⁾، وما لبث علي أن خرج مع والده في الواحد والعشرين من ذي الحجة 285هـ/الثامن من يناير 899م⁽²⁾ إلى آمد؛* للقضاء على تمرّد محمد بن عيسى، الذي نصّب نفسه بالقوة والياً على المدينة مكان والده الذي توفي⁽³⁾، وفي الواحد والعشرين من جمادى الأولى 286هـ/الرابع من يوليو 899م⁽⁴⁾ نجح المعتضد بالله بإخضاع محمد، والسيطرة على المدينة، بعد أن فرض حصاراً خانقاً عليها؛ ما أرغم الأخير على طلب الأمان له ولأهل المدينة⁽⁵⁾.

وأثناء مقام المعتضد بالله في آمد وفد إليه رسول من هارون بن خمارويه (283-292هـ/896-904م)*، يطلب من الخليفة إقراراً رسمياً منه في وولايته على مصر والشّام، مقابل تنازل هارون عن ولاية قنسرين والعواصم، وتعهّد أن يرسل لبغداد في كلّ عام أربعمئة وخمسين ألف ديناراً، فأجابه الخليفة بالقبول، وأنفذ له الخلع، وكتاب تجديد ولايته على مصر والشّام، ثمّ وجه بمن يقبض أعمال

* محمد بن زيد: بن إسماعيل بن الحسن، العلوي الحسني، صاحب طبرستان والديلم، وصف بأنه جواد كريم شجاع فاضل، وكان عارفاً بالأدب والشعر والتاريخ، قتل سنة 287هـ/900م على باب جرجان بعد أن اشتبك مع جيش إسماعيل بن أحمد السّاماني. يُنظر: الصفدي، ج3، ص(68-69). الزركلي، ج6، ص132.

(1) سبط ابن الحوزي، ج16، ص219.

(2) الطّبري، ج10، ص68.

* آمد: من مدن الجزيرة، وتعد من أعظم مدن ديار بكر، تقع على أقصى شمال نهر دجلة من جهته الغربية، وهي مدينة كبيرة تمتاز بحصنتها نظراً لوقوعها على جبل، وتكثر فيها عيون الماء والآبار والبساتين. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج1، ص(56-57). الجُميري، ص(3-4).

(3) الطّبري، ج10، ص68، ص70. ابن الأثير، ج6، ص395. ابن كثير، ج14، ص656. ابن خلدون، ج3، ص434.

(4) الطّبري، ج10، ص70.

(5) الطّبري، ج10، ص70. ابن الأثير، ج6، ص395. ابن خلدون، ج3، ص436.

* هارون بن خمارويه: أبو موسى، وُلِدَ عام 264هـ/877م، تولّى الحكم وهو حديث السن بعد أن خلع أخاه جيشاً الذي لم يمض على استلامه السلطة أكثر من تسعة أشهر، وفي عهده نال الوهن والضعف من جسم الدولة، وبمقتله سنة 292هـ/904م انهارت الدولة الطولونية، وسقط ما تبقى من أراضيها في يد العباسيين. يُنظر: الذهبي، سير، ج14، ص(17-18). الزركلي، ج8، ص60. طقوش، تاريخ الدولة، ص(202-203).

هارون في قنسرين والعواصم⁽¹⁾، وظلَّ الخليفة مقيماً بآمد حتَّى الثَّالث والعشرين من جمادى الآخرة 286هـ/السَّادس من يوليو 899م، ثمَّ خرج منها إلى الرِّقَّة*⁽²⁾ تاركاً ابنه علياً في آمد على رأس جيش يستعين به على ضبط تلك النواحي، ويشرف من خلاله على استلام الولايات الجديدة، وخلال ذلك عقد المعتضد بالله لابنه علي ولاية قنسرين والعواصم، وضمَّ إليه الجزيرة⁽³⁾، وجعل الرِّقَّة مقرأً له⁽⁴⁾، ونصَّب الحسين بن عمرو النصراني كاتباً له؛ يساعده في إدارة ولاياته، وضبط شؤونها الماليَّة⁽⁵⁾، ويؤكد هذا الاختيار مدى الثقة العالية التي كان يوليها المعتضد بالله لابنه علي؛ فقد عهد إليه مهمة توطيد أركان الحكم العبَّاسي في ولايات جديدة غابت عن سيادته فترة من الزمن، وظلَّ الأخير على رأس ولايته مقيماً بالرِّقَّة إلى أن بوع بالخلافة عام 289هـ/902م⁽⁶⁾.

مبايعته بولاية العهد والخلافة، وحدود دولته ونطاقها الجغرافي

عهد المعتمد على الله* عام 261هـ/875م بولاية العهد لابنه جعفر المفوض إلى الله، ثمَّ إلى أخيه الموفق بالله محمد من بعده⁽⁷⁾، غير أنَّ الأخير توفِّي سنة 278هـ/891م، وكان ذلك قبل وفاة أخيه الخليفة ببضعة أشهر، وبفعل نفوذ أحمد بن الموفق بالله اجتمع القادة وأمراء الجيش وأجبروا المعتمد على الله على تولية ابن أخيه مكان والده الذي توفِّي، فعقدت البيعة له، ولُقِّب بالمعتضد بالله، إلَّا

(1) الطُّبري، ج 10، ص 70. ابن خلدون، ج 3، ص 439.

* الرِّقَّة: مدينة قديمة تعود إلى الفترة الهلنستية، وتُعدَّ إحدى أهم مدن بلاد الجزيرة، وقصبة ديار مصر، تقع على الضفاف الشرقيَّة لنهر الفرات، وهي إلى الجنوب من حران، وتبعد عنها مسير ثلاثة أيام، تميَّزت بموقعها الجغرافي المهم الذي جعل منها ملتقى لطرق القوافل التجارية ومسارات الملاحه النهرية، وتشتهر بصناعة الخزف العائد إلى العصور الوسطى. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص (58-60). سوردل، ص (425-453).

(2) الطُّبري، ج 10، ص 71.

(3) الطُّبري، ج 10، ص 71. ابن الأثير، ج 6، ص 397. ابن العديم، ج 6، ص 2725. ابن شداد، ج 3، قسم 1، ص 32. النويري، ج 22، ص (258-259). ابن خلدون، ج 3، ص 439.

(4) ابن العديم، ج 6، ص 2725. ابن شداد، ج 3، قسم 1، ص 32.

(5) الطُّبري، ج 10، ص 71. ابن الأثير، ج 6، ص 397. النويري، ج 22، ص 259. ابن خلدون، ج 3، ص 439.

(6) الطُّبري، ج 10، ص 88. المسعودي، مروج، ج 4، ص 218. ابن مسكويه، ج 4، ص 7. ابن شداد، ج 3، قسم 1، ص 32.

* المعتمد على الله: أبو العباس، أحمد بن جعفر المتوكل على الله، وُلِدَ عام 229هـ/844م، تولَّى الحكم بعد مقتل المهدي بالله (255-256هـ/869-870م)، انهزم في الملذات واللَّهو، وتغلَّب عليه أخوه محمد الموفق بالله، وطلَّ عهده إلى أن توفِّي سنة 279هـ/892م. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج 6، ص (478-480).

(7) الطُّبري، ج 9، ص 514. الخطيب البغدادي، ج 2، ص 493. يُنظر أيضاً: السامرائي، المؤسسات، ص (39-40).

أنّ طموح الأخير كان أكبر من ذلك؛ فقد رغب بالاستئثار بولاية العهد لنفسه دون منازع، وهذا ما تحقّق له سنة 279هـ/892م؛ بعد أن أرغم المعتمد على الله في آخر أيامه، وبحضور القادة والقضاة ووجهاء الناس، على خلع ابنه جعفر المفوّض إلى الله من ولاية العهد، التي باتت خالصة للمعتضد بالله وحده⁽¹⁾، ويبدو أنّ الأخير حرص بعد تولي الخلافة عام 279هـ/892م على القضاء على أيّ تهديد لسلطته من أبناء المعتمد على الله؛ فقد تخلص من أكبر منافسيه جعفر المفوّض إلى الله بعد أن قتله سرّاً⁽²⁾.

ونظراً لأهمية قرار تسمية ولي العهد على مستقبل الدولة وبنيتها السياسية، فقد اتجهت أنظار المعتضد بالله إلى أكبر أبنائه علي، الذي حرص على تهيئته للحكم عن طريق إشراكه في إدارة ولايات الدولة؛ تمهيداً لإكسابه الخبرة الكافية، ودلّت تصريحاته المتكررة على أحقية بهذا المنصب⁽³⁾، وتكاد الروايات التاريخية تجمع أنّ هذا القرار قد صدر عنه بعد أن داهمه المرض؛ خشية أن تُصرف الخلافة إلى غيره⁽⁴⁾، ولمّا اشتدّ مرضه في ربيع الآخر 289هـ/إبريل 902م، أخذ البيعة لابنه علي الذي كان في حينها مقيماً بالرقّة، وفي عشية يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الآخر/الثاني من إبريل أمر المعتضد بالله أن تُؤخّذ له البيعة من العامّة؛ بهدف توكيدها، وإشهار خبرها بين الناس⁽⁵⁾.

وينفرد الخطيب البغدادي(ت. 463هـ/1070م) بالقول: إنّ تاريخ انعقاد بيعة ولاية العهد للمكتفي بالله كان في السابع والعشرين من ربيع الأوّل/الحادي عشر من مارس⁽⁶⁾، في حين ذهب ابن العُمراني(ت. 580هـ/1184م) إلى أنّ المعتضد بالله رفض تسمية ولي للعهد من بعده، وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من شاؤوا لولاية أمرهم، فاجتمع أمر الأمة خاصتها وعامتها على ابنه

(1) الطبري، ج10، ص(20-23)، ص28. ابن الأثير، ج6، ص(361-363). يُنظر أيضاً: السامرائي، المؤسسات، ص(40-41).

(2) ابن حزم، ص28.

(3) الصولي، أدب، ص41. التّوخي، نشوار، ج1، ص288. ابن عساكر، ج71، ص204. سبط ابن الجوزي، ج16، ص256. ابن العديم، ج6، ص824.

(4) الخطيب البغدادي، ج13، ص(213-214). ابن الجوزي، ج13، ص3. ابن الأثير، ج6، ص(410-411). سبط ابن الجوزي، ج16، ص256. ابن العديم، ج2، ص(823-424).

(5) الخطيب البغدادي، ج13، ص(213-214). ابن الجوزي، ج13، ص3.

(6) الخطيب البغدادي، ج13، ص213

علي⁽¹⁾. وهذا ينافي ما ذهب إليه ابن خلّكان، بأنّ تسمية علي لولاية العهد تعود لفترات مبكرة من خلافة والده، وبالتحديد في عام 282هـ/895م؛ وهو العام الذي شهد طلب خمارويه بن أحمد بن طولون (270-282هـ/884-895م)* من المعتضد بالله تزويج ابنه المكتفي بالله -الذي كان في حينها ولياً للعهد- من ابنته قطر الندى، فكان جواب الخليفة: إنّه سيتزوجها هو عوضاً عن ابنه⁽²⁾.

وتنسب بعض المصادر الفضل الكبير في إنفاذ قرار الخليفة بجعل ابنه علي ولياً لعهد إلى القادة والخدم والموالي؛ فقد اجتمعوا بأعداد كبيرة بدار العامّة*، وطالبوا الوزير القاسم بن عبيد الله بالإسراع في أخذ البيعة لعلي، غير أنّ الوزير تردّد في ذلك؛ لأنّه خشي من غضب المعتضد بالله إذا ما أفاق من علّته، وعلم بمال البيعة** الذي أطلقه دون علم منه، ومن الأسباب التي تعلّل مماطلة الوزير في أخذ البيعة وجود رغبة لديه في صرف الخلافة عن علي، وحين رأى الوزير إصرار القادة على عقد البيعة لعلي أيقن أن لا مفرّ له من النزول على رأيهم، خاصّة بعد أن ضمنوا له تكفلهم بمناظرة الخليفة إذا وقع ما يخشاه بخصوص مال البيعة، ومما شجعه على ذلك أيضاً وصية المعتضد بالله له بتسليم الحكم لولده علي من بعده، وفي الحال أُخِذَت البيعة للأخير، ولُقِّبَ بالمكتفي بالله،

(1) ابن العمارني، ص150.

* **خمارويه بن أحمد بن طولون**: أبو الجيش، وُلِدَ عام 250هـ/864م، تولّى الحكم بعد وفاة والده سنة 270هـ/884م، وكان جواداً ممدوحاً، فيه بعض الميل نحو اللّهو والإسراف، اتسعت حدود دولته في عهده، وانتصر على العباسيين في معركة الطواحين سنة 271هـ/885م، وعلى الرّغم من هذه الانتصارات فقد مال مع تولّي المعتضد بالله عام 279هـ/892م إلى مهادنة العباسيين، وتكلّل ذلك بتزويج الأخير من ابنته قطر الندى عام 281هـ/894م، وكانت نهايته بأن قتلته أحد غلمانه وهو نائم على فراشه، وحُمِلَ جثمانه من دمشق إلى مصر. يُنظر: الصفدي، ج13، ص(260-261). طقوش، تاريخ الدّولة، ص(200-202).

(2) ابن خلّكان، ج2، ص249.

* **دار العامّة**: وتعرف أيضاً بدار الخليفة، وارتبط ظهورها بتطور الحجابة في العصر العباسي، وكان قد ابتناها المعتصم بالله (218-227هـ/833-841م) في سامراء، ولا يمكن الجزم أنّها هي المقصودة في النص، أم أنّ الخلفاء عند انتقالهم إلى بغداد عام 279هـ/892م قد ابتنوا فيها داراً على غرارها، وأطلقوا عليها الاسم نفسه. يُنظر: اليعقوبي، ص(61-62). الحموي، ج1، ص(99-100).

** **مال البيعة**: مبلغ من المال يبذله الخليفة عندما يتولى زمام الحكم، وقد يقرن أحياناً بولاية العهد، وغالباً ما كان يُدفع للجند حتّى يأمن الخليفة شرهم، ويضمن قبولهم ببيعته، وارتبط ذلك دورياً بتعاظم نفوذ الجيش، وبداية تدخّلهم في شؤون الحكم مع بداية العصر العباسي الثّاني، وكان أول من أُجبر على أدائها وفق شكلها الحالي موسى الهادي (169-170هـ/785-786م)، ويرى الدوري أنّ هارون الرشيد (170-193هـ/786-808م) أول من سنّ هذه العادة، وأعطاه صبغتها الرسمية، وعادة ما يُقدّر مال البيعة بما يساوي مجموع راتب الجند في عدّة أشهر، ولطالما شكّل ذلك عبئاً مالياً على خزينة الدّولة. يُنظر: الدوري، العصر، ص135، ص143. الزهراني، ص(141-142).

ثم أطلق مال البيعة⁽¹⁾، وبعد ذلك قبض الوزير على مجموعة من الأمراء العباسيين، وأخذ البيعة منهم، ثم حبسهم، ونكل بهم⁽²⁾.

ويوضح موقف القادة والخدم والموالي حجم النفوذ القوي الذي تمتع به المكتفي بالله داخل مؤسسات الدولة، خاصة الجيش، فقد كان لهذه القوى الفضل الأكبر في تنفيذ رغبة سيدهم بتولية ولده من بعده، ولعلّ قرار تولية المكتفي بالله النهائي ما كان له أن ينجز لولا متابعتهم له، خاصة بسبب تواجده خارج بغداد، وعجز المعتضد بالله عن متابعة ذلك؛ بسبب اشتداد مرضه عليه.

وتوفي المعتضد بالله ليلة الإثنين الثاني والعشرين من ربيع الآخر 289هـ/الخامس من إبريل 902م؛ أي بعد نحو ثلاثة أيام من أخذ البيعة للمكتفي بالله⁽³⁾، وفي صبيحة يوم الثلاثاء جلس الوزير القاسم بن عبيد الله في دار الخليفة بالقصر الحسني* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 1)، حيث عزّاه الناس بوفاة الخليفة، وهنّوّه بولاية المكتفي بالله⁽⁴⁾، ثم كتب الوزير إلى الكُتاب والقادة بخصوص تجديد بيعة المكتفي بالله، فأجيب بالقبول⁽⁵⁾، فتمّت يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر 289هـ/السادس من إبريل 902م⁽⁶⁾، ثم سارع الوزير بتوجيه كتاب إلى الرقة حيث يقيم الخليفة الجديد؛ ليعزيه بوالده، ويُعلمه بانعقاد البيعة له⁽⁷⁾، ويُطلعه على حال خزينة الدولة، فردّ المكتفي بالله بكتاب

(1) ابن الأثير، ج 6، ص (410-411). سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 256. ابن العديم، ج 2، ص (823-824).

(2) التّوخي، الفرج، ج 2، ص (9-10). الخطيب البغدادي، ج 11، ص 305. ابن الأثير، ج 6، ص 411. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص (256-257).

(3) الخطيب البغدادي، ج 13، ص 214. ابن الجوزي، ج 13، ص 3. ابن دحية الكلبي، ص 93. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 257. النويري، ج 22، ص 261.

* **القصر الحسني**: أول من بناه جعفر البرمكي (ت. 187هـ/803م)، وعُرف بالحسني؛ نسبة إلى الحسن بن سهل (ت. 236هـ/851م) الذي استقر به بعد أن وهبه له الخليفة عبد الله المأمون (198-218هـ/814-833م)، وكان على درجة عالية من الأبهة والعظمة المعمارية، وقد نزل به المعتضد بالله، وأضاف إليه عديداً من المباني، وشكّل هذا القصر مركزاً أنشئت حوله قصور الخلفاء طوال التاريخ العباسي. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص (3-5). جواد؛ سوسة، ص (123-124).

(4) الطّبري، ج 10، ص 87. ابن مسكويه، ج 4، ص 397. ابن الجوزي، ج 13، ص 3. ابن الأثير، ج 6، ص 411.

(5) الطّبري، ج 10، ص 87.

(6) الطّبري، ج 10، ص 87. ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. القضاعي، ص 486. الخطيب، ج 13، ص 214. ابن الجوزي، ج 13، ص 3.

(7) الطّبري، ج 10، ص 88. ابن مسكويه، ج 4، ص 397. ابن الأثير، ج 6، ص 412. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 257. ابن العبري، ص 267. النويري، ج 23، ص 3. السيوطي، تاريخ، ص 581.

يذكر للوزير فضله فيما تمّ له، ويُعلمه بعلوّ منزلته لديه⁽¹⁾، ثمّ أمر المكتفي بالله كاتبه الحسين بن عمر النصراني⁽²⁾ بأخذ البيعة من العساكر المقيمين معه في الرقة، وفرض العطاء لهم، ويبدو أنّه خشي من وقوع بعض الاضطرابات في مناطق ولايته حال خروجه منها؛ فوجه بمن يضبط له ديار ربيعة* وديار مضر** ومناطق غرب العراق، وانحدر بعدها من الرقة باتجاه بغداد⁽³⁾، وعند وصوله إلى الأنبار وجد الوزير والعامّة قد خرجوا لاستقباله والاحتفاء به، وبعد أن انتهوا من ذلك تابعوا مسيرهم إلى بغداد⁽⁴⁾، وعند وصول الخليفة إلى مشارف المدينة هاجت فرقة من الجند، يُرجّح أنّها لم تحصل على نصيبها من مال البيعة، أو أنّها طمعت بمزيد من المال، مستغلة ظروف البيعة وهشاشة المرحلة الانتقالية، فسارع الوزير إلى دفع المال لهم، فسكنت نفوسهم، وانتظم حالهم، ثمّ أخذ البيعة منهم⁽⁵⁾.

وفي يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى/ التاسع عشر من إبريل⁽⁶⁾، دخل المكتفي بالله بغداد عبر نهر دجلة، راكباً في سمارية*، ومعه وزيره، والطيارات** من حوله في مشهد عظيم تزاخم فيه الناس لرؤيته، ومن شدّة تدافع الناس سقط بعضهم في النهر، ومنهم القاضي أبو عمر محمد بن يوسف

(1) سبط ابن الجوزي، ج16، ص257.

(2) الطبري، ج10، ص88.

* ديار ربيعة: جزء من بلاد الجزيرة، وتشمل المنطقة الواقعة على ضفتي نهر دجلة، ويقع معظمها على جهته الغربية، ومن أشهر مدنها: الموصل وهي قصبته، ونصيبين. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص494. الألسي، ص51.

** ديار مضر: جزء من بلاد الجزيرة، وتشمل المنطقة الواقعة على ضفتي نهر الفرات، ويقع معظمها على جهته الشرقية، ومن أشهر مدنها الرقة وهي قصبته، وحران. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص494. الألسي، ص51.

(3) الطبري، ج10، ص88. ابن الأثير، ج6، ص412. النويري، ج23، ص3.

(4) سبط ابن الجوزي، ج16، ص258.

(5) الخطيب البغدادي، ج13، ص213. ابن الجوزي، ج13، ص5. سبط ابن الجوزي، ج16، ص258.

(6) المسعودي، مروج، ج4، ص218. الخطيب البغدادي، ج13، ص213. ابن الجوزي، ج13، ص5. سبط ابن الجوزي، ج16، ص258. النويري، ج22، ص273.

* سمارية: وجمعها سميريات، وهي نوع من السفن النهرية التي اشتهر بها العراق، ومنها الكبيرة والصغيرة، وقد استُخدمت لأغراض متعددة، وخاصة العسكرية منها والتجارية؛ حيث كانت تُستعمل لنقل العتاد والمؤن العسكرية، والبضائع التجارية. يُنظر: النخيلي، ص(67-70).

** الطيارات: ومفردها طيار وطيارة، وهي نوع من المراكب النهرية التي تتميز بخفتها، وسرعة جريانها، وقد شاع استخدامها، بحيث لم يقتصر استعمالها على طبقة دون أخرى، وكثيراً ما استخدمها الخلفاء وكبار رجال الدولة في مهماتهم الرسمية، ويضاف إلى ذلك، فقد استُعملت للأغراض العسكرية، وخاصة في عمليات القتال النهري. يُنظر: النخيلي، ص(92-93).

(ت. 320هـ/932م)*، إلا أنه سرعان ما خرج سالماً⁽¹⁾، واستمر موكب الخليفة على هذه الحال حتى وصل دار الخلافة في القصر الحسني يوم الثلاثاء⁽²⁾، وجلس لأخذ البيعة، وتلقّى المعزّين بوالده، وبهذه المناسبة نظم أحد الشعراء بين يديه قصيدة قال فيها:

(البحر الطويل)

أَجَلُ الرّزَايَا أَنْ يَمُوتَ إِمَامٌ	وَأَسْمَى الْعَطَايَا أَنْ يَقُومَ إِمَامٌ
فَأُسْقِيَ الَّذِي مَاتَ الْعَمَامُ وَجَادَهُ	وَدَامَتْ تَحِيَّاتٌ لَهُ وَسَلَامٌ
وَأَبْقَى الَّذِي قَامَ إِلَهُ وَزَادَهُ	مَوَاهِبَ لَا يَفْنَى لَهُنَّ دَوَامٌ
وَدَامَتْ لَهُ الْأَمَالُ وَاتَّصَلَتْ بِهَا	فَوَائِدُ مَوْصُولٍ بِهِنَّ تَمَامٌ
هُوَ الْمَكْتَفِي بِاللّهِ يَكْفِيهِ كُلُّ مَا	عَنَاهُ بَرُكْنٌ مِنْهُ لَيْسَ يُرَامُ ⁽³⁾

وكان المكتفي بالله يبلغ من العمر عندما تولّى الخلافة خمسة وعشرين عاماً⁽⁴⁾، ويُعدّ السابع عشر في سلسلة الخلفاء العبّاسيين⁽⁵⁾، وعمد منذ بداية عهده إلى التقرب من العامة والخاصّة؛ رغبة منه في كسب ودّهم وتأبيدهم له حتّى تستقر دعائم حكمه، وفي سبيل ذلك حرص على إحقاق العدل، ورفع الظلم الواقع عليهم خلال عهود أسلافه، فأمر بهدم السجون بعد أن أطلق سراح من فيها⁽⁶⁾، وردّ ما صادره والده من دور ودكاكين بناحية باب الشماسية حينما شرع ببناء قصر جديد⁽⁷⁾، وبنى مسجداً جامعاً تُقام فيه صلاة الجمعة⁽⁸⁾، ثمّ وزع المال على الرعية، فاستمال قلوبهم، وأكثروا من

* يُنظر حوله: البحث، ص 231.

(1) سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 258. الذهبي، سير، ج 13، ص 480. السيوطي، تاريخ، ص 581.

(2) الطّبري، ج 10، ص 88.

(3) الخطيب البغدادي، ج 16، ص 258. ابن الجوزي، ج 13، ص 4.

(4) ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. الخطيب البغدادي، ج 13، ص 214. ابن الجوزي، ج 13، ص 3. ابن كثير، ج 14، ص 724.

(5) زامباور، ص 3.

(6) الطّبري، ج 6، ص 88. المسعودي، مروج، ج 4، ص 219. الخطيب البغدادي، ج 1، ص (428-429). ابن الجوزي، ج 13، ص (5-6).

(7) سبط ابن الجوزي، ج 6، ص 412. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 258. ابن خلّكان، ج 6، ص 429. النويري، ج 23، ص 3. الذهبي، سير، ج 13، ص 480. السيوطي، تاريخ، ص 582.

(8) سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 259. السيوطي، تاريخ، ص 582.

(9) الخطيب البغدادي، ج 1، ص (428-429). ابن الجوزي، ج 13، ص (5-6). سبط ابن الجوزي، ج 16، ص (258-259).

السيوطي، تاريخ، ص 582.

الدعاء له⁽¹⁾، وأمر كذلك بإطلاق سراح الأمراء العباسيين الذين اعتلقهم الوزير عندما شرع بأخذ البيعة له، وبعد أن سرحهم فرض لكل واحد منهم ألف دينار⁽²⁾، وخلع على وزيره القاسم بن عبيد الله وأكرمه؛ اعترافاً منه بفضلته في عقد البيعة له، وحسن تدبيره في ضبط شؤون الدولة في أثناء تواجده خارج بغداد⁽³⁾، وانتهج سياسة قائمة على التسامح والرفق؛ فقد كان بعيداً تمام البعد عن البطش، كارهاً لسفك الدماء⁽⁴⁾، ونتيجة ذلك كله "دانت له الناس، وأحبته الرعايا"⁽⁵⁾، وبذلك يكون المكتفي بالله قد نجح في توطيد دعائم بيعته بعد أن ضمن ولاء العامة والخاصة وأرباب الدولة.

أمّا بخصوص حدود دولته ونطاقها الجغرافي، فتجدر الإشارة أولاً إلى أنّ دولة الخلافة الإسلامية كانت قد بلغت مع بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي أقصى اتساع جغرافي لها، وحافظت حتّى نهاية العصر الأموي على وحدتها السّياسيّة تحت قيادة سلطة مركزية واحدة. وبعد قيام الدولة العباسيّة عام 132هـ/750م بدأت عناصر التفكك تبرز بقوة، على الرغم ممّا اتّسمت به هذه الدولة خلال عصرها الأوّل من مظاهر القوة والعظمة، غير أنّها فشلت في المحافظة على ديمومة نفوذها السّياسي والإداري في غير ولاية؛ بسبب ظهور الدويلات المستقلة؛ إذ شكّل نجاح الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل (138-172هـ/755-788م) عام 138هـ/755م في تأسيس الإمارة الأموية في الأندلس البداية الفعلية لظهور هذه الدويلات المستقلة التي أخذت تتنازع الدولة العباسيّة في زعامتها السّياسيّة على العالم الإسلامي، وبعد قيام الدولة الرستمية عام 160هـ/777م، ودولة الأدارسة عام 172هـ/788م، ودولة الأغالبة عام 184هـ/800م؛ فقد العباسيون نفوذهم السّياسي في بلاد المغرب الإسلامي، في حين شهد عام 205هـ/820م ظهور الدولة الطاهرية، أولى الدويلات المستقلة في بلاد المشرق الإسلامي.

(1) المسعودي، مروج، ج4، ص219. سبط ابن الجوزي، ج16، ص259.

(2) التّوخي، نشوار، ج6، ص(133-134). الخطيب البغدادي، ج11، ص305.

(3) ابن مسكويه، ج4، ص397. سبط ابن الجوزي، ج16، ص258. الذهبي، سير، ج14، ص(18-19). السيوطي، تاريخ، ص581.

(4) الدميري، ج1، ص130.

(5) الدواداري، ج5، ص314.

وشجّع ضعف الخلافة العبّاسيّة خلال العصر العبّاسي الثّاني (يُنظر قائمة خلفائه: الملاحق، جدول رقم 1) على اشتداد وطأة الحركات الانفصالية في أنحاء الدّولة كأكّة؛ بفعل عوامل مختلفة كان منها الثّورات الشعبيّة، كحال الصفاريين في سجستان*، أو بفعل وجود طموحات عند بعض الولاة في الاستقلال عن جسم الدّولة، كحال السّامانيّين في خراسان** وما وراء النهر، وما شجّع على ذلك أيضاً حرص ولاة الأقاليم، خاصّة زعماء الترك منهم على عدم مغادرة العاصمة؛ خشية تعرّض مصالحهم للخطر؛ ما دفعهم إلى إرسال نواب عنهم يعهدون إليهم بإدارة شؤون أقاليمهم، وعندما كان يتضعض نفوذ والي، يسارع النائب إلى انتزاع الإقليم الموكل بإدارته لنفسه، وينفصل به عن الدّولة؛ كما حدث لدى الطّولونيّين في مصر وبلاد الشّام⁽¹⁾، فتقلّص نطاق الدّولة الجغرافي تقلّصاً كبيراً، واقتصرت بالدرجة الأولى على العراق، في حين شهد نفوذ العبّاسيين في الولايات الأخرى حالة من المدّ والجزر؛ تبعاً لمراحل القوة والضعف التي كانت تمرّ بها كلّ من الدّولة العبّاسيّة والأطراف الحاكمة في الدويلات المستقلة.

وبذل المعتضد بالله جهوداً كبيرة في سبيل استعادة أكبر مساحة ممكنة من الأراضي التي انفصلت عن سيادة العبّاسيين لصالح الحركات الانفصالية في أقاليم الدّولة المختلفة؛ فنجح عام 287هـ/900م في إنهاء وجود الزيديّين في طبرستان، والصفاريين في سجستان؛ وذلك بعد أن ضربهم بسامانيين؛ ما عزّز من نفوذه في الولايات الشّرقية⁽²⁾، وتمكّن أيضاً من فرض سيادته على قنشرين والعواصم التي كانت وقتذاك تحت حكم الدّولة الطّولونيّة؛ مقابل اعترافه بولاية هارون بن خمارويه على مصر

* **سجستان**: إقليم جغرافي يقع إلى الجنوب الشّرق من خراسان، وإلى الشّمال الغربي من مكران، ويحيط به من الغرب بلاد السند، ويضم عدداً من المدن والبلدات، ومن أشهر مدنه: زرنج وهي قصبته، والطاق، ويشتهر بوفرة مياهه ومحاصيله الزراعيّة، ويقع هذا الإقليم في الوقت الراهن ضمن أراضي إيران، وباكستان، وأفغانستان. يُنظر: الحميري، ص(304-305). سوريديل، ص(491-492).

** **خراسان**: إقليم جغرافي واسع، يقع إلى الجنوب من خوارزم، ويحدّه من الشّمال الشّرقى إقليم ما وراء النهر، ومن الشّرق الجنوبي بلاد السند وسجستان، ومن الجنوب بلاد فارس، ويُعدّ من أخصب بلدان المشرق وأكبرها، ومن أشهر مدن: نيسابور وهي عاصمته، ومرو، ويمثّل هذا الإقليم الآن الجزء الشّمال الشّرقى من إيران. يُنظر: زيدان، ج2، ص51. سوريديل، ص(382-383).

(1) الدوري، دراسات، ص(15-16).

(2) الطّبري، ج10، ص81، ص(76-77)، ص83.

وبلاد الشام⁽¹⁾، وعلى الرغم من ذلك فقد ورث المكتفي بالله عن والده دولة مقطّعة الأوصال، وقد عبّر ابن خلدون عن ذلك بقوله: "كان أكثر النواحي في دولة المعتضد غالباً عليها كخراسان وما وراء النهر لابن سامان، والبحرين للقرامطة، ومصر لابن طولون، وإفريقية لابن الأغلب"⁽²⁾، غير أنّ جهود المعتضد بالله هيأت الظروف للمكتفي بالله، ومكّنته من ضمّ ولايات جديدة لحاضرة الخلافة العباسيّة؛ فقد نجح الأخير عام 292هـ/905م في انتزاع مصر والشّام من الطّولونيّين⁽³⁾، فتحقّق له ما عجز عنه جدّه ووالده، وامتدت حدود الدّولة العباسيّة ونطاقها الجغرافي في عهده على النحو الآتي:

خضعت بلاد العراق ومنطقة الجزيرة للسيادة العباسيّة الكاملة، وفي بلاد الشّام اقتصر نفوذ العباسيين في البداية على منطقة العواصم والثّغور الشماليّة⁽⁴⁾، وبعد نجاح المكتفي بالله في القضاء على الدّولة الطّولونيّة سنة 292هـ/905م، تمكّن من بسط نفوذه على الشّام ومصر⁽⁵⁾، واقتصر نفوذ الدّولة العباسيّة في بلاد المشرق الإسلامي على أقاليمها الحدودية المتاخمة للعراق في منطقتيّ الجبال⁽⁶⁾، وخوزستان*⁽⁷⁾، أمّا باقي ولايات تلك الأنحاء؛ فقد خضعت بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان لنفوذ السّامانيّين الذين وسّعوا من حدود دولتهم على حساب الصفاريين والزّيديين بعد تمكّنهم من القضاء عليهم⁽⁸⁾، وعزّز المكتفي بالله من نفوذهم بعد أن ولّى إسماعيل بن أحمد السّاماني على

(1) الطّبري، ج10، ص70. ابن خلدون، ج3، ص439.

(2) ابن خلدون، ج3، ص441.

(3) الطّبري، ج6، ص(118-119). المسعودي، التنبيه، ص324. الكندي، ص(246-248).

(4) الطّبري، ج10، ص71، ص97. المسعودي، التنبيه، ص325. ابن سعيد القرطبي، ص71. ابن الأثير، ج6، ص397، ص420. ابن العديم، ج6، ص2725. ابن شداد، ج3، قسم 1، ص32. النويري، ج22، ص(258-259). ابن خلدون، ج3، ص439.

(5) الطّبري، ج10، ص(119-120). المسعودي، التنبيه، ص324. الكندي، ص(244-248). ابن سعيد، ص(14-17). المقرئزي، المواعظ، ج2، ص(135-136).

(6) الطّبري، ج10، ص90، ص137. ابن عساکر، ج47، ص346. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص153.

* خوزستان: إقليم جغرافي يقع في جنوب غرب إيران، يمتد جنوباً بين بلاد فارس والبصرة، ويصعد شمالاً حتّى يشمل المنطقة الواقعة بين واسط وتخوم أصبهان، وتُعدّ مدينة الأهواز، وجند يسابور، وعسكر مكرم من أشهر مدن هذا الإقليم. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص404. يُنظر: سوريدي، ص(403-404). الأُلشي، ص(56-57).

(7) ابن خلدون، ج4، ص430. يُنظر أيضاً: الأُلشي، ص(56-57).

(8) الطّبري، ج10، ص81، ص(76-77)، ص83. ابن الجوزي، ج13، ص47. ابن الأثير، ج6، ص436.

مدينة الري عام 290هـ/903م⁽¹⁾، وولى في العام نفسه طاهراً بن محمد بن عمرو ابن الليث بن الصفار على بلاد فارس وسجستان؛ مقابل مبلغ من المال، مانحاً إياه بذلك استقلالاً شبه ذاتي في إدارة شؤون هذه الولاية⁽²⁾.

وفي شبه الجزيرة العربية (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 5) فرضت الدولة العباسية سيادتها على الحجاز⁽³⁾، وعُمان⁽⁴⁾، في حين أخضع القرامطة بقيادة أبي سعيد حسن الجنابي (286-301هـ/899-914م) نصف أرض البحرين* لسلطتهم، ثم تمكنوا من قصبتها هجر التي سقطت في أيديهم سنة 290هـ/903م، ودانت البحرين كلها لهم⁽⁵⁾، أما اليمن فقد كان الحضور العباسي فيها ضعيفاً، على الرغم من قيام المكتفي بالله بتعيين غير والٍ عليها⁽⁶⁾؛ فقد كانت السيطرة الفعلية على الأرض لكل من الإسماعيليين بقيادة علي بن الفضل (ت. 303هـ/916م)، وأبي القاسم الحسن بن حوشب (ت. 302هـ/915م)، والزبيديين بقيادة الإمام الهادي إلى الحق (284-298هـ/897-911م)، والأسر المحلية بزعامة بني يعفر*⁽⁷⁾.

(1) الطُّبري، ج 10، ص 96. الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص (121-122). ابن الأثير، ج 6، ص 416. النويري، ج 25، ص (203-204).

(2) الطُّبري، ج 10، ص 98، ص 121. ابن مسكويه، ج 4، ص 406، ص 415. ابن الأثير، ج 6، ص 420. ابن خلدون، ج 3، ص 440.

(3) الطُّبري، ج 10، ص 84، ص 128. العلوي، ص 396. ابن سعيد القرطبي، ص 23. نشوان الجُميري، ص 250.

(4) مجهول، تاريخ، ص (71-75). السالمي، ج 1، ص (220-224).

* **البحرين**: وعرفت بالأحساء، وخاصة بعد أن أقام فيها القرامطة دولتهم مع مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وقد أُطلق اسم البحرين قديماً على القسم الأوسط من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية المطل على الخليج العربي، ويظهر أن هذا الاسم جاء نسبة إلى شبه الجزيرة (قطر حالياً) التي تمتد من هذا الشاطئ وتقسّم الخليج العربي إلى بحرين، ويشتهر هذا الإقليم باللؤلؤ، وزراعة النخيل. يُنظر: أويسترب، مادة البحرين، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج 6، ص (1594-1596). سوريدي، ص (209-210)، ص 354. مؤنس، ص 194.

(5) دي خويه، ص (46-47).

(6) الطُّبري، ج 10، ص 128. العلوي، ص 252، ص 347. إدريس الحمزي، ص 54.

* **بنو يعفر**: من أعظم قبائل اليمن، وهم فرّع من زيد بن كهلان أحد بطون القحطانية، وفرضت هذه الأسرة سيطرتها على مناطق شاسعة من اليمن خلال فترة طويلة امتدت بين أعوام (247-352هـ/861-963م)، ويُعدّ أسعد بن إبراهيم بن يعفر (291-332هـ/904-944م) المعروف بأسعد الأول أحد أبرز أمرائها. يُنظر: زامباور، ص (179-180). كحالة، ج 3، ص 1115.

(7) الطُّبري، ج 10، ص 84. العلوي، ص 250، ص 355، ص (389-393). نشوان الجُميري، ص (250-254). إدريس الحمزي، ص (51-63). يُنظر أيضاً: أحمد، ص (103-113).

الفصل الثّاني

سياسة الدّولة تُجاه الثّورات الدّاخليّة

الفصل الثاني

سياسة الدولة تجاه الثورات الداخلية

سياسة المكتفي بالله تجاه أبناء الأسرة العباسية والعلوية

اتّسمت سياسة المكتفي بالله تجاه الهاشميين أبناء الأسرة العباسية والعلوية بالودّ والمسالمة والإحسان؛ "وخصّ أهل بيته بالكرامة والحباء كثيراً"⁽¹⁾، وأثّر عنه أنّ أول ما قام به بعد تولّيه الخلافة أن أحضر إخوته وضمّمهم إليه وقبلهم، ثمّ عزّاهم بوفاء أبيهم، ومثّاهم خيراً بخلافته⁽²⁾، وأحسن كذلك إلى أبناء عمومته، ولم يعرض أحداً منهم للقتل أو التنكيل، ومن قبيل ذلك أنّ الوزير القاسم بن عبيد الله كان قد قبض على عبد الله بن المعتز وقصّي بن المؤيد بالله وعبد العزيز بن المعتمد على الله حين باشر بأخذ البيعة له خلال إقامته بركة، فلمّا دخل المكتفي بالله إلى بغداد سارع إلى إطلاق سراحهم، وزاد على ذلك بأن وصل كلّ واحد منهم بألف دينار⁽³⁾، وتكرّر هذا الموقف في آخر أيامه؛ وذلك حين رفض دعوات حاشيته بالمسارعة بالتنكيل بعبد الله بن المعتزّ وأبي عبد الله محمد بن المعتمد على الله (ت. 295هـ/908م)؛ بعد أن تردّد اسماهما بقوة على ألسنة العامة كأبرز المرشحين للخلافة بعد وفاته، ولمّا تأكّد من عدم وجود أيّ أطماع لديهما في تولي الخلافة زاد إصراره على موقفه، فلا ذنب لهما أن يتعرّضا لمكروه؛ جراء أخبار كاذبة تناقلتها ألسنة العامة⁽⁴⁾.

وقدّر المكتفي بالله كبار الأمراء العباسيين، وجعل لهم حظوة ومنزلة عالية في دولته؛ ومن ذلك أنّه حين تولّى الخلافة خلع على عبد الله بن المعتز، وسيّره في موكبه، وهو في أحسن حال، بعد أن دعاه إلى لبس السواد، والترّين بأجمل السيوف، ثمّ جعله من أخصّ ندمائه⁽⁵⁾. وعلى الرّغم من الموقف الإيجابي الذي اتّخذه المكتفي بالله تجاه الأسرة العباسية، إلّا أنّ هذا السلوك الحسن تخلّله

(1) ابن العماد الحنبلي، ج3، ص402.

(2) سبط ابن الجوزي، ج16، ص258.

(3) التّوخي، الفرج، ج2، ص(9-10). التّوخي، نشوار، ج6، ص(133-134). الخطيب البغدادي، ج11، ص305. سبط

ابن الجوزي، ج16، ص(256-257).

(4) ابن سعيد القرطبي، ص27. ابن العمراني، ص152.

(5) ابن العمراني، ص150.

حدوث تجاوزات كبيرة في عهده؛ منها مقتل عمّه عبد الواحد بن الموفق بالله سنة 289هـ/902م سرّاً⁽¹⁾، وظلّ هذا الحدث طيّ الكتمان إلى أن شاع بعد وفاة الوزير القاسم بن عبيد الله⁽²⁾، وقيل بعد وفاة المكتفي بالله⁽³⁾، وفيما يتعلّق بمسؤولية المكتفي بالله عن ذلك؛ لم تصرّح المصادر بوجود نية أو حتّى صدور أوامر منه بتنفيذ عمليّة القتل⁽⁴⁾، ويرى المسعودي (ت. 346هـ/957) أنّ هذا القرار تمّ بأمر مباشر من الوزير القاسم بن عبيد الله، دون أن يكون للخليفة علم به، بعد أن فشلت خطّته في إقناع المكتفي بالله بقتل عمّه؛ فقد سبق له أن نقل إليه ما يفيد بوجود أطماع في الحكم لدى عبد الواحد، فأمر الخليفة بتقصّي حقيقة هذا الخبر، ليكتشف بعدها عدم صحة ما نُقل إليه؛ فلم يكن لعمّه همّ سوى الانشغال بملذاته وشهواته، وأنّه ليس من الذين تسمو همّتهم نحو الخلافة، غير أنّ الوزير لم يدعُ عبد الواحد حتّى قتله، فلمّا مات الوزير علم المكتفي بالله بقتله عمّه، فأغضبه ذلك حتّى إنّه أراد أن ينبش قبره، ويُخرج بدنه؛ ليضربه بالسياط، ثمّ يحرقه بالنار⁽⁵⁾.

وعُرفَ عن المكتفي بالله محبته لعلّي بن أبي طالب، ولأولاده من بعده؛ فأدناهم منه، وأحسن معاملتهم⁽⁶⁾؛ وبلغت شدّة محبته لهم أن حفظ ديوان الكميّات*، ثمّ صار بعد ذلك دائم الإنشاد له⁽⁷⁾، وكان يكره أن يتعرّض أحد لهم بسوء؛ ومن قبيل ذلك أنّه أنكر خلال إقامته برقة على يحيى بن علي المنجم (ت. 300هـ/913م)* قصيدة أشاد فيها بفضل أولاد العباس على أولاد علي، فكره منه ذلك

(1) الطّبري، ج10، ص(93-94). المسعودي، مروج، ج4، ص(224-225). ابن الأثير، ج6، ص414.

(2) المسعودي، مروج، ج4، ص225.

(3) الطّبري، ج10، ص94. ابن الأثير، ج6، ص414.

(4) الطّبري، ج10، ص(93-94). المسعودي، مروج، ج4، ص(224-225). ابن الأثير، ج6، ص414.

(5) المسعودي، مروج، ج4، ص(224-225).

(6) ابن سعيد القرطبي، ص27. التّوخي، الفرّج، ج2، ص(9-10). التّوخي، نشوار، ج6، ص(133-134). الخطيب البغدادي، ج11، ص305. ابن العمراني، ص150، ص152. ابن دحية الكلبي، ص94. سبط ابن الجوزي، ج16، ص(256-257)، ص338. الدميري، ج1، ص130. ابن العماد الحنبلي، ج3، ص402.

* ديوان الكميّات: نسبة إلى صاحبه الشاعر الكميّ بن زيد الأسدي (ت. 126هـ/744م)، شاعر الهاشمين، الذي وُصِفَ بأنّه أشعر أهل زمانه، وكان عالماً بأدب العرب ولغاتهم وأنسابهم وأخبارهم، عُرفَ عنه ميله للعلويين وحبّه لهم، وقد نظم في ذلك عديداً من القصائد التي كان أشهرها الهاشميات. يُنظر: الصفدي، ج24، ص(276-278). الزركلي، ج5، ص233.

(7) سبط ابن الجوزي، ج16، ص338.

* يُنظر حوله: البحث، ص(263-264).

حتّى إنّه رفض سماعها إلى آخرها، ولم يُجزه شيئاً عليها⁽¹⁾، غير أنّ ذلك كلّهُ لم يجنّب العلويين من التعرّض لمحاولات التنكيل في عهده، والتي كانت تصدر غالباً عن أرباب دولته؛ فقد استغلّ الوزير القاسم بن عبيد الله فرصة القضاء على صاحب الشّامة؛ للإطاحة ببعض العلويين، حيث قبض على جماعة منهم من دون أن يكون لهم أيّ دور في حركة هذا القرمطي⁽²⁾، وجرّاء ذلك قُتلَ علي بن محمد بن علي بن عبد الله⁽³⁾، وشعر الوزير في آخر أيامه بالذنب؛ نتيجة الجرم الذي ارتكبه بحقهم، فقرّر إطلاق سراحهم قبل وفاته بساعات⁽⁴⁾.

وممّن قُتلَ من العلويين في خلافة المكتفي بالله محمد بن حمزة بن عبد الله؛ قتله محمد بن طغج* غدرًا بعد أن استدّرجه إلى أحد بساتينه⁽⁵⁾، ويضيف أبو الفرج الأصفهاني(ت. 356هـ/967م) في كتابه مقاتل الطالبين إلى الاسمين السابقين محمداً بن علي بن إبراهيم بن محمد، دون أن يذكر سبب مقتله، وزيداً بن الحسين بن الحسين بن زيد الذي قُتلَ سنة 294هـ/906م في طريق مكة على يد القرمطي زكرويه بن مهرويه خلال تعذيبه على الحجيح، ويُعدّ هذا العدد قليلاً إذا ما قورن بالفترات السابقة واللاحقة؛ ما يشير إلى درجة الأمان الكبيرة التي حظي بها العلويون خلال عهد المكتفي بالله⁽⁶⁾.

(1) ابن دحية الكلبي، ص94. الدميري، ج1، ص130.

(2) التّوخي، نشوار، ج7، ص275. ابن الجوزي، ج13، ص27.

(3) أبو الفرج الأصفهاني، ص546.

(4) التّوخي، نشوار، ج7، ص275. ابن الجوزي، ج13، ص27.

* **محمد بن طغج:** أبو بكر الفرغاني التركي، لُقّب بالإخشيد، مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر (333-358هـ/944-969م)، وُلِدَ في بغداد عام 268هـ/882م، وخرج من مصر مع والده بعد سقوط الدولة الطولونية، واتّجه إلى العراق، وبأمر من العباس بن الحسن سُجنَ هو ووالده الذي توفّي بعد مدّة قصيرة، وبعد فترة خرج محمد، وقد أظهر كفاية إداريّة أهلته أن يتولى عديداً من الأعمال، وفي عام 323هـ/935م عهد إليه الراضي بالله بولاية دمشق، وولاية مصر التي كانت تعاني من الاضطرابات الدّاخلية، وقد استطاع أن يستقرّ فيها بعد مجهود كبير بذله في التصدي للثورات والفتن الدّاخلية، وصف بالشجاعة والحزم واليقظة، وطالت ولايته حتّى توفّي في دمشق سنة 334هـ/945م، ونُقِلَ جثمانه إلى القدس حيث دفن فيها. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج7، (683-684). الزركلي، ج6، ص174.

(5) أبو الفرج الأصفهاني، ص548.

(6) نفسه، ص(546-548).

التخلص من بدر المعتضدي 289هـ/902م

شهدت الدولة العباسية خلال عهد المكتفي بالله اندلاع عدد من الثورات والاضطرابات السياسية الداخلية في مختلف أنحاء البلاد، ولم يقتصر نشاطها على الحركات الشيعية؛ إلا أنها لم تصل إلى درجة التهديد الذي وصلت إليه الحركات المذهبية الشيعية، ونشأت هذه الثورات؛ بفعل المتغيرات والظروف السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، وما تخلل ذلك كله من أطوار قوة وضعف مرت بها الدولة، واتخذت الثورات أشكالاً مختلفة؛ تبعاً للأسباب الكامنة وراء اندلاعها، ومقدار درجة الخطورة الناتجة عنها، وطريقة تعامل الدولة معها، فقد أخذت أحياناً طابع التصفيات السياسية؛ كالتخلص من بدر المعتضدي، وأحياناً أخرى طابع الحركات الانفصالية؛ كثورة الخليجي في مصر، وجاءت أيضاً في صورة تمردات قبلية؛ كما حصل من جانب أعراب طي في منطقة فيد وما حولها، وأخيراً تمثلت بثورات عرقية؛ كثورة الأكراد في منطقة الموصل.

ومن الجدير بالذكر أن فترة خلافة المعتضد بالله وابنه المكتفي بالله (256-295هـ/870-908م) قد عُدَّت ذروة مرحلة الصحوة خلال العصر العباسي الثاني؛ فقد استعادت الخلافة عظمتها، وبسط الخليفة سيطرته الفعلية على مؤسسات الدولة ومفاصلها، وعلى الرغم من ذلك فقد بزغ في هذه الفترة نجم القائد العسكري بدر المعتضدي، قائد جيوش المعتضد بالله، وأحد أكثر رجال دولته تأثيراً⁽¹⁾، وفيما يتعلق بنشأته؛ فقد أورد المسعودي بأنه وُلِدَ حراً، وذكره باسم بدر بن خير، وكان والده من موالي المتوكل على الله (232-247هـ/847-861م)، وحين شبَّ بدر عمل في خدمة أحد غلمان الموفق بالله، وفي تلك الفترة اتصل بالمعتضد بالله، وتقرَّب منه، وصار من خاصته، وبعد مدة من توليه الخلافة شاعت الأقدار أن يصبح بدر الرجل الأكثر تقريباً منه، ومع الزمن زادت مكانته، وعلت مرتبته حتى صار الناس يلتصقون منه حوائجهم عند الخليفة؛ ومن قبيل ذلك أن أبا بكر الصولي كانت له أعطية عند المعتضد بالله فلم ينلها إلا بعد أن نظم قصيدة مدح بدران فيها⁽²⁾، وعُرف عن بدر ورعه وتقواه؛ فقد وُصِفَ بأنه كان "عدلاً حسن السيرة... مجاب الدعوة"⁽³⁾.

(1) الطبري، ج10، ص89. المسعودي، مروج، ج4، ص221. ابن مسكويه، ج4، ص399. ابن الجوزي، ج13، ص9. ابن الأثير، ج6، ص413. النويري، ج23، ص4.

(2) المسعودي، مروج، ج4، ص221.

(3) الصفدي، ج10، ص58.

وحين تولى المكتفي بالله الخلافة كان بدر مقيماً بفارس؛ وذلك بعد أن كان قد وجه إليها المعتضد بالله في التاسع من جمادى الآخرة 288هـ/الواحد والثلاثين من مايو 902م⁽¹⁾؛ لحرب طاهر بن محمد الصفار (287-296هـ/900-909م)* الذي كان قد تغلب على هذه الولاية سنة 287هـ/901م، وتتخى الأخير عن فارس قبيل وصول بدر إليها، ثم أقام بدر مدة من الزمن ضبط خلالها شؤون الولاية، وعلى الأرجح أنه قد تولّاها للمعتضد بالله، ومكث على ذلك إلى أن توفي الخليفة⁽²⁾، وبُعيد ذلك بفترة وجيزة ظهرت رغبة جامحة عند المكتفي بالله بضرورة التخلص من بدر دون أن يُظهر الأخير أيّ بوادر عصيان تُجاه الخليفة الجديد.

ولعب الوزير القاسم بن عبيد الله الدور الأبرز في إقناع المكتفي بالله بتصفية بدر المعتضدي؛ لخلافات سابقة بينهما؛ فقد عزم القاسم فيما مضى على صرف الخلافة عن أولاد المعتضد بالله حال وفاته، ولكي يضمن نجاح مخططه، كان لا بدّ له من إيجاد حليف قوي يساعده، فوقع اختياره على بدر⁽³⁾، وأخذ منه العهود والمواثيق على ألا يفشي سره⁽⁴⁾، غير أنّ الأخير رفض ذلك بقوة، وأصرّ على تولية أولاد المعتضد بالله، وعبر عن ذلك بقوله: "ما كنت لأصرفها عن أولاد مولاي"، وحين تأكد للوزير تشبّثه بموقفه أدرك أن لا أمل له في تحقيق مسعاه، وأنّه لا طاقة له بمخالفة بدر "صاحب جيش المعتضد، والمسؤول عن أمره، والمطاع في خدمه وغلمانه"، ويبدو أنّ هذه الحادثة ولدت حقداً كبيراً من جانب الوزير عليه، وجعلته يُضمر الشر له، وينتظر الفرصة المناسبة للفتك به، ولما توفي المعتضد بالله كان بدر مقيماً بفارس، في حين لعب الوزير دوراً كبيراً في أخذ البيعة للمكتفي بالله الذي كان مقيماً بالرقّة، ولما استقرت البيعة للخليفة الجديد خشي الوزير أن يطلعه بدر على نواياه بخصوص صرف البيعة عنه وعن إخوته، فأخذ يوقع به عند الخليفة، ونجح بمهارة في

(1) الطبري، ج10، ص(83-84).

* **طاهر بن محمد الصفار**: أبو الحسن، استولى على فارس بعد هزيمة جدّه الليث بن عمر الصفار على يد السامانيين سنة 287هـ/900م، وقد أقرّه المكتفي بالله على فارس عام 290هـ/903م، استبدّ به مولاه السبكي، وتغلب عليه، ثم وُجّه أسيراً إلى المقتدر بالله سنة 296هـ/909م. يُنظر: الطبري، ج10، ص84، ص98، ص(141-143). طقوش، تاريخ الدولة، ص188.

(2) الطبري، ج10، ص84. ابن مسكويه، ج4، ص399. ابن خلدون، ج3، ص440.

(3) الطبري، ج10، ص89. ابن مسكويه، ج4، ص398. ابن الجوزي، ج13، ص(8-9). ابن الأثير، ج6، ص413. النويري، ج23، ص3. الذهبي، سير، ج13، ص481.

(4) ابن مسكويه، ج4، ص398. ابن الأثير، ج6، ص413.

زيادة التباعد بين المكتفي بالله وبين بدر⁽¹⁾، وعلى نحو مفاجئ ظهر الخليفة وكأنه قد تنبأ رأي وزيره، وصار شريكاً له في مخططه لتصفية بدر.

وعند تحليل مجمل الأسباب التي دفعت الخليفة إلى اتخاذ قرار التخلّص من بدر المعتضدي، نجد أنّ المصادر لم تعالج على نحو واقعي دوافع هذا القرار. وفيما يخصّ ولاية العهد في عهد المعتضد بالله، فإنّ الأخير لم يفكر عملياً في تسمية ابنه علي ولياً لعهدّه إلّا حينما باغته المرض في شهر ربيع الآخر 289هـ/إبريل 902م⁽²⁾؛ أيّ قبل أكثر من عام من توجه بدر إلى فارس، وهي أقلّ فترة زمنية يمكن أن نحددها لتاريخ التقاء الوزير ببدر وما جرى بينهما بخصوص ولاية العهد، ثمّ كيف تأتّى للوزير أن يتوقّع وفاة الخليفة خلال هذه الفترة وهو ما زال في منتصف الأربعينيات⁽³⁾، أم أنّه أراد أن يستأثر بسلطة لنفسه، ويتغلّب على الخليفة مع أنّ المعتضد بالله لم يكن بالخليفة الضعيف الذي يمكن أن يُملى عليه ما وجب فعله من عدمه، ولو أنّ الوزير كانت لديه نية في صرف الخلافة عن المكتفي بالله، فإنّ الفرصة قد سحّت له حين توفّي المعتضد بالله، في ظلّ غياب المكتفي بالله في الرقة، وبدر في فارس، إلّا أنّه لعب دوراً رئيساً في أخذ البيعة للمكتفي بالله⁽⁴⁾.

وإذا افترضنا صحة هذا الرأي، فكيف نفسّر سبب العداوة القائمة بين المكتفي بالله وبدر، وهو الذي تصدّى بقوة لمحاولة الوزير لصرف الخلافة عن أولاد المعتضد بالله، في حين كان علي المكتفي بالله المرشّح الوحيد لخلافة والده في ظلّ صغر سن إخوته جميعاً، وفي النهاية لا يمكن تفسير سبب تصفية بدر بمعزل عن الصّراعات السّياسيّة الدائرة داخل مؤسسات الدّولة؛ فقد أدرك الوزير أنّ نفوذه سيبقى محدوداً في ظلّ تواجد قائد قوي مثل بدر، وعلى نحو عامّ فإنّه بتصفية بدر يكون قد وجه ضربة قوية للحدّ من نفوذ المؤسّسة العسكريّة، لصالح تعزيز دور المؤسّسة الإداريّة، وتمكينها من الهيمنة على مؤسسات الدّولة بما فيها الجيش، وكانت بداية عهد المكتفي بالله هي الفرصة المواتية لفعل ذلك؛ فقد نجح الوزير باستغلال مخاوف الخليفة الجديد من نفوذ بدر ومركزه في الدّولة، ويبدو

(1) الطّبري، ج10، ص89. ابن مسكويه، ج4، ص399. ابن الجوزي، ج13، ص9.

(2) الخطيب البغدادي، ج13، ص(213-214). ابن الجوزي، ج13، ص3. ابن الأثير، ج6، ص(410-411). سبط ابن الجوزي، ج16، ص256. ابن العديم، ج2، ص(823-424).

(3) ابن العمراني، ص140. الذهبي، سير، ج13، ص464. السيوطي، تاريخ، ص571.

(4) الطّبري، ج10، ص89. ابن الأثير، ج6، ص413. النويري، ج23، ص4.

أنّه وظّف لصالحه أيضاً السمعة السائدة خلال هذه الفترة عن القادة العسكريين، وخطورتهم على استقلاليّة السلطة الرسمية وسيادتها، واستثمر كذلك عثرات بدر لتأجيج مخاوف المكتفي بالله تجاهه، وبذل في ذلك قصارى جهده حتّى عبّر المسعودي عن ذلك بقوله: "إنّه جعل في نفس المكتفي من بدر كلّ حالة يقدر عليها من الشر"⁽¹⁾، وفيما يتعلّق بحقيقة موقف بدر، فباعقادنا أنّه لم يضمّر أيّ عداوة للمكتفي بالله، وأنّه حافظ على ولائه له حتّى آخر لحظة؛ وهذا ما ظهر بوضوح خلال الأحداث التي جرت فيما بعد في أثناء هذه الأزمة.

ونظراً لقوة بدر ونفوذه في الدّولة، خاصّة داخل المؤسّسة العسكريّة؛ فقد حرص الخليفة ووزيره إلى الحدّ تدريجاً من مركزه عن طريق تجريده من صلاحيّاته، والتّكيل بأتباعه؛ بغية إضعاف موقفه، حتّى يسهل لهم الظفر به، والتخلّص منه فيما بعد؛ ونزولاً عند ذلك، فقد وجه المكتفي بالله وبشكل سري إلى القادة المرافقين لبدر يأمرهم بمفارقة الأخير، والعودة إلى بغداد، وبالتزامن مع ذلك بعث بعلم بدر مال البيعة إليه؛ حتّى يصرفه للجند المقيمين معه في فارس، ويبدو أنّ دعوة الخليفة لاقت صداها؛ فقد انصرف عن بدر مجموعة من القادة⁽²⁾، قدّروهم ابن مسكويه (ت. 421هـ/1030م) بنحو الثمانين⁽³⁾، وحين وصلوا إلى بغداد أكرمهم الخليفة؛ فقد خلع على واحد وثلاثين منهم، وأجاز عدداً من رؤسائهم بأن كافأ كلّ واحد منهم بمئة ألف درهم، وأجاز من تبقى منهم من دون أن يمنحهم أيّ أعطية⁽⁴⁾، ولعلّه أراد بهذا التصرف الحسن حثّ مزيد من قادة بدر على تركه؛ طمعاً منهم بأمان الخليفة وعطائه.

ويبدو أنّ المكتفي بالله كان متخوّفاً من انفصال بدر عن الدّولة والتمرد عليها في أثناء تواجده في بلاد فارس، بعد أن اتخذ قراراً بعزله عن ولايته؛ ولتفادي ردّة فعل قوية من جانبه، عرض عليه أن يختار بين ولاية أصبهان* والري والجلال، وأن يتوجه على رأس جنده إلى أيّ ولاية يختارها؛ ولعلّه

(1) المسعودي، مروج، ج4، ص220.

(2) الطّبري، ج10، ص(89-90). ابن مسكويه، ج4، ص399. ابن الأثير، ج6، ص413.

(3) ابن مسكويه، ج4، ص399.

(4) الطّبري، ج10، ص90. ابن مسكويه، ج4، ص399.

* أصبهان: وتلفظ أصفهان، وهي من أشهر مدن إقليم الجبال وأكبرها، ويتبع لها عدد كبير من البلدات، وكان يقطنها اليهود بأعداد كبيرة، وتعدّ من أخصب مدن إقليم الجبال، وتشتهر بصناعة الملابس القطنية والحريّة، وتقع الآن وسط غربي إيران. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج1، ص(206-210). الجُمَيري، ص43. سوردیل، ص(121-122).

أراد بذلك صرفه عن فارس، واستدراجه ريثما ينجح بالتخلص منه، إلا أن بدرًا رفض هذه العروض، وأصر على نحو مفاجئ بأن يسير إلى بغداد للقاء الخليفة، فاستغلّ الوزير ذلك لتوسيع الفجوة بينهما؛ فزاد من شكوك الخليفة فيه، وحذّره من خطورة قدومه إلى بغداد، وأتته يريد بذلك أن يغتاله؛ لينفرد بشؤون الحكم، ولم يدع الوزير الخليفة إلا بعد أن عزم الأخير أمره على قتال المعتضدي ومحاربتة⁽¹⁾.

وفي رجب 289هـ/يونيو 902م⁽²⁾، غادر بدر بلاد فارس، وسار باتجاه واسط قاصداً بغداد، وحين علم المكتفي بالله بالأمر اقتحم داره، وقبض على جماعة من قاداته وحبسهم، وصرّح لهم بأنه قد عزل بدرًا عن قيادتهم، وأن من له حاجة بعد الآن عليه أن يلتصقها من الوزير، ثم أمر الخليفة بمحو اسم بدر من على الترس والأعلام، وجردّه من منصبه، فأفقد ذلك مركزه داخل الدولة، وأضحى مجرد متمرّد وجب التخلص منه⁽³⁾، وحاول بدر خلال ذلك أن يصلح علاقته مع الخليفة؛ فوجه إليه رسولاً يحمل كتاباً يشرح فيه حقيقة موقفه منه، غير أن المكتفي بالله تجاهل الكتاب، ونكّل بالرسول⁽⁴⁾، وبالتزامن مع ذلك وجه الخليفة جيشاً إلى واسط⁽⁵⁾ بقيادة الحسين بن علي كورة⁽⁶⁾. وعندما علم بدر بما وقع في بغداد من اقتحام لداره وحبس لغلمانته، سارع في توجيه من يخلص له ابنه هلالاً (ت. بعد 316هـ/928م)*، ولما علم الوزير بذلك أمر بتشديد الحراسة عليه، وفي الوقت ذاته ما أن وصل بدر إلى واسط حتّى انفضّ عنه أغلب قاداته وأتباعه، وطلبوا الأمان من الخليفة⁽⁷⁾، وفي الثاني من رمضان/العاشر من أغسطس⁽⁸⁾، خرج المكتفي بالله على رأس جيش جرار من بغداد؛ بهدف التخلص

(1) الطّبري، ج 10، ص (90-91). ابن مسكويه، ج 4، ص 400.

(2) الطّبري، ج 10، ص 90.

(3) الطّبري، ج 10، ص 90. ابن مسكويه، ج 4، ص (399-400). ابن الجوزي، ج 13، ص 9. ابن الأثير، ج 6، ص 413. ابن الأثير، ج 6، ص 413. النويري، ج 23، ص 4.

(4) الطّبري، ج 10، ص 90. ابن مسكويه، ج 4، ص 400.

(5) الطّبري، ج 10، ص 90. ابن مسكويه، ج 4، ص 400. ابن الأثير، ج 6، ص 413. ابن الأثير، ج 6، ص 413. النويري، ج 23، ص 4.

(6) الطّبري، ج 10، ص 90. ابن الأثير، ج 6، ص 413. النويري، ج 23، ص 4.

* **هلال بن بدر**: أبو الحسن، وعلى الرغم من الإطاحة بوالده استطاع أن يُبقي على نفوذه، ولعب دوراً بارزاً في خلافة المقتدر بالله؛ فقد قُدّ إمارة مصر بين عام 309-311هـ/921-923م، ثم تولى إمارة دمشق خلال عام 313-316هـ/925-928.

يُنظر: ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص (201-206). الزركلي، ج 8، ص 90.

(7) الطّبري، ج 10، ص 91. ابن الأثير، ج 6، ص 413. النويري، ج 23، ص 4.

(8) الطّبري، ج 10، ص 91.

من بدر، وسار إلى أن نزل عند ضفاف نهر دِيَالِي*، وعسكر عنده⁽¹⁾، وهناك وفد إليه من انصرف عن بدر من القوّاد؛ فخلع على بعضهم، ونكّل بجماعة منهم، في حين قبض على عدد منهم، وأمر بشحنهم إلى سجن الجديد⁽²⁾.*

ولجأ الوزير القاسم بن عبيد الله إلى الحيلة والغدر للإيقاع ببدر؛ فقد أرسل في طلب القاضي أبي حازم عبد الحميد بن عبد العزيز(ت. 292هـ/905م)*، وطلب منه المضي إلى بدر وإبلاغه أنّ الخليفة قد منحه الأمان على نفسه وأهله وماله، غير أنّ القاضي شكّك في صحة كلام الوزير، وطلب أن يسمع ذلك مباشرة من الخليفة؛ ما دفع الوزير إلى التراجع عن تكليفه، وإسناد هذه المهمة إلى الوزير القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، وكرّر عليه ما كان قد عرضه على القاضي أبي حازم، فقبل وسار إلى بدر دون أن يشك بنوايا الوزير، وحين التقى بدرًا ركبا في حراقة، وعبرا نهر دجلة، وهناك دارت محادثات بينهما؛ حيث طيّب القاضي خاطر بدر، ونقل له كلام الوزير، ودفع إليه بأمان الخليفة، واستقرّ الرأي بينهما على أن يدخل بدر إلى بغداد سامعاً مطيعاً⁽³⁾، وضمن له القاضي أنّه لن يسلمه لأحد إلّا للخليفة، وأنّه لن يتركه إلّا بعد أن يدخل إلى مجلس الأخير⁽⁴⁾، وحين فرغا من ذلك سار بدر إلى أتباعه وأمرهم أن ينزعوا سلاحهم، وألّا يحاربوا أحداً، ثمّ أطلعهم على مضمون كتاب الأمان، وأبلغهم بنيته لقاء المكتفي بالله⁽⁵⁾.

* **نهر دِيَالِي**: أحد روافد نهر دجلة، وهو نهر كبير يقع إلى الشّرق من بغداد. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص495. الدوري، تاريخ، ص19.

(1) الطّبري، ج10، ص91. المسعودي، مروج، ج4، ص220. ابن مسكويه، ج4، ص400.

* **السجن الجديد**: يقع في الجانب الغربي من بغداد، وبالتحديد إلى الشّمال من الموضع الذي يرفد فيه الصّراة في نهر دجلة، وقد ابْتُني مكان قصر أم جعفر البرمكي الشهير بالقرار، وكان يحيط به سور؛ لحمايته، ومن على سوره كان يُنصب برؤوس بعض العصاة والمارقين، ويشهر بهم، وفي سنة 350هـ/961م هدمه معرّ الدولة البويهية؛ ليستخدم حجارته في بناء قصره بالشماسية، وقد أمر أن يشيّد مكانه بيمارستاناً، غير أنّ وفاته حالت دون ذلك. يُنظر: التميمي، ص(63-64).

(2) الطّبري، ج10، ص91.

* يُنظر حوله: البحث، ص(230-231).

(3) الطّبري، ج10، ص(90-91). المسعودي، مروج، ج4، ص220. ابن مسكويه، ج4، ص(400-401). ابن الجوزي، ج13، ص10. ابن الأثير، ج6، ص413.

(4) الطّبري، ج10، ص93. المسعودي، مروج، ج4، ص220. ابن مسكويه، ج4، ص401. ابن الأثير، ج6، ص414. النويري، ج23، ص4.

(5) الطّبري، ج10، ص92. المسعودي، مروج، ج4، ص220.

ولمّا وصل بدر والقاضي إلى مشارف المدائن⁽¹⁾ اعترضهما محمد بن إسحاق بن كُنداج* في شذاً** هو ومجموعة من الغلمان؛ وكان الأخير قد كلفه الوزير بإلقاء القبض على بدر، وحين أنزلوا بدرًا عن الحراقة وحملوه معهم، تسلّلت الشكوك والريبة إلى نفس الأخير، فطمأنه محمد، وهذا من روعه، ولمّا وصل إلى الوزير خبر إلقاء القبض على بدر، وجه إليه في الحال غلاماً يُقال له: لؤلؤ؛ حتّى يقتله، ويسير برأسه إليه، فتلقّف الأخير بدرًا، وقصد به إلى جزيرة في وسط النهر، حيث قتله واجتزّ رأسه، وترك جثته مكانها، وقصد بعد ذلك معسكر الخليفة⁽²⁾، وكان مقتل بدر يوم الجمعة السادس من رمضان 289هـ/الرّابع عشر من أغسطس 902م⁽³⁾، وحين وضع رأسه بين يدي الخليفة، احتقى بمقتله، وأبدى ارتياحاً كبيراً لتمكّنه من التخلّص منه؛ بقوله: "الآن ذقت طعم الحياة ولذة الخلافة"⁽⁴⁾، ثمّ أمر أن يُنقل رأسه معه إلى بغداد؛ ليحتفظ به هناك، وبخصوص جثة بدر؛ فقد مكثت مكانها إلى أن جلبها أولاده، ونقلوها سرّاً خلال موسم الحج، ودفنوها في مكة؛ نزولاً عند وصيته⁽⁵⁾.

أمّا القاضي أبو عمر محمد بن يوسف فأدرك أنّه قد تعرّض لتضليل الوزير؛ فعاد حزيناً إلى بغداد، وهناك أخذ الناس يقرّعون، ويتهمونه بقتل بدر، حتّى إنهم نظموا فيه أشعاراً وهجوه⁽⁶⁾، ومما قيل فيه:

(1) المسعودي، مروج، ج4، ص220

* محمد بن إسحاق بن كُنداج: أحد قادة الجيش العباسي، تولى عديداً من المهمات العسكرية في عهد المكتفي بالله، ولّاه المقتدر بالله البصرة، وعزله عنها سنة 301هـ/914م، وما لبث أن ولّاه الدينور في العام نفسه. يُنظر: الطُّبري، ج10، ص128. ابن سعيد القرطبي، ص19، ص44.

** شذاً: ومفردها شذاة، وهي نوع من المراكب النهرية، وقد استُعِلَّت أساساً في عمليّات القتال النهرية، واستُعِمِلت في أواخر العصر العباسي لأغراض التجارة، والمواصلات النهرية. يُنظر: النخيلي، ص(75-77).

(2) الطُّبري، ج10، ص92. ابن مسكويه، ج4، ص401.

(3) الطُّبري، ج10، ص92. المسعودي، مروج، ج4، ص220. ابن مسكويه، ج4، ص401. ابن الأثير، ج6، ص413. النويري، ج23، ص4.

(4) المسعودي، مروج، ج4، ص200.

(5) الطُّبري، ج10، ص92. ابن مسكويه، ج4، ص401. ابن الجوزي، ج13، ص10. ابن الأثير، ج6، ص413.

(6) الطُّبري، ج10، ص(92-93). المسعودي، مروج، ج4، ص220. ابن مسكويه، ج4، ص401. ابن الجوزي، ج13، ص10. ابن الأثير، ج6، ص414. النويري، ج23، ص4.

قُلْ لِقَاضِي مَدِينَةِ الْمَنصُورِ بِمَ أَخْلَلْتَ أَخَذَ رَأْسَ الْأَمِيرِ؟!
بَعْدَ إِعْطَائِهِ الْمَوَائِقَ وَالْعَهْدَ دَ وَعَقْدَ الْأَيْمَانِ فِي مَنَشُورِ
أَيَّنَ أَيْمَانُكَ الَّتِي شَهِدَ اللَّـ
إِنَّ كَفَّيْكَ لَا تُفَارِقُ كَفَّيْ—
يَا قَلِيلَ الْحَيَاءِ يَا أَكْذَبَ الْأُمَمِ
لَيْسَ هَذَا فِعْلُ الْقُضَاةِ وَلَا يُخْ—
سِنُ أَمْثَالُهُ وَلَا تَلَاةُ الْجُسُورِ⁽¹⁾

وتحسباً من نشوء ردة فعل قوية من جانب أنصار بدر؛ شنت الدولة حملة تتكيل واسعة طالت قسماً كبيراً من أتباعه؛ فقد نكل ببعضهم، وحبس آخرين، خاصة ممن سبق لهم أن دخلوا في أمان الخليفة⁽²⁾، وصودرت بقية أموال بدر وممتلكاته⁽³⁾، غير أن ذلك كله لم يحل دون خروج رجل من أتباع بدر يُقال له إسحاق الفرغاني؛ وكان الأخير قد لجأ بعد مقتل بدر إلى بادية الكوفة هو وجماعة من أصحابه، فحاربوا خليفة بن مبارك السلمي (ت. 916/303م)*، وتمكنوا من هزيمته، وقتل عدد من رجاله، فندب الخليفة مؤسساً الخازن (ت. 914/301هـ)** لحربهم، وضم إليه جيشاً كثيفاً وجهه إلى الكوفة⁽⁴⁾، وانقطعت بعد ذلك أخبار هذا التمرّد، وعلى الأرجح أنّه لم يستمرّ طويلاً، وأنّه ما لبث أن انتهى بوصول مؤنس إلى الكوفة.

(1) الطُّبري، ج10، ص93. المسعودي، مروج، ج4، ص220. ابن الأثير، ج6، ص414. النويري، ج23، ص(4-5).

(2) الطُّبري، ج10، ص(92-93).

(3) الطُّبري، ج10، ص(92-94). ابن مسكويه، ج4، ص401. ابن الجوزي، ج13، ص10.

* **خليفة بن مبارك**: أبو الأغرّ، من كبار القادة العباسيين، تولّى قيادة عديد من الحملات العسكرية في عهد المعتضد بالله، والمكتفي بالله. يُنظر: الطُّبري، ج10، ص74، ص94، ص104، ص143. ابن سعيد القرطبي، ج11، ص34، ص57. الذهبي، تاريخ، ج7، ص67.

** **مؤنس الخازن**: من قادة الجيش العباسي، أُسديت إليه مهمة قيادة غير حملة عسكريّة في عهد المكتفي بالله، وكان صاحب حظوة ومنزلة عالية عند المقتدر بالله. يُنظر: الطُّبري، ج10، ص79، ص94، ص133، ص141. ابن سعيد القرطبي، ص34، ص45.

(4) الطُّبري، ج10، ص94. ابن الأثير، ج6، ص415.

الثورات في شهرزور وأصبهان وأذربيجان

شهدت مناطق شهرزور وأصبهان وأذربيجان - الواقعة على أطراف حدود الدولة الشرقية خلال عهد المكتفي بالله - نشوب عدد قليل من التمردات التي اتسمت غالباً بالضعف؛ لافتقارها إلى القوة الكفيلة بتحويلها إلى ثورات خطيرة يمكنها تهديد سيادة الخلافة العباسية، وغالباً ما انتهت هذه التمردات دون اللجوء إلى الحل العسكري.

ففي جمادى الأولى 289هـ/إبريل 902م هرب القائد أبو سعيد الخوارزمي من بغداد، وكان قد سبق له أن دخل إليها مستأمناً؛ جزاء جرم قام به، فأجيب، وأقام فيها مدة من الزمن، ثم ما لبث أن هرب منها واتجه إلى تكريت، حيث احتال على عاملها عبد الله الشهير بلقب غلام النون، واستولى على ما أمكنه من أعماله ثم قتله، وسرعان ما غادر تكريت واتجه شرقاً صوب ولاية الجبال قاصداً كورة شهرزور، وهناك اتصل برجل يُقال له ابن الربيع الكردي وصاهره، ثم اجتمع أمرهما على عصيان الخليفة وإعلان التمرد عليه⁽¹⁾، ولم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى قُتل أبو سعيد، فتفرق أنصاره، وفشلت ثورته⁽²⁾.

وخرج في مدينة أصبهان عام 295هـ/928م رجلٌ يُقال له عبد الله بن إبراهيم المسمعي⁽³⁾، ولجأ بادئ أمره إلى قرية تبعد عن المدينة مسافة عشرة فراسخ*، ومنها أعلن تمرده على الخلافة العباسية، ويبدو أن دعوته لاقت صدًى قوياً عند السكان المحليين؛ فقد اجتمع على نصرته عشرة آلاف رجل أغلبهم من الأكراد، ولعله سيطر بعد ذلك على أصبهان⁽⁴⁾، فندب المكتفي بالله لقتاله بدر الحمامي(ت. 311هـ/933)* في جيش مكون من خمسة آلاف مقاتل، بينهم عدد من القادة، ووجه

(1) الطبري، ج10، ص98. ابن الأثير، ج6، ص420.

(2) الطبري، ج10، ص94.

(3) الطبري، ج10، ص137. ابن سعيد القرطبي، ص25. ابن الأثير، ج6، ص440. سبط ابن الجوزي، ج16، ص324.

* الفرسخ: يتألف من حوالي ثلاثة أميال، أو ستة كيلومترات. يُنظر: هنتس، ص(94-95).

(4) الطبري، ج10، ص137. ابن سعيد القرطبي، ص25.

* بدر الحمامي: وعُرف أيضاً ببدر الكبير، أبو النجم، مولى المعتضد بالله، انتظم في خدمة الطولونيين، فولاه هارون بن خمارويه دمشق، وحين قدمت الجيوش العباسية إلى دمشق؛ لانتزاع أملاك الطولونيين، انضم إليها، ثم اتجه مع محمد بن سليمان إلى مصر، وقد أقره الأخير على دمشق بعد انتهائه من القضاء على الطولونيين، ويبدو أنه أقام على ذلك مدة، ثم

ال خليفة بالتزامن مع ذلك منصوراً بن عبد الله بن منصور الكاتب إلى عبد الله المسمعي؛ بهدف التوصل إلى حلّ سلمي، فنجح في أداء مهمته؛ فقد اقنع المسمعي بالعودة إلى الطاعة بعد أن خوفه من عاقبة العصيان، وسار بعد ذلك ومعه ابنه بصحبة منصور الكاتب إلى بغداد؛ للقاء الخليفة الذي أحسن إفادتهما؛ فقد رضي عنه، وخلع عليه وابنه ووصلهما⁽¹⁾، وعلى الأغلب أنه قد صدر أمر بتولية بدر الحمامي على أصبهان، حيث تابع جيشه مسيره إليها، ومكث بدر والياً عليها حتى عام 300هـ/913م⁽²⁾.

وبذل الخليفة جهوداً في الحدّ من نفوذ الحركات الانفصالية التي اندلعت منذ زمن في هذه الولايات، ومن هذه الحركات تلك التي وقف على رأسها بعض قادة إمارة بني الساج (276-318هـ/889-930م) في أذربيجان؛ فقد وجه الخليفة في جمادى الآخرة 295هـ/مارس 908م خاقان المفلي بجيش قوامه أربعة آلاف مقاتل لحرب يوسف بن أبي الساج (288-315هـ/901-928م)⁽³⁾، ولم تذكر المصادر بعد ذلك أيّ خبر عن هذا الجيش، أو إلى ما انتهى إليه مسار هذه الحملة، ولكن من المؤكّد أنّ حكم يوسف بن أبي الساج ظلّ قائماً في أذربيجان حتى مقتله سنة 315هـ/927م⁽⁴⁾.

الثورات في العراق وبلاد الشام

شهدت مدينة البصرة سنة 292هـ/905م اندلاع ثورة لم يُكتَب لها النجاح؛ ما دفع زعيمها الذي لم تصرّح لنا المصادر باسمه إلى التوجه صوب مدينة واسط؛ آملاً في حشد عددٍ كافٍ من الأنصار،

قصد بعدها بغداد، حيث ولّاه المكتفي بالله بعض الأعمال، وقلّده المقتدر بالله ولاية فارس، فمكث والياً عليها إلى أن توفي سنة 311هـ/933م. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج7، ص(599-601). ابن عساكر، ج71، ص(359-363).

(1) الطبري، ج10، ص137. ابن سعيد القرطبي، ص25. ابن الأثير، ج6، ص440. سبط ابن الجوزي، ج16، ص324.

(2) ابن عساكر، ج71، ص361.

* يوسف بن أبي الساج: أبو القاسم، ابن أبي الساج ديوداد بن يوسف، سبق له أن تولّى مكة بين أعوام 262-281هـ/876-894م، وحين انفرد بحكم أسرته اشتبك مراراً مع العباسيين والسامانيين، وقد استطاع أن يلحق بهم عديد من الهزائم، إلى أن تمكّن منه مؤنس المظفر (ت. 321هـ/933م)، ووجّه أسيراً إلى بغداد سنة 307هـ/919م، وأحسن المقتدر بالله معاملته، وأطلق سراحه عام 310هـ/922م، وولاه الري وأذربيجان، وعندما اشتدّ خطر القرامطة اختاره الخليفة؛ للتصدي لهم، وفي سنة 315هـ/927م اشتبك مع أبي سعيد الجنابي عند مشارف الكوفة، حيث انهزم جيشه، وأسِرَ، ثم قُتل. يُنظر: إيوار، مادة بنو الساج، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج17، ص(5425-5427). زامباور، ص(274-275).

(3) الطبري، ج10، ص138. ابن سعيد القرطبي، ص25. سبط ابن الجوزي، ج16، ص324.

(4) إيوار، مادة بنو الساج، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج17، ص5427. زامباور، ص(274-275).

وفي تلك الأثناء كان نزار بن محمد عامل البصرة قد تتبّع أخبار هذا المتمرّد؛ حيث وجه بمن يلقي القبض عليه، ويبدو أنّ هذه المهمة نُفّذت بسهولة، فقيّد، ووجه إلى البصرة، وتتبع الوالي كلّ من ناصره، وألقى القبض على جميع أتباعه الذين بلغوا قرابة الأربعين رجلاً، حيث وجهوا بُعيد ذلك إلى العاصمة، وأُدخل هذا المتمرّد إلى بغداد محمّلاً على فالج*، وسائر رجاله بمن فيهم ولده محمّلين كلّ على جمل، وكان أكثر أتباعه يستغيثون، وينفون علاقتهم بهذا الثائر، وأنهم بريؤون ممّا يُتهمون به، وبعد أن طيفَ بهم في بغداد وجهوا إلى دار المكتفي بالله الذي أمر بحبسهم في سجن الجديد⁽¹⁾.

وفي آخر عام 292هـ/905م⁽²⁾ ولّى المكتفي بالله على الموصل ونواحيها أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان (ت. 317هـ/929م)*⁽³⁾، وما إن وصل إليها في الأوّل من محرم 293هـ/الثاني من نوفمبر 905م، حتّى جاءه خبر تعديّ الأكراد الهذبانية* بقيادة زعيمهم محمد بن بلال على مدينة نينوى**، حيث أغاروا على الأهالي، ونهبوا ممتلكاتهم، وعلى الفور خرج عبد الله بن حمدان من الجهة الشرقيّة للمدينة متتبّعاً لهم، فلاحق بهم عند نهر الخازر***، واشتبك معهم، فقتلَ إثر ذلك رجلًا من وجوه أصحابه يُقال له سيما الحمداني، وعلى الأرجح أنّ الهزيمة قد لحقت بعبد الله؛ ما أجبره على العودة إلى الموصل، وفور وصوله، طلب المدد من الخليفة، ودخلت سنة 294هـ/أواخر 906م، ولم تصل نجدة الخليفة إليه بعد⁽⁴⁾، ولعلّ انشغال الأخير بالحرب ضدّ الخليجي وزكرويه جعله يصرف النظر عن تحركات الأكراد في الموصل.

* الفالَج: الجمل الضخم ذو السنامين. ابن منظور، ج2، ص346.

(1) الطّبري، ج10، ص118. ابن سعيد القرطبي، ص16. يُنظر أيضاً: ابن الأثير، ج6، ص425. النويري، ج23، ص7.

(2) ابن خلّكان، ج2، ص114. ابن خلدون، ج3، ص444.

* عبد الله بن حمدان: والد سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/945-967م)، وكان من قادة الجيش العباسي، مكث والياً على الموصل إلى أن قبض عليه المقتدر بالله مع أخيه الحسين بن عبد الله سنة 303هـ/916م، وقد أُطلق سراحه عام 305هـ/918م، وتولّى بعد ذلك أعمال بعض المناطق إلى أن قُتلَ في أحداث فتنة خلع المقتدر بالله، وبيعة القاهرة بالله سنة 317هـ/929م. يُنظر: الزركلي، ج4، ص83.

(3) ابن الأثير، ج6، ص426. النويري، ج23، ص7. ابن خلدون، ج3، ص444.

* الأكراد الهذبانية: وهم من قبائل الأكراد الكبيرة، ومن بطونها الروادية التي ينحدر منها الأيوبيون. يُنظر: ابن خلّكان، ج7، ص139. الذهبي، سير، ج20، ص588. الصفدي، ج16، ص126.

** نينوى: من كور الموصل، وتقع على ضفة دجلة الشرقيّة بمحاذاة الموصل. يُنظر: الحميري، ص585.

*** نهر الخازر: ومن أسمائه بَرِيشو، ويقع بين الموصل وأربيل. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج1، ص406، ج2، ص337.

(4) ابن الأثير، ج6، ص426. النويري، ج26، ص(69-70). ابن خلدون، ج3، ص444.

واستمرت ثورات الأكراد الهذبانية في تهديد نواحي الموصل، ولمّا يؤس عبد الله بن حمدان من وصول دعم الخليفة، قرّر أن يحشد ما قدر عليه من الجند، وأن يسير إلى حربهم في ربيع أول 294هـ/يناير 907م، وعندما وصل إليهم وجدهم في خمسة آلاف بيت، وفي ذلك دلالة على أنّ عددهم الحقيقي كان على الأقلّ ضعيف هذا العدد، ولمّا رأى الأكراد عزمه على حربهم، صعدوا جبل السلق*، واعتصموا به، وأخذوا ينطلقون من شعابه للإغارة على عساكر عبد الله، ويبدو أنّ الأخير نجح في التضييق عليهم؛ ما دفع زعيمهم محمد بن بلال إلى الجنوح للسلم؛ حقناً للدماء، وكدليل منه على صدق نواياه أبدى استعداداه لتسليم أولاده كرهان عند عبد الله، فأجابه الأخير إلى ما طلب، ورفع الحصار، وبدأ ينتظر قدوم محمد بن بلال إليه؛ لإتمام مراسم الصلح، ويتجهّز في الوقت نفسه للعودة إلى الموصل، إلّا أنّ محمداً بن بلال كان يضمّر الشر، وينوي السير على رأس رجاله إلى أذربيجان؛ ما يعني أنّه لم يكن جاداً في الجنوح إلى السلم، وأنّ غايته ممّا عرضه ما كانت إلّا بهدف التخلّص من الحصار، وكسب الوقت الكافي الذي يتيح له ولأنصاره ترتيب صفوفهم من جديد⁽¹⁾.

وعندما تأخّر محمد بن بلال في المثل بين يدي عبد الله، أدرك الأخير غايته من هذه المماطلة، فحشد من جديد جيشاً آخر لحربه، جاعلاً على رأسه عدداً من إخوته، وفي تلك اللحظات وصلت نجدة الخليفة، فأمرهم عبد الله بالمسير معه، إلّا أنّهم تقاعسوا عن ذلك، فتركهم، وسار بمنّ معه من الجند مقتفياً أثر الأكراد الهذبانية، فوجد جماعة منهم بجوار جبل القنديل*، حيث لحق بهم وقتل بعضاً منهم، في حين صعد البقية إلى قمة الجبل، واعتصموا به؛ ما اضطر عبد الله إلى العودة نحو الموصل⁽²⁾.

ولمّا عاد عبد الله بن حمدان إلى الموصل جمع عساكره، وخلال ذلك اطّلع الخليفة والوزير على خبر الجند الذين تقاعسوا عن نصرته، فأمدّه بقوة عسكريّة أكثر إخلاصاً⁽³⁾، وسار بهم إلى جبل

* جبل السلق: يقع شرقي الموصل، وهو جبل شاهق يُشرف على الزاب. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص238.

(1) ابن الأثير، ج6، ص426. النويري، ج26، ص70. ابن خلدون، ج3، ص444.

* جبل القنديل: يقع شرقي الموصل، ويُعرف أيضاً بجبل شعْران؛ لكثرة نباتاته وأشجاره الشبيهة بشعر الرأس الغزير، ويشتهر بوفرة الفواكه والطيور، وتغطي قممه الثلج شتاءً وصيفاً. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص349.

(2) ابن الأثير، ج6، ص426. النويري، ج26، ص70. ابن خلدون، ج3، ص444.

(3) ابن الأثير، ج6، ص427.

السلق، حيث كان يتحصّن ابن بلال ومن معه من الأكراد الهذبانية، فضرب عليهم حصاراً خانقاً، واقتحم الجبل بحذر، وبثّ العيون أمامه؛ خوفاً من الكمائن، واستمر على ذلك حتّى انتشر رجاله في أرجائه، وخلال هذه المدّة تساقطت الثلوج، وعانى الطرفان من البرد، وصعوبة الحركة، وقلة المؤن، واستمر ذلك عشرة أيام، وحين أدرك محمد بأن لا طاقة له بعبد الله وجنوده، هرب بعياله ونفر من أتباعه؛ ما مكّن عبد الله من اقتحام المعسكر الكردي، والقبض على من تبقي منهم، وهم الأكثرية، واستولى على عتادهم وأموالهم، فطلب الأسرى الأمان، فمنحوه، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم، ولم يقتل منهم إلّا قاتل صاحبه سيما الحمداني، وبعد مدّة دخل محمد بن بلال في أمان عبد الله بن حمدان، وأقام عنده في الموصل، ووُصِفَت سياسة الأخير تجاه أهل ولايته بالحسنة؛ ما أسهم في استقرار الأمن لفترة من الزمن⁽¹⁾، ويبدو أنّ ولاية عبد الله بن حمدان قد جعلت من الحمدانيين أكثر قبولاً لدى أهل الموصل؛ ما ساعد فيما بعد على نشوء الدولة الحمدانية (332-406هـ/944-918م) على أراضي هذه الولاية.

وُقْبِضَ في سنة 294هـ/907م على رجل في بلاد الشام ادّعى أنّه سفياني، وقيل عنه: إنّ كان موسوس، فُقِدَ ووجه إلى الخليفة⁽²⁾، وخلال هذه السنة ثارت الأعراب على الحسين بن حمدان(ت). 306هـ/918م)*⁽³⁾، ثمّ اجتمعوا في شهر رمضان/يونيو على حربه⁽⁴⁾؛ حيث تمكّنوا من هزيمته، واستمروا في ملاحقته حتّى بلغوا به أحد أبواب مدينة حلب⁽⁵⁾.

(1) ابن الأثير، ج6، ص427. النويري، ج26، ص70. ابن خلدون، ج3، ص(444-445).

(2) الطّبري، ج10، ص136. ابن الأثير، ج6، ص435.

* **الحسين بن حمدان**: أبو عبد الله، عم سيف الدولة الحمداني، وأحد كبار القادة العباسيين، عهد إليه المعتضد بالله وأبناؤه من بعده بتنفيذ عديد من المهام العسكرية، وولاه المقتدر بالله عام 299هـ/912م ديار ربيعة، وبعد أن عزله عنها سنة 303هـ/916م خرج عليه، ولم تطلْ ثورته؛ إذ ما لبث أن هُزِمَ ووُجِّهَ أسيراً إلى بغداد، ومكث في سجنه إلى أن توفي. يُنظر: الطّبري، ج10، ص(43-44)، ص104، ص(110-111)، ص(121-123)، ص(135-136). ابن عساكر، ج14، ص58.

(3) الطّبري، ج10، ص136. ابن سعيد القرطبي، ص24. ابن الأثير، ج6، ص435.

(4) الطّبري، ج10، ص136.

(5) الطّبري، ج10، ص136. ابن سعيد القرطبي، ص24.

وتعرّض أعراب طيّ سنة 294هـ/907م للحجيج؛ فقد حاصروهم في فيد*، وكان أمير الحج آنذاك وصيف بن صوارتيكين(ت. 299هـ/912)*، ومكثوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم خرج بعدها وصيف لحربهم؛ حيث تمكّن منهم، وقتل بعضهم، فولّوا إثر ذلك منهزمين، ثم رحل بعدها وصيف بمنّ معه من الحجيج عن فيد، وتابعوا مسيرهم، وفي سنة 295هـ/908م تمكّن الحسين بن موسى من الإيقاع بأعراب طيّ الذي سبق لهم أن اعترضوا وصيف الحجيج؛ فقتل منهم ما يقرب السبعين رجلاً، وأسّر جماعة منهم⁽¹⁾.

ثورة الخليجي في مصر 292-293هـ/905-906م

ما إن وصلت الجيوش العبّاسيّة العائدة من مصر بعد قضائها على الدولة الطولونيّة إلى مدينة حلب حتّى ألقى القبض على القائد محمد بن سليمان الكاتب(ت. 304هـ/917م)*، وفور ذلك تفرّق عن الأخير من كان معه من الجند المصريين؛ فمنهم من أكمل طريقه إلى بغداد، ومنهم من عاد أدراجه نحو مصر، وكان من جملة هؤلاء الذين عادوا رجل يُقال له الخليجي⁽²⁾، أو الخلنجي⁽³⁾، وربما كان

* فيد: من أبرز محطات طريق الحج العراقي (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 6)، وتقع إلى أقصى الشمال الشرقي من المدينة المنورة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص282. مؤنس، ص390.

** وصيف بن صوارتيكين: ذكره ابن عساكر(ت. 571هـ/1176م) باسم وصيف موشكير، وكان عامل هارون بن خمارويه على فلسطين، وحين قدمت الجيوش العبّاسية إلى بلاد الشام حاول مقارعتهم، وعندما عجز عن ذلك التحق بهم، وكان من ضمن من رافقوا محمد بن سليمان عندما خرج إلى مصر، ويبدو أنّه قدم بغداد ونال مكانة عالية عند المكتفي بالله؛ فقد تولّى إمارة الحج، وعهد إليه أيضاً قيادة الجيش الذي وُجّه لحرب زكرويه. يُنظر: الطبري، ج10، ص134، ص(136-137). الكندي، ص245. ابن عساكر، ج63، ص38.

(1) الطبري، ج10، ص(136-137). ابن سعيد القرطبي، ص(24-25). ابن الأثير، ج6، ص435، ص440.

* محمد بن سليمان: أبو علي، عراقي المولد، تلقّب بالأستاذ والكاتب الحنفي، متولّى ديوان الجيش في عهد المكتفي بالله، وأحد أبرز القادة العسكريين في عهده، لعب دوراً كبيراً في إخماد حركة صاحب الشّامة، والقضاء على الحكم الطولوني، نكّل به المكتفي بالله، وحبس، وأطلق سراحه في عهد المقتدر بالله الذي عهد إليه بعض الأعمال، كان آخرها تولّى أعمال الخراج في الري، وقُتل محمد سنة 304هـ/917م على أحد أبواب مدينة الري. يُنظر: ابن الأثير، ج6، ص649. الزركلي، ج6، ص149.

(2) الطبري، ج10، ص119. المسعودي، مروج، ج4، ص277. الكندي، ص260. ابن سعيد القرطبي، ص17. النويري، ج23، ص6. المقرئ، الخطط، ج2، ص142.

(3) ابن مسكويه، ج4، ص414. ابن الأثير، ج6، ص425. الذهبي، سير، ج13، ص483. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص174.

هذا الاسم لقباً لوالده أو لجده، أمّا اسمه فقيل: إنّه إبراهيم⁽¹⁾، وعُرفَ كذلك بأبي عبد الله⁽²⁾ محمد بن علي⁽³⁾، وكان الخليجي في مقتبل شبابه، ويبدو أنّه لم يكن ذاك القائد العسكري الكبير؛ فقد كان ممّن يعملون تحت إمرة القائد الطّولوني صافي الرومي، وقد تبادر إلى ذهن الخليجي في طريق عودته إلى مصر فكرة انتزاع مصر من العبّاسيين، وإحياء الدّولة الطّولونيّة، وباح بذلك لمن معه من القادة والجند المصريين، فلاقت فكرته استحسانهم وقبولهم، وأبدوا استعداداً لنصرته⁽⁴⁾، وبايعوه في شعبان 292هـ/يونيو 905م على إمارة مصر⁽⁵⁾.

واتّجه الخليجي على وجه السرعة نحو الجنوب، وبعد بضعة أيام شارف على مدينة الرملة بفلسطين، فنزل بجوارها، وكان عامل المدينة آنذاك وصيف بن صوارتكين الأصغر، فندب لقتاله جماعة من الجند تبعهم بنفسه بعد أيام، وحين رأى وصيف الخليجيّ في قلّة من الرجال استخفّ به، ثمّ بادر إليه، وعلى نحو غير متوقّع نجح الخليجي بالانتصار عليه، وأنزل به هزيمة قاسية بدّد فيها قوته، وشنتّ شمل عساكره، وبُعِيد ذلك استولى على مدينة الرملة، وأمر بالدعاء على منابرها للمكتفي بالله، ومن ثمّ لإبراهيم بن خمارويه، ومن بعدهما لنفسه⁽⁶⁾، ويتّضح من خلال ذلك اعتراف الخليجيّ ولو شكلياً بتبعيته لكلّ من الخلافة العبّاسيّة والطّولونيّين؛ ويبدو أنّه أراد بذلك أن يحدّ من ردّة فعل العبّاسيين تُجاهه عن طريق اعترافه بشرعيّتهم، وأن يُظهر لهم بأنّه مجرد تابع لهم؛ حتّى يبدّد من مخاوفهم نحوه، ويحول دون قيامهم ولو مؤقتاً بأيّ عمل عسكري ضدّ ثورته الوليدة، ومن جهة أخرى نصّب نفسه وصياً على الحقّ الطّولوني في حكم مصر ريثما تتبعث دولتهم من جديد؛ وذلك بأن دعا لإبراهيم بن خمارويه الذي نجهل عنه أيّ شيء، ويبدو أنّه أراد بذلك كسب ودّ المصريين والشّاميين المتعاطفين مع الطّولونيّين، الذين سبق لهم أن خبروا دولتهم جيّداً، مستغلاً في الوقت نفسه حجم المعاناة الكبيرة التي تعرّضوا لها من الجيوش العبّاسيّة في أثناء قيامها بإنهاء الحكم

(1) الطّبري، ج10، ص119. ابن سعيد القرطبي، ص17. ابن الأثير، ج6، ص425. النويري، ج23، ص6.

(2) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص153.

(3) المقرئزي، الخطط، ج2، ص142. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص147، ص153.

(4) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص147، ص153.

(5) المقرئزي، الخطط، ج2، ص142.

(6) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص(147-148).

الطّولوني في الشّام ومصر، وبذلك يكون الخليجي قد أعطى لنفسه صبغة شرعية عن طريق الجمع بين الولاة العبّاسيين والطّولونيين، وأظهر نفسه بأن لا أطماع خاصّة له في الحكم.

وسرعان ما أثبتت سياسة الخليجي فعاليتها وجدواها؛ فقد توافد إليه الناس بأعداد كبيرة من دون أن يبذل ديناراً واحداً؛ لما ذاقوه من ويلات جزاء تبعات السيطرة العبّاسيّة على بلادهم، ويبدو أنّ الخليجي لم يقيم طويلاً في الرملة، فسرعان ما رحل عنها، وبصحبته عدد كبير من الرجال⁽¹⁾، وخلال ذلك وصلت أخباره إلى والي مصر عيسى النوشري(ت. 297هـ/910م)⁽²⁾، فسارع الأخير في أول رمضان 292هـ/أوائل سبتمبر 905م⁽³⁾ إلى شحن مجموعة من الجند عبر ميناء العريش، ووجههم لقتال الخليجي؛ ويبدو أنّ خطّته هدفت إلى احتواء ثورته قبل وصوله إلى مصر، ورست المراكب العبّاسيّة على شاطئ غزة، وعند وصول الخبر إلى الخليجي سار إليهم، وعلمت عساكر عيسى بذلك، فعادت أدراجها باتجاه العريش⁽⁴⁾، وعلى الأرجح أنّ الوالي لم يحسن تقدير قوة الخليجي، فوجه إليه عدداً قليلاً من العساكر الذي آثروا الانسحاب على الدخول في مواجهة قد تعرّضهم إلى خطر محقق.

وفي شهر رمضان 292هـ/سبتمبر 905م⁽⁵⁾ وصلت إلى بغداد كتبُ عيسى النوشري تُخبر عمّا كان من أمر الخليجي، فحشد الخليفة جيشاً كبيراً، وجعل على قيادته فائق مولى المعتضد بالله (ت. 296هـ/908م)*، وضمّ إليه بدران الحمّامي، وجعل الأخير مستشاراً له⁽⁶⁾؛ ولعله أراد منه أن يستفيد من الخبرة العسكريّة لهذا القائد، ومعرفته بجغرافيّة مصر وطبائع سكانها، وهو الذي سبق له أن أقام فيها مدّة من الزمن، عمل خلالها في خدمة الطّولونيين، وكان خروج هذا الجيش من بغداد صوب مصر في الثّاني عشر من شوال 292هـ/السابع عشر من أغسطس 905م⁽⁷⁾، غير أنّ المصادر

(1) نفسه، ص 148.

(2) المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 142. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 148.

(3) المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 142.

(4) ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 148.

(5) الطّبري، ج 10، ص 119. ابن سعيد القرطبي، ص 17.

* **فائق المعتضدي**: مولى المعتضد بالله، أحد قادة الجيش العبّاسي، برز دوره في عهد المكتفي بالله، وقتل مع الوزير العبّاس بن الحسن خلال أحداث فتنة ابن المعتز سنة 296هـ/908م. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج 6، ص 996.

(6) الطّبري، ج 10، ص 199. ابن سعيد القرطبي، ص 17. ابن مسكويه، ج 4، ص 414. ابن الأثير، ج 6، ص 425.

(7) الطّبري، ج 10، ص 120. ابن سعيد القرطبي، ص 17.

المصريّة بما فيها الكندي(ت. بعد 350هـ/961م) ترى خلاف ذلك؛ فهي تشير إلى أنّ المكتفي بالله وجه في البداية إلى حرب الخليج كلاً من أحمد بن كيغلغ(ت. بعد 324هـ/936م)*، وأبي الأغرّ خليفة بن مبارك السلمي، وبحلول شهر صفر 293هـ/ديسمبر 905م وصل إليه خبر هزيمة هذا الجيش؛ ما دفعه إلى توجيه جيش جديد بقيادة فاتك المعتضدي، وبالتزامن مع ذلك كتب إلى أمير أسطول دميانة(ت. 301هـ/914م)** بالمسير بمراكبه من الثُّغور صوب السواحل المصريّة⁽¹⁾، في حين تؤكد المصادر العراقية أنّ خبر وصول هزيمة أحمد بن كيغلغ إلى بغداد كان في الخامس والعشرين من صفر 293هـ/السادس والعشرين من ديسمبر 905م؛ ما أرغم الخليفة على توجيه جيش جديد صوب مصر⁽²⁾، وعلى الأرجح كانت المصادر المصريّة أدقّ من غيرها في رصد تحركات الجيوش العبّاسيّة، والحديث عن دورها في محاربة ثورة الخليجي؛ فإذا افترضنا صحة خروج فاتك في شوال 292هـ/أغسطس 905م، فكيف نفسّر سبب عدم ورود أيّ دور له في محاربة هذه الثّورة باستثناء الأشهر الأخيرة من عمرها؟ وبالتالي يكون قد قضى في أقلّ تقدير قرابة ستة أشهر في طريقه من بغداد إلى مصر، وهذا يستحيل تصديقه، في حين يشير الكندي بطريقة غير مباشرة إلى أنّ وصول فاتك إلى تخوم مصر كان في جمادى الأولى 293هـ/مارس 906م⁽³⁾، وهذا الرأي يمكن قبوله إذا سلّمنا بأنّ خروجه كان في صفر من هذا العام، وعلى الأغلب أنّ المكتفي بالله وجه جيوشه لحرب الخليجي على مرحلتين: في المرحلة الأولى ندب والي دمشق والأردن أحمد بن كيغلغ، وضمّ

* **أحمد بن كيغلغ**: أبو العباس، تركي الأصل، وُلِدَ في بغداد، وهو أحد كبار القادة العبّاسيين، ولّاه المكتفي بالله دمشق والأردن، وتولّى في عهد المقتدر بالله ولاية مصر ودمشق وأصبهان على فترات، وحين ولي القاهرة بالله أعاده إلى مصر عام 321هـ/933م، ومكث والياً عليها حتّى عام 323هـ/935م، وعُرف عن ابن كيغلغ أنّه كان أديباً شاعراً. يُنظر: الطُّبري، ج10، ص122. ابن عساکر، ج5، ص(179-180). الذهبي، تاريخ، ج7، ص600. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص206، ص242، ص251. الزركلي، ج1، ص85.

** **دميانة**: وعُرف بدميان الصّوريّ، واشتهر بسلام يا زمان، أحد أعظم أمراء البحر المسلمين، وُلِدَ في اليونان، أسره المسلمون وهو حديث السن، وحملوه إلى طرسوس، حيث كان من نصيب واليها يا زمان(ت. 278هـ/891م)، شبّ دميانة في كنف سيّده، وتمرّس على القتال البحري؛ ما أكسبه مهارة وخبرة عسكريّة كبيرة، وأصبح مع الوقت أحد أبرز القادة البحريين المقيمين في طرسوس، واتّصل بالمعتضد بالله، وحين تولّى المكتفي بالله قرّبه منه، وولّاه إمارة الأسطول العبّاسي، وتولّى في عهده قيادة عديد من الحملات البحرية، وظلّ دميانة أميراً للبحر حتّى وفاته سنة 301هـ/914م، وقد تمكّن خلال هذه الفترة من إلحاق عدّة هزائم بالأسطول البيزنطي. يُنظر: تدمري، ص(88-94)، ص(122-129).

(1) الكندي، ص(259-260). المقرئزي، الخطط، ج2، ص142. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص(153-154).

(2) الطُّبري، ج10، ص121.

(3) الكندي، ص260.

إليه أبو الأعز خليفة ابن مبارك؛ آملاً منه في احتواء الثورة قبل اتساع نطاقها؛ نظراً لقربهم من مصر، وسهولة اتصالهم بها، وعندما لاقى هذا الجيش هزيمة نكراء، حشد الخليفة في المرحلة الثانية جيشاً أكثر قوة بقيادة فانتك المعتضدي، وضم إليه بداراً الحمامي، ثم كلف في الوقت نفسه أسطوله بالمسير صوب السواحل المصرية.

وفيما يتعلّق بالخليجي، فقد اقتفى أثر الجند المنهزمين، وسار إلى العريش من جهة البر، وبعد أن وصل، وجدهم قد انسحبوا إلى الفرما* الفرما، ومنها ساروا إلى العباسية**، فتابع ملاحقتهم حتّى نزل مكانهم في (1)، ويبدو أنّ الوالي العباسي حاول جاهداً إيقاف تقدّمه غير أنّه عجز عن ذلك؛ ما يشير إلى تعاظم قوة الخليجي من جهة، ومن جهة أخرى هشاشة النفوذ العباسي الوليد في مصر، وضعف حاميته العسكرية هناك؛ نظراً لطبيعة المرحلة الانتقالية التي كان يمرّ بها الحكم العباسي في هذه البلاد بُعيد قضائه على الطولونيين، وأخذ خطر الخليجي يقترب من الفسطاط؛ ما دفع الوالي في الأوّل من ذي القعدة 292هـ/الرّابع من سبتمبر 905م (2) إلى مغادرة المدينة، ونصّب خيام معسكره عند أحد أبوابها، ثمّ ما لبث أن رحل عنها وسار صوب العباسية (3)، أمّا الخليجي فقد تابع تقدّمه حتّى نزل في جرجير*، وحين علم عيسى النوشري بذلك (4) كرّر راجعاً إلى الفسطاط، وأقام عند أحد أبوابها،

* الفرما: مدينة ساحلية تشرف على البحر الأبيض المتوسط، وتقع إلى الشّرق من بحيرة تّيس، وكانت تشتهر قديماً بجودة تمرها. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص(255-256). مؤنس، ص314.

** العباسية: تقع إلى الشّمال الشّرق من الفسطاط، اختطّها خمارويه بن أحمد عام 282هـ/895م مكان القصر الذي ابنتته أخته العباسية لودع ابنته قطر الندى حينما رُفّت إلى المعتضد بالله، ويّضح من خلال النصوص التاريخية أنّها كانت ذا أهمية كبيرة في العهد الطولوني، ولا تزال العباسية تحتفظ باسمها حتّى يومنا هذا. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص75. رمزي، القسم الأوّل، ج1، ص(69-70).

(1) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص148.

(2) المقرئزي، الخطط، ج2، ص142.

(3) المقرئزي، الخطط، ج2، ص142. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص148.

* جرجير: بلدة تقع بين الفسطاط والفرما. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص123.

(4) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص148.

فلَمَّا جاءه خبر اقتراب الخليجي منه⁽¹⁾، دخل هو وعامل خراج الحسين بن أحمد الماذرائي*⁽²⁾ إلى المدينة على عجل في يوم الثلاثاء الرَّابِع عشر من ذي القعدة/السابع عشر من سبتمبر، وغادرها في صبيحة اليوم التالي بعد أن أحرق جسري المدينة الشرقي والغربي⁽³⁾، وأتت النيران على عدد كبير من المراكب التي كانت راسية عندهما⁽⁴⁾، ويبدو أنَّ خطَّته رمت إلى حرمان الخليجي من استغلالهما والمراكب المتصلة بهما لصالح تعزيز قوته البحرية.

غادر عيسى الفسطاط دون أن يترك بها من يضبطها ويدير شؤونها، واتجه جنوباً، حيث أقام بـبيرة الجيزة؛ خوفاً من الخليجي، وبذلك باتت المدينة لقمة سائغة في فم الأخير، وبالفعل لم يمض وقت حتَّى عمّت الفوضى داخلها، وفي المقابل كانت ثورة الخليجي قد استفحلت، فسار من جرجير قاصداً الفسطاط، حيث دخلها من دون قتال في السَّادس والعشرين من ذي القعدة 292هـ/التاسع والعشرين من سبتمبر 905م⁽⁵⁾، أمَّا المقريري(ت. 845هـ/1442م) فيرى وقوع ذلك في السَّادس عشر من ذي القعدة/التاسع عشر من سبتمبر⁽⁶⁾، وبعد أن دخل الخليجيُّ المدينة طاف بها، وخلال ذلك فرح به أهل مصر، واحتفوا به وبـعساكره، وفي خطبة يوم الجمعة دعا للمكتفي بالله، ثم لإبراهيم بن خمارويه، ومن بعدهما لنفسه، ثمَّ عمد بعد ذلك إلى فرض النظام والأمن داخل المدينة، وعلى الرِّغم ممَّا حققه، فإنَّه لم يغفل ملاحقة عيسى النوشري؛ فانتدب لهذا الغرض رجلاً من أتباعه يُقال له خفيف النوبي، وتابـع الخليجي إلحاق العساكر به من جهة البرِّ والبحر⁽⁷⁾.

(1) المقريري، الخطط، ج 2، ص 142. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج 3، ص 148.

* الحسين بن أحمد الماذرائي: أبو أحمد، وقيل أبو العباس، ويُعرَف بأبي زُبَور الماذرائي الكاتب، من نبلاء الكُتَّاب في العهد الطولوني، ولَّاه المكتفي بالله خراج مصر عام 292هـ/905م، وحين ولي المقنتر بالله أقره في منصبه، وفي سنة 311هـ/923م سخط عليه وعزله واستقدمه إلى بغداد وصادر أمواله، مات الحسين في دمشق، واختلَّف في سنة وفاته بين 314هـ/927م، و317هـ/929م. يُنظر: ابن عساكر، ج 14، ص (15-16).

(2) ابن تغري بردي، النُّجوم، ج 3، ص 148.

(3) المقريري، الخطط، ج 2، ص 148. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج 3، ص 148.

(4) ابن تغري بردي، النُّجوم، ج 3، ص 148.

(5) نفسه، ص (148-149).

(6) المقريري، الخطط، ج 2، ص 142.

(7) ابن تغري بردي، النُّجوم، ج 3، ص 149.

وأخذ الخليجي خلال هذه الأثناء يعمل على تنظيم شؤونه الإدارية؛ فقد عين له وزيراً، وأقام عمالاً على الخراج والشرطة، وفي المقابل استمر توافد الناس إليه حتى بلغ عسكره الخمسين ألفاً، ففرض الأرزاق لهم، ويبدو أن المال الذي كان بحوزته لم يكن كافياً، فاحتاج إلى مزيد، وهنا ظهرت حنكة عيسى النوشري وبراعته، الذي استطاع أن يسبب أزمة مالية مبكرة للخليجي؛ فقد سبق أن كان في الفسطاط تسعمئة ألف دينار معبأة في صناديق لتُحمَل إلى الخليفة، حيث عمد عيسى خلال دخوله الأخير إلى المدينة إلى توزيعها على الناس؛ حتى لا تقع في يد الخليجي، وحين طلبها الأخير لم يجد لها أثراً، ولم يكتفِ عيسى بذلك؛ فقد عمد بمساعدة عامل خراجة الحسين بن أحمد الماذرائي إلى حمل سجلات الخراج؛ حتى لا يصل الخليجي إليها، ويطالب الناس بما يقع عليهم من الخراج، وأخرج معه كذلك جماعة من المقطعين وكُتّاب الخراج؛ حتى لا يطالبوا بما عليهم من مستحقات للدولة، ونتيجة ذلك كادت أن تخلو الفسطاط من أصحاب رؤوس الأموال؛ ما سبب كساداً كبيراً في نشاطه الاقتصادي⁽¹⁾، ولعل ذلك هو ما يفسر سبب اصطحاب عيسى النوشري لعامل خراجة خلال هذه الرحلة الخطيرة.

ولما لم يجد الخليجي مصدراً يؤمن من خلاله الأموال اللازمة له، لجأ إلى المقطعين من أنصاره، وغلظ عليهم حتى يسدّ بعض عجزه، ولكي يستطيع إدارة شؤونه المالية عين مجموعة من الكُتّاب عهد إليهم تنظيم أعمال دواوين الخراج والعطاء، وفي تلك الأثناء نقل مقر إقامته من معسكره على ضفاف النيل بجوار المدينة إلى داخلها، حيث نزل في دار بدر الحمامي التي كانت فيما مضى مسكناً لعيسى النوشري، وحتى يسدّ الخليجي عجزه المالي، لجأ إلى مصادرة الأموال من أعيان مصر ووجهائها، وحفظاً لحقوق الناس، كان عماله يمنحون كل من صودر منه مال وثيقة تؤكد التزامهم بإعادته إليه خلال موسم استيفاء الخراج، وبفعل هذه الإجراءات أخذت أصوات التذمر تلو من جانب المصريين⁽²⁾.

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ص(149-150).

(2) نفسه، ص150.

وبخصوص عيسى النوشري؛ فقد غادر بمنّ معه من الجند، واتّجه صوب الشّمال الغربيّ قاصداً مدينة الإسكندرية البحرية؛ ولعلّه خشي من محاصرة الخليج له إن ظلّ مقيماً في الجيزة⁽¹⁾، ويبدو أنّه أراد أن يتخذ من الإسكندرية مقراً له؛ حتّى يسهل له الاتصال مع الخلافة العبّاسيّة، وتلقّي إمداداتها عن طريق البحر إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، ولكي يستطيع الهرب إذا ما تأزّم الموقف، واستفحل خطر الخليج، وصار من الاستحالة رده، وفي أثناء توجهه عيسى إلى الإسكندرية كان خفيف النوبي يسير في إثره، وحين اقتربوا من المدينة وجه النوشريّ إليها الحسين بن أحمد الماذرائي، وضمّ إليه مَنْ كان معهم من الكُتّاب والمقطّعين؛ حتّى يتحصنوا بها، وبالتّزامن مع ذلك واطب الخليج على إرسال القوات باتجاه خفيف، وكان من ضمن من وجههم إليه محمد بن لمجور ومعه ستّة مراكب، وأمرهم بالمسير إلى الإسكندرية، وعلى الأغلب أنّ هذه السفن انطلقت من القسطنطينية حيث عبرت من قرع الرشيد حتّى وصلت إلى سواحل المتوسط، ثمّ انعطفت غرباً باتجاه الإسكندرية، ووصلت إليها يوم الخميس الخامس عشر من ذي القعدة 292هـ/الثامن عشر من سبتمبر 905م، وما إن رست المراكب في شواطئها حتّى دارت مناوشات بين عسكر الخليج وأهالي المدينة، وتمكن محمد بعدها من دخول المدينة، والقاء القبض على بعض من كانوا مع الحسين بن أحمد الماذرائي، ثمّ استولى على ما وجد فيها من مال لعيسى وللعسك، وفرّقها بعد ذلك بين عساكره، ثمّ خرج من الإسكندرية، وأقام عدة أيام بجوارها منتظراً قدوم عيسى إليه، ولمّا يئس تنحّى عن المدينة، وعاد أدرجه قاصداً القسطنطينية، وخلال ذلك أدرك خفيف النوبي عيسى النوشري في تروجة*، فاصطدم معه، وطالت الحرب بينهما⁽²⁾.

وفي تلك الأثناء، كان أحمد بن كيغلغ وأبو الأغرّ بمنّ معهم من العساكر قد اخترقوا الأراضي المصريّة، واستمروا في التّقدم حتّى وصلوا إلى منية الأصبغ الواقعة إلى الشّمال الشرقي من القسطنطينية، فخرج الخليجي لحربهم⁽³⁾، وفي أثناء مسيره تجاههم ندب لقتالهم رجلاً من قادته يُقال له أحمد بن

(1) المقرئزي، الخطط، ج2، ص142. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص149.

* تروجة: تقع إلى الجنوب الشرقي من بحيرة مريوط جنوبي الإسكندرية، وهي من أعمال هذه البحيرة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص27. مؤنس، ص315.

(2) ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص(150-151).

(3) الكندي، ص259. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص151.

تيتك⁽¹⁾، فاصطدم معهم يوم الخميس الثالث من محرم 293هـ/الرابع من نوفمبر 905م، وتلقّى الجيش العبّاسي هزيمة قاسية، وإثر ذلك قرّر أبو الأغرّ مغادرة الأراضي المصريّة⁽²⁾، وتوجه إلى بغداد على وجه السرعة، وحال وصوله إليها أطلع الخليفة على التطورات الخطيرة الطارئة في مصر⁽³⁾، ويبدو أنّ المكتفي بالله خشي من تعاضم قوة الخليجي ونجاحه في سلخ ولاية مصر عن دولته، بُعيد أشهر من استعادتها من الطّولونيّين، فوجه الخليفة جيشاً برياً كبيراً بقيادة فاتك المعتضدي، في حين أمر دميانة بالتحرك بأسطوله صوب السواحل المصريّة⁽⁴⁾.

ومن ناحية أخرى، طال أمد القتال بين والي العبّاسي عيسى النوشري وخفيف النوبي، وعلى الرّغم من قلة إمكانات القوات العبّاسيّة إلّا أنّ الغلبة كانت لها في معظم المناوشات التي دارت بين الطرفين، وقُتِلَ إثر ذلك عدد كبير من عساكر خفيف، وحين تكالبت الهزائم على الأخير أرغم على العودة إلى الفسطاط بما تبقى معه من الرجال، ولم يكثرث الخليجي بما وقع لخفيف؛ فقد وصل إليه خبر اقتراب جيش فاتك من الأراضي المصريّة، فجهّز فرقة عسكريّة لحرب عيسى الذي اتجه جنوباً صوب الصعيد؛ ولعل خطّته كانت ترمي إلى منعه من الانضمام إلى الجيش العبّاسي، في حين سار هو بنفسه إلى العريش لحرب جيش فاتك، وفي تلك الأثناء تابع الأسطول العبّاسي تقدّمه نحو السواحل المصريّة، وفي العريش دارت سلسلة من المعارك بين القوات العبّاسيّة وقوات الخليجي، وطال أمد الحرب حتّى استنفذت قدرات الفريقين، وعانت مصر كثيراً جرّاء ذلك؛ فقد نضبت خيراتها، وعمّ الغلاء، وعجز الخليجي بعدها على مقارعة الجيوش العبّاسيّة؛ ما أرغمه على الانسحاب نحو الفسطاط، في حين تابعت القوات العبّاسيّة البرية منها والبحرية اختراق العمق المصري⁽⁵⁾، وعلى الأرجح أنّ فاتكاً انحدر جنوباً حتّى يقضي على جيوب ثورة الخليجي القابعة في هذه الأنحاء، في حين ترك إخضاع منطقة الدلتا لدميانة، وبالتالي يجتمع كلاهما على حصار الفسطاط؛ دميانة من جهة الشّمال، وفاتك من جهة الجنوب.

(1) الكندي، ص 259.

(2) الكندي، ص 259. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 142. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 153.

(3) ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 153.

(4) الكندي، ص 260. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 142. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 154.

(5) ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 151.

واصل فاتك تقدّمه حتّى وصل إلى بلدة النويرة*، وعندما علم الخليجي بهذا الخبر، خرج من الفسطاط وضرب خيام عسكره على إحدى أبوابها، فاجتمع عنده أربعة آلاف مقاتل، سار بهم، على وجه من السرعة، صوب النويرة؛ بهدف أخذ فاتك على حين غرّة، ومباغنة معسكره في ساعات الصباح الباكر، ولكي ينجح في ذلك قرّر متابعة المسير ليلاً حتّى يصل في الوقت المناسب، غير أنّ جنده ضلّوا الطريق وتفرّقوا، وحلّ الصباح دون أن يبلغوا النويرة، وعندما وصل خبرهم إلى فاتك، سارع نحوهم، وهاجمهم وهم مفرّقون، فقتل منهم أعداداً كبيرة، وثبت الخليجي في قلة من أصحابه، إلّا أنّه سرعان ما انسحب مسرعاً صوب الفسطاط⁽¹⁾، وكان اندلاع معركة النويرة يوم الخميس الثّالث من رجب 293هـ/الثلاثين من إبريل 906م⁽²⁾.

وفي الخامس من رجب/الثّاني من مايو دخل دميانة بمراكبه إلى الفسطاط، وما لبث أن أقبل بعده عيسى النوشري بأصحابه⁽³⁾، وفيما يتعلّق بالخليجي، فعلى الأرجح أنّ قوته العسكريّة انهارت بعد معركة النويرة، ولكي يتفادى الوقوع في الأسر أعدّ خطة مسبقة بالتعاون مع محمد بن لمجور؛ للهروب من المدينة بأهله وماله إن فشل في منع السيطرة العبّاسيّة على المدينة، وعندما عجز عن مقارعة العساكر العبّاسيّة قرّر الهروب، غير أنّ محمداً بن لمجور غدر به وتركه⁽⁴⁾، فالتجأ إلى رجل يُقال له تريك⁽⁵⁾، واختبأ في بيته⁽⁶⁾ الذي أعدّه مسبقاً لمثل هذه الظروف⁽⁷⁾، وخشي صاحب البيت من عثور العساكر العبّاسيّة على الخليجي مختبئاً عنده، فذهب إليهم في صبيحة اليوم التّالي، وأفشى بسرّه لهم، فقبضَ على الخليجي، ووجه إلى عيسى، وفيما يتعلّق بفاتك المعتضدي، فيبدو أنّ طول المسافة بين النويرة والفسطاط، وانشغاله بتصفية بقايا فلول قوات الخليجي، كان سبباً في تأخّره

* النويرة: من أعمال البهسنا الواقعة إلى الجنوب من الفيوم، وإليها يُنسب شهاب الدين النويري(ت. 733هـ/1332م)، وهي

الآن من قرى بني سويف. يُنظر: السيوطي، لبّ، ج2، ص307. الزركلي، ج1، ص165. مؤنس، ص317.

(1) الكندي، ص(260-261). المقرئزي، الخطط، ج2، ص(142-143). ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص154.

(2) الكندي، ص261. المقرئزي، الخطط، ج2، ص142.

(3) الكندي، ص262. المقرئزي، الخطط، ج2، ص143.

(4) ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص(151-152).

(5) الكندي، ص261.

(6) الكندي، ص261. المقرئزي، الخطط، ج2، ص143. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص152.

(7) ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص152.

لبضعة أيام عن دخول الفسطاط التي وافاها بعساكره يوم الخميس العاشر من رجب/السابع من مايو⁽¹⁾.

وكان الموقف في العراق أكثر توتراً؛ فقد ضاقت الخلافة العباسية ذرعاً بثورة الخليجي، وبدأ صبرها بالنفاذ، وأخذت مخاوف المكتفي بالله تزداد على مستقبل مصر في كنف دولته؛ ما دفعه إلى اتخاذ قرار بالخروج بنفسه إلى الشام؛ للإشراف على حرب الخليجي، ولهذا أخرج مضارب عسكره من بغداد، ونصبها على باب الشماسية* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 1)⁽²⁾ في الثالث والعشرين من رجب 293هـ/العشرين من مايو 906م، ونقلاً عن الطبري فإنه في صبيحة اليوم التالي وافى إلى الخليفة كتب فاتك من مصر تخبره بما كان من أمر الخليجي وهزيمته⁽³⁾، في حين تُقدّر مصادر أخرى وصول هذا الكتاب في شهر شعبان/يونيو⁽⁴⁾، فكتب المكتفي بالله إلى فاتك بحمل الخليجي هو ومن ألقى القبض عليه من أصحابه وتوجيههم حالاً إلى بغداد⁽⁵⁾، ثم أصدر أوامره بحلّ مضاربه، وإرجاعها إلى بغداد، ورُدّت كذلك خزانة السلاح بعد أن جاوزت تكريت⁽⁶⁾.

وبأمر من عيسى النوشري⁽⁷⁾ وفاتك المعتضدي، رُحل الخليجي عن مصر في السادس من شعبان 293هـ/الثاني من يونيو 906م، ومعه قرابة الثلاثين رجلاً من أصحابه⁽⁸⁾، حيث تقرر خروجهم

(1) الكندي، ص 262. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 143. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 152، ص 155.

* باب الشماسية: من أبواب مدينة بغداد، وهو في أقصى شمالها، وجاء اسمه نسبة إلى بلدة الشماسية المجاورة له، وقد ذاع سيط هذا الباب في العهد البويهى بعد أن بنى معز الدولة بجواره قصره الشهير بالدار المعزية. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 361. ص (114-115). جواد؛ سوسة، ص (114-115).

(2) الطبري، ج 10، ص 128. ابن سعيد القرطبي، ص 20. ابن مسكويه، ج 4، ص 421. ابن الأثير، ج 6، ص 427. النويري، ج 23، ص 7.

(3) الطبري، ج 10، ص 128.

(4) ابن مسكويه، ج 4، ص 421. ابن الأثير، ج 6، ص 427. النويري، ج 23، ص 7.

(5) الطبري، ج 10، ص 129. ابن الأثير، ج 6، ص 427.

(6) الطبري، ج 10، ص 129. ابن سعيد القرطبي، ص 21. ابن الأثير، ج 6، ص 428. النويري، ج 23، ص 7.

(7) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 153.

(8) الكندي، ص 263. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 143.

بصحبة أمير الأسطول دميانة الذي سيوصلهم بدوره إلى⁽¹⁾ أنطاكية* ومنها سيُنقلون براً إلى العاصمة⁽²⁾، وأدخل الخليجي وأصحابه إلى بغداد في يوم الخميس الخامس عشر من رمضان/ العاشر من يوليو⁽³⁾ من جهة باب الشماسية⁽⁴⁾ في مشهد عظيم تراحم فيه العامة؛ لرؤيتهم⁽⁵⁾، وبعد أن طيفَ بهم في بغداد وجهوا إلى المكتفي بالله الذي أمر بحبسهم⁽⁶⁾ في سجن الجديد⁽⁷⁾، ولا تذكر المصادر شيئاً عما آل إليه مصير الخليجي باستثناء ابن تغري بردي^(ت. 874هـ/1470) الذي أشار إلى أنه عندما عُرض على الخليفة وبّخه، ونكل به، ثم "قتله شرّ قِتلة"⁽⁸⁾، ثم خلع المكتفي بالله على وزيره العباس بن الحسن^(ت. 296هـ/908م)؛ نظراً لحسن تدبيره في القضاء على ثورة الخليجي⁽⁹⁾.

وبدأ عيسى النوشري بضبط شؤون مصر وإصلاح أحوالها، وتتبع قادة الخليجي وجنده وأنصاره وكُتّابه، فتمكّن من القبض على أكثرهم، وفي شهر رمضان 293هـ/يونيو 906م وفدت كتب عيسى إلى الخليفة تبشّره باستقرار الأوضاع في مصر، وبأن نفوذ دولته قد عمّ أنحاء الولاية⁽¹⁰⁾، وخلال هذه الشهر شرع بهدم ميدان أحمد بن طولون* بأمر من متولّي الخراج الحسين بن أحمد الماذرائي،

(1) الكندي، ص 263. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 153.

* أنطاكية: تقع في أقصى شمال الساحل الشامي إلى الشرق من حلب، وتمتاز بحصانتها ومنعتها، وقد أهلها ذلك بأن تكون أهم مدن العواصم وقصبتها، وهي الآن جزء من لواء الإسكندرون القابع تحت الحكم التركي. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص (267-270). سوريدي، ص 175.

(2) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 153.

(3) الطبري، ج 10، ص 129. المسعودي، مروج، ج 4، ص 227. ابن سعيد القرطبي، ص 21.

(4) الطبري، ج 10، ص 129.

(5) الطبري، ج 10، ص 129. المسعودي، مروج، ج 4، ص 227. الكندي، ص 263. ابن سعيد القرطبي، ص 21.

(6) الطبري، ج 10، ص 129. ابن سعيد القرطبي، ص 21. ابن الأثير، ج 6، ص 428. النويري، ج 28، ص 21.

(7) الطبري، ج 10، ص 129.

(8) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 154.

(9) الطبري، ج 10، ص 129. ابن سعيد القرطبي، ص 21. ابن مسكويه، ج 4، ص 421.

(10) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص (152-153).

* ميدان أحمد بن طولون: من أبرز مآثر القطنع المعمارية، اختطّه أحمد بن طولون أمام قصره وأحاطه بمجموعة من البساتين، وقد أنشئ هذا الميدان أساساً لأغراض السباق، وعلى ما يبدو أنه كان مسرحاً صاخباً للفعاليات الأدبية والشعرية. يُنظر: المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 119، ص 141.

ثم بيعت حجارته بعد ذلك⁽¹⁾، وقد سبق للعباسيين أن أحرقوا فيما مضى قطائع* أحمد ابن طولون⁽²⁾، ولعلمهم أرادوا بذلك محو أي أثر للطولونيين في مصر من شأنه أن يبعث في ذاكرة المصريين مشاعر الحنين والاعتزاز بهذه الأسرة التي عاشوا في كنفها أزهى فتراتهم خلال الحكم الإسلامي، وبالتالي قد تترجم هذه العلاقة إلى أفعال حقيقية على أرض الواقع، كما حدث مع ثورة الخليجي التي اتخذت من شرعية الطولونيين وشعبيتهم غطاء للثورة على الحكم العباسي.

وقدّرت المصادر المصرية مدّة تغلب الخليجي على مصر بسبعة أشهر وقرابة العشرين يوماً⁽³⁾، كادت خلالها الدولة العباسية أن تفقد مصر مجدداً لولا أنها بذلت جهداً مضنياً كاد أن يرتقي إلى المجهود الحربي الذي بذلته بادئ الأمر حين استعادت مصر من الطولونيين، وبذلك أظهرت الخلافة العباسية كفاية ومقدرة عاليتين في الحفاظ على مركزية دولتها وحيزها الجغرافي من خطر هذه الحركة الانفصالية، ومن جهة أخرى يستحيل فهم أسباب هذه الثورة بمعزل عن الحضور الشعبي الكبير للطولونيين داخل الأوساط المصرية، والذي أسهمت الدولة العباسية بانبعاثه بقوة؛ نتيجة سياستها القمعية تجاه المصريين حينما فرضت سيادتها على بلادهم، وبذلك وجد الخليجي الفرصة مواتية له لإحياء مجد الطولونيين، ونصب نفسه وصياً على حقهم التاريخي في حكم مصر، غير أن الأوضاع ما لبثت أن ازدادت سوءاً عما كانت عليه، حيث كان ذلك إيذاناً بانحسار ثورته وفشلها، وليس أدلّ على ذلك من رأي المؤرخ المصري الشهير ابن تغري بردي في ثورة الخليجي: "وأمر محمد هذا من العجائب، فإنه أراد أخذ ثأر بني طولون والانتصار لهم؛ غيرة على ما وقع من محمد بن سليمان

(1) الكندي، ص 264. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 139. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 155.

* **القطائع**: شرع أحمد بن طولون في بنائها عام 256هـ/870م، واختار لها موضعاً إلى الشمال الشرقي من الفسطاط، واختطها على نمط مدينة سامراء، وقد خصص فيها لكل جماعة تربطهم صلة الدم أو العمل الحرفي قطعة يسكنون بها تُعرف باسمهم، وبذلك طغى هذا الاسم عليها، وكانت هذه المدينة آية في الفن والجمال المعماري؛ فقد حوت عدداً من القصور والقناطر والدقائق وغيرها من المرافق المعمارية، وعلى الأغلب أن القطائع شكلت العاصمة الإدارية للأمراء الطولونيين، وعلى الرغم من الدمار الذي لحق بها إثر انقضاء الحكم الطولوني، إلا أنها ظلت قائمة إلى أن لحق بها الخراب، ومات جل سكانها في أثناء الشدة المستصرية (457-464هـ/1065-1076م)، وبانت القطائع منذ ذلك التاريخ أثراً بعد عين. يُنظر: المقرئزي، الخطط، ج 2، ص (119-120)، ص 209. حسن، ص (46-52).

(2) الكندي، ص 248. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 135. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 137.

(3) الكندي، ص 267. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 143. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 154.

الكاتب من إفساده الديار المصرية، فوقع منه أيضاً أضعاف ما فعله محمد بن سليمان الكاتب، وكان حاله كقول القائل:

(البحر الخفيف)

رَامَ نَفْعاً وَضُرّاً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَمِنْ الْبِرِّ مَا يَكُونُ عُقُوقاً⁽¹⁾

وفيما يتعلّق بفاتك المعتضدي فقد أقام بمصر، ثمّ رحل عنها في جمادى الأولى 294هـ/فبراير 907م؛ ولعله قضى هذه المدة تحسباً لأيّ طارئٍ يستجدّ، وحين تأكّد من استقرار الأمن، قرّر العودة إلى العراق، بينما ظلّ عيسى النوشري قائماً على ولاية مصر حتّى توفّي خلال خلافة المقتدر بالله سنة 297هـ/910م⁽²⁾.

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص155.

(2) الكندي، ص(266-267). المقرئ، الخط، ج2، ص143. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص(155-156).

الفصل الثالث

الثورات الشيعية

الفصل الثالث

الثورات الشيعية

الدعوة الإسماعيلية والقرمطية

شكّلت وفاة الإمام جعفر الصادق* سنة 148هـ/765م بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الشيعية العلوية؛ فقد انقسم أنصار الصادق بعد وفاته إلى فرقتين اختلفتا فيما بينهما حول أحقية من يخلفه بالإمامة من أولاده؛ حيث نادت إحداهما بإمامة ابنه الأكبر إسماعيل(ت. 145هـ/762م)، ولمّا كان الأخير قد مات في حياة والده، فإنّ الإمامة تؤول من بعده لأبنائه وليس لإخوته؛ لأنّ الإمامة من بعد الحسين -عليه السلام- (ت. 61هـ/680م) لا تكون إلّا في الأعقاب، وعُرِفَت هذه الفرقة بالإسماعيلية، والسبعية؛ لاعترافهم بإسماعيل إماماً سابعاً لهم، بينما نادت الفرقة الثانية بإمامة ابنه موسى الكاظم(ت. 183هـ/799م)**، وأكّد أنصارها على أنّ ذلك تمّ بناءً على عهد من والده إليه؛ نظراً لعدة أسباب، كان من ضمنها: وفاة أخيه إسماعيل، وتولّي قيادة هذه الفرقة من بعد الكاظم سلسلة من الأئمة وصولاً إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكر***، الذي دخل -وفق اعتقادهم- في حالة غيبة، ولن يعود إلّا بحلول الوقت المناسب لظهوره؛ في صورة المهدي المنتظر، وقد عُرِفَت هذه الفرقة بالإمامية الاثني عشرية⁽¹⁾.

* جعفر الصادق: أبو عبد الله، جعفر بن محمد الباقر(ت. 114هـ/733م) بن علي زين العابدين(ت. 95هـ/713م) ابن الحسين، وُلِدَ عام 80هـ/699م في المدينة، وتوفي فيها، وهو سادس أئمة الفرق الشيعية، وكان من فضلاء التابعين وأجلّاهم، وأحد أبرز علماء عصره، وقد أخذ عنه كثيرون، منهم الإمامان أبو حنيفة النعمان(ت. 150هـ/768م)، ومالك بن أنس(ت. 179هـ/795). يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج3، ص(829-834). الزركلي، ج2، ص126.

** موسى الكاظم: أبو الحسن، وُلِدَ في المدينة عام 128هـ/745م، وكان من سادات بني هاشم في زمانه، وصِفَ بأنّه كان براً صالحاً مواظباً على العبادات حتّى عُرِفَ بالعبد الصالح، اصطحبه هارون الرشيد معه إلى العراق لمّا فرغ من الحجّ عام 179هـ/795م، وأودعه السجن، ومكث في سجنه إلى أن توفّي، وقيل إنّه تعرّض للقتل. يُنظر: ابن خلّكان، ج5، ص(308-310). الزركلي، ج7، ص321.

*** محمد العسكري: محمد بن الحسن العسكري(ت. 260هـ/874م) بن علي الهادي(ت. 254هـ/868م) بن محمد الجواد(ت. 220هـ/835م) بن علي الرضا(ت. 202هـ/818م) بن موسى الكاظم، وُلِدَ عام 256هـ/870م في سامراء، وإليها تُسبب بالعسكري؛ كونها كانت مقر إقامة العسكر العباسي، ولمّا بلغ التاسعة من عمره عام 265هـ/879م دخل سرداباً في دار أبيه في سامراء ولم يخرج منه، ومنذ ذلك التاريخ والشيعية الاثنا عشرية ينتظرون عودته. يُنظر: الزركلي، ج6، ص80

⁽¹⁾ زكار، ج1، ص(55-57). العبادي، ص221.

وارتبطت نشأة الحركة الإسماعيلية بإسماعيل بن جعفر الصادق، الذي نجح خلال حياته بحشد مجموعة من الأنصار، كان أبرزهم أبو الخطاب محمد بن أبي زينب (ت. 137هـ/754م)*، الذي بدأ بإدخال مبادئ الغلو والتطرف إلى الحركة الشيعية؛ ما أثار حفيظة جعفر الصادق الذي بذل بدوره قصارى جهده في إبعاد أبي الخطاب وأنصاره عن ولده، ولمّا يأس من صرفهم عنه أعلن براءته الكاملة من ابنه إسماعيل وأبي الخطاب، وبوفاة إسماعيل انقسم أنصاره إلى فرقتين؛ أنكرت الأولى وفاته وهم قلة، وقد ذهب أتباعها بأن والده غيبه؛ خشيةً عليه من أبي جعفر المنصور، وأنه سرعان ما سيظهر في البصرة، في حين أقرت الفرقة الثانية وهم الأكثرية بوفاته، وطالبت بإمامة ابنه محمد من بعده، وعُرف هؤلاء باسم المباركية؛ نسبة إلى مبارك مولى إسماعيل، ومن هذه الفرقة ظهر الخلفاء الفاطميون والقرامطة⁽¹⁾.

وتابعت المباركية نشاطها في حياة محمد بن إسماعيل الذي توفّي على الأرجح خلال العقد الأخير من خلافة هارون الرشيد، وبوفاته انقسمت المباركية على نفسها؛ فقد رفضت فرقة منها القبول بوفاة محمد بن إسماعيل، وانتظرت عودته واعتبرته المهدي المنتظر، وكان في طليعة هؤلاء القرامطة، في حين قبلت الأخرى وفاته، ودعت إلى أن تكون الإمامة متصلة في أولاده من بعده⁽²⁾، ويُرجّح أن يكون الفاطميون خلال مرحلة الدعوة قد استغلّوا كلا الفرقتين، وأبدوا تأييداً لهما؛ حتّى يتسنى لهم حشد أكبر عدد ممكن من الأنصار، عن طريق توظيف فكرة المهدي المنتظر، وما لها من سطوة كبيرة على أذهان العامة في ذلك العصر، وقد أتاح لهم ذلك أيضاً فرض حالة من التكتّم والتضليل على شخصية الإمام الحقيقي القائم على رأس الدعوة، وبالتالي التشديد من إجراءات الحماية التي تحول دون كشف السلطات العباسية هويته.

* أبو الخطاب محمد بن زينب: الكوفي، مولى بني أسد، ويُعرف بالأجدع، وإليه تُنسب الخطابية، أحد أكبر الفرق الإسماعيلية في القرن الثالث هجري/التاسع الميلادي، بادر إلى إعلان ثورته في الكوفة سنة 137هـ/754م بعد أن حشد إليه عدداً من الأنصار، فهاجمه الأمير العباسي عيسى بن موسى (ت. 167هـ/783م)، وألحق به هزيمة نكراء؛ حيث تمكّن من قتله، ثم أحرق جثته، وأنكر بعض أتباعه وفاته، وادّعوا أنّه شُبّه لهم. يُنظر: مارجوليوث، مادة الخطابية، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج15، ص(4688-4689). دفتري، ص(76-77).

(1) الدوري، دراسات، ص(99-100). عمر، ص(203-205).

(2) الدوري، دراسات، ص106. عمر، ص205.

وعلى الرغم من مظاهر الغلو والتطرف التي اتسم بها الفكر الإسماعيلي؛ فقد حققت الدعوة الإسماعيلية نجاحاً كبيراً قلماً حققته دعوة دينية في العصر الإسلامي الوسيط؛ ولعل ذلك راجع إلى دقة تنظيماتها وتنوع أساليبها الدعوية التي تشكلت بناءً على فهم عميق لطبائع الشعوب الواقعة تحت الحكم الإسلامي على اختلاف أصولها وعقائدها، وأدراك واقعي للأسباب الكامنة وراء تدمير هذه المجتمعات، ومدى سخطها على الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تعيشها في ظل الحكم العباسي، وبذلك تأقلمت الدعوة الإسماعيلية وانسجمت مع البيئة التي انتشرت فيها⁽¹⁾.

وتتبع الدولة العباسية أخبار الأئمة الإسماعيليين الذين تنقلوا سرّاً بين ولايات الدولة متخذين خلال ذلك أكثر من مقرّ دعوي لهم حتى انتهى بهم المطاف في سلمية* ببلاد الشام(يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 2)، وقد سبق للأئمة أن دخلوا منذ وفاة محمد بن إسماعيل حتى قيام الدولة الفاطمية(297-567هـ/910-1172م) بطور السّتر؛ عاش الأئمة خلاله حالة عزلة تامة وتكتم شديد على هوية الأئمة وأخبارهم، ويتضح من خلال الروايات التاريخية أنّ الإمامة الإسماعيلية عانت في أثناء هذه فترة من عدّة مشاكل نتج عنها حدوث سلسلة من الانقسامات الداخلية، واستغلت الدولة العباسية حالة التكتم التي عاشتها الحركة خلال فترة السّتر؛ لتشكك فيما بعد بصحة النسب الإسماعيلي العلوي للخلفاء الفاطميين⁽²⁾.

وعُرفت الحركة الإسماعيلية بعدّة أسماء؛ كان من أبرزها الإسماعيلية، والباطنية، والقرمطية، والسبعية، والتعليمية؛ وتشير هذه المسميات المتعددة إلى درجة الاختلاف الحاصلة في بنيتها العقدية وطبيعتها التنظيمية المتشعبة التي أتاحت لها بسط نفوذها على رقعة جغرافية واسعة من العالم الإسلامي آنذاك⁽³⁾، وتباينت وجهات النظر حول طبيعة العلاقة بين الحركة الإسماعيلية وحركة

(1) الدوري، دراسات، ص 112.

* سلمية: تقع إلى الشمال الشرقي من حمص وإلى الجنوب الشرقي من حماة، وهي متصلة بطريق القوافل التجارية التي كانت تعبر السهول الأردنية السورية، وكانت تعد من أعمال حمص، وقد سكنها عدد كبير من الهاشميين، وبخاصة بعد أن نزل بها صالح بن علي بن عبد الله بن العباس(ت. 151هـ/768م) وأبناؤه من بعده، وبعد أن استقرّ الأئمة الإسماعيليون بها بحلول منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي اعتبرت مقر الدعوة الإسماعيلية وعاصمتها. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص(240-241). سورييل، ص 507.

(2) زكار، ج1، ص(60-62).

(3) زكار، ج1، ص 56. الدوري، دراسات، ص 102.

القرامطة، فيما إذا كانت الأخيرة جزءاً أصيلاً من الحركة الأمّ، أو أنّها تنظيم مستقلّ قائم بذاته، وتذهب عديد من الروايات إلى اعتبار الحركة القرمطية قرعاً من الإسماعيلية؛ على اعتبار أنّ نشأة الأولى اقترنت بتطور الثانية، ومع مرور الزمن انسلخ القرامطة عن الحركة الأمّ، وباتوا مستقلين في طبيعة بنيتهم العقديّة والتنظيمية، وفي البرامج والأهداف⁽¹⁾.

وتكاد الروايات التاريخية تتفق أنّ اسم القرامطة جاء نسبة لمؤسسها الأوّل حمدان بن الأشعث، الذي اشتهر بلقب قرمط، حيث أصبح مصطلح القرامطة يدل على من تبعه وآمن بدعوته فكراً وعملاً⁽²⁾، وكان قرمط قد اعتنق المذهب الإسماعيلي في بدايات النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، على يد الدعي الحسين الأهوازي*، الذي كان يتولّى شؤون الدعوة في منطقة الكوفة، وبعد أن أظهر قرمط حماساً للدعوة وكفاية في تنظيم شؤونها؛ قرّر الأهوازي لمّا دنت وفاته أن يعهد لحمدان برياستها، ويقال إنّهُ اضطر إلى ذلك قبل مغادرته للكوفة إثر انكشاف أمره للسلطات العباسيّة⁽³⁾، ونجح قرمط في حشد مجموعة من الأنصار كان من أبرزهم صهره عبدان الرجل الثاني في حركة القرامطة، وفقهها ومنظرها الذي عالج مبادئها بمجموعة من المؤلّفات كان في طليعتها شجرة اليقين⁽⁴⁾، وتضافرت جهود الرجلين الدعوية مستغلين انشغال الدولة العباسيّة في قمع حركة الزنج(255-270هـ/869-883م)*، ولم يمضِ وقت طويل حتّى اجتمع حولهما مجموعة كبيرة من الأتباع؛ ما دفعهما إلى توسيع رقعة الدعوة بتعيين عدد من الدعاة وتوجيههم إلى مناطق جديدة⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ دي خويه، ص(36-38). زكار، ج 1، ص(109-116)، ص(130-131). عمر، ص210. الدوري، دراسات، ص(120-121).

⁽²⁾ زكار، ج 1، ص(117-120). الدوري، دراسات، ص(118-119).

* **الحسين الأهوازي**: من سكان الأهواز في إقليم خوزستان، وهو من أوائل الدعاة الإسماعيليين، وارتبط دوره بعبد الله بن محمد بن إسماعيل، وقد رافق الأخير في رحلته من عسكر مكرم إلى سلمية. يُنظر: دفتري، ص129.

⁽³⁾ الطبري، ج 10، ص(23-25). يُنظر أيضاً: زكار، ج 1، ص(129-130). الدوري، دراسات، ص(117-118).

⁽⁴⁾ دي خويه، ص36. الدوري، دراسات، ص120، ص125.

* **حركة الزنج**: أحد أخطر الثورات التي شهدتها العصر العباسي الثاني، وقد امتلكت من القوة ما مكّنها من مجابهة الخلافة العباسية طيلة أربعة عشر عاماً، ومُفجّرها رجل فارسي يدعى بهبوذ، لكنّه انتحل لنفسه نسباً عربياً وتسمّى بعلي ابن محمد، ثم انتسب لاحقاً لزيد بن علي زين العابدين بن الحسين، ونشطت هذه الثورة في تخوم البصرة ومناطقها الزراعية، وقد هدفت إلى تحرير الزنج من الرّق وتحسين ظروف معيشتهم القاسية، وبذل الموفق بالله وولده المعتضد بالله جهوداً عظيمة في إخمادها والقضاء عليها. يُنظر: الدوري، دراسات، ص(62-82).

⁽⁵⁾ زكار، ج 1، ص(130-132). الدوري، دراسات، ص(119-120).

وكان من ضمن هؤلاء الدعاة زكرويه بن مهرويه الذي كان على درجة عالية من الفطنة والذكاء، فأُسند إليه عبدان مهمّة الإشراف على شؤون الدعوة في منطقة غرب العراق⁽¹⁾، ووجه كذلك أبا سعيد حسن بن بهرم الجنابي إلى جنوب فارس وعيّنه داعياً عليها⁽²⁾، في حين أقام قرمط في كلواذى*، واتّخذ منها مقراً له؛ بهدف الإشراف على أحوال الدعوة، ولكي يكون أيضاً قريباً من إمامه الذي كان في حينها مقيماً في عسكر مكرم^{(3)**}.

وبالتزامن مع نشاط حركة القرامطة تابع الأئمة الإسماعيليون بثّ دعائهم في مناطق جديدة؛ ففي عام 267هـ/881م⁽⁴⁾ وجه أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب الكوفي، وعليّ بن الفضل اليميني إلى بلاد اليمن، وهناك نزل كلّ منهما في رقعة جغرافيّة منفصلة عن الأخرى، حيث تولّى كلّ رجل منهما نشر الدعوة في منطقته، ويبدو أنّ القيادة العليا في اليمن كانت بيد ابن حوشب، وتمكّن الأخير في غضون وقت قصير من تحقيق نجاح لافت؛ ما دفعه إلى إظهار دعوته في عام 270هـ/884م، ومع مرور الوقت تابع انتصاراته ليُعرّف إثر ذلك بلقب منصور اليمن⁽⁵⁾؛ ولعلّ ذلك ما دفع الإمام الإسماعيلي إلى توجيه الداعية أبي عبد الله الشيعي الحسين بن أحمد (ت. 298هـ/911م) إلى بلاد اليمن؛ حتّى يتولّى ابن حوشب إعدادَه وتجهيزَه؛ بغية إرساله إلى بلاد المغرب؛ ليتولّى فيها شؤون الدعوة⁽⁶⁾، ومن الجدير ذكره أنّه قد سبق للأئمة الإسماعيليين توجيه داعيين إلى بلاد المغرب: أحدهما يُعرّف بأبي سفيان، والآخر بالحلواني، وقد أسهمت جهودهما الدعوية في تهيئة هذه البلاد لدعوة أبي عبد الله الشيعي⁽⁷⁾ الذي حطّ رحاله فيها بحلول عام 288هـ/901م⁽⁸⁾.

(1) النويري، ج23، ص113. يُنظر أيضاً: دي خويه، ص36. زكار، ج1، ص133.

(2) دي خويه، ص36. الدوري، دراسات، ص120.

* **كلواذى**: وتكتب كلواذا، وهي بلدة تقع إلى الجانب الشرقي من بغداد، وتبعد عنها مسافة ثلاثة فراسخ؛ أي ما يعادل حوالي ثمانية عشر كيلومتراً. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص(477-478). هنتس، ص94.

** **عسكر مكرم**: بلدة مشهورة تقع في إقليم خوزستان، وتتميز بنشاطها التجاري ومزارعها الخصبة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص(123-124). الحميري، ص420.

(3) الدوري، دراسات، ص120.

(4) المقرئزي، اتعاط، ج1، ص51.

(5) المقرئزي، اتعاط، ج1، ص51. يُنظر أيضاً: دي خويه، ص38. زكار، ج1، ص(143-144).

(6) المقرئزي، اتعاط، ج1، ص51. يُنظر أيضاً: زكار، ج1، ص(68-69). العبادي، ص224.

(7) زكار، ج1، ص(66-67).

(8) سالم، ص510. العبادي، ص225.

وقطع القرامطة شوطاً كبيراً في إعداد أنفسهم، وتابعوا تحركاتهم بعيداً عن أنظار الدولة العباسية، التي لم تدرك خطرهم إلا في سنة 278هـ/891م؛ وذلك بعد أن وردت إلى بغداد أخبار تبين عقيدة هذه الجماعة، وتحذّر من سلوكها الدموي تجاه المسلمين عامة⁽¹⁾، وفي خضمّ ذلك وقع حدث مهمّ كان له أثر كبير على مسار نجاح حركة القرامطة في العصر الإسلامي؛ فقد اكتُشِف أمر أبي سعيد الجنابي في بلاد فارس، وبشقّ الأنفس تمكّن من الهرب والنجاة بحياته، فاستقدّمه قرمط إلى كلواذى، وفي أثناء لقائه به أعجب بمقدرته وفطنته، وقرّر إرساله في مهمة جديدة، بعد أن زوّده بالمال والكتب وغير ذلك من المتاع، ثمّ وجهه صوب بلاد البحرين⁽²⁾، التي سبق أن وجه إليها الإمام الإسماعيلي أبا زكريا يحيى بن علي الطمامي(ت. حوالي 286هـ/899م)، سنة 281هـ/894م، داعياً له هناك⁽³⁾، وفيما يتعلّق بقرامطة العراق، فقد حافظوا على سلمية دعوتهم، وزادوا في الوقت نفسه من وتيرة نشاطهم في الكوفة؛ ما دفع الدولة إلى تتبّع أخبارهم، وشنتّ ضدهم في سنة 284هـ/897م حملة اعتقالات واسعة، ألقي القبض خلالها على جماعة منهم وجهوا إلى بغداد، وبعد أن استُجوبوا اتّضح للسلطة العباسية وجود أنصار للحركة في العاصمة كان من ضمنهم جماعة من الكتّاب، فألقي القبض عليهم، وأودعوا جميعاً في مطامير المعتضد بالله⁽⁴⁾.

ووقع في هذه المرحلة تغيير طارئ على حال بيت الإمامة في سلمية؛ فقد تولّى زعامة الدعوة الإسماعيلية إمام جديد، وكان لهذا الحدث المستجدّ تداعياته الكبيرة التي أثّرت إيجاباً وسلباً على المسار العامّ للحركة؛ فقد ترك حمدان وعبدان الدعوة؛ ما مهّد فيما بعد لانفصال القرامطة عن الحركة الإسماعيلية، وفي المقابل شهد عهد هذا الإمام انتقال الإسماعيلية من طور الدعوة إلى طور الدولة.

وعند الحديث عن الأسباب الكامنة وراء انفصال القرامطة عن الحركة الإسماعيلية؛ صرّح النويري أنّ إصرار قرمط وعبدان على مبدأ مهدوية محمد بن إسماعيل، واعتبار الأئمة القائمين على رأس الدعوة بمن فيهم عبيد الله المهدي مجرد أئمة مستودعين يشرفون على شؤون الدعوة، ويهيؤون

(1) الطّبري، ج10، ص(23-24). يُنظر أيضاً: دي خويه، ص38. الدوري، دراسات، ص122.

(2) دي خويه، ص40. الدوري، دراسات، ص122.

(3) زكار، ج1، ص147.

(4) الطّبري، ج10، ص64. يُنظر أيضاً: الدوري، دراسات، ص122.

الظروف لظهور المهدي، وذلك ما أنكره عبيد الله المهدي الذي اعتبر أنّ الإمامة متصلة في نسل محمد بن إسماعيل، وعلى الرّغم من الخطورة الناتجة عن ذلك، فمن المرجّح أن يكون الأئمة الفاطميين قد استغلّوا خلال مرحلة الدعوة مهدوية محمد بن إسماعيل؛ لأسباب عدة سبق أن أشرنا إليها*، ولمّا حقّقت الدعوة نجاحاً كبيراً، وشارفت على مرحلة الدّولة؛ رأى عبيد الله المهدي أنّ الاعتقاد الإسماعيلي بغيبية محمد بن إسماعيل ومهدويته يهدّد نفوذ الأئمة، ويحدّد من استقلالهم في قيادة هذه الحركة التي شارفت على جني ثمارها، حيث كان لا بدّ له من إلغاء هذا المبدأ، والتّكثّر له، وقد دفع ذلك قرمط وعبدان إلى حلّ دعوتهم، وقطع علاقتهم نهائياً بأمة سلمية؛ ما أثار غضب عبيد الله المهدي الذي اعتبر ذلك خروج صريحاً عن طاعته، فقرّر التخلّص منهما؛ وذلك بالتأمّر مع أحد أتباعهما وهو زكرويه بن مهرويه الذي أبدى استعداداً لذلك؛ طمعاً منه بتولّي مكانهما بالدعوة، وبذلك نجح المهدي في التخلّص من كلا الرجلين، ويبدو أنّ أنصارهما انتفضوا على زكرويه، وقرروا قتله؛ ما دفعه إلى الاختباء خوفاً على حياته، غير أنّ الأخير سرعان ما أظهر عدم إخلاصه للدعوة، وحاول هو وأبناؤه الاستئثار بالدعوة، مستغلّين إيمان القرامطة بمهدوية محمد بن إسماعيل، ونصبوا أنفسهم أئمة مستودعين لها؛ ولعل ذلك هو ما دفع ابنه صاحب الشّامة الذي قاد قرامطة الشّام بعد مقتل أخيه صاحب النّاقة إلى اتخاذ قرار التخلّص من عبيد الله بسلمية، غير أنّ الأخير كان قد خرج منها هو وابنه وبعض خاصته لينجو بذلك بحياته، في حين لاقى من تبقى من أهل بيته وأنصاره بسلمية مصرعهم على يد هذا القرمطي الذي أبادهم عن بكرة أبيهم⁽¹⁾.

وعلى الأرجح فإنّ قرمط لم يبادر بالقيام بأيّ عمل مسلّح؛ فقد انصبّ اهتمامه على إعداد أنصاره وتنظيمهم ريثما يحين الوقت المناسب للشروع بتنفيذ المخطط العملي من الدعوة، غير أنّ اختفاءه ومقتل صهره عبدان فيما بعد ولّد ردّة فعل قوية من جانب قرامطة العراق الذين قاموا بغير ثورة مسلّحة خلال عهد المعتضد بالله⁽²⁾، وفي المقابل كانت ردّة فعل أبي سعيد الجنابي في البحرين

* يُنظر: البحث، ص 77.

(1) النويري، 25، ص (137-138). يُنظر أيضاً: النيسابوري، ص (95-105). ابن خلدون، ج 3، ص 452. المقرئزي، انعاظ، ج 1، ص 50. دي خويه، ص (57-64). لويس، أصول، ص (126-127). زكار، ج 1، ص (60-65). الدوري، دراسات، ص (123-125). عمر، ص (209-210).

(2) الطّبري، ج 10، ص 64، ص 86. ثابت بن سنان، ص 195، ص 197. يُنظر أيضاً: الدوري، دراسات، ص 122. السامرائي، الخلافة، ص (97-98).

الأكثر قوة؛ فقد دفعته تصفية كل من قرمط وعبدان إلى الخروج عن طاعة الإمام في سلمية⁽¹⁾، وترعّم قيادة الدعوة القرمطية ونشرها في بلاد البحرين، فنجح خلال فترة قصيرة في إخضاع قسم كبير من هذه البلاد، مشكلاً بذلك تهديداً كبيراً للخلافة العباسية⁽²⁾، وحاول المعتضد بالله جاهداً في أواخر عهده القضاء على هذا الخطر⁽³⁾، غير أنّ وفاته حالت ذلك دون رغبته في استئصال شأفة حركة أبي سعيد⁽⁴⁾.

وتابع زكرويه بن مهرويه جهوده في بثّ دعوته، ونجح وأبناؤه وبعض دعائه في تفجير غير ثورة مسلحة، وعلى الرغم من قوة هذه الثورات وخطورتها، فقد نجحت دولة المكتفي بالله في القضاء عليها، ولاقى زعمائها خلال ذلك مصارعهم، بما فيهم زكرويه وأولاده؛ وبذلك تكون الدولة العباسية قد وجّهت ضربة قاضية للوجود القرمطي في العراق وبلاد الشام، في حين حافظ قرامطة البحرين على استمرارية مشروعهم، واستطاعوا تأسيس كيان قوي ما لبث بعد فترة قصيرة أن أضحى التهديد الأخطر على دولة الخلافة العباسية.

وبخصوص عبيد الله المهدي، فقد تابع من سلمية الإشراف على شؤون الدعوة التي أخذت تجني ثمارها؛ فقد حققت دعوة ابن حوشب في اليمن نجاحاً كبيراً⁽⁵⁾، وباتت اليمن بالنسبة للإمام المكان الأفضل لاحتواء المشروع الإسماعيلي الوليد؛ ولعلّ ذلك ما دفع الأخير إلى إعلانها دار هجرة ريثما ينتقل إليها⁽⁶⁾، وفي المقابل لاقت دعوة أبي عبيد الله الشيعي في المغرب نجاحاً لافتاً؛ ما دفعه إلى إطلاع سيده على النتائج الجيدة التي حققتها دعوته في هذه البلاد التي باتت مهياًة هي الأخرى جيداً لقدومه، ويبدو أنّ هذه النجاحات، بالإضافة إلى ثورات القرامطة المسلحة في العراق والبحرين؛ جعلت خيوط الدعوة الإسماعيلية تتكشف شيئاً فشيئاً لدى السلطات العباسية، التي استطاعت أن تتوصل إلى وجود إمام قائم على رأس هذه الدعوة في أواخر عهد المعتضد بالله، ومع بداية عهد المكتفي

(1) زكار، ج 1، ص 147.

(2) دي خويه، ص (42-44).

(3) الطبري، ج 10، ص (77-79). ثابت بن سنان، ص (194-195). النويري، ج 25، ص (143-144).

(4) النويري، ج 25، ص 144.

(5) إدريس الحمزي، ص 57. النويري، ج 33، ص (72-73). المقرئ، اتعاظ، ج 1، ص 51. يُنظر أيضاً: دي خويه، ص 38.

زكار، ج 1، ص (143-144).

(6) زكار، ج 1، ص 144.

بالله شاع خبر هذا الإمام، فأخذ يتتبع أخباره؛ ما دفع عبيد الله وابنه أبا القاسم نزاراً وخاصته إلى مغادرة سلمية⁽¹⁾.

ويرى النيسابوري (ت. أواخر ق 4/10م) في كتابه استتار الإمام أن سبب خروج المهدي من سلمية كان خوفه من أولاد الداعية أبي محمد الكوفي، ويذهب مؤلف هذا الكتاب إلى أن هذا الداعي، والمفترض وفق باقي المصادر التاريخية أن يكون زكرويه بن مهرويه قد توفي قبل خروج الإمام من سلمية، وكان هذا الداعية قد أنجب ثلاثة أولاد تولوا بعده قيادة الدعوة، وهم: أبو القاسم (صاحب الناقة)، وأبو المهزول (صاحب الشامة)، وأبو العباس، وكان معهم زوج أختهم، فاتفق أولاد أبي محمد على قتل زوج أختهم؛ بحجة عدم إخلاصه للدعوة، ونتيجة ذلك قام الداعية أبو الحسين بن الأسود متولّي قيادة الدعوة في تلك الأنحاء بعزلهم عن الدعوة؛ ما أثار غضب أبي القاسم وإخوته، الذين حاولوا إلغاء هذا القرار عن طريق مراسلة الإمام المهدي في سلمية، غير أن الأخير لم يجبههم على كتبهم، ولمّا يئسوا من ذلك أجمعوا أمرهم على الخروج إلى سلمية؛ لقتل الإمام، ثم قتل الداعية أبي الحسين بن الأسود من بعده، وأن عجزوا عن ذلك وشوا بهم لعمال الشام؛ حتّى يقبضوا عليهم، ويبدو أن تحركات أولاد الداعية أبي محمد الكوفي وصلت إلى دعاة الإمام وأنصاره في بغداد، الذين نقلوا بدورهم إليه أخبار تأمر أولاد أبي محمد عليه؛ ما دفعه إلى ترك سلمية⁽²⁾، ويُرجّح من خلال هذا النص، وما طرأ بعد ذلك من أحداث في بلاد الشام، أن خروج المهدي كان في منتصف سنة 289هـ/منتصف 902م؛ وذلك قبل أن تبدأ فعاليات ثورة صاحب الناقة ببضعة أشهر.

سار عبيد الله المهدي بعد خروجه من سلمية جنوباً باتجاه حمص حيث أقام بها يوماً واحداً، ثم تابع مسيره باتجاه طرابلس الشام التي نزل بها هي الأخرى يوماً واحداً، وبعد ذلك تابع طريقه جنوباً باتجاه فلسطين إلى أن استقر في مدينة الرملة؛ ويشير هذا التنقل السريع إلى حجم المخاطر التي كانت تواجهه في أثناء هذه الرحلة؛ فقد حرص جاهداً على أن يخرج بسرعة من دائرة الخطر العباسي والقرمطي، حيث كانت الرملة الواقعة وسط فلسطين، والخاضعة للحكم الطولوني الخيار الأمثل له

(1) ابن الأثير، ج 6، ص 453. النويري، ج 28، ص 62. ابن خلدون، ج 3، ص 453. المقرئ، ج 1، ص 52. المقرئ، الخطط، ج 2، ص 184.

(2) النيسابوري، ص (96-97).

ليستقر بها مؤقتاً، ريثما تتضح الصورة عنده بخصوص طبيعة المرحلة القادمة، وفيما يتعلّق بأولاد الداعية أبي محمد؛ فقد اتجهوا إلى سلمية، وحاولوا لقاء المهدي، فوجدوه قد خرج منها، وحاولوا جاهدين من خلال أهله وأنصاره الوقوف على أيّ معلومة قد تقودهم إلى مكانه، وعندما يؤسوا من ذلك خرج أبو القاسم صوب بادية الشّام، وفجّر ثورته هناك، ويبدو أنّ أبا المهزول استطاع بعد مدة معرفة مكان اختباء المهدي؛ فقصّد الرملة، وطلب منه العودة إلى الشّام، إلّا أنّه رفض عرضه، وبعد مدة قُتِلَ أبو القاسم، وبناءً على عهد منه تولّى أبو المهزول قيادة أنصاره، وحققت ثورته نجاحاً فاق بكثير ما وصلت إليه ثورة أخيه⁽¹⁾.

وخلال حركة أبي المهزول وقع انقلاب قرامطة الشّام والعراق الأخطر على الحركة الإسماعيليّة؛ وحدث هذا عندما سيطر أبو المهزول على سلمية مقر الدعوة السابق، وحاول استدراج عبيد الله المهدي ليعود إليها حتّى يتخلص منه، غير أنّ الأخير أدرك حقيقة نواياه، وظلّ يماطل فيه طيلة أربعة أشهر؛ ولعلّ غايته من ذلك ضمان سلامة أهل بيته وأنصاره ريثما يتمكّن العبّاسيون من الإطاحة بأبي المهزول، وحين يؤس الأخير من قدوم الإمام إليه، وقبل أن تنهار قواته العسكريّة بوقت وجيز اقتحم قصره بسلمية، وقتل جميع من فيه صغاراً وكباراً؛ وقد بلغ عددهم ثمانية وثمانين نفساً، ولمّا علم عبيد الله بهزيمة أبي المهزول ودخوله أسيراً إلى بغداد، غادر الرملة باتجاه مصر⁽²⁾؛ ولعلّ ما دفعه إلى ذلك خوفه من وشاية أبي المهزول به للسلطات العبّاسيّة، وإذا ما علمنا أنّ دخول الأخير إلى بغداد تمّ في ربيع الأوّل 290هـ/مارس 903م⁽³⁾، فإنّ خروج المهدي من الرملة نحو مصر وقع خلال هذا العام من بعد ربيع الأوّل، ويبدو أنّ اختياره لمصر تمّ؛ لعدة أسباب، كان منها: بعدها عن النفوذ العبّاسي الذي بات يهدّد بضمّ بلاد الشّام، وقربها من بلاد المغرب، التي أصبحت قاعدة محتملة للدولة الإسماعيليّة المنشودة.

(1) النيسابوري، ص(97-99).

(2) نفسه، ص(102-106).

(3) الطّبري، ج10، ص113. المسعودي، التنبيه، ص323.

ودخل عبيد الله المهدي مصر مستتراً في زيّ التجار⁽¹⁾، ويبدو أنّه ظلّ مقيماً بها إلى أن طرأت مجموعة من الأحداث التي دفعته إلى مغادرتها مع بداية 294هـ/أواخر 906م؛ فقد سقط احتمال المهدي الأقوى بالتوجه إلى بلاد اليمن؛ وذلك بعد إثارة تصرفات علي بن الفضل مخاوف ابن حوشب الذي لم يعد يثق بولاء ابن الفضل للدعوة، خاصّة بعد النجاحات الكبيرة التي حققتها ثورة الأخير⁽²⁾، وعلى الرّغم من ذلك فقد ظلّ ابن الفضل محافظاً على علاقته الصورية بالدعوة حتّى عام 297هـ/910م⁽³⁾؛ حيث قطع علاقته بها، وتنكّر للمهدي، وكشف عن حقيقة مذهبه المتطرف الذي كان قريباً من مذهب القرامطة، ثمّ ما لبث بعدها أن خرج لحرب ابن حوشب⁽⁴⁾، وفي المقابل كانت بلاد اليمن مسرحاً لدعوة دينية أخرى تزعمها الإمام الزيدي يحيى بن الحسين الشهير بلقب الهادي إلى الحقّ، الذي سبق له أن أرسى دعائم دولة قوية بعد أن قطع شوط طويلاً في إخضاع مناطق واسعة من هذه البلاد لسلطانه⁽⁵⁾، وبذلك حسم المهدي قراره بخصوص التوجه إلى بلاد المغرب التي أضحت أمله الوحيد لإنشاء الدّولة الإسماعيليّة، وممّا فاقم من صعوبة الوضع على الأخير؛ قضاء الدّولة العبّاسيّة على ثورة الخليجي التي كانت قد هدّدت بقوة استقرار الحكم العبّاسي الوليد في مصر⁽⁶⁾، وبذلك أضحى بمقدور العبّاسيين تتبّع الإمام عبيد الله المهدي، خاصّة أنّه سبق لهم أن حصلوا على اعترافات من صاحب الشّامة بخصوص اسم هذا الإمام وصفاته وأحواله⁽⁷⁾، ويبدو أنّهم نجحوا في اقتفاء أثره وصولاً إلى مصر، وبالتالي بات أمر الدعوة مكشوفاً لا يحتمل مزيداً من المجازفات؛ ما أرغم الإمام الإسماعيلي على التوجه إلى بلاد المغرب بأسرع وقت ممكن.

ويتّضح من خلال ذلك أنّ حركة القرامطة كان لها دور رئيس في دفع عبيد الله باتجاه بلاد المغرب؛ فقد قضى مشروع القرامطة على الحلم الإسماعيلي بتأسيس دولة له في العراق والشّام وشبه الجزيرة العربية، حيث كانت السيطرة في هذه المناطق لصالح الجانب المتمرد من الحركة المتمثل بالقرامطة،

(1) ابن الأثير، ج 6، ص 453. النويري، ج 28، ص 62. ابن خلدون، ج 3، ص 452. المقرئ، ج 1، ص 60.

(2) إدريس الحمزي، ص 59. النويري، ج 32، ص 72. يحيى الشّاهري، ص (45-46).

(3) العلوي، ص 394.

(4) العلوي، ص 394. إدريس الحمزي، ص 61. يحيى الشّاهري، ص 54.

(5) نشوان الحميري، ص (250-251). يُنظر أيضاً: أحمد، ص (43-93).

(6) الطّبري، ج 10، ص 129. الكندي، ص 262. ابن الأثير، ج 6، ص 428. المقرئ، الخطط، ج 2، ص 14.

(7) النيسابوري، ص 106.

على نقيض ما حدث في بلاد المغرب التي خلت من أيّ وجود للقرامطة، فحافظت الدعوة على هويتها الإسماعيلية وعلى ولائها للأئمة، وبذلك نجحت الدعوة الإسماعيلية هناك بتأسيس دولة لها، في حين فشلت في مناطق أخرى سبقت إليها الدعوة بعقود.

ووصلت كتب المكتفي بالله إلى والي مصر العباسي عيسى النوشري الذي تبين له صفات عبيد الله المهدي، وتطلب منه الجدّ في البحث عنه، والمصارعة في إلقاء القبض عليه، وكان للمهدي أنصار من خاصّة هذا والي، فنقلوا إليه خبر هذه الكتب، وطلبوا منه الإسراع في الخروج من مصر، فبادر عبيد الله إلى ذلك، وبدوره بثّ والي العباسي عيونه، واستتفر قوّاته، وخرج على رأس عساكره؛ لتتبع المهدي⁽¹⁾، وعند مشارف قرية تروجة بالقرب من الإسكندرية⁽²⁾، أدركه وتمكّن من التعرف إليه، فقبض عليه ومن معه، وأنزلهم أحد البساتين؛ بهدف استجوابهم، فأنكر المهدي ادعاءات والي العباسي، وأصرّ على أنّه مجرد تاجر، فافتتحت والي، ورقّ لحاله، وأطلق سراحه⁽³⁾، وتذكر بعض المصادر أنّ والي ربما حصل على مبلغ مالي من المهدي مقابل إطلاق سراحه⁽⁴⁾، مع أنّه من المستبعد أن يخاطر بحياته ونفوذه مقابل مبلغ مالي هو في غنى عنه.

وتابع عبيد الله المهدي مسيره باتجاه بلاد المغرب (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 4)، وعند موضع يُقال له الطاحونة*، تعرّض له اللصوص، فأخذوا متاعه وكتباً وملاحم دونها آباؤه، فعظم الأمر عليه، وتابع طريقه حتّى وصل طرابلس، وهناك تفرّق التجار عنه، ثمّ توجه إلى قسنطينة**، ثمّ سار بعدها إلى سجلماسة***، وهناك تقرب من حاكمها اليسع بن مدرار (270-297هـ/884-

(1) ابن الأثير، ج 6، ص (453-454). النويري، ج 28، ص 62. المقرئزي، اتعاط، ج 1، ص 60.

(2) النويري، ج 28، ص 62.

(3) ابن الأثير، ج 6، ص 454. النويري، ج 28، ص (62-63). المقرئزي، اتعاط، ج 1، ص (60-61).

(4) ابن الأثير، ج 6، ص 454. المقرئزي، اتعاط، ج 1، ص 60.

* الطاحونة: تقع غربي الإسكندرية، وتبعد عنها حوالي ستة وثمانين ميلاً. يُنظر: الحميري، ص 380.

** قسنطينة: مدينة قديمة تقع في المغرب الشرقي على الحدود مع بلاد المغرب الأدنى، وتتميز بموقعها الاستراتيجي المهم وقلعتها الحصينة، وقد أكسبها ذلك منعة كبيرة في وجه الأخطار. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 349. سوردل، ص 761.

*** سِجْلَمَاسَةُ: مدينة في بلاد المغرب الأقصى، تبعد عن فاس مسافة عشرة أيام، تأسست عام 140هـ/757م، وشهدت نشاطاً تجارياً مزدهراً؛ نتيجة وقوعها على طرق القوافل التجارية، وقد استفادت أيضاً من موارد الواحات المجاورة لها، ومع الزمن ربطتها علاقة قوية بمدن المغربيين الأوسط والأدنى، وكانت من أهم مراكز الخوارج في بلاد المغرب، وهي الآن مدينة مهذّمة تقع في منطقة تافيلالت. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 192. سوردل، ص (491-492). مؤنس، ص 159.

910م)****، وبعد مدّة وصلت كتب زيادة الله الثّالث(290-296هـ/903-909م) إلى حاكم سجلماسة تخبره بحقيقة المهدي، وتطلب منه إلقاء القبض عليه، فلم يجد اليسع مفرّاً من سجن المهدي⁽¹⁾، ويطرح ابن خلدون احتماليّة أن يكون المكتفي بالله هو من راسل اليسع بن مدرار بخصوص طلب القبض على المهدي⁽²⁾، وظلّ الأخير في سجنه إلى أن استنقذه أبو عبد الله الشيعي بعد أن خرج إليه بجيش جرّار، وتولّى المهدي قيادة الدعوة الإسماعيليّة التي شارفت على إخضاع بلاد المغرب لسلطانها، وبحلول عام 297هـ/910م أُعلن عن ميلاد المشروع الإسماعيلي السّياسي الذي عُرِفَ باسم الدّولة الفاطمية⁽³⁾.

ثورات القرامطة في الشّام والعراق

واصل زكرويه بن مهرويه في أثناء اختبائه بثّ دعائه في منطقة سواد الكوفة*؛ أملاً في اجتذاب عدد كبير من الأنصار إلى دعوته، غير أنّ هذه الجهود باءت بالفشل؛ نتيجة سياسة المعتضد بالله الحازمة في تتبّع الوجود القرمطي في منطقة الكوفة وسوداها، وبفعل هذه السّياسة القاسية تشكّلت حالة من الردع بين سكان هذه المنطقة حالت بينهم وبين الانخراط في صفوف أيّ حراك قرمطي، ولعلّ ما صعب مهمة زكرويه ولاء قرامطة الكوفة لقرمط وعبدان، وموقفهم العدائيّ تُجاهه؛ نتيجة دوره في الإطاحة بكلا الرجلين، وعند ذلك أدرك زكرويه أنّ الأمل في انضمام سكان سواد الكوفة بمن فيهم القرامطة إليه قد أضحى معدوماً؛ ما دفعه للبحث عن منطقة جديدة لنشر دعوته فيها،

**** اليسع بن مدرار: اليسع الثّاني بن ميمون(253-263هـ/867-877م) بن اليسع الأوّل(174-208هـ/790-808م)، تلقّب بالمنتصر، وهو الأمير السابع في سلسلة حكام بني مدرار الصفارين في سجلماسة(155-366هـ/772-977م)، وحين اقتحم أبو عبد الله الشيعي سجلماسة سنة 297هـ/910م فرّ منها اليسع، غير أنّ الداعية الشيعي نجح في إلقاء القبض عليه، وقتله. يُنظر: زامباور، ص101. الزركلي، ج7، ص196. سالم، ص502.

(1) المقرئزي، اتعاظ، ج1، ص(61-62).

(2) ابن خلدون، ج3، ص425.

(3) سالم، ص(513-514).

* **السود:** لفظ استخدمه العرب الفاتحون بادئ الأمر للدلالة على العراق، وبالتحديد القسم الجنوبي من سهول نهري دجلة والفرات، ومع مرور الزمن صار يُطلق على الأحياء والمناطق المزروعة المحيطة بالمدن، وجاءت هذه التسمية؛ نسبة إلى خصوبة هذه الأرض التي كان يطغى عليها اللون الأخضر؛ نتيجة الوفرة الكثيفة لمزروعاتها وأشجارها، وكان الفاتحون إذا ما شافوا عليها من بعيد رأوا خضرته سوداً، فعُرفَ بالسود، ويرى ياقوت الحموي(ت. 626هـ/1229م) أنّ العرب قديماً كانت تسمّي الأخضر أسود، والعكس صحيح، وحينما عاينوا خضرة هذا الإقليم سمّوه سوداً. يُنظر: ابن الصّابيّ، الوزراء، ص78. الحموي، ج3، ص(272-275). سوردل، ص519. الألشي، ص312.

وانصبَّ اهتمامه في هذه المرة على القبائل العربية في أطراف الكوفة؛ بهدف اصطناع زعمائها، غير أنَّ محاولاته باءت بالفشل؛ فقد أحجمت جميع القبائل عن قبول دعوته، ورفضت الانخراط في صفوفها⁽¹⁾.

- ثورة صاحب الناقة 289-290هـ/902-903م

بفعل خيبات الأمل المتكررة التي مُنيَ بها زكرويه في منطقة العراق، اتجهت أنظاره هذه المرة صوب بادية السماوة*، الواقعة بين الكوفة ودمشق، ويبدو أنَّ أوضاعها شكَّلت بيئة مناسبة لنشر دعوته، فأرسل أبناءه للقيام بمهام الدعوة⁽²⁾، خاصَّة في أوساط قبيلة كلب⁽³⁾، التي شكَّلت على مدار التَّاريخ الإسلامي مصدر تهديد لدولة الخلافة الإسلاميَّة، وكانت هذه المنطقة تخضع للحكم الطَّولوني الذي كان يمر في أسوأ فتراته، وقد كانت هذا المناطق البدوية المهمشة الأكثر تضرراً؛ جرَّاء التدهور الحاصل في حال الدَّولة الطَّولونيَّة؛ ما جعل أجواءها مهيأة جيداً لنجاح أيِّ عمل ثوري⁽⁴⁾.

واستتر أولاد زكرويه بزِيِّ التجار، وقصدوا جماعة من قبيلة كلب كانت تعمل على شقِّ طريق يمرَّ من بادية السماوة بالقرب من تدمر*، وبعد أن قضوا معهم مدَّة من الزمن يبيعون ويشتررون، ادَّعوا النسب العلوي، وبيَّنوا لهم أنَّهم ملاحقون من العبَّاسيين، وأنَّ قدومهم إليهم كان بقصد الالتجاء عندهم، فقبل الكلبيون طلبهم، وبعد مدَّة كشفوا حقيقة معتقدتهم، وراحوا يدعونهم لاعتناق المذهب القرمطي، فلم يُجبههم أحد من الكلبيين باستثناء فخذ منهم يُعرَف ببني العليص، وبحلول أواخر عام 289هـ/902م بايع العليصيون أبا القاسم يحيى بن زكرويه⁽⁵⁾، ويرى النيسابوري أنَّ بني العليص كانوا في الأصل

(1) الطُّبري، ج10، ص(94-95). ثابت بن سنان، ص196. ابن مسكويه، ج4، ص(402-403).

* بادية السماوة: لفظ أُطلق على البادية التي كانت تقع بين الكوفة والشَّام، ولعلَّ الأدقَّ هي التي تقع بين العراق والشَّام. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص245. الحُميري، ص322. مؤنس، ص111.

(2) الطُّبري، ج10، ص95. ثابت بن سنان، ص196. ابن مسكويه، ج4، ص403

(3) الطُّبري، ج10، ص95. المسعودي، التنبيه، ص322. ثابت بن سنان، ص196. ابن مسكويه، ج4، ص403. ابن العديم، ج2، ص940. النويري، ج25، ص148.

(4) زكار، ج1، ص137.

* تدمر: مدينة قديمة مشهورة تقع إلى الشَّمال الشرقي من دمشق، وعلى الرَّغم من الدور السياسي والاقتصادي الكبير الذي لعبته في العصور القديمة، إلَّا أنَّها لم تتعدَّ مجرد قرية في ظلَّ الحكم الإسلامي. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص(17-19). سوريدي، ص(278-279).

(5) الطُّبري، ج10، ص95. ابن مسكويه، ج4، ص403.

من أنصار الداعية الإسماعيلي أبي الحسين بن الأسود، وهو الذي أشرف على اعتناقهم المذهب الإسماعيلي قبل أن ينجح أبو القاسم بضمهم إلى صفه⁽¹⁾، ووفق وصف ابن حوقل^(ت). بعد 367هـ/977م)، فإن بني العليص من أكثر قبائل كلب انتشاراً في بادية الجزيرة وما حولها⁽²⁾؛ ولعلّ هذا ما يفسر انفجار ثورة يحيى بن زكرويه في منطقتي الرصافة* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 2)، والرقعة.

واختلفت الروايات التاريخية حول هوية صاحب الناقة وأخيه صاحب الشّامة ونسبهما، وهذا ما نوّه إليه ابن العديم حين قال: "وكثير ما يقع الاختلاف في اسمه ونسبه (صاحب الشّامة)، واسم أخيه الذي كان قبله (صاحب الناقة)"⁽³⁾، وعلى الرّغم من ذلك نجد أنّ الاختلاف الحقيقي وقع حول هوية النسب الإسماعيلي الذي انتحله كلا الأخوين⁽⁴⁾، ومن خلال نصوص المصادر التاريخية نجد أنّ اسم عبد الله بن محمد بن إسماعيل هو الأكثر تداولاً عند الحديث عن نسبهما المزعوم⁽⁵⁾؛ فقد عرّف صاحب الناقة نفسه بأنّه محمد بن عبد الله⁽⁶⁾، في حين ادّعى صاحب الشّامة أنّه أحمد بن عبد الله⁽⁷⁾، وبخلاف ذلك تكاد تجمع أغلب المصادر على أنّ كلا الأخوين من أبناء زكرويه بن

(1) النيسابوري، ص 97.

(2) ابن حوقل، ج 1، ص 134.

* الرصافة: اسم أطلق على عديد من المواضع والمدن في العالم الإسلامي، وخاصة في بلاد الشّام التي كان فيها أكثر من واحدة، وأشهرها رصافة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-742م) الواقعة غربي الرقة على بُعد أربعة فراسخ، وعلى الأغلب أنّها هي المقصودة في هذا النص. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص (46-49).

(3) ابن العديم، ج 2، ص 928.

(4) الطّبري، ج 10، ص (95-96). ثابت بن سنان، ص 196. ابن مسكويه، ج 4، ص 403. ابن عساكر، ج 43، ص (62-64).

(5) الطّبري، ج 10، ص (95-96). ثابت بن سنان، ص 196. ابن مسكويه، ج 4، ص 403. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286.

(6) ابن العديم، ج 2، ص (927-928). ابن خلدون، ج 4، ص 111. المقرئ، اتعاط، ج 1، ص 169.

(7) الطّبري، ج 10، ص 95. ثابت بن سنان، ص 196. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286. ابن العديم، ج 2، ص 928. ابن خلدون، ج 4، ص 111. المقرئ، اتعاط، ج 1، ص 168.

(8) الطّبري، ج 10، ص 99. ابن مسكويه، ج 4، ص 403. ابن عساكر، ج 43، ص 62. ابن الجوزي، ج 13، ص 16. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286. ابن العديم، ج 2، ص (927-928)، ص 944. الصفدي، ج 7، ص 79. المقرئ، اتعاط، ج 1، ص 170.

مهرويه⁽¹⁾، في حين يرى النيسابوري أنهما من أبناء الداعية الإسماعيلي أبي محمد الكوفي، دون أن يُحدّد اسمُ هذا الداعية الذي كان قد توفّي قبل خروج ولديه، وهذا يخالف ما هو شائع بأنّ مقتل زكرويه وقع بعد مقتل ولديه⁽²⁾، ولعلّ الطّبري^(ت. 310هـ/922م) يطرح هذا الاحتمال حينما يصرّح على لسان صاحب الناقة بأنّه قد ادّعى من ضمن ما ادّعاه أنّ أباه يُعرّف بأبي محمود، وهو من دعاة محمد بن إسماعيل⁽³⁾، وفي رأي غريب ينفرد النويري به، نقله عنه المقرئزي، أنّ صاحب الناقة كان من القداحين*، وهو الذي سبق له أن تأمر مع زكرويه على قتل عبدان⁽⁴⁾، وعطفاً على ما دُكر، فإنّه من الصعوبة بمكان التسليم بصحة أيّ من هذه الآراء، بما فيها القائل بصلة الأبوة بينهما وبين زكرويه، وإن كان هذا الاحتمال هو الأرجح.

ووصف يحيى بن زكرويه بالدهاء؛ فقد كان غلاماً شيطانياً يحمل في جعبته بعض الدفاتر التي أغوى بها أنصاره⁽⁵⁾، ومما وُصف به أنّه "كان يلبس الثياب الواسعة، ويعتّم عمّة أعرابية، ويتلنّم"⁽⁶⁾، وعُرفَ بغير لقب؛ كالشيخ⁽⁷⁾، والشيخ المبرقع⁽⁸⁾، وصاحب الجمل⁽⁹⁾، وصاحب الناقة⁽¹⁰⁾؛ لأنّه كان لا يركب إلا ناقة زعم لأصحابه أنّها مأمورة، وأنّه لا ينبغي الخروج للقتال إلّا بعد أن تبادر إلى السير أمامهم،

(1) الطّبري، ج 10، ص (95-96)، المسعودي، التنبيه، ص 425. ثابت بن سنان، ص 196. ابن سعيد القرطبي، الصلة، ص 18. ابن مسكويه، ج 4، ص 403. ابن الجوزي، ج 13، ص (14-15). سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286. الذهبي، سير، ج 13، ص (481-482). الصفي، ج 7، ص 79. ابن خلدون، ج 4، ص (111-112).

(2) النيسابوري، ص 96.

(3) الطّبري، ج 10، ص 95.

* **القداحين**: يُنسبون إلى ميمون القداح، وقد عُرفَ بالقداح؛ لاشتغاله في طبابة العيون، وكان مولى لبني مخزوم في مكة خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وقد تتلمذ على يد الإمام محمد الباقر، وروى عنه عدداً من الأحداث، وتكمن أهميته في التاريخ الإسماعيلي؛ كونه والد عبيد الله بن ميمون القداح المؤسس الفعلي للمذهب الإسماعيلي، وواضع أصوله ومراتبه، ونظراً لهذا الدور المركزي الذي قام به الأخير في فترة السّتر التي سادها كثير من الغموض؛ فقد نسب أعداء الخلفاء الفاطميين أصولهم إلى هذا الداعية. يُنظر: ابن خلّكان، ج 3، ص 118. دفتري، ص 270. العبادي، ص 223.

(4) النويري، ج 25، ص 149. المقرئزي، اتعاظ، ج 1، ص (168-169).

(5) النيسابوري، ص 97.

(6) الطّبري، ج 10، ص 99.

(7) الطّبري، ج 10، ص 95. ثابت بن سنان، ص 196. ابن مسكويه، ج 4، ص 403. ابن الجوزي، ج 13، ص 14. ابن الأثير، ج 6، ص 417. ابن العديم، ج 2، ص 932. ابن خلدون، ج 4، ص 112. المقرئزي، اتعاظ، ج 1، ص 169.

(8) سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286.

(9) ابن عساكر، ج 43، ص 63. ابن العديم، ج 2، ص 939. المقرئزي، اتعاظ، ج 1، ص 169.

(10) الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 220. النويري، ج 25، ص 148. المقرئزي، اتعاظ، ج 1، ص 169.

حتّى ولو عاجلهم العدو للحرب، وأكّد لهم أنّ النصر سيبقى حليفهم طالما امتثلوا لأمر الناقة⁽¹⁾، ويرى زكار أنّه أراد من وراء ذلك إثبات صدق دعوته من خلال التمثّل بقصة ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم- المأمورة لمّا حلّ بالمدينة المنورة في ختام رحلة الهجرة⁽²⁾.

واستمر صاحب الناقة في حشد أتباعه في بادية السماوة؛ فقد انضمّ إليه جماعة من بني الأصبع الذين أظهروا بدورهم حماساً وإخلاصاً لدعوته، حتّى إنّهم تسمّوا بالفاطميين، ويبدو أنّ هذه التحركات أثارت مخاوف سبّك الديلمي مولى المعتضد بالله، متولّي ناحية الرصافة وغربي الفرات؛ فحشد قوة عسكريّة خرج على رأسها؛ لدفع خطر صاحب الناقة الذي أخذ يقترب من ناحيته، ولعلّ هذا الوالي لم يدرك قوة هذا القرمطي الذي تمكّن من هزيمة جيشه، وقتله عندما اصطدم به، وإثر ذلك دخل القرامطة مدينة الرصافة، وعاثوا فيها تدميراً بعد أن أحرقوا مسجدها⁽³⁾، ثمّ تابع بعد ذلك صاحب الناقة زحفه في جيش كثيف باتجاه الرقة، فخرج إليه سبّك غلام المكتفي بالله، على رأس جماعة من الجند لحربه، وما إن اشتبكوا مع القرامطة حتّى قُتل سبّك، وانهزم جيشه⁽⁴⁾، وبعد هذا النصر قرّر صاحب الناقة أن يعود أدراجه باتجاه بلاد الشّام قاصداً مدينة دمشق؛ ويبدو أنّه كان يفضلّ عدم المغامرة في الانخراط بحروب مباشرة مع الجيوش العبّاسيّة في منطقة شمال العراق، وأنّ ثورته ستحقّق نتائج أفضل في بلاد الشّام حيث الوجود الطّولوني الهشّ، وبالتحديد في منطقة دمشق التي

(1) الطّبري، ج10، ص95. ثابت بن سنان، ص196. ابن مسكويه، ج4، ص403. النويري، ج25، ص148. ابن خلدون، ج4، ص111. المقرئ، اتعاط، ج1، ص169.

(2) زكار، ج1، ص(137-138).

(3) الطّبري، ج10، ص(96-97). ثابت بن سنان، ص196. ابن مسكويه، ج4، ص403. النويري، ج25، ص(148-149). المقرئ، اتعاط، ج1، ص(168-169).

(4) الطّبري، ج10، ص97. ابن مسكويه، ج4، ص405.

علت فيها أصوات السخط والتذمر؛ جرّاء سياسة واليها الطّولوني طغج بن جف (ت. 292هـ/905م)*؛ فقد عاث الأخير، و"طغى وجار في دمشق جوراً عظيماً"⁽¹⁾.

واصل صاحب الناقاة مسيره جنوباً باتجاه دمشق، وخلال ذلك عاث خراباً وتدميراً في القرى التي مرّ منها⁽²⁾، ويبدو أنّ والي دمشق لم يدرك قوته وخطورته، أو أنّ طبيعة المعلومات الواصلة إليه توحى بحدوث غارة بدوية؛ ولعلّ ما عزّز هذا الرأي عنده الثقل الكبير الذي شكّله القبائل العربية في صفوف جيش صاحب الناقاة، وعندما اقترب من دمشق استهان به واليها، وظنّ أنّها مجرد غارة بدوية، فخرج إليه على غير أهبة ولا استعداد مرتدياً عدة الصيد⁽³⁾، ولمّا التقى بجيش صاحب الناقاة تفاجأ بقوته، وتكبّد هزيمة كبيرة؛ ما اضطر طغج على إثرها إلى الانسحاب بما تبقى معه من قوات إلى داخل مدينة دمشق⁽⁴⁾، وسرعان ما عاود الأخير تنظيم صفوف قواته، وحشد جيشاً جديداً لحرب القرامطة بقيادة غلام له يدعى بشير، الذي اشتبك مع أتباع صاحب الناقاة، إلّا أنّ جيشه تلقى هزيمة نكراء، وأسير، ثم قُتل⁽⁵⁾، وشرع القرامطة بعد هذا النصر بفرض حصار محكم على مدينة دمشق⁽⁶⁾؛ وبفعل ذلك اضطربت الأوضاع في بلاد الشام، وفي ظلّ العجز الطّولوني عن حلّ هذه الأزمة، تدخلت الخلافة العبّاسيّة لمعالجة الموقف؛ فقد وجه المكتفي بالله في السابع عشر من ربيع الآخر 290هـ/العشرين من مارس 903م جيشاً كبيراً إلى بلاد الشام لحرب صاحب الناقاة بقيادة أبي

* **طغج بن جفّ**: الفرغاني، والد الإخشيد محمد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر، تولّى طغج إمارة دمشق خلال عهد خمارويه بن أحمد، واستمرّ على ذلك في عهد ولديه إلى أن اشتدّ خطر القرامطة في الشام، فعزله هارون سنة 290هـ/294م، وولّى بدلاً عنه بدرأ الحمامي، وعاد بعدها إلى مصر، ولمّا اجتاحت الجيوش العبّاسية مصر انضم إليها، وبعد انتهاء الحملة العبّاسية عاد إلى الشام، ثم اتجه إلى بغداد، وقد أثارت علاقته بالمكتفي بالله شكوك الوزير العباس بن الحسن، فما كان من الأخير إلّا أن أودعه السجن هو وولده محمد، وما لبث ضفج أن توفي في سجنه سنة 292هـ/905م. يُنظر: ابن عساكر، ج5، ص57.

(1) النيسابوري، ص 98. يُنظر أيضاً: زكار، ج1، ص137.

(2) الطّبري، ج10، ص 95. ابن مسكويه، ج4، ص 403. النويري، ج25، ص 148. المقرئ، ج1، ص 169.

(3) ابن العديم، ج2، ص 940. ابن تغري، ج3، ص 104.

(4) الطّبري، ج10، ص 95. المسعودي، التنبيه، ص 322. ثابت بن سنان، ص 196. النيسابوري، ص 98. ابن مسكويه، ج4، ص 403. ابن العديم، ج2، ص 940. النويري، ج25، ص 148. المقرئ، ج1، ص 169. ابن تغري، ج3، ص 104.

(5) الطّبري، ج10، ص 97. ثابت بن سنان، ص 198. ابن مسكويه، ج4، ص 405. ابن الأثير، ج6، ص 417.

(6) الطّبري، ج10، ص 95. المسعودي، التنبيه، ص 322. ثابت بن سنان، ص 198. النيسابوري، ص 98. ابن مسكويه، ج4، ص 403. ابن الأثير، ج6، ص 417. ابن العديم، ج2، ص 930. النويري، ج25، ص 148. المقرئ، ج1، ص 169.

الأغرّ خليفة بن مبارك السلمي⁽¹⁾، ويبدو أنّ هذا الجيش قد عدّل عن وجهته لسبب من الأسباب؛ بدليل انقطاع خبره، وعدم ورود أيّ دور له في حرب ثورة صاحب الناقة، وإن كان الباحث يرى أن المقصود بذلك هو حملة أبي الأغرّ التي وجهها الخليفة لحرب صاحب الشّامة في منتصف هذا العام⁽²⁾، خاصّة في ظلّ التكافؤ العددي بين الجيشين، وأنّ كلّ منهما قصد مدينة حلب، ويبدو أنّ الأمر قد اختلط على الطّبري، وعنه نقل بعض المؤرخين.

وفي منتصف شهر جمادى الأولى 290هـ/منتصف إبريل 903م وصلت كتب تجار الشّام إلى بغداد تُخبر عن حجم المعاناة التي تعرّض لها أهل دمشق؛ جرّاء ثورة صاحب الناقة؛ فقد هزم القرامطة طغج غير مرة، وقُتل معظم عساكره، وهو في قلّة من الجند، وقد بات يعتمد على مؤازرة العامّة له في كلّ مناوشة يخرج فيها للتخفيف من وطأة الحصار على المدينة، وأنّ أهل دمشق قد شارفوا على الهلاك، وبعد أن تُلّي الكتاب اجتمع جماعة من تجار بغداد، وساروا نحو القاضي يوسف بن يعقوب، وأطلعوه على حقيقة ما يجري في دمشق، وطلبوا منه أن يمضي بهم إلى الوزير القاسم بن عبيد الله؛ لإخباره بذلك، فوعدهم القاضي خيراً⁽³⁾، وهذا ما يؤكّد على أنّ الخلافة العبّاسيّة لم تبذل أيّ دور في محاربة ثورة صاحب الناقة بعد انتقالها إلى الشّام، ويرى المسعودي أنّ حصار دمشق استمرّ مدة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً؛ وقد تخلّل هذه الفترة حدوث معارك قوية بين الطرفين كانت فيها الحرب سجّالاً بينهما، وبفعل طول هذه المدة تأثّر أكثر أهل الغوطة، وما حول دمشق بصاحب الناقة، واعتنقوا مذهبه، وعاضدوه في حربه ضد طغج، وبذلك قويت شوكته، وازدادت خطورة ثورته⁽⁴⁾، ولعلّ ذلك ما دفعه إلى تعزيز نفوذه في هذه الأنحاء، فعمل على سكّ نقوده الخاصّة، وضرب الدنانير والدراهم، ونقش فيها على أحد الوجهين: قل جاء الحق وزهق الباطل، وعلى الوجه الآخر: لا إله إلّا الله، قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى⁽⁵⁾، وفي الوقت نفسه كتب طغج إلى هارون بن خمارويه بمصر يستنصره، ويطلب دعمه في حربه ضد القرامطة⁽⁶⁾.

(1) الطّبري، ج10، ص97. ابن مسكويه، ج4، ص405. ابن الجوزي، ج13، ص14.

(2) الطّبري، ج10، ص104. المسعودي، التنبيه، ص322. ابن الأثير، ج6، ص419. النويري، ج23، ص5.

(3) الطّبري، ج10، ص(97-98). ابن مسكويه، ج4، ص405. ابن الأثير، ج6، ص417.

(4) المسعودي، التنبيه، ص322.

(5) النويري، ج25، ص149. المقرئ، ج1، ص170.

(6) النيسابوري، ص98. ابن العديم، ج2، ص930. النويري، ج25، ص148. ابن تغري، ج3، ص104.

وحاول المصريون جاهدين دفع خطر صاحب الناقة عن بلاد الشام، غير أن الأخير نجح في هزيمة معظم قواتهم؛ ما فاقم من وطأة الحصار المفروض على مدينة دمشق⁽¹⁾، وخلال ذلك وجه هارون إليه جيشاً جديداً بقيادة بدر الحمامي⁽²⁾، ويبدو أن هذا الجيش لم يكن كبيراً؛ فقد تمكّن من دخول دمشق من دون أن يشعر به القرامطة⁽³⁾، وبعد مدّة وجيزة، وبالتحديد في غرة رجب 290هـ/الواحد والثلاثين من مايو 903م⁽⁴⁾، استأنف طعج بمن انضمّ إليه من المصريين القتال ضدّ القرامطة، وكان صاحب الناقة قد أمر أخاه صاحب الشّامة قبل بدء المعركة بأن يكمن بخمسمئة فارس خلف أحد الجنان المحيطة بهم؛ حتّى إذا ما بدأ القتل واشتد وطيسه يخرج بمن معه نحو المصريين مباغتاً لهم⁽⁵⁾، ويبدو أن الغلبة كانت للمصريين في بداية المعركة، وأظهر صاحب الناقة خلال ذلك ثباتاً وعزماً كبيرين، ورفض الانسحاب على الرّغم من اشتداد الخطر عليه⁽⁶⁾، وبعد ساعة من اندلاع المعركة قُتل صاحب الناقة بحربة ضربه بها رجل من عساكر بدر الحمامي⁽⁷⁾ يُقال له زهير⁽⁸⁾، وكان الأخير قد حلف ونذر على أن يقتل هذا القرمطي إن ظفر به؛ فلما دار القتال اندفع زهير نحوه، وظلّ يشقّ صفوف جيشه حتّى وصل إليه وتمكّن منه وهو ممتطٍ ناقته فخرّ صريعاً على الأرض⁽⁹⁾، ولمّا علم بدر بذلك أمره بجزّ رأسه، وحين باشر زهير بذلك وقعت نفاطة* عليه، فأحرقت القاتل والمقتول⁽¹⁰⁾.

ويبدو أن المصريين كانوا قد بذلوا قصارى جهدهم للظفر برأس صاحب الناقة، أو جثته، غير أن استبسال القرامطة في حماية بدن سيدهم حال دون ذلك؛ فقد قُتل من الطرفين في خضمّ هذه

(1) الطّبري، ج10، ص99. ابن مسكويه، ج4، ص406. ابن الجوزي، ج13، ص15. ابن العديم، ج2، ص930.

(2) النيسابوري، ص98. ابن مسكويه، ج4، ص403. ابن الأثير، ج6، ص417. ابن العديم، ج2، ص930. النويري، ج25، ص148. ابن تغري، ج3، ص104.

(3) النيسابوري، ص98.

(4) المسعودي، التنبيه، ص322.

(5) النيسابوري، ص99.

(6) ابن العديم، ج2، ص931.

(7) النيسابوري، ص99.

(8) ابن العديم، ج2، ص931. ابن تغري، ج3، ص105.

(9) ابن تغري، ج3، ص105.

* النفاطة: قارورة يوضع فيها النفط وبعد أن تشعل يتم قذفها تجاه العدو. يُنظر: الفيومي، ص236.

(10) النيسابوري، ص99.

المحاولات زهاء مئة رجل⁽¹⁾، وفي أثناء ذلك خرج صاحب الشّامة من كمينه⁽²⁾، واستؤنف القتال من جديد، وحينها دارت الدائرة على المصريين، وتمكّن القرامطة من هزيمتهم على الرّغم من مقتل قائدهم⁽³⁾، وبخصوص مكان المعركة، فقد ذكر النيسابوري أنّه المزة*⁽⁴⁾، إلّا أنّه من المرجّح أن يكون السطح⁽⁵⁾؛ وهي من قرى دمشق، مقابل باب توما⁽⁶⁾، وما يؤكّد ذلك رواية الطّبري، ومن نقل عنه من المؤرخين بأنّ مقتل صاحب الناقة كان على أحد أبواب دمشق⁽⁷⁾، وفي ذلك قال أحد الشعراء مخاطباً المكتفي بالله بعد نجاحه في إخماد ثورات قرامطة الشّام والعراق:

(البحر الطويل)

سَقَى مَا تَوَى بِالْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ النَّزْحِ دُمَاءً أُرِيقَتْ بِالْأَفَاعِي * وَبِالسَّطْحِ⁽⁸⁾

- ثورة صاحب الشّامة 290-291هـ/903م

بعد مقتل يحيى بن زكرويه تولى أخوه الحسين قيادة أنصاره من بعده⁽⁹⁾، وعلى الرّغم ممّا ذكرته المصادر التّاريخيّة من أنّ زكرويه قد بعث بغير ابن له عندما بدأ بنشر دعوته في صفوف قبيلة كلب، إلّا أنّه يرجّح أنّ انضمام الحسين إلى أخيه يحيى كان قبل مقتل الأخير ببضعة أيام⁽¹⁰⁾، ويمكن تفسير ذلك بأنّ كلا الأخوين، وبعد أن كشفوا حقيقة أمرهما للكلبيين، ذهبوا باتجاه نشر الدعوة

(1) ابن العديم، ج2، ص931.

(2) النيسابوري، ص99.

(3) الطّبري، ج10، ص96. المسعودي، التّنبية، ص322. النيسابوري، ص99.

* المَزَّةُ: قرية كبيرة غناء تقع وسط بساتين دمشق، وتبعد عنها مسافة نصف فرسخ. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج5، ص122.

(4) النيسابوري، ص99.

(5) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص220. ابن العديم، ج2، ص929.

(6) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص220.

(7) الطّبري، ج10، ص99. ثابت بن سنان، ص198. ابن الجوزي، ج13، ص15. ابن الأثير، ج6، ص417.

* الإفاعي: اسم لمكان وقعت فيه إحدى معارك صاحب الناقة ضدّ طغج. يُنظر: المسعودي، التّنبية، ص322. النيسابوري، ص98.

(8) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص220.

(9) الطّبري، ج10، ص96. المسعودي، التّنبية، ص322. ثابت بن سنان، ص198. النيسابوري، ص13. ابن مسكويه، ج4، ص403. ابن الجوزي، ج13، ص15. ابن الأثير، ج6، ص417.

(10) النيسابوري، ص(98-99). ابن العديم، ج2، ص932.

في منطقتين منفصلتين، ولمّا لاقت دعوة الأخ الأكبر نجاحاً لافتاً، وفشلت جهود الأخ الأصغر، لم يجد الأخير مفرّاً من الانضمام إلى أخيه؛ لمعاضدته في ثورته، وعندما وصل الحسين قدّمه يحيى لأنصاره على أنّه أخوه، مدّعيّاً له نسباً إسماعيلياً، ثمّ سارع إلى تعيينه خلفاً له في قيادة الدعوة؛ ما أثار حفيظة شيوخ بني العليّص الذين رفضوا هذا القرار، ولعلّهم رأوا في أنفسهم أهلاً لخلافة سيدهم أكثر من أخيه الذي لم يمضِ على وجوده بينهم إلّا النزر اليسير من الوقت، ويبدو أنّ ما شجعهم على ذلك حادثة سنّه؛ فقد بلغ عمر الحسين حينها عشرين عاماً، ولم يجد صاحب الناقة بُدّاً من إرغامهم على القبول بذلك مستعيناً بمواليهم عليهم، فقد حرّض موالي بني العليّص على شيوخهم حتّى قتلوا جماعة منهم، فذلّ من بقي منهم وانكسرت شوكتهم، وقبلوا رغماً عنهم ببيعة الحسين بن زكرويه⁽¹⁾، ويرى النيسابوري أنّ البيعة تمّت بسلاسة دون أن يكون هناك أيّ ممانعة من العليّصيين، فقد جمع صاحب الناقة مشايخ بني العليّص، وطلب منهم أن يبايعوا أخاه من بعده، فامتثلوا جميعاً لأمره، وعلى حدّ زعمه فإنّ هذه البيعة كانت لمدّة أربعين يوماً؛ لأنّ صاحب الناقة صرّح لهم بأنّه سيُرفع إلى السماء، وأنه لن يعود إليهم حتّى انقضاء هذه المدّة⁽²⁾، وبذلك يكون الأخير قد بذل دوراً مهماً في تقديم أخيه لأنصاره، ثمّ تعيينه خلفاً له في قيادة الثّورة حال تعرّضه للقتل.

عُرفَ الحسين بن زكرويه⁽³⁾ بلقب صاحب الخال⁽⁴⁾، أو صاحب الشّامة⁽⁵⁾؛ لحبّة خال أو شامة كانت في وجهه اشتهر بها⁽⁶⁾، ويبدو أنّه أراد بذلك أن يتشبه بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، جاعلاً هذه الحبة دلالة على صدق دعوته؛ تشبّهاً بخاتم النبوة الذي اشتهر به الرسول الأكرم⁽⁷⁾، وعُرفَ كذلك

(1) الطّبري، ج10، ص96.

(2) النيسابوري، ص(98-99).

(3) الطّبري، ج10، ص96. ثابت بن سنان، ص198. ابن مسكويه، ج4، ص403. ابن الجوزي، ج13، ص15. ابن الأثير، ج6، ص417. سبط ابن الجوزي، ج16، ص286. ابن العديم، ج2، ص927. النويري، ج25، ص149. الصفدي، ج7، ص79. ابن خلدون، ج4، ص112.

(4) ابن عساكر، ج43، ص64. ابن العديم، ج2، ص(928-929)، ص939، ص946. الصفدي، ج7، ص79.

(5) الطّبري، ج10، ص103، ص108. ثابت بن سنان، ص199. ابن سعيد القرطبي، ص11. ابن مسكويه، ج4، ص408. ابن الجوزي، ج13، ص22. ابن الأثير، ج6، ص418. سبط ابن الجوزي، ج16، ص286. ابن العديم، ج2، ص937. النويري، ج23، ص5. ابن خلدون، ج4، ص112.

(6) ابن مسكويه، ج4، ص403. ابن الأثير، ج6، ص417. سبط ابن الجوزي، ج16، ص286. ابن العديم، ج2، ص929.

(7) ابن مسكويه، ج4، ص403. ابن الأثير، ج6، ص417. سبط ابن الجوزي، ج16، ص286. يُنظر أيضاً: زكار، ج1، ص138.

بلقب أبي المهزول⁽¹⁾؛ والمهزول في اللغة قليل اللحم⁽²⁾، وفي ذلك دلالة على أنه كان نحيف الجسد، ومما وُصِفَ به من الطباع أنه كان "شجاعاً فاتكاً شاعراً"⁽³⁾، ويُنسب إليه نظم الشعر⁽⁴⁾، ومما يؤثّر عنه في ذلك قوله:

(البحر السريع)

مَتَى أَرَى الدُّنْيَا بِلاَ كاذِبٍ	وَلَا حُرُورِيَّ وَلَا ناصِبِي
مَتَى أَرَى السَّيْفَ عَلَى كُلِّ مَنْ	عَادَى عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ
مَتَى يَقُولُ الْحَقُّ أَهْلُ النُّهَى	وَيُنْصَفُ الْمَغْلُوبُ مِنْ غَالِبٍ
هَلْ لِبَغَاةِ الْخَيْرِ مِنْ ناصِرٍ	هَلْ لِكُؤُوسِ الْعَدْلِ مِنْ شَارِبٍ ⁽⁵⁾

ومن الجدير بالذكر أنّ مقتل صاحب الناقة لم يحدّ من نشاط القرامطة في بلاد الشام، فقد تابعت الحركة جهودها في حشد مزيد من الأنصار إلى صفّها، وكان اهتمامها ينصب باتجاه القبائل البدوية، مستغلة حالة التذمر السائدة؛ جرّاء تدهور أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وفي المقابل وجدت القبائل البدوية في ثورات القرامطة فرصة؛ لتعزيز نفوذها، وتحسين ظروفها الاقتصادية عن طريق ما تتحصّل عليه؛ جرّاء غارات النهب والسلب⁽⁶⁾، ولعلّ ذلك ما قصده ابن العديم (ت. 660هـ/1261م) حين وصف حالة الانخراط الكبيرة الحاصلة في صفوف القبائل البدوية لحركة الحسين بن زكرويه بقوله: "ورغبت البوادي في النهب، وانتالت إليه انثيالاً"⁽⁷⁾، ونتيجة ذلك كثر أتباع هذا القرمطي، واشتدّت وطأة ثورته لا سيّما بعد أن أظهر نشاطاً كبيراً ومقدرة عظيمة على تنظيم صفوف أتباعه⁽⁸⁾.

(1) النيسابوري، ص 13. ابن العديم، ج 2، ص 929.

(2) ابن منظور، ج 1، ص 752، ج 2، ص 161.

(3) الصفدي، ج 7، ص 79.

(4) ابن عساكر، ج 43، ص (62-63). ابن العديم، ج 2، ص 943. الصفدي، ج 7، ص (79-80).

(5) ابن العديم، ج 2، ص 943. الصفدي، ج 7، ص 79.

(6) الطبري، ج 10، ص 100. ثابت بن سنان، ص 198. ابن مسكويه، ج 4، ص 406. ابن مسكويه، ج 4، ص 15. ابن الأثير، ج 6، ص 417.

(7) ابن العديم، ج 2، ص 932.

(8) الطبري، ج 10، ص 100. ثابت بن سنان، ص 198. ابن مسكويه، ج 4، ص 406. ابن عساكر، ج 43، ص 64. ابن الأثير، ج 6، ص 417. يُنظر أيضاً: الدوري، دراسات، ص 130.

فعظم البلاء على أهل الشام، حتّى إنّ ما نالهم من ثورته فاق بأضعاف ما تعرّضوا له خلال ثورة أخيه من قبله⁽¹⁾.

وبعد مقتل صاحب الناقة بوقت قصير عاد صاحب الشّامة بمنّ معه من القرامطة إلى فرض حصار جديد على مدينة دمشق، غير أنّه سرعان ما رفع الحصار بعد أن صالحه أهلها على دفع مبلغ من المال⁽²⁾، وفي الثّالث عشر من رجب 290هـ/الثّاني عشر من يونيو 903م⁽³⁾ رحل القرامطة عن دمشق إلى حمص⁽⁴⁾، وخلال مسيرهم سيطروا على أطراف حمص⁽⁵⁾، ثمّ دخلوا حمص بعد أن فتح أهلها أبوابها لهم دون قتال⁽⁶⁾ في أواخر شهر رجب 290هـ/أواخر يونيو من هذا العام 903م⁽⁷⁾، ويرى النيسابوري أنّ رحيل صاحب الشّامة نحو حمص، واستعداد أهلها للدخول في طاعته كان بناءً على مكاتبتهم له⁽⁸⁾، ومما يعزّز هذا الرأي عدم تعرّض المدينة لأيّ أعمال عنف في أثناء دخول القرامطة إليها، مقارنة مع غيرها من المواضع التي دُمّرت، ولاقى أهلها خلالها مصارعهم؛ جرّاء إخضاع صاحب الشّامة لها⁽⁹⁾.

ومن على منابر حمص تسمّى صاحب الشّامة بلقب المهدي المنصور بالله الناصر لدين الله، ودعا لنفسه بالخلافة⁽¹⁰⁾، ولعلّ الأدقّ أنّه نفى عن حاله صفة المهديّة، واعتبر نفسه ممثلاً للإمام المهدي محمد بن إسماعيل⁽¹¹⁾، ومبشّراً بظهوره، ولهذا نصّب نفسه أميراً للمؤمنين؛ ومما يؤكّد ذلك نصّ

(1) ابن العديم، ج2، ص 939. ابن عساكر، ج43، ص64.

(2) الطّبري، ج10، ص100. المسعودي، التّنبية، ص322. ثابت بن سنان، ص198. ابن مسكويه، ج4، ص406. ابن الجوزي، ج13، ص15. ابن الأثير، ج6، ص417.

(3) المسعودي، التّنبية، ص322.

(4) الطّبري، ج10، ص100. المسعودي، التّنبية، ص322. ثابت بن سنان، ص198. النيسابوري، ص99.

(5) الطّبري، ج10، ص100. ثابت بن سنان، ص198. ابن مسكويه، ج4، ص406. ابن الجوزي، ج13، ص15.

(6) الطّبري، ج10، ص100. المسعودي، التّنبية، ص322. ثابت بن سنان، ص198. النيسابوري، ص99. ابن مسكويه، ج4، ص406. ابن الأثير، ج6، ص417.

(7) ثابت بن سنان، ص198.

(8) النيسابوري، ص99. ابن مسكويه، ج4، ص406. ابن الجوزي، ج13، ص15.

(9) الطّبري، ج10، ص100. المسعودي، التّنبية، ص322. ثابت بن سنان، ص198.

(10) الطّبري، ج10، ص100، ص105. ابن الجوزي، ج13، ص(15-16). ابن الأثير، ج6، ص417. ابن العديم، ج2، ص941. النويري، ج25، ص154. المقرئ، ج1، ص172. ابن تغري بردي، ج3، ص106.

(11) الدوري، ص129.

الدعاء الذي كان يتردد في هذه الخطب، الذي نقله لنا ثابت بن سنان (ت. 365هـ/976م): "اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت، أمير المؤمنين المهدي، اللهم أملأ الأرض به عدلاً وقسطاً، ودمّر اللهم دمر أعداءه"⁽¹⁾، ويبدو أنّ الأمر قد اختلط على أكثرية المصادر التاريخية التي وجدت صعوبة في التوفيق بين محوري هذا الحدث.

وبحلول بداية شهر رمضان 290هـ/بداية أغسطس 903م⁽²⁾، انضمّ إلى صاحب الشّامة ابن عمّه عيسى بن مهرويه⁽³⁾، وزعم لهم أنّه عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل⁽⁴⁾، ثمّ لقّبه بالمدثر، وبيّن لهم أنّه المقصود بقوله تعالى: "يا أيها المدثر" (المدثر: 1)، وقد قدم مع ابن عمّه أحد غلمانه، ولقّبه بالمطوق، وكلفه بقتل الأسرى⁽⁵⁾، وكان الأخير حديث السن "غلام ما خرجت لحيته"⁽⁶⁾، وذكّر أنّ اسمه عميطر⁽⁷⁾، وقيل عنه: إنّ من أهل الموصل⁽⁸⁾.

وبعد أن أقام القرامطة بجمص، وجه صاحب الشّامة جيشاً إلى مدينة بعلبك التي كانت حينذاك من أعمال دمشق⁽⁹⁾، ويبدو أنّها حاولت دفع خطرهم عنها، غير أنّها فشلت في ذلك؛ ما جعلها عرضة لانتقامهم، حيث قتلوا معظم أهلها⁽¹⁰⁾، وبعد أن فرغوا من ذلك تابع القرامطة مسيرهم حتّى وصلوا إلى مشارف مدينة سلمية، وأقاموا في ظاهر المدينة لعدّة أيام، وخلالها خرّج الهاشميون وآل بيت المهدي للسلام على صاحب الشّامة، وبعد مدّة أراد الأخير أن يبیطش بالهاشميين، فمنعه مشايخ العليصيين من ذلك؛ خوفاً من غضب الخليفة وانتقامه منهم إن أقدموا على قتل أقاربه من بني

(1) ثابت بن سنان، ص 198. يُنظر أيضاً: الدوري، ص 129.

(2) ثابت بن سنان، ص 198.

(3) الطّبري، ج 10، ص 96. ثابت بن سنان، ص 198. ابن سعيد القرطبي، ص 11. ابن مسكويه، ج 4، ص 403. ابن الأثير، ج 6، ص 417. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286. ابن العديم، ج 2، ص 934.

(4) الطّبري، ج 10، ص 96. ابن الأثير، ج 6، ص 417. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286.

(5) الطّبري، ج 10، ص 96. ثابت بن سنان، ص 198. ابن مسكويه، ج 4، ص 403. ابن الأثير، ج 6، ص 417. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 286.

(6) الطّبري، ج 6، ص 112. ابن سعيد القرطبي، ص 12. ابن مسكويه، ج 4، ص 410.

(7) النيسابوري، ص 101. ابن العديم، ج 2، ص 927.

(8) ابن العديم، ج 2، ص 934.

(9) المسعودي، التنبيه، ص 322.

(10) الطّبري، ج 10، ص 100. المسعودي، التنبيه، ص 323. ثابت بن سنان، ص 198. ابن مسكويه، ج 4، ص 406. ابن الأثير، ج 6، ص 417. النويري، ج 25، ص 150.

هاشم⁽¹⁾، وفي المقابل قيل: إنّ أهل سلمية امتنعوا على القرامطة، وأغلقوا دونهم الأبواب، حتّى وادعهم صاحب الشّامة، وبذل لهم الأمان على حياتهم إن دخلوا في طاعته، وعندما أجابوه إلى ذلك، مكّنوه من مدينتهم، إلّا أنّه نقض أمانه وبدأ بقتلهم، وكان أول من بدأ به منهم بنو هاشم، ثمّ أجهز على أهلها كلّهم، ولم تتجّ حتّى البهائم من بطشه⁽²⁾، وذلك في بداية شهر رمضان/بداية أغسطس⁽³⁾، ويبدو أنّ رواية النيسابوري أدقّ من غيرها؛ فقد ذكر أنّ سيطرة القرامطة تمتّ سلمياً، وبعد قرابة شهر من هذا التاريخ، أباد صاحب الشّامة الهاشميين، ثمّ لاقى أهل بيت المهدي المصير نفسه مع بداية السنة الجديدة، وتناول ظروف هذه الوقائع بشكل يتوافق مع التدرّج المرحلي الذي مرّت به ثورة صاحب الشّامة، ويبدو أنّ باقي المصادر أجازت ما حدث في سلمية دون التطرّق إلى تفاصيل ذلك.

ورحل صاحب الشّامة عن سلمية باتجاه حماة⁽⁴⁾، وتمكّن من إخضاعها بعد أن قتل قسماً كبيراً من أهلها⁽⁵⁾، ويبدو أنّ هذا السلوك الدموي دفع المناطق المحيطة للاستسلام؛ أملاً في دفع خطر القرامطة عنهم، وبعد ذلك سار صوب معرّة النعمان*، التي صالحته على الطاعة مقابل دفع مبلغ دوريّ من المال⁽⁶⁾، وتابع القرامطة تقدّمهم حيث توغّلوا شمالاً باتجاه مدينة حلب، وأغاروا خلال ذلك على غير موضع، ثمّ استولوا عليها، ونهبوا ما فيها من سلاح ومال⁽⁷⁾.

وفيما يتعلّق بالدّولة العبّاسيّة؛ فقد راقبت التطور الخطير الحاصل في بلاد الشّام بحذر شديد، ورأى المكتفي بالله في حركة صاحب الشّامة؛ تهديداً لسيادة العبّاسيين الدّينية والسّياسيّة، ولا سيّما بعد أن

(1) النيسابوري، ص100.

(2) الطّبري، ج10، ص100. ثابت بن سنان، ص198. ابن مسكويه، ج4، ص406. ابن الأثير، ج6، ص418. ابن العديم، ج2، ص927. النويري، ج25، ص150.

(3) ثابت بن سنان، ص198.

(4) النيسابوري، ص100.

(5) الطّبري، ج10، ص100. ابن مسكويه، ج4، ص406. ابن الأثير، ج6، ص417. ابن العديم، ج2، ص927. النويري، ج25، ص150.

* معرّة النعمان: مدينة قديمة مشهورة، تقع إلى الشّمال من حماة وإلى الجنوب الشرقي من حلب، وتبعد عن الأخيرة مسير خمسة أيام، وتعدّ من أعمال حمص، وهي مدينة كبيرة كثيرة المباني والأسواق، تشتهر بوفرة بساتين الزيتون والتين والفسق والجوز وكروم العنب. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج5، ص156. الجُميري، ص555.

(6) ابن العديم، ج2، ص941.

(7) نفسه، ص927.

أعلن الأخير نفسه خليفة للمسلمين، وأنه بصدد تأسيس دولة خلافة قرمطيّة تكون نواتها في بلاد الشّام، وأنّ خطر هذه الحركة بات يهدّد مناطق النفوذ العبّاسي، وما لم يُحتَوَ هذا المدّ، فإنّه سرعان ما سيمتدّ إلى العراق، وبالتّزامن مع ذلك كتب أهل الشّام إلى الخليفة يستغيثونه؛ لرفع الظلم الواقع عليهم على يد صاحب الشّامة وأخيه صاحب النّاقة من قبله، فقد عظم البلاء عليهم، وقُتِلَ منهم خلق كثير حتّى إنّه قد شارفوا على الفناء؛ ونتيجة ذلك سارع المكتفي بالله إلى إعداد قواته وتهيئتها؛ بغية الخروج في حملة كبيرة لضرب حركة صاحب الشّامة، فقد فرض للجند في الثّاني من رمضان 290هـ/الثلاثين من يوليو 903م مئة ألف دينار دفعة واحدة، وبعد ثلاثة أيام من هذا التّاريخ نُصبت مضارب عسكره في باب الشّماسية، وبعد يومين خرج الخليفة إلى هناك مصطحباً معه أرباب دولته وقادته وغلمانها، ومكث في مضاربه مدّة أسبوع⁽¹⁾؛ ويبدو أنّه أراد من ذلك كلّه أن يكون جيشه على أعلى قدر من الجاهزية، وأن يتيح الفرصة لانضمام أكبر قدر ممكن من المتطوعين له.

ونظراً لخطورة الوضع وقف المكتفي بالله بنفسه على رأس الحملة ليتولّى مهمّة الإشراف على حرب صاحب الشّامة، ويروي لنا الدّلجي (ت. 838هـ/1435م) قصّة تعكس مدى رغبة الخليفة في الخروج لقتال القرامطة: فقد اجتمع أمر المنجّمين على أنّ المكتفي بالله لن يرجع إن خرج للقتال في هذه الحرب، وأنّ ذلك سيكون إيذاناً بزوال دولته ونهاية عهده بالملك، ثمّ خوّفوا وزيره القاسم بن عبيد الله من مرافقته، فما كان من الخليفة إلّا أنّ ألّقى القبض عليهم جميعاً، وأودعهم السجن، وعندما عاد إلى بغداد مظفراً أمر الوزير بإحضار زعيم المنجّمين أبي الحسن العاصمي، وضربه بقوة⁽²⁾، وفي الثّاني عشر من رمضان/التاسع من أغسطس ارتحلت الجيوش العبّاسيّة عن مضاربها بباب الشّماسية⁽³⁾ باتجاه الموصل لحرب القرامطة في الشّام، وخلال ذلك ندب الخليفة القائد أبا الأغرّ خليفة بن مبارك السلمي على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل لحرب صاحب الشّامة⁽⁴⁾، ويبدو أنّ وجهة هذا الجيش كانت صوب مدينة حلب لصدّ خطر القرامطة عنها، وما يؤكّد ذلك قول ابن

(1) الطّبري، ج10، ص103.

(2) الدّلجي، ص26.

(3) الطّبري، ج6، ص103.

(4) الطّبري، ج10، ص100. المسعودي، التّنبية، ص323. ثابت بن سنان، ص198. ابن مسكويه، ج4، ص408. ابن

الأثير، ج6، ص419.

القديم إنّ أبا الأغَرّ، بتكليف من المكتفي بالله، خرج والياً على حلب، الذي وجه معه هذا الجيش حتّى يستعين به على حرب صاحب الشّامة⁽¹⁾.

وتابع أبو الأغَرّ تقدّمه صوب مدينة حلب، أمّا صاحب الشّامة فقد وصله خبر هذا الجيش وهو مقيم بحماة⁽²⁾، فوجه لحربه فرقة من القرامطة بقيادة المطوق⁽³⁾، ووصل الجيش العبّاسي إلى مشارف حلب في العشرين من رمضان 290هـ/السابع عشر من أغسطس 903م⁽⁴⁾، فالتجأ أبو الأغَرّ بمن معه إلى وادي بطنان*؛ نظراً لشدة الحرّ، وللتخفيف من وطأته خلع أكثر عساكره عتادهم، ونزلوا في الماء؛ لتبريد أجسادهم، وفي هذه اللحظة هجم عليهم المطوق على حين غرّة، فلم يقدر الجيش العبّاسي على احتواء هذا الهجوم المباغت؛ ونتيجة ذلك تعرّض هذا الجيش لهزيمة نكراء أُميد خلالها معظم عساكره؛ بحيث لم ينجُ منهم إلّا أبو الأغَرّ ومعه ألف مقاتل التجؤوا بشقّ الأنفس إلى داخل مدينة حلب، أمّا المطوق فقد سارع بقواته إلى حلب، وفرض حصاراً عليها، غير أنّ أبا الأغَرّ سرعان ما خرج إليه بمن معه من الجند، مستعيناً بمن انضمّ إليه من الأهالي، وقارعوا جميعاً القرامطة، واستطاعوا دفع خطرهم بعض الشيء عن المدينة؛ ما دفع المطوق إلى رفع الحصار عن حلب والانصراف عنها، مكتفياً بما تحصّل عليه من أموال وسلاح؛ جرّاء هزيمته جيش أبي الأغَرّ⁽⁵⁾، ويعزو ابن العديم الفضل في تحقيق هذا النصر للأهالي؛ فقد بادروا للخروج إلى حرب القرامطة، فمنعهم من ذلك أبو الأغَرّ غير أنّهم لم يمتثلوا لأوامره، حيث كسروا أقفال أبواب المدينة، واتجهوا لحرب المطوق وجنوده، ونجحوا بإنزال هزيمة قاسية بهم راح ضحيتها عدد كبير من القرامطة الذين أثاروا ترك المدينة والانصراف عنها؛ وبسبب ذلك ساد الأمان في أرجاء المدينة حتّى تجرّأ أهلها على الخروج في صبيحة اليوم التالي؛ لتأدية صلاة عيد الفطر في مصلّى العيد الواقع في أطرافها⁽⁶⁾.

(1) ابن العديم، ج7، ص3370.

(2) النيسابوري، ص101.

(3) الطّبري، ج10، ص100. النيسابوري، ص101. ابن مسكويه، ج4، ص408. ابن العديم، ج2، ص927.

(4) المسعودي، التنبيه، ص323.

* وادي بطنان: يقع إلى الشّرق من حلب بينها وبين منبج. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج1، ص447.

(5) الطّبري، ج10، ص100. ابن مسكويه، ج4، ص408.

(6) ابن العديم، ج2، ص928.

وعاد القرامطة أدرجهم محمّلين بما غنموه من جيش أبي الأغرّ، وكان من ضمن ما حازوه مجموعة من الكتب كان قد وجهها الهاشميون المقيمون بسلمية إلى المكتفي بالله يستتصرونه على صاحب الشّامة، وحين التقى القرامطة بسيدهم بسلمية نقلوا إليه بشائر هذا النصر الذي حققوه، ثمّ أطلعوه على خبر الكتب التي تحصّلوا عليها من معسكر أبي الأغرّ، فجمع صاحب الشّامة مشايخ العيلصيين ودعائهم الذين سبق لهم أن منعوه من قتل الهاشميين، وكشف لهم خبر هذه الكتب، وحين وقفوا على ذلك أباحوا له أن يصنع بهم ما أراد، فبادر إلى جمع شيوخ الهاشميين وناظرهم بخصوص ما صدر منهم، حيث أقرّوا بصنيعهم، وطلبوا العفو منه، فرفض ذلك، وأصرّ على قتلهم قائلاً: "لا عفى الله عنيّ إن عفوت عنكم"، ثمّ أمر بضرب رقابهم، وكان مجمل ما قتله منهم في هذا الموقف خمسة وتسعين شيخاً، وفي اليوم التالي وجه عساكره إلى بيوتهم، فنهبوا، وأحرقوها، وقتلوا خلال ذلك من النساء والصبيان والبنات مئة وواحدة وأربعين نفساً، لتصبح بذلك الحصيلة النهائية مئتين وستة وأربعين هاشمياً قُتلوا على يد صاحب الشّامة، وزاد الأخير على ذلك بأن منع أهل سلمية من دفنهم، ومكثوا على حالهم تلك "حتّى أكلتهم الكلاب والطير"⁽¹⁾.

وبالتّزامن مع ذلك نجح الطّولونيّون في أواخر شهر رمضان 290هـ/أواخر أغسطس 903م⁽²⁾ بقيادة بدر الحمّامي من تحقيق انتصار كبير على القرامطة، تبدّد إثره شملُ قوّاتهم، وتفرّق قسم كبير منهم في البوادي، وكتب بدر إلى الخليفة مبشّراً له بهذا النصر، فما كان من الأخير إلّا أن ندب فرقة عسكريّة على رأسها الحسين بن حمدان، وضمّ إليه بعض القادة، وأمرهم بتتبّع فلول القرامطة المنهزمين في البادية⁽³⁾؛ ويدل هذا الموقف على أنّ التنسيق العسكري بين العبّاسيين والطّولونيّين كان على أعلى درجاته خلال التصدي لثورة صاحب الشّامة، وفيما يتعلّق بتحركات الجيوش العبّاسيّة؛ فقد سبق لها أن أقامت بالموصل، ومنها انعطفت باتجاه الرقة، حيث استقرت بها، واتخذت منها مقراً لها، ومن هناك أخذ المكتفي بالله يوجه الجيش تلو الآخر لحرب القرامطة⁽⁴⁾.

(1) النيسابوري، ص (101-102).

(2) الطّبري، ج 10، ص 104.

(3) الطّبري، ج 10، ص 104. ثابت بن سنان، ص 200. ابن مسكويه، ج 4، ص 408. ابن الأثير، ج 6، ص 419.

(4) الطّبري، ج 10، ص (103-104). ابن مسكويه، ج 4، ص 408. ابن الأثير، ج 6، ص 419. ابن العديم، ج 2، ص (932-933).

وتعرّضت مدينة معرة النعمان في منتصف شهر ذي الحجة 290هـ/العاشر من نوفمبر 903م لهجوم قوي من القرامطة، نتج عنه مقتل قسم كبير من سكانها، ومن الجدير ذكره أنّ هذه المدينة قد سبق لها أن دخلت في طاعة صاحب الشّامة وصالحته على دفع مبلغ من المال، ولمّا حان وقت دفع المال أودعه الأهالي مع رجلين منهم، وكلفوهما بحمله إلى صاحب الشّامة، غير أنّه سرّق منهما في الطريق، ولمّا قدما إلى صاحب الشّامة رَعا له أنّ أهل معرة النعمان قد خالفوا طاعته، ورفضوا دفع المال له، فما كان من الأخير إلّا أن عزم أمره على أن يفتك بهم؛ ولهذا الغرض وجه جيشاً كبيراً إليهم، وحين وافى القرامطة المدينة استقبلهم أهلها، وفتحوا لهم الأبواب دون أن يكون لهم علم بما يبيّتونه لهم، وفي الحال تلقّفهم القرامطة بسيوفهم، وأعملوا فيهم القتل والسبي، ومكثوا على ذلك خمسة عشر يوماً حتّى راح ضحية ذلك عشرة آلاف⁽¹⁾.

ويُلاحظ أنّ صاحب الشّامة أخذ يتصرّف وكأنّه حاكم فعلي يتزعم دولة قائمة في بلاد الشّام؛ فقد بثّ عمّاله له في مناطق نفوذه⁽²⁾، وعيّن قضاة وشرطته⁽³⁾، وجبى الخراج، وضرب نقوده الخاصّة بدولته، ونقش عليها لقب المهدي المنصور أمير المؤمنين⁽⁴⁾، فعظمت قوته، وازدادت خطورة ثورته، واتسعت رقعتها الجغرافيّة، فقد اجتاحت هجمات القرامطة المناطق الواقعة بين حمص وحلب وأنطاكية⁽⁵⁾، وفي الوقت نفسه، لم يقف العبّاسيون والطّولونيّون مكتوفي الأيدي تجاه ثورة القرامطة بقيادة صاحب الشّامة، بل بذلوا جهوداً كبيرة كان لها عظيم الأثر في إلحاق الخسائر الفادحة بهم، وإرباك تحركاتهم والحدّ تدريجياً من قوتهم، واتضح ذلك من خلال نصّ رسالتين تبادلهما صاحب الشّامة مع عمّاله (يُنظر: الملاحق، وثائق رقم 1-2)، دونهما الطّبري في تاريخه، وتضمّنت أيضاً دعوات صاحب الشّامة لعمّاله وأنصاره بالثبات والتعاقد في وجه العدو ريثما يتمكّن من توجيه دعمه إليهم⁽⁶⁾.

(1) ابن العديم، ج2، ص941.

(2) الطّبري، ج10، ص105. ابن الجوزي، ج13، ص16. ابن العديم، ج2، ص941. النويري، ج25، ص154. المقرئ، ج1، ص172. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص106.

(3) الطّبري، ج10، ص112. ابن مسكويه، ج4، ص411. ابن العديم، ج2، ص936.

(4) ابن العديم، ج2، ص941.

(5) المسعودي، التنبيه، ص323.

(6) الطّبري، ج10، ص(105-107).

وتابع المكتفي بالله من الرقة سير العمليات العسكرية، وما آلت إليه الأوضاع على الأرض بعد قضاء عدة أشهر في حرب صاحب الشامة، ويبدو أن الخليفة رأى الفرصة مواتية لتوجيه ضربة عسكرية قوية وحاسمة تجتث خطر هذه الثورة من جذورها، وانسجاماً مع ذلك أصدر تعليماته لوزير القاسم بن عبيد الله بضرورة المسارعة في تنفيذ هذه الخطة، وترك له مهمة الإشراف على سير هذه الحملة؛ وبادر الوزير بحشد جيش كثيف، أسند قيادته إلى صاحب ديوان الجيش* محمد بن سليمان، وبعد أن خرج الجيش كتب الوزير إلى القادة الذين سبق توجيههم لحرب صاحب الشامة كافة يأمرهم بالسمع وطاعة لمحمد بن سليمان⁽¹⁾، ويُقدّر أن رحيل الجيش عن الرقة وقع بين أواخر شهر ذي الحجة وبداية شهر ذي القعدة، ويبدو أن خطة الوزير رمت إلى استغلال أكبر عدد متاح من القوات العسكرية، ثم العمل على توحيدها تحت قيادة واحدة؛ بغية توظيف ذلك كله في إعداد جيش جرار لا يكون للقرامطة قدرة على التصدي له، ويُقدّر ابن العديم قوام هذا الجيش حين وصل إلى مشارف حلب بثلاثين ألف مقاتل⁽²⁾، ويتضح من خلال مجريات المعركة الفاصلة أن المتطوعين من أبناء القبائل العربية شكّلوا نسبة لا بأس بها من المجموع الكلي لهذا الجيش⁽³⁾.

وحرص محمد بن سليمان على رصد حركة جيوش صاحب الشامة، وفضل عدم الدخول معه في قتال مباشر إلا بعد تهيئة الظروف المناسبة لذلك، وظلّ يتخذ التدابير ويذكي العيون إلى أن دخلت السنة الجديدة، وكان يرغب بعدم الاشتباك مع القرامطة إلا مع حلول سنة 292هـ/905م، وليس أدلّ على ذلك إلا قوله لأحد قادته: "لو أخذوا بلحيتي ما خرجت إليهم حتّى يهلّ هلال المحرم"، ولمّا دخلت هذه السنة كتب الخليفة إليه بالإسراع في حرب صاحب الشامة⁽⁴⁾، وفيما يتعلّق بالآخر فقد

* **ديوان الجيش**: ويُسمّى أحياناً ديوان الجند، وهو الذي يتولّى تصريف أمور الجند، وكانت تُحفظ فيه الجريدة السوداء؛ وهي عبارة عن سجلّ كبير يحوي أسماء الجند، وأنسابهم، وأجناسهم، وصفاتهم، ومقدار عطاء كلّ واحد منهم، وتاريخ صرف هذا الاستحقاق، ويمكن اعتباره استمراراً للديوان الذي أنشأه الخليفة عمر بن الخطاب (13-23هـ/634-644م)، وما مرّ به بعد ذلك خلال العصر الأموي من تطوّر حتّى بلغ أوجه خلال العصر العباسي، وعلى ما يبدو أن رئاسة هذا الديوان خلال هذه الفترة لم تكن حكراً على النخبة الإدارية من الكتّاب، فقد كان يتولاه أحياناً بعض القادة العسكريين. يُنظر: السامرائي، المؤسسات، ص(254-255).

(1) الطبري، ج 10، ص 107. ابن سعيد القرطبي، ص 11. ابن مسكويه، ج 4، ص 408. ابن العديم، ج 2، ص 932.

(2) ابن العديم، ج 2، ص 941.

(3) الطبري، ج 10، ص (110-111). ثابت بن سنان، ص (201-202). ابن الأثير، ج 6، ص 421. النويري، ج 25، ص 151.

(4) ابن العديم، ج 2، ص 933، ص 942.

وصل إليه خبر تحركات محمد بن سليمان وهو مقيم بسلامية⁽¹⁾، فسارع بحشد جيش كبير بقيادة أحد قادته، ثم وجهه لحربه في حين تخلف هو عنهم بما معه من المال، وبصحبتة جماعة من خاصته⁽²⁾ والضعفاء من أتباعه ممن لا يقدرّون على القتال⁽³⁾، ويرجح أنّه ظلّ مقيماً بسلامية⁽⁴⁾، ويعلّل النيسابوري أنّ عدم خروجه للقتال كان بسبب خوفه من محمد بن سليمان؛ بعد أن حذره أنصاره منه، ويُقدّر المؤرخ المذكور قوام جيش القرامطة بثمانية آلاف فارس، وستّة عشر ألف راجل، كان معظمهم من محبّي المهدي، وبالتحديد من أنصار الداعية أبي الحسين بن الأسود الذي سبق أن قتله صاحب الشّامة⁽⁵⁾، في حين ذهب ابن سعيد القرطبي بأنّهم كانوا ثلاثة آلاف فارس وكثير من الرجالة⁽⁶⁾، أمّا الطّبري فيقدّر عددهم بنحو سبعة آلاف وتسعمئة مقاتل، كان منهم أربعة آلاف وتسعمئة فارس، وثلاثة آلاف راجل⁽⁷⁾، ويُلاحظ أنّ تقديرات الطّبري كانت أدقّ من غيرها؛ فقد جاءت متناسبة مع قوة صاحب الشّامة، ومما يعزز قيمتها أنّها جاءت بناءً على معلومات وصفية قدّمها محمد بن سليمان للوزير القاسم بن عبيد الله.

والتقى الجيشان يوم الثلاثاء السّادس من محرّم 291هـ/التاسع والعشرين من نوفمبر 903م⁽⁸⁾ في موضع بين حماة وسلمية⁽⁹⁾، ويرجح أنّه كان إلى الشّمال الشرقي من حماة، ووفق المصادر فإنّ هذا الموضع يبعد عن حماة اثني عشر ميلاً⁽¹⁰⁾، وهناك اندلعت معركة قوية بين الجيش العبّاسي وجيش صاحب الشّامة، واشتدّ القتال بين الطرفين وأظهر جند محمد بن سليمان بأساً وعزماً شديدين، فاستطاعوا

(1) النيسابوري، ص 102.

(2) الطّبري، ج 10، ص 108. ثابت بن سنان، ص 201. ابن سعيد القرطبي، ص 11. ابن مسكويه، ج 4، ص 409. ابن الأثير، ج 6، ص 421.

(3) النويري، ج 25، ص 152.

(4) الطّبري، ج 10، ص 111. النيسابوري، ص 102، 105.

(5) النيسابوري، ص 103.

(6) ابن سعيد القرطبي، ص 11.

(7) الطّبري، ج 10، ص 110.

(8) الطّبري، ج 10، ص 108. ابن سعيد القرطبي، ص 11. النويري، ج 25، ص 151.

(9) ابن العديم، ج 2، ص 933.

(10) الطّبري، ج 10، ص 108. ابن سعيد القرطبي، ص 11. ابن مسكويه، ج 4، ص 409. ابن الأثير، ج 6، ص 421. ابن العديم، ج 2، ص 933.

إنزال هزيمة نكراء بالقرامطة قُتِلَ خلالها عدد كبير منهم، وأُسِرَ بعضهم، في حين فرّ من بقي حياً منهم نحو البادية⁽¹⁾.

ويسرد الطُّبري تفاصيل هذه المعركة، نقلاً عن كتاب كان قد وجهه القائد محمد بن سليمان إلى الوزير القاسم بن عبيد الله، ليُزفَّ له بشائر هذا النصر، ويشرح مجريات هذه المعركة؛ فقد ذكر محمد بأنّه رحل عن موضع يُعرَف بالقروانة باتجاه موضع جديد يُعرَف بالعليانة، وحين وصل هناك ندب صاحب الشّامة أحد قادته يُقال له النعمان العليّصى ومعه ثلاثة آلاف مقاتل، وكثير من الراجلة، وسار الأخير حتّى نزل بموضع يُعرَف بـ تمنع يبعد عن حماة اثني عشر ميلاً، وهناك انضمَّ إليه عدد من الفرسان والراجلة، فلمّا وقف محمد بن سليمان على هذه الأخبار كتمها عن سائر قادته وجنده، وعزم أمره على السير إليهم بـ تمنع، وهم آنذاك يبعدون عنه ستة أميال، وحين وصل هناك وجد القرامطة في حالة جاهزية كاملة، مورّعين على عدّة كراديسن على النحو الآتي: القلب، وفيهم قائد القرامطة النعمان العليّصى، وكانوا ألفاً وأربعمئة فارس وثلاثة آلاف راجل. والميمنة، وكانوا ألفاً وأربعمئة فارس. والميسرة، وكانوا ألفاً وخمسمئة فارس. بالإضافة إلى فرقة رديفة للميمنة، وكانوا مئتي فارس، وأخرى رديفة للميسرة، قوامها أربعة آلاف فارس⁽²⁾.

وما إن وصل الجيش العبّاسي إلى تمنع حتّى التحم مع جيش القرامطة، حيث اشتبكت ميمنة الجيش العبّاسي بقيادة الحسين بن حمدان مع ميسرة القرامطة، وقد نجحوا منذ الاصطدام الأوّل بقتل ستمئة فارس منهم؛ ما دفع القرامطة إلى الانسحاب، حاملين معهم ما أمكنهم من متاعهم، وفي الحال تتبّعهم الحسين، وعند ذلك انعطف عليه القرامطة، واشتبكوا معه مجدداً، غير أنّهم لم يقدرُوا على احتواء الهجوم العبّاسي الذي تمكّن من إبادة جُلّ ميسرتهم التي لم ينجُ منها إلّا مئتا فارس⁽³⁾، ويبدو أنّ هذا الاشتباك المبكر كان بمثابة الضربة القاصمة التي هيأت للجيش العبّاسي حسم نتيجة هذه المعركة.

(1) الطُّبري، ج10، ص108. ثابت بن سنان، ص201. ابن سعيد القرطبي، ص11. ابن مسكويه، ج4، ص409. ابن الأثير، ج6، ص421.

(2) الطُّبري، ج10، ص(109-110).

(3) نفسه، ص110.

وقاد ميسرة الجيش العباسي كل من القائدين القاسم بن سيمًا* ويمن الخادم، وقاتل إلى جانبهما عدد كبير من بني شيبان وبني تميم، واشتبك هؤلاء القادة والجند مع ميمنة القرامطة، ونجحوا بقتل عدد كبير منهم، وسرعان ما انخرط خليفة بن مبارك ومعه ثلاثمئة فارس إلى جانب القوات العباسية التي تمكنت من ميمنة القرامطة، وأنزلت في صفوفها خسائر فادحة، وإثر ذلك استجمع النعمان العليصى صفوف من معه في القلب، وهاجم قلب الجيش العباسي، فبادر محمد بن سليمان إلى حشد القلب والميمنة، واصطدم بالنعمان ومن معه، ونجحوا بهزيمتهم، وعند ذلك لاحق الحسين بن حمدان بمن معه ومن انضم إليه من القلب فلول المنهزمين من القرامطة، وظلوا في إثرهم لمسافة خمسة أميال، أما محمد بن سليمان فلم يبتعد أكثر من مسافة نصف ميل عن أرض المعركة؛ خشية أن يكون هناك كمين من القرامطة يباغتون فيه معسكره ومن بقي فيه من الراجلة⁽¹⁾.

ونزل محمد بن سليمان في الموضع الذي توقّف فيه، وخلال ذلك وجه عيسى النوشري بفرقة من الجند وأمره أن يربط في المعسكر العباسي حتى يحمي مؤخرتهم ريثما يجتمع عند محمد في موضعه إلى أن اجتمع عنده كل عساكره، وظل على ذلك حتى المغرب فصلّى بمن معه ثم بثّ الطلائع لتستكشف له الطريق، وبعدها تحرك الجيش إلى أن استقر بموضع المبيت، ولما استراح الجند خرج محمد بمن معه من القادة وخيموا خارج المعسكر خوفاً من كمين يقع لهم خلال الليل، ومكث الجيش العباسي على حاله هذه طيلة ثلاثة أيام استراح خلالها، وعزم محمد بن سليمان بعدها على التوجه إلى سلمية؛ للقبض على صاحب الشامة بعد أن تبين له إنّه مقيم بها مع بعض خاصته، وحث محمد بن سليمان الوزير على مكافأة "جميع القادة وسائر بطون العرب من بني شيبان وتغلب وبني تميم"؛ فقد كان لهم عظيم الدور في تحقيق هذا النصر المؤزر، وكتب إليه إنّه سيرسل له ما تحصل عليه من رؤوس قادة القرامطة بمن فيهم القائد النعمان العليصى⁽²⁾.

* القاسم بن سيمًا: من زعماء القبائل العربية، وهو أحد كبار القادة العسكريين في عهد كلّ من المكتفي بالله، والمقتدر بالله؛ فقد شارك في عديد من الحملات العسكرية، وتولّى قيادة عدد من الصوافي ضدّ البيزنطيين، ولّاه المكتفي بالله ناحية الرحبة وغربي الفرات، وعهد إليه المقتدر بالله بأعمال الإسكندرية وبرقة بين أعوام 301-305هـ/913-917م، وقد كان له دور مهمّ خلال هذه الفترة في دفع الخطر الفاطمي عن مصر. يُنظر: الطُّبري، ج10، ص96، ص110، ص(114-116)، ص125، ص(141-144). ابن سعيد القرطبي، ص45، ص46.

(1) الطُّبري، ج10، ص(110-111).

(2) الطُّبري، ج10، ص(111-112).

وبخصوص صاحب الشّامة، فقد بادر قبل انكسار قوته العسكريّة الى قتل آل بيت المهدي في سلمية⁽¹⁾، وبعد ان وصل إليه خبر هزيمة جيشه، جمع ما معه من مال ودفعه إلى أخ له يُقال له أبو الفضل، وأمره بالمسير إلى البادية ليلتجئ إليها إلى أن يظهر أمره من جديد، وعندها يقصد إليه أبو الفضل بما معه من المال⁽²⁾، وحاول صاحب الشّامة بعد أن وفد إليه عساكره المنهزمين⁽³⁾ تنظيم صفوف أتباعه من جديد، إلّا أنّه فشل في ذلك⁽⁴⁾؛ وتخلّى عنه أنصاره، الذين ادعوا أنهم غير قادرين على مواصلة مقارعة الجيوش العبّاسيّة⁽⁵⁾، وحفظاً لذمته اصطحبوا معهم إلى منطقة الأرك⁽⁶⁾، وقبل أن يرحل عنهم استخلف عليهم أحد خاصّته وهو أبو الحسين القاسم بن أحمد، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، وذكر لهم أنّ كتبه سوف تصل إليه بخصوص ما يكون من أمرهم⁽⁷⁾، ويبدو أنّ صاحب الشّامة لم يفقد الأمل في احتماليّة جمع شتات ما تبقى من قواته ريثما يتمكّن من إعادة بناء قوّته من جديد.

ورحل صاحب الشّامة مصطحباً معه غلاماً رومياً وابن عمه المدثر وغلّامه المطوق، وجعلوا لهم دليلاً وقصدوا الكوفة⁽⁸⁾، ويرى زكار أنّ غايته من ذلك كانت الالتحاق بوالده زكرويه⁽⁹⁾، وخلال ذلك وصل محمد بن سليمان إلى سلمية، ويبدو أنّه كان في نيته تخريب المدينة، فأخبره أهلها بما نزل بهم على يد القرامطة ورجوه أن يكف عنهم، فرأف بحالهم، وطلب منهم أن يغلقوا عليهم أبوابهم؛ خشية أن ينهبهم عساكره، ثمّ أدخل إليهم مَنْ ينظر في صدق ادّعاءاتهم، وحين تبين له حقيقة حالهم

(1) النيسابوري، ص (104-105)

(2) الطّبري، ج 10، ص 108. ثابت بن سنان، ص 201. ابن سعيد القرطبي، ص 11. ابن مسكويه، ج 4، ص 410. ابن الأثير، ج 6، ص 421. ابن العديم، ج 2، ص 933.

(3) النيسابوري، ص 105.

(4) المسعودي، التنبيه، ص 323. النيسابوري، ص 105. ابن العديم، ج 2، ص 934.

(5) النيسابوري، ص 105. ابن العديم، ج 2، ص 934.

* الأرك: منطقة تقع في ناحية تدمر، وتبعد عن حمص مسافة مئة وخمسة وتسعون كيلومتر. يُنظر: النيسابوري، ص 105. زكار، ج 1، حاشية ص 282.

(6) النيسابوري، ص 105.

(7) النويري، ج 25، ص 152. المقرئ، ج 1، ص 172.

(8) الطّبري، ج 10، ص 108. ثابت بن سنان، ص 201. ابن سعيد القرطبي، ص 11. ابن مسكويه، ج 4، ص 410. ابن الأثير، ج 6، ص 421.

(9) زكار، ج 1، ص 140.

كفّ عنهم، ولمّا سألهم عن صاحب الشّامة أخبروه بأنّه رجل ناحية تدمر، فوجه في طلبه ألف فارس، ولمّا وصلت هذه القوة إلى وجهتها نقلت لمحمد حقيقة ما جرى هناك⁽¹⁾، ويبدو أنّ محمداً بن سليمان أطلع الوزير على وجهة صاحب الشّامة، فنشرت السلطات العباسيّة قواتها، وأصدرت أوامرها إليها بضرورة الانتباه إلى أيّ تحركات مشبوهة يمكن أن تفيد بإلقاء القبض على صاحب الشّامة ومنّ معه من القرامطة⁽²⁾.

تابع صاحب الشّامة مسيره إلى أن انتهى به المطاف في بلدة الدالية⁽³⁾ الواقعة على نهر الفرات إلى الجنوب من مدينة الرحبة التي كانت في حينها من أعمال هذه المدينة⁽⁴⁾، وعلى مشارف هذه البلدة نفّذ ما معهم من زاد، فوجه إليها أحد أتباعه المرافقين له حتّى يتزوّد لهم منها بما يحتاجونه من مؤنّ، غير أنّ مظهر هذا القرمطي أثار انتباه من كان هناك من الجند، وحين سألوه عن أمره تلكاً ممّا زاد في شكوكهم به، وأعلم متولّي ناحية الدالية، ويُقال له أبو خبزة بخبر هذا الرجل، فاستجوبه في الحال، فأقرّ له بأنّه من أتباع صاحب الشّامة، وأنّ الأخير خلف إحدى التلال المجاورة للبلدة، ومضى أبو خبزة بمنّ معه من العسكر إلى هذا الموضع، وألقوا القبض عليه هو ومنّ معه، واتّجه بهم إلى أحمد بن محمد بن كشمرد متولّي ناحية الرحبة* ومنطقة غربي الفرات، وبعد أن حطّوا رحالهم عنده ساروا بهم جميعاً إلى المكتفي بالله في الرقة⁽⁵⁾، ويرى ابن تغري بردي أنّ أبا خبزة وابن كشمرد كانوا من عمال القاسم بن سيماء، وأنّ الأخير هو من راسل المكتفي بالله بخصوص إلقاء القبض على صاحب

(1) النيسابوري، ص (105-106).

(2) زكار، ج 1، ص 139.

(3) الطّبري، ج 10، ص 108. المسعودي، التّنبية، ص 323. ثابت بن سنان، ص 201. ابن سعيد القرطبي، ص 12. ابن مسكويه، ج 4، ص 410. ابن عساكر، ج 43، ص 64. ابن الأثير، ج 6، ص 421. النويري، ج 25، ص 152.

(4) الطّبري، ج 10، ص (108-109). المسعودي، التّنبية، ص 323. ابن عساكر، ج 43، ص 64.

* الرحبة: لفظ أُطلق على كثير من المواضع، والمقصودة هنا هي أشهرها وتُعرف برحبة مالك بن طوق (ت. 259هـ/873م)، وهي مدينة قديمة، تُسبّبت إلى أحد خواصّ هارون الرشيد، حيث أعاد بناءها بعد أن أقطعه الخليفة الأرض، وأمّده بالمال الكفيل بذلك، وتقع هذه المدينة على الشاطئ الغربي لنهر الفرات، وهي إلى الجنوب من الموضع الذي يلتقي به الفرات برافده نهر الخابور، وقد احتلّت هذه المدينة موقعاً استراتيجياً وتجارياً مهماً بين العراق وسوريّة؛ ما مكّنها من أن تلعب دوراً كبيراً في ازدهار الحركة الاقتصاديّة في بلاد الجزيرة، وهي الآن عبارة عن بقايا بيوت خاربه تقع بالقرب من مدينة الميادين السوريّة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص (34-36). سوردل، ص (433-444).

(5) الطّبري، ج 10، ص (108-109). ثابت بن سنان، ص 201. ابن سعيد القرطبي، ص 12. ابن مسكويه، ج 4، ص 410. ابن الأثير، ج 6، ص 421. النويري، ج 25، ص 152.

الشَّامَة⁽¹⁾، وممّا يعزز هذا الرأي قمع القاسم بن سيما بعد مرور وقت وجيز تمرّداً للقرامطة اندلع في هذه الأنحاء التي كانت ضمن ولايته⁽²⁾، ويمكن تفسير ذلك على أنّ ابن كشمرد تولّى تدبير شؤون هذه الأنحاء إلى حين عودة القاسم بن سيما الذي كان حينها منشغلاً مع محمد بن سليمان في حرب صاحب الشَّامَة.

وفي يوم الإثنين السَّادس والعشرين من محرم 291هـ/التاسع عشر من ديسمبر 903م أُدخِل صاحب الشَّامَة مدينة الرقة ظاهراً للناس على فالج، والمدثر والمطوق بين يديه يركبان على جملين⁽³⁾، وعندما دخلوا دار الخليفة المكتفي بالله أوقفوا بين يديه، ثم أمر بحبسهم، وخلع على وزيره القاسم؛ لحسن تدبيره وإحرازه النصر، ثم أطلق عليه لقب وليّ الدَّولة⁽⁴⁾، وفي الأوّل من صفر/الرَّابع والعشرين من ديسمبر رحل الخليفة عن الرقة قاصداً بغداد بمنّ معه من العساكر والقادة وأرباب الدَّولة، حاملين معهم صاحب الشَّامَة والمدثر والمطوق وغيرهم من أسرى القرامطة، وكلف الخليفة القائد محمداً بن سليمان بمنّ معه من الجند بتعقب من تبقى من أنصار صاحب الشَّامَة⁽⁵⁾.

وعندما وصل الخليفة إلى مشارف بغداد، وحرصاً منه على استغلال هذا النصر لصالح تعزيز نفوذه، وإظهار مدى قوة دولته وعظمتها، راح يفكّر بإعداد موكب عظيم حتّى يدخل به إلى المدينة، وفي يوم الإثنين الثَّاني من ربيع الأوّل 291هـ/الثَّالث والعشرين من يناير 904م باشر هذا الموكب بالدخول إلى بغداد، ونزولاً عند رأي كلّ من الخليفة ودميانة غلام يا زمان؛ فقد حُمِل صاحب الشَّامَة على كرسيّ منصوب على ظهر فيل، وبلغ ارتفاع هذا الكرسي من على ظهر الفيل ذراعين ونصف، وحتّى يسهل عبور الفيل هُدِم طوق الباب الذي عبر من خلاله⁽⁶⁾، أمّا الخليفة فقد قدّم باقي أسرى

(1) ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص108.

(2) الطُّبري، ج10، ص115. ثابت بن سنان، ص202. ابن سعيد القرطبي، ص14. ابن الأثير، ج6، ص422. النويري، ج25، ص155.

(3) الطُّبري، ج10، ص112. ثابت بن سنان، ص202. ابن سعيد القرطبي، ص12. ابن مسكويه، ج4، ص410. ابن الأثير، ج6، ص422. ابن العديم، ج2، ص935. النويري، ج25، ص152.

(4) ابن العديم، ج2، ص935.

(5) الطُّبري، ج10، ص(112-113). ابن سعيد القرطبي، ص12. ابن مسكويه، ج4، ص410. ابن العديم، ج2، ص935. النويري، ج25، ص153.

(6) الطُّبري، ج10، ص112. ابن سعيد القرطبي، ص(12-13). ابن مسكويه، ج4، ص410. ابن العديم، ج2، ص936. النويري، ج25، ص153.

القرامطة أمامه، ودخل هو في أحسن صورة، وجيشه من ورائه في حالة تعبئة كاملة⁽¹⁾، ويصف المسعودي هذا اليوم بأنه: "كان ذلك من أجل الفتوح، وأعمّها سروراً بخواصّ الناس وعوامّهم"⁽²⁾، وأشاد ابن المعتزّ بهذا النصر، ومدح المكتفي بالله قائلاً:

(مجزوء الرّمل)

مرحباً بالملك القـ	دِم بِالْجـدِّ السَّعـ
يَا مُذِلَّ البغي ياقـ	تِلَ حَيَّاتِ الحقـ
عِشْ وَدُمْ فِي ظِلِّ عَيشٍ	خَالِدٍ بِبَاقٍ جديـ
فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَغـدا	وُكَّ كَالزَّرْعِ الحَصـ
ثُمَّ قَدْ صَارُوا حديثاً	مِثْلَ عَادٍ وَثمودِ
مَا لِهَذَا الفتحِ ياحيـ	رَ إِمَامٍ مِّنْ نّديـ
فاحمَدِ اللَّهَ فَإِنَّ الـ	حَمْدَ مِفْتَاحِ المزيـ ⁽³⁾

وبعد عشرة أيام عاد محمد بن سليمان إلى بغداد بعد أن فرغ من تتبّع القرامطة، حيث ألقى القبض على واحد وسبعين منهم، كان فيهم جماعة من أعيان صاحب الشّامة وقادته، وأمر الخليفة سائر القادة في بغداد باستقبال محمد بن سليمان ومَنْ معه من القادة، وبعد ذلك ساروا جميعاً إلى قصر أمير المؤمنين بالثريا*، وهناك خلع على محمد بن سليمان، وقلّده طوقاً من ذهب، ثمّ خلع على مَنْ كان معه من القادة⁽⁴⁾.

ومن أجل إعدام صاحب الشّامة ومَنْ معه من القرامطة، أمر المكتفي بالله ببناء دكّة بالقرب من مصلى الجانب الشرقي للمدينة بمسطح أربعمئة ذراع* وارتفاع عشرة أذرع، وقد جعل لها درج للصعود إليها، وفي يوم الإثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر 291هـ/الرّابع عشر من مارس 904م قُيِّدَ

(1) ابن العديم، ج2، ص936.

(2) المسعودي، التنبيه، ص323.

(3) إبراهيم الحصري، ج4، ص(908-909).

* حول قصر الثريا يُنظر: البحث، ص266.

(4) الطُّبري، ج10، ص113. ابن سعيد القرطبي، ص13. ابن العديم، ج2، ص936. النويري، ج25، ص153.

* الذراع: الذراع السوداء العباسية أو العامّة التي تساوي 54,04 سم. يُنظر: هنتس، ص83.

القرامطة، وحملوا إلى الدكة، وحرص الخليفة أن تتم عملية الإعدام في ظلّ حضور رسمي وشعبي كبير؛ فقد أمر سائر غلمانه وقادته بالحضور، وكان على رأس هؤلاء بطل هذا النصر محمد بن سليمان، وأحمد بن محمد الواثقي (ت. 294هـ/907م) صاحب الشرطة، ويبدو أنّ الأخير هو من تولّى الإشراف على عملية إعدام القرامطة، وفي المقابل خرجت أعداد كبيرة من الناس لحضور ذلك، وقُدِّر عدد أسرى القرامطة الذين جُلبوا إلى الدكة بين ثلاثمئة وعشرين وثلاثمئة وستين، وكانوا قد جمعوا من الرقة والكوفة، إضافة إلى بعض أهالي بغداد ممّن كانوا على مذهب القرامطة⁽¹⁾، ويرجع زكار قلّة هذا العدد بالمقارنة مع مدى قوة ثورة صاحب الشّامة إلى مدى استبسال القرامطة وشجاعتهم في القتال؛ فقد كانوا يفضلون الموت على الوقوع في الأسر، وكان يرون بالموت فرصة؛ "لتخليص أرواحهم من قدر الأبدان وشهواتها"⁽²⁾، وصرخ عدد قليل منهم معلنين أن لا علاقة لهم بالقرامطة، في محاولة منهم للإفلات من الموت⁽³⁾، ويبدو أنّ الدّولة استغلت هذه الحادثة للإطاحة ببعض المعارضين؛ حيث تعرّض بعض العلويين للسجن، والقتل⁽⁴⁾.

وقُتِلَ جميع الأسرى بمنّ فيهم صاحب الشّامة بعد أن تجرّعوا ألوانا من العذاب⁽⁵⁾، ووصف لنا الطّبري طقوس عمليات الإعدام وما تعرّض له القرامطة خلال ذلك بقوله: "قدم أربعة وثلاثون إنساناً من هؤلاء الأسرى، ففُطِعت أيديهم وأرجلهم، وضربت أعناقهم واحداً بعد الآخر، فكان يؤخذ الرجل، فيبطّح على وجهه، فيقطع يمين يديه، ويحلّق بها إلى أسفل؛ ليراها الناس، ثم تُقَطَّع رجله اليسرى، ثم يُسرى يديه، ثم يُمنى رجله، ويرمى بما فُطِعَ منه إلى أسفل، ثم يُقَعَد فيمَدّ رأسه، فيضرب عنقه، ويرمى برأسه وجنته إلى أسفل... إلخ، فلما فرغ من قتل هؤلاء الأربعة والثلاثين نفساً - وكانوا من وجوه أصحاب القرمطي فيما ذُكِرَ وكبرائهم - قُدِّم المدثر، ففُطِعت يداه ورجلاه، وضربت عنقه، ثم قُدِّم

(1) الطّبري، ج10، ص(112-114). ابن مسكويه، ج4، ص(411-412). ابن الجوزي، ج13، ص(22-23). ابن العديم، ج2، ص(936-937). النويري، ج25، ص(153-154).

(2) زكار، ج1، ص141.

(3) الطّبري، ج10، ص114. ابن مسكويه، ج4، ص411.

(4) أبو الفرج الأصفهاني، 548. التّوخي، نشوار، ج7، ص275. ابن الجوزي، ج13، ص27.

(5) الطّبري، ج10، ص114. ثابت بن سنان، ص202. ابن سعيد القرطبي، ص(13-14). ابن مسكويه، ج4، ص(411-412). ابن عساكر، ج43، ص64. ابن الجوزي، ج13، ص(22-23). ابن الأثير، ج6، ص422. ابن العديم، ج2، ص936.

القرمطي، فضربَ مئتا سوط، ثم قُطِعَت يداه ورجلاه، وكُوِيَ فَعُشِيَ عليه، ثم أُخِذَ خَشَبَ فَأُضْرِمَت فيه النار، ووُضِعَ في خواصره وبطنه، فجعل يفتح عينيه ثم يغمضهما، فلما خافوا أن يموت ضُرِبَت عنقه، وُرفِعَ رأسه على خشبة⁽¹⁾، واستغرقت هذه العملية حتى وقت العشاء إلى أن فرغ الواثقي من إعدام جميع الأسرى، وفي صبيحة اليوم التالي حُصِدَت رؤوس جميع القتلى، ثم نُصِبَت على أحد جسور بغداد، أما صاحب الشامة فقد صُلِبَ بدنه على طرف الجسر الأعلى لبغداد، وفي اليوم الذي يليه حُفِرَت آبار بجانب الدكة، وطُرِحَت بها جثث القتلى، وظلَّ بدن صاحب الشامة على حاله إلى أن انهال عليه في ربيع الأول 292هـ/يناير 905م أحد حيطان البيوت المطلّة عليه، فطُحِنَ ولم يبقَ له أي أثر⁽²⁾.

ووفد إلى بغداد في منتصف شهر ربيع الآخر 291هـ/أوائل مارس 904م أحد قادة صاحب الشامة⁽³⁾، يُقال له إسماعيل بن النعمان العليسي⁽⁴⁾، ويكنى بأبي محمد، وقيل عنه: إنّه من موالى بني العليص⁽⁵⁾، وكان من القادة القلائل الذين نجوا بعد هزيمة القرامطة على يد محمد بن سليمان، وقد تمكّن من الفرار بمنّ معه باتجاه البادية، ورغب فيما بعد بأمان الخليفة الذي سبق أن راسله ووعدّه بالعمو عنه والإحسان إليه إذا ما دخل في طاعته، فتوجه هو ومئة وستون رجلاً من أتباعه إلى القاسم بن سيما متولّي ناحية الرحبة وغربي الفرات، وقدموا معه إلى بغداد، فأمنهم الخليفة، وأحسن إليهم، وأجرى لهم الأرزاق⁽⁶⁾، ولعلّ خطّة الخليفة كانت ترمي إلى حثّ غيره من قادة القرامطة وأتباعها على الدخول في طاعته؛ طمعاً في أمانه وعطائه؛ ما من شأنه إضعاف الحركة، وحرمانها من انضمام أنصار جدد إليها، خلال أيّ حراك مستقبلي قد تقوم به.

وقضى هؤلاء المستأمنين بعض الوقت ببغداد، ثم أمرهم الخليفة بالعودة مع القاسم؛ ليعيّموا معه في ناحيته، وبعد أربعة أشهر قضوها هناك عزموا أمرهم على الغدر بالقاسم، ومهاجمة الرحبة خلال

(1) الطُّبري، ج10، ص(113-114).

(2) الطُّبري، ج10، ص114، ص119. ابن سعيد القرطبي، ص14، ص17. ابن العديم، ج2، ص937.

(3) الطُّبري، ج10، ص114.

(4) ثابت بن سنان، ص202. ابن سعيد القرطبي، ص14. ابن الأثير، ج6، ص422. النويري، ج25، ص155.

(5) الطُّبري، ج10، ص115. ابن سعيد القرطبي، ص14.

(6) الطُّبري، ج10، ص115. ثابت بن سنان، ص202. ابن سعيد القرطبي، ص14. ابن الأثير، ج6، ص422. النويري،

ج25، ص155.

صلاة عيد الفطر، غير أنه تنبّه إلى مخططهم، فباغتهم وأفشل مساعيهم بعد أن قُتل بعضهم، وأسِرَ منهم مئة وخمسون رجلاً وجههم بدوره إلى بغداد، وإثر ذلك ارتدت جماعة من العليصيين ومواليهم إلى بادية السماوة، واستقروا فيها مدّة من الزمن، إلى أن راسلهم زكرويه بن مهرويه⁽¹⁾.

- ثورة أبي غانم نصر 293هـ/905-906م

يتّضح ممّا سبق أنّ الدولة العبّاسيّة تمكّنت من القضاء على آخر جيوب ثورة صاحب الشّامة، كما مُني القرامطة عامّة بهزائم متكررة، تكبّدوا خلالها خسائر فادحة؛ ما أدى إلى تراجع نشاطهم العسكري لما يقارب العامين، وكان زكرويه يتابع ذلك بقلق شديد، ويترقّب تهییؤ الفرص والظروف المناسبة لاستئناف نشاطه، وفي أثناء ذلك كانت الخلافة العبّاسيّة قد أجهزت على الوجود الطّولوني، واستعادت مصر والشّام، وبُعید وقت وجيز اندلعت ثورة الخليجي في مصر التي وظّفت لها الدولة العبّاسيّة جلّ قوتها العسكريّة من أجل إفشالها.

استغلّ زكرويه بن مهرويه انشغال العبّاسيين بمحاربة حركة الخليجي الانفصالية في مصر، وانضمّ إليه في هذه المرحلة القاسم بن أحمد الداعية الذي كان قد خلفه صاحب الشّامة على أنصاره في الشّام قبل رحيله عنهم، وكان القاسم قد مكث بينهم مدّة من الزمن، انتفضوا بعدها عليه، وهدّدوه بالقتل؛ ما دفعه إلى مغادرتهم والتوجه إلى سواد الكوفة؛ لالتحاق بزكرويه، وحين التقى به لأمه الأخير على اتخاذه هذا القرار من دون الرجوع إليه، ونتيجة ذلك أعرض زكرويه عن القاسم، واختار عوضاً عنه رجلاً من أصحابه؛ لمباشرة دعوته من جديد، يُكنّى بأبي غانم⁽²⁾، ويُقال له عبد الله بن سعيد⁽³⁾، وقيل محمد بن عبد الله بن سعيد⁽⁴⁾، وكان قائماً على تعليم الصبيان في قرية الزبوقة من أعمال الفلوجة⁽⁵⁾، وتطرح بعض المصادر احتماليّة أن يكون هذا الداعية من أبناء زكرويه، غير أنّ

(1) الطّبري، ج10، ص(115-116). ثابت بن سنان، ص202. ابن الأثير، ج6، ص422.

(2) الطّبري، ج10، ص122. المسعودي، التنبيه، ص324. ثابت بن سنان، ص203. ابن سعيد القرطبي، ص19. ابن مسكويه، ج4، ص417. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص155. ابن خلدون، ج4، ص113. المقرئ، اتعاظ، ج1، ص175.

(3) الطّبري، ج10، ص122. ثابت بن سنان، ص203. ابن سعيد القرطبي، ص19. ابن مسكويه، ج4، ص30. ابن الأثير، ج6، ص428. ابن العديم، ج2، ص938. ابن خلدون، ج4، ص113.

(4) النويري، ج25، ص155. المقرئ، اتعاظ، ج1، ص175.

(5) الطّبري، ج10، ص122. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص155.

اسم عبد الله بن سعيد هو الأكثر حضوراً فيها عند سردها مجريات هذه الثورة، التي جاءت نقلاً عن محمد بن داود بن الجراح (ت. 296هـ/908م)* أحد أبرز كتّاب الدواوين خلال هذه الفترة⁽¹⁾.

توجّه أبو غانم في بداية عام 293هـ/نوفمبر 905م صوب قبيلة كلب التي اختارها له زكرويه ليبيث دعوته فيها، وعندما وصل إلى هناك اتخذ لنفسه لقب نصر؛ ليعمّ أمره ويشتهر، وحتى يتمّ له اجتذاب أكبر عدد من الأنصار، وعلى الرغم من ذلك فقد أعرض الكلبيون عنه، ورفضوا دعوته، باستثناء رجل واحد من بني زياد يُقال له مقدم بن الكيال، الذي زوّد أبا غانم بعددٍ من الأنصار، ممّن كانت لهم علاقة سابقة بالقرامطة⁽²⁾؛ وكان جلّهم من "الأصبغيين المنتمين إلى الفواطم، وسواقط من العليسيين، وصعاليك من سائر بطون كلب"⁽³⁾، وخلال فترة وجيزة انفجرت ثورة أبي غانم بزخم في نواحي الدالية، فانضمّ إليه عدد كبير من الأعراب المقيمين في هذه النواحي، وبعد أن قويت شوكته؛ قرّر في جمادى الآخرة 293هـ/إبريل 906م السير بأنصاره إلى بلاد الشام؛ بهدف السيطرة على مدينة دمشق، مستغلاً غياب أحمد بن كيغلق والي دمشق والأردن، الذي كان مقيماً في مصر على حرب الخليجي⁽⁴⁾.

وتابع أبو غانم تقدّمه صوب دمشق، وخلال ذلك تعرّض لمدينتيّ بصرى، وأذرع (درعا)⁽⁵⁾، من أعمال دمشق⁽⁶⁾، وتمكّن أهل المدينتين من مقارعة جيشه لبعض الوقت، غير أنّهم لم يقووا على الاستمرار؛ ما أجبرهم على الإذعان لطلب الأمان الذي عرضه عليهم أبو غانم، والاستسلام له،

* محمد بن داود بن الجراح: أبو عبد الله الكاتب، عمّ الوزير علي بن عيسى (ت. 334هـ/946م)، وُلِدَ عام 243هـ/857م، وُصِفَ بأنّه كان من فضلاء الكتاب وعلمائهم، "عارفاً بأيام الناس وأخبار الخلفاء والوزراء، وله في ذلك مصنفات معروفة"، منها: الوزراء، والشعر والشعراء، تقلّد في خلافة المكتفي بالله عديداً من الدواوين، وعندما خلع ابن المعتزّ المقتدر بالله سنة 296هـ/908م اختاره وزيراً له، وما إن استتبّ الأمر من جديد للمقتدر بالله حتّى قتله مع ابن المعتزّ. يُنظر: الطُّبري، ج10، ص133، ص140. الخطيب البغدادي، ج3، ص(156-158). الذهبي، تاريخ، ج6، ص1023. الزركلي، ج6، ص120.

(1) الطُّبري، ج10، ص(121-124). ابن سعيد القرطبي، ص(18-19). ابن الأثير، ج6، ص(428-429). ابن العديم، ج2، ص(937-938).

(2) الطُّبري، ج10، ص122. ثابت بن سنان، ص203. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص155.

(3) الطُّبري، ج10، ص122.

(4) الطُّبري، ج10، ص122. ابن سعيد القرطبي، ص19. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص155.

(5) الطُّبري، ج10، ص122. المسعودي، التنبيه، ص324. ثابت بن سنان، ص203. ابن سعيد القرطبي، ص19. ابن

مسكويه، ج4، ص417. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص156.

(6) المسعودي، التنبيه، ص324.

وحينها قتل مقاتليهم، وسبى ذراريهم، ونهب أموالهم، ثم قصد دمشق، وعندما اقترب منها خرج لحربه صالح بن الفضل وجماعة من الجند، وكان الأخير قد عينه أحمد بن كيغلغ خليفة له على دمشق ريثما يعود من مصر، وما لبث صالح أن هُزمَ وسلّم نفسه لأبي غانم بعد أن خُدع بأمانه المزعوم، وتمّ قتله وسائر الأسرى، وعندما همّ القرامطة بدخول المدينة، تصدّى لهم سكانها، ومنعواهم من الدخول، فعدل أبو غانم عن ذلك، واتّجه نحو طبرية، وكانت من أكثر مدن الأردن ازدهاراً، وفي أثناء ذلك انضمّ إليه جماعة من جند دمشق، كانوا قد دخلوا في دعوته، وحين شارف القرامطة على المدينة خرج إليهم يوسف بن إبراهيم عامل أحمد بن كيغلغ، واشتبك معهم، إلاّ أنّه لم يتمكّن من ردّ هجومهم؛ فقد قُتلَ وانهمز جيشه، فدخلوا المدينة، وعاثوا فيها فساداً، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، وسبوا ما أمكنهم من نسائها⁽¹⁾.

وبالتزامن مع ذلك دخل إلى دمشق الجيشُ العبّاسي الذي كان قد أنفذه المكتفي بالله لحرب أبي غانم بقيادة الحسين بن حمدان، وعندما علم أبو غانم بذلك، غادر طبرية إلى بادية السماوة⁽²⁾، وينفرد المسعودي عن غيره بأنّ هذا الانسحاب جاء بعد هزيمة قاسية مُني بها على يد الحسين بن حمدان في وادي خندف، وفي هذا النصر يتغنّى رجل من بني كلاب قائلاً:

(بحر الرجز)

لَوْلَا حُسَيْنٌ يَوْمَ وَادِي خُنْدَفٍ وَخَيْلُهُ وَرَجُلُهُ لَمْ تَشْتَفِ

نَفْسُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَكْتَفِي⁽³⁾

واستمر الجيش العبّاسي في ملاحقتهم حتّى بعد دخولهم لبادية السماوة، وقد عمد القرامطة خلال زحفهم إلى تخريب عيون المياه الواقعة في الطريق حتّى يحرموا منها جند الخليفة، ويجبروا الحسين

(1) الطُّبري، ج10، ص(122-123). ثابت بن سنان، ص203. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص156.

(2) الطُّبري، ج10، ص123. ثابت بن سنان، ص204. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص156.

(3) المسعودي، التنبيه، ص324.

على وقف المطاردة، وما إن وصل القرامطة إلى موضع عيني ماء تُعرفان بالدمعانة* والحالة**، حتى كان الجيش العباسي قد انقطع عن طلبهم؛ لنفاد ما معه من الماء، وعند ذلك عاد الحسين بن حمدان أدراجه إلى الرحبة⁽¹⁾.

واستغل القرامطة نزول الحسين بن حمدان في الرحبة، فساروا جنوباً باتجاه مدينة هيت*، وشنوا عليها في الواحد والعشرين من شعبان 293هـ/السابع عشر من يونيو 906م هجوماً مباغتاً⁽²⁾ على أطراف المدينة، في ساعات الصباح الباكر، فتمكنوا من قتل مئتي إنسان بين رجل وامرأة وصبي، واتجهوا بعدها صوب سفن المدينة الراسية في نهر الفرات، حيث نهبوا منها ما قدروا على حمله، ثم استولوا على ثلاث آلاف راحلة محملة بالحنطة وغير ذلك من المؤن، واستغل أهالي هيت انشغال القرامطة بأعمال النهب والسلب، فعززوا من قدراتهم الدفاعية، وتحصنوا داخل أسوار المدينة، ومكث الغزاة في أحوازها نحو ثلاثة أيام، لم يبذلوا خلالها أي محاولة جادة لاقتحامها⁽³⁾، ويبدو أن خططهم كانت ترمي بالدرجة الأولى إلى النهب والسلب، ثم الانسحاب.

وكان الخليفة قد وجه جيشاً كثيفاً إلى مدينة هيت بقيادة محمد بن إسحاق بن كنداج، ثم أتبعه بعد أيام بمؤنس الخازن، وعندما اقترب من المدينة، سارع أبو غانم هو ومن معه بالانسحاب نحو عيني الماء الدمعانة والحالة، ويبدو أن هذه المنطقة أشبه بسبخة تكثر فيها المستنقعات، بحيث يصعب على الجيوش النظامية اختراقها والتنقل فيها، وعندما سار الجيش في إثرهم وجدهم قد طمروا عيون الماء الواقعة في الطريق، وفي الوقت نفسه جاءت المؤن إليهم من بغداد، وكتب الخليفة إلى الحسين بن حمدان أن يغادر الرحبة، ويسير نحو القرامطة حتى يجتمع هو وابن كنداج على حصارهم كلٌّ

* **الدمعانة**: عين ماء بالشَّام بملكها بنو بحر من بني زهير بن جنَّاب أحد فروع الكلبيين، ويبدو أنها كانت تقع إلى الشَّمال من هيت. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص470.

** **الحالة**: على الأرجح أنها تقع بجوار الدمعانة، وذكر الحموي أنها موضع في ديار بلقين بن جسر عند حرّة الرّجلاء بين المدينة والشَّام. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص207.

⁽¹⁾ الطُّبري، ج10، ص123. ثابت بن سنان، ص204. ابن سعيد القرطبي، ص19. ابن مسكويه، ج4، ص417. ابن الأثير، ج6، ص428. النويري، ج25، ص156.

* **هيت**: مدينة تقع على شاطئ الفرات الغربي إلى الشَّمال من الأنبار، وتشتهر بكثرة نخيلها وخيراتها الزراعية. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج5، ص(420-421).

⁽²⁾ الطُّبري، ج10، ص123. النويري، ج25، ص156.

⁽³⁾ الطُّبري، ج10، ص123. ابن الأثير، ج6، ص(428-429). النويري، ج25، ص156.

من جهته، وحينها أدرك الكلبون أتباع أبي غانم خطورة الموقف، وأنهم لا محالة مشرفون على الهلاك، فوثب رجل منهم يُقال له الذئب بن القائم على أبي غانم وقتله، وسار بهذا الخبر إلى ابن كنداج؛ بهدف الظفر بعفو الخليفة، فوجه الذئب إلى بغداد بطلب الأمان، وأجابه المكتفي بالله إلى ما طلب، وخلع عليه، وأمر بالكفّ عن قومه⁽¹⁾؛ وعلى الرغم من ذلك فقد هرب من بغداد بعد بضعة أيام من قدومه إليها⁽²⁾، وفي الخامس من شوال 293هـ/الثلثين من يوليو 906م عاد الجيش العباسي إلى بغداد مظفراً، ومعه رأس أبي غانم⁽³⁾.

ويتضح ممّا دُكر أنّ أبا غانم نصر حرص باستمرار على عدم الدخول في مواجهة عسكريّة مباشرة مع الجيوش العباسيّة؛ بسبب قلّة إمكاناته ومحدودية قوّة ثورته إذا ما قورنت بما سبقها من ثورات القرامطة، ويبدو أنّ خطّته رمت إلى إرباك السلطات العباسيّة عن طريق إحداث حالة من عدم الاستقرار في الشّام والعراق؛ للتخفيف من وطأة الرقابة المفروضة على حركة القرامطة، خاصّة في منطقة العراق حيث يقيم زكرويه، الذي كان يتطلع إلى الخروج بنفسه لتزعّم هذه الحركة.

- ثورة القاسم بن أحمد 293هـ/906م

اختلف القرامطة بعد مقتل أبي غانم بين مؤيد ومعارض، وتحاربوا فيما بينهم، وكثر القتل فيهم، واضطرّ من قبل بفكرة التخلّص منه إلى الرحيل عن الماعين، والتوجه إلى عين التمر*، حيث أقاموا بجوار بني أسد، ثمّ عملوا على إصلاح موقفهم مع الدّولة؛ فقد كتبوا إلى المكتفي بالله يعتذرون منه على ما بدر منهم، فقبل الخليفة عذرهم، أمّا مَنْ كرهوا قتل نصر فقد ظلّوا مقيمين عند الماعين، وحافظوا في الوقت نفسه على ولائهم للدعوة، وحين وقف الخليفة على خبرهم كتب إلى الحسين بن حمدان بمعاودة الهجوم عليهم لاجتثاث خطرهم⁽⁴⁾، وحين علم بزكرويه بخبر هؤلاء القرامطة وجه

(1) الطّبري، ج 10، ص (123-124). ثابت بن سنان، ص 204. ابن مسكويه، ج 4، ص 418. ابن الأثير، ج 6، ص 429. النويري، ج 25، ص 156.

(2) الطّبري، ج 10، ص 124. ابن مسكويه، ج 4، ص 418. ابن الأثير، ج 6، ص 429. النويري، ج 25، ص 156.

(3) الطّبري، ج 10، ص 129. المسعودي، التنبيه، ص 325. ابن سعيد القرطبي، ص 21. النويري، ج 25، ص 156.

* عين التمر: بلدة تقع غربي الكوفة، بالقرب من الأنبار، وجاء اسمها نسبة الى وبرة تمورها التي كنت تصدر منها إلى سائر البلاد الإسلاميّة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص (176-177).

(4) الطّبري، ج 10، ص 124. ثابت بن سنان، ص (204-205). ابن الأثير، ج 6، ص 429. النويري، ج 25، ص 157.

إليهم القاسم بن أحمد، ولمّا التقى بهم بيّن لهم خطورة ما اقترّفوه؛ جرّاء قتلهم لأبي غانم، وأنّهم بذلك قد ارتدّوا عن الدين، فاعتذروا له، وبيّنوا له أنّ ذلك وقع دون رضاهم، ثمّ ذكروا له ما كان بينهم وبين من تواطؤوا مع الذئب من حروب، وأنبأهم القاسم أنّ وقت ظهور زكرويه قد اقترب، وأنّ مدينة الكوفة التي تشتمل على أربعين ألفاً من أنصار زكرويه سوف تكون هدفهم المقبل، وحدّد القاسم يوم عيد الأضحى موعداً لتنفيذ هجومهم عليها، وأمرهم أن يكتموا أمرهم، ويخفوا وجهتهم⁽¹⁾، وأن يتظاهروا بالمسير إلى الشّام في حين تكون وجهتهم الحقيقية مدينة الكوفة⁽²⁾.

تابع القرامطة مسيرهم نحو الكوفة، وفي أثناء ذلك نزلوا في الثامن من ذي الحجة 293هـ/الثلاثين من سبتمبر 906م بقرية القطّطانة التي تبعد ستة وثلاثين ميلاً عن الكوفة، وفيها خلفوا أموالهم وخدمهم، ثمّ أمرهم القاسم بالمسير إلى عين الرحبة التي تقع على بعد ستة أميال من الكوفة، ولمّا وصلوا إليها تشاوروا فيما بينهم حول الوقت المناسب لتنفيذ هجومهم على الكوفة، وطرح القرامطة لهذا الغرض أكثر من خطّة، فنزل القاسم عند الرأي القائل بمتابعة المسير ليلاً، وصولاً إلى النجف*، حيث سيكمنون فيه، ويبيتون ليلتهم⁽³⁾، ومع حلول الصباح سيشتون هجوماً مباغتاً على مصلى العيد الواقع خارج أسوار المدينة، والذي يكون في حينها مكتظاً بالمصلين من الجند والعامّة؛ ما سيكمنهم من قتل أكبر عدد ممكن من المصلّين، وبذلك ستكون الكوفة هدفاً يسهل إخضاعه، والنيل منه⁽⁴⁾.

وفيما يتعلّق بالكوفة، فقد قدّر قوام حاميتها بسبعة آلاف مقاتل لم يتواجد منهم آنذاك إلا أربعة آلاف، أمّا القرامطة فقد تابعوا مسيرهم إلى أن وصلوا إلى النجف، حيث باتوا ليلتهم هناك، وعقدوا نيّتهم بالهجوم على مصلى العيد، غير أنّهم لم يستيقظوا إلا بعد شروق الشمس، وقيل: إنّ تأخرهم كان بسبب انشغالهم بقتل جماعة من اليهود صادفهم وهم يدفنون ميتاً لهم، وحين شارفوا على الكوفة

(1) الطّبري، ج 10، ص 124. ثابت بن سنان، ص 205. ابن سعيد القرطبي، ص 20. ابن مسكويه، ج 4، ص 418. ابن الأثير، ج 6، ص 429.

(2) الطّبري، ج 10، ص 124. ابن مسكويه، ج 4، ص 418.

* النّجف: بلدة تقع بنواحي الكوفة في الجهة الجنوبيّة منها، وتشتهر بوفرة بساتينها ومتمزّحاتها. يُنظر: الحميري، ص 575. مؤنس، ص 114.

(3) النويري، ج 25، ص (157-158).

(4) الطّبري، ج 10، ص (124-125). ثابت بن سنان، ص 205. ابن سعيد القرطبي، ص 20. ابن مسكويه، ج 4، ص (418-420). ابن الاثير، ج 6، ص 429. النويري، ج 25، ص (157-158).

كان الوالي إسحاق بن عُمران (ت. 306هـ/918م) ومنَّ معه من الجند والعامَّة قد انصرفوا عن مصلى المدينة إلى داخلها باستثناء بعض الطلائع التي أنفذها الوالي لتتفقد؛ أطراف المدينة؛ وذلك بعد أن تسرَّب إليه احتماليَّة تعرّضهم لهجوم القرامطة، وكان من حسن تدبيره أيضاً أنّه أحدث مصلى جديداً للعديد يقع بالقرب من المدينة، بحيث يسهل الرجوع منه حال انقضاء الصلاة⁽¹⁾، وكان القرامطة قد عمدوا إلى نصب قبة على القاسم بن أحمد، وزعموا أنّه من نسل رسول الله، ودعوا للتأثر من قتلة صاحب الشّامة، وأخذوا يرددون شعار: "يا أحمد، يا محمّد" قاصدين بذلك النسب للإسماعيلي الذي كان قد انتحله ولدا زكرويه المقتولان؛ صاحب الناقة، وصاحب الشّامة، ورفعوا رايات بيضاء؛ بهدف تشجيع الأعراب المقيمين بجوار الكوفة على الانضمام إليهم، إلّا أنّه لم يجبههم أحد، وحينها سارع القرامطة إلى شنّ هجومهم على المدينة، وقد بلغ عددهم آنذاك ثمانمئة فارس مجهّزين بالعتاد الكامل، بالإضافة إلى بعض الراجلة⁽²⁾ فُدّروا بأربعمئة⁽³⁾، وتولّى قيادتهم الذبلان بن مهرويه⁽⁴⁾.

شرع القرامطة بمهاجمة المصلى العتيق الواقع في يمين المدينة؛ ظناً منهم أنّ العامّة والعسكر هناك، وحين لم يجدوا أحداً أخذوا بمهاجمة الكوفة من هذه الجهة، فتمكنوا من الوصول إلى سجن المدينة، واستولوا عليه، وأطلقوا سراح مَنْ فيه، وخلال ذلك قُتلَ "كثير من الناس"؛ فارتجبت المدينة لهذا الخبر⁽⁵⁾، وأخرج العامّة سلاحهم، واجتمعوا على قتال مَنْ دخل إلى الكوفة من القرامطة، ولم يعدموا الوسيلة في ذلك حتّى إنَّهم رشقوهم بالحجارة⁽⁶⁾، ويتّضح أنّ ساحة القتال كانت بالقرب من خندق المدينة⁽⁷⁾.

(1) النويري، ج25، ص(157-158).

(2) الطُّبري، ج10، ص(124-125). ثابت بن سنان، ص205. ابن سعيد القرطبي، ص20. ابن مسكويه، ج4، ص(418-420).

(3) النويري، ج25، ص158.

(4) الطُّبري، ج10، ص124.

(5) النويري، ج25، ص158.

(6) الطُّبري، ج10، ص(124-125). ابن سعيد القرطبي، ص20. ابن مسكويه، ج4، ص(418-420). ابن الاثير، ج6، ص429.

(7) النويري، ج25، ص(158-159).

وسرعان ما انخرط في القتال إلى جانب العامة جماعة من الجند كانوا قد تخلّفوا في الصحراء، وفرق من الطلائع التي كان قد أنفذها إسحاق؛ احترازاً من أيّ خطراً يقع؛ وإثر ذلك قُتل عدد من القرامطة، في حين هرب بعضهم إلى داخل المدينة، أمّا الوالي إسحاق بن عُمران فقد وصل إليه الخبر في وقت متأخر بوساطة أحد فرسان بني أسد؛ فأمر حالاً بإخراج الجند وتوجيههم إلى الخندق، وحين وصل إلى قصر عيسى بن موسى* كلف أبو عيسى صالح بن علي بن يحيى الهاشمي أن يصطحب معه مجموعة من الرجال، ويتّجه بهم لحراسة قنطرة بني عبد الوهاب التي كانت في حينها من قناطر الخندق، في حين أنفذ إلى عبد الله الحسين بن عمرو العلوي أن يطوف في المدينة؛ ليهديّ من روع الأهالي، ولمّا فعل الأخير ذلك سكنت نفوس العامة، وفي المقابل استمرّ خروج الأهالي بالسلاح ليشتدّ بذلك القتال بين الطرفين؛ وقد أدى ذلك إلى تشتيت شمل كلّ من دخل إلى المدينة من القرامطة، فسهّل ذلك مهمة تتبّعهم من العامة والعسكر، وكان ممّن تفرّق منهم رجلٌ يُقال له المقلقل وهو من فرسان بني كلب وشجعانهم، ومعه جماعة من القرامطة، فظفر بهم صالح بن علي الهاشمي؛ فقتل المقلقل وجزّ رأسه، وأرسله إلى إسحاق بن عُمران الذي شهّر به في أرض المعركة؛ ما كان له وقع كبير في نفوس القرامطة⁽¹⁾.

وما لبث أن اجتمع خيالة القرامطة ورجّالتهم على قتال الوالي، واشتدّت رحى الحرب بينهم، وأظهر جند إسحاق ثباتاً قلّ نظيره على الرّغم من قلّة عددهم، وطال أمد القتال بين الطرفين على الرّغم من شدّة الحرّ، وخلال ذلك استمرّ انضمام العامة إلى الوالي؛ ما زاد من وطأة الضغط على القرامطة الذين أرغموا على الانسحاب باتجاه الغدير الواقع على بُعد ميلين من الكوفة، ومع حلول العشاء

* عيسى بن موسى: الأمير العباسي، أبو موسى، وُلِدَ عام 103هـ/722م في الحُميمة، وتوفّي والده وهو ما يزال صغيراً، فنشأ في كنف جدّه محمد بن علي(ت. 125هـ/743م). لُقّب بشيخ الدولة، ولّاه عمّاه أبو العباس عبد الله السفاح(132-136هـ/749-745م)، وأبو جعفر عبد الله المنصور عديداً من الأعمال، وحين توفّي أبو العباس جعله ولياً للعهد بعد أخيه أبي جعفر، ولم يزل الأخير حتّى استنزلته عن ولاية عهده سنة 147هـ/764م جاعلاً إياه ولياً للعهد بعد ابنه محمد المهدي(158-169هـ/775-785م)، وحين ولي الأخير عزله نهائياً عن ولاية العهد سنة 160هـ/776م، وكان عيسى صاحب رأي وهمة، وقد توفّي في الكوفة سنة 167هـ/783م. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج4، ص472. الزركلي، ج5، ص(109-110).

(1) النويري، ج25، ص(158-159).

ساروا صوب القادسية* قاصدين معسكرهم في عين الرجة⁽¹⁾، وفي أثناء ذلك كان إسحاق قد وجه كتاباً إلى القادسية محذراً من خطر القرامطة، وبات أهالي الكوفة ليلتهم في خوف وجزع شديدين؛ خشية رجوع القرامطة إليهم، حتّى إنهم شحّوا سطوح منازلهم بالحجارة؛ تحسباً لذلك، وشرعوا بعدها بترميم ما أمكنهم من سور المدينة وخذقها⁽²⁾، ويبدو أنّ هذه التحصينات كانت تعاني من مشاكل كبيرة، حيث شكّلت خاصرة ضعيفة للمدينة في أثناء هذه الغارة.

ويتّضح ممّا ذُكر أنّ هذا الهجوم قد افتقد إلى القوة الكافية؛ فقد ظهر ضعيفاً عاجزاً عن تحقيق أهدافه المرسومة له، على الرغم من أنّه نُفِّذَ في وقت حرج، وتأكّد كذلك خلوّ الكوفة من أيّ أنصار لذكرويه؛ ما حرم القرامطة من حليف قوي كان سيترك تدخّله أثراً كبيراً على مجريات هذا الغارة، ويمكن تفسير سبب هذه المحاولة بأنّ ذكرويه أراد أن يتّخذ من الكوفة في حال سيطرته عليها مقراً له، وقاعدة لانطلاق دعوته، خاصّة في ظلّ ما تتمتع به هذه المدينة من حضور في الموروث الشيعي، ومكانة فيه.

- ثورة ذكرويه 293-294هـ/906-907م

اتّسمت المعلومات حول هُوية ذكرويه بالشُحّ والاضطراب؛ إذ لا نستطيع الجزم إن كان اسمه ذكرويه⁽³⁾، أو ذكرويه⁽⁴⁾، أو كرويه، وربما كان مجرد لقب اشتهر به، وما يعزّز هذا الرأي أنّ ابن خلدون يذكره باسم الفرّج بن عثمان القاشاني⁽⁵⁾، وقاشان بلدة بالقرب من قُم في نواحي أصفهان⁽⁶⁾،

* القادسية: بلدة كبيرة تقع إلى الجنوب من الكوفة، وتبعد عنها مسافة خمسة عشر فرسخاً؛ أي ما يعادل 90 كم، وفيها كانت معركة القادسية سنة 637هـ/637م إحدى أبرز المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص(291-293). هنتس، ص94. مؤنس، ص114.

(1) النويري، ج25، ص(159-160).

(2) الطّبري، ج10، ص125. ابن سعيد القرطبي، ص20. ابن مسكويه، ج4، ص419. النويري، ج25، ص(159-160).

(3) الطّبري، ج10، ص127. ثابت بن سنان، ص205. ابن سعيد القرطبي، ص18. ابن مسكويه، ج4، ص419. ابن الصّابيّ، رسوم، ص48. ابن عساكر، ج43، ص64. ابن الأثير، ج6، ص430. ابن العديم، ج2، ص939. النويري، ج25، ص160.

(4) الصولي، اخبار، ص69. المسعودي، التنبيه، ص425.

(5) ابن خلدون، ج4، ص110.

(6) الحموي، معجم البلدان، ج4، ص296.

في حين ينسبه المسعودي وابن العديم إلى قرية الصوان⁽¹⁾، أمّا النويري؛ فيرى أنّ أصله من قرية المنسائيّة الواقعة في سواد الكوفة بمحاذاة قرية الصوان، ويذكره الأخير أيضاً باسم ذكرويه بن مهرويه السلماني⁽²⁾، وسلمان عين ماء تقع إلى الشمال من واقصة على بُعد أربعة أميال منها⁽³⁾، وقد سبق أن أشرنا إلى أنّ النيسابوري ذكره باسم أبي محمد الكوفي، وهو الذي سبق له أن توفي قبل خروج ولديه صاحب الناقة، وصاحب الشّامة⁽⁴⁾، ومن الغريب أنّ ذكرويه لم ينسب نفسه للإسماعيليين على غرار ولديه من قبله، ويمكن تفسير ذلك بأنّ تصريحات أبنائه السابقة جعلت أنصاره يسلمون بصحة نسبه الإسماعيلي، وبالتالي بات الأمر بالنسبة له مفروغاً منه، ولا حاجة لتأكيد مجده.

وعطفاً على ما ذكر في موضع سابق، فقد راسل إسحاق بن عُمران المكتفي بالله، وطلب دعمه؛ حتّى يتمكّن من صدّ خطر القرامطة الذي بات يهدّد ناحيته، فندب إليه الخليفة عدداً من القادة، وضمّ إليهم جماعة من الغلمان الحجّرية*، وكان قد وجههم على دفعات دون أن يعيّن قائداً لهم⁽⁵⁾، وخرج أول فوج منهم في منتصف شهر ذي الحجة 293هـ/الثلث الأوّل من أكتوبر 906م⁽⁶⁾، في حين أمر القاسم بن سيما وغيره من زعماء العرب أن يحشدوا الرجال من أعراب البوادي؛ لتستعين بهم الدّولة على حرب القرامطة؛ فقد كان جند الخليفة موزعين بين الشّام ومصر⁽⁷⁾.

وبالتّزامن مع تحركات الجيش العبّاسي، نزل القرامطة في عين الرحبة، وهناك استقر أمرهم على المضى نحو ذكرويه؛ بغية إخراجهم من مخبئه؛ حتّى يتولّى بنفسه قيادة أنصاره، والإشراف على

(1) المسعودي، التنبيه، ص425. ابن العديم، ج2، ص927.

(2) النويري، ج25، ص113.

(3) الطّبري، ج10، ص130. ابن مسكويه، ج4، ص422.

(4) النيسابوري، ص96.

* **الغلمان الحجّرية**: طائفة من الغلمان الأتراك اختصوا في خدمة الخلفاء العبّاسيين والخروج في مواكبهم، وكان المعتضد بالله هو أول من استحدثهم بعد أن أشرف على إعدادهم، وأسكنهم في حجرات خاصة بهم داخل قصر الخلافة، فعرفوا بالحجّرية. يُنظر: ابن الصّابي، ص17. الخطيب، ص139.

(5) الطّبري، ج10، ص125. ابن سعيد القرطبي، ص20. ابن الأثير، ج6، ص430. النويري، ج25، ص161.

(6) الطّبري، ج10، ص125. ابن الأثير، ج6، ص430.

(7) الطّبري، ج10، ص125. ابن سعيد القرطبي، ص20.

دعوته، وفي أثناء مسيرهم نزلوا بقرية سرّة العذيب*، ثمّ رحلوا عنها إلى قرية الصوعر**، وفيها ترك القاسم بن أحمد جموع القرامطة، واتجه صوب قرية الدرية***، حيث يختبئ زكرويه، الذي قيل عنه إنّ كان مقيماً في سرداب منزلاً يملكه سلفه، جعل عليه باب من حديد، وعند استشعار أيّ خطر عباسي، كانت أخت زوجته تنقل التتور، وتضعه أمام باب السرداب، وتُشعله، فلا يعثر جنود الخليفة عليه، ومكث زكرويه على ذلك مدّة أربع سنين، ثمّ انتقل إلى منزل جديد جعل فيه بيتاً سرياً، له باب ملاصق لباب المنزل، فإذا فُتح الأخير أغلق باب الأوّل، فلا يخطر على بال الداخل أنّ هناك باباً آخر⁽¹⁾، وظلّ زكرويه على حاله هذه إلى أن توفيّ المعتضد بالله، ثمّ أخذ بعدها ببيتّ دعاته ونشر دعوته؛ أملاً في اجتذاب مزيد من الأنصار إليه⁽²⁾.

وأخرج القاسم بن أحمد زكرويه، واصطحبه إلى قرية الصوعر، وهناك قدّمه لأنصاره القرامطة على أنّه سيدهم ومولاهم الذي ينتظرون لقاءه، فاحتقوا به، والتفوا حوله، وأسموه وليّ الله، وعظّموه، وسجدوا له، وأكد زكرويه بحضور خاصته ودعاته وأنصاره على فضل القاسم عليه، وعلى مكانته العالية عنده، حتّى يتمكّن من جذب أكبر عدد من الأنصار إلى حركته، أشار إلى رموز ودلالات وردت في القرآن الكريم، زعم أنّها تنزلت فيه دون غيره، فتحقّق له ما أراد⁽³⁾، غير أنّه لم يكتفِ بذلك، فبنى لنفسه قبة عظيمة راح أنصاره القرامطة يطوفون حولها، وجمع جيشاً كبيراً من أهل السواد⁽⁴⁾، ثمّ سار إلى سقى الفرات؛ لاجتذاب مزيد منهم، وفيها مكث وأتباعه ما يقرب من عشرين يوماً انشغل خلالها ببيتّ دعاته بين الناس، فانضمّ إليه خمسمئة رجل بعيالهم⁽⁵⁾.

* سرّة العذيب: لم تعثر الدّراسة لها على ترجمة، غير أنّ العذيب هو وادي بظاهر الكوفة. يُنظر: البكري، ج3، ص927.
** الصوعر: وتُلفظ صوان، وتقع إلى الشّمال الغربي من القادسية من جهة عين الرحبة، وتبعد عن القادسية أربعة أميال، وقيل عشرة. يُنظر: الطّبري، ج10، ص126. النويري، ج25، ص161.

*** الدرية: تقع في نواحي الكوفة، كانت تطلّ على نهر زياد المعروف قديماً بنهر شيلي، وشيلي ناحية من نواحي الكوفة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص386. النويري، ج25، ص160.

(1) الطّبري، ج10، ص(127-128). ثابت بن سنان، ص205. ابن سعيد القرطبي، ص18. ابن الأثير، ج6، ص430. النويري، ج25، ص(159-160).

(2) الطّبري، ج10، ص128. ابن سعيد القرطبي، ص18.

(3) الطّبري، ج10، ص126. ثابت بن سنان، ص(205-206). ابن سعيد القرطبي، ص18. ابن مسكويه، ج4، ص420. ابن الأثير، ج6، ص430. النويري، ج25، ص160.

(4) النويري، ج25، ص160. المقرئ، ج1، ص177.

(5) الطّبري، ج10، ص127. ثابت بن سنان، ص206. ابن مسكويه، ج4، ص420.

وبدوره كان الخليفة قد بعث قادته على رأس قوة كبيرة من العسكر إلى الكوفة؛ لنجدة واليها إسحاق ابن عُمران، وكتب إلى عُمال النواحي بالاحتفاظ بولاياتهم والدفاع عن ثغورهم في وجه الخطر القرمطي، ونظراً لخطورة تحركات زكرويه تقرّر تغيير وجهة الجيش العبّاسي من الكوفة إلى حيث يوجد الأخير؛ آملاً في احتواء ثورته قبل أن يتّسع نطاقها⁽¹⁾، وعندما أصبح الجيش العبّاسي على مشارف الكوفة، خرج إليه واليها، وأطلع القادة على قوة القرامطة وأماكن تواجدهم، ونصحهم بعدم الإسراع في المسير؛ حتّى لا يصاب الجند بالإرهاق، وبأن يمكّنوا الجنود من الراحة لفترة كافية قبل الدخول في الحرب مع القرامطة، ثمّ مناوشتهم لفترة معينة؛ لاستنزاف قواهم البشرية والتسليحية، ثمّ توجيه ضربة قاصمة كفيلة بتحقيق النصر عليهم، غير أنّ بشير الأفشيني أحد قادة الجيش رفض هذه الخطّة، متذرعاً بأنّها ستمنح القرامطة الوقت الكافي للتخطيط والمناورة، أو الهروب من أمام القوات العبّاسيّة، لكنّ أحداً لم يأخذ برأيه، وثُرّكت مهمة الدفاع عن الكوفة لواليها، وتابع الجيش تقدّمه نحو القادسية، حيث بات ليلته فيها، وفي أثناء ذلك يبدو أنّه قد وصل إليه خبر تواجد زكرويه بنواحي صوهر، فغادر الجيش القادسية على عجل في آخر الليل من دون تعبئة، وانعطف شمالاً صوب صوهر، حيث القرامطة⁽²⁾.

وأقام الجيش العبّاسي معسكره على بُعد ميل من أرض المعركة، وترك فيه المتاع والأهل دون حماية، وسار نحو القرامطة⁽³⁾، وما إن وصل صوهر حتّى كان التعب قد نال منه، وفي المقابل كان العدو قد نظم صفوفه، وأعدّ نفسه جيداً، واختار القرامطة أرض المعركة بجانب جرف نهري كبير، حيث نصبوا خيامهم، ووضعوا أثقالهم خلفها، واصطفّ رجالاتهم في عتادهم الكامل أمام خيامهم ومن خلفهم الفرسان⁽⁴⁾، وبدأ القتال بين الطرفين يوم الواحد والعشرين من ذي الحجة 293هـ/الثاني عشر من أكتوبر 906م، وقيل كانت في اليوم الثاني من هذا التاريخ⁽⁵⁾، وحينها توزّع فرسان القرامطة على جانبيّ الراجلة متّخذين شكل جناحين لهم، ولمّا التحمّ الطرفان، واستعرت نار الحرب بينهما، أظهر

(1) الطّبري، ج10، ص127.

(2) النويري، ج25، ص161.

(3) الطّبري، ج10، ص125.

(4) النويري، ج25، ص161.

(5) الطّبري، ج10، ص125.

عسكر الخليفة ثباتاً وبأساً في القتال، فانسحب فرسان القرامطة منهزمين، ولجأ عدد كبير منهم إلى الخيام في معسكرهم، ثم التقى راجلة الفريقين، فكان النصر حليف الجيش العباسي، ثم انشغل الجند في جمع الغنائم، فانعطف القرامطة عليهم، وهاجموهم على حين غرة، وراحوا يطعنون دوابهم برماحهم، فارتبكت صفوف العسكر العباسي⁽¹⁾، وفي خضم ذلك برز دور الغلمان الحجرية الذين أبدوا بسالة وثباتاً قلّ نظيره، فقتلوا جميعاً⁽²⁾، وعددهم مئة⁽³⁾.

ونتيجة لما ذكر، مُني الجيش العباسي بهزيمة كبيرة، بعد أن تكبد خسائر فادحة في الأرواح⁽⁴⁾، وقُدِّر عدد قتلاه بألف وخمسمئة⁽⁵⁾، وقيل: ألفان⁽⁶⁾، فضلاً عن القتلى من العامة والغلمان والخدم ممن كانوا مقيمين في المعسكر عند اندلاع القتال⁽⁷⁾، ولم ينجُ إلا قلة استطاعت الفرار نحو القادسية⁽⁸⁾ والكوفة⁽⁹⁾، ومكث القرامطة ثلاثة أيام يجمعون الغنائم⁽¹⁰⁾، ومنها ثلاثمئة جمازة* كان الخليفة قد أرسلها قبل وقت قصير إلى عساكره، وخمسمئة بغل وجدوها في المعسكر العباسي⁽¹¹⁾، ثم نهبوا ببادر القمح والشعير القريبة من ميدان المعركة⁽¹²⁾. ونتيجة ذلك قويت شوكة زكرويه، وعظم أمره

(1) النويري، ج25، ص161.

(2) الطبري، ج10، ص126. ابن مسكويه، ج4، ص419.

(3) الطبري، ج10، ص126.

(4) الطبري، ج10، ص126. المسعودي، التنبيه، ص425. النويري، ج25، ص161.

(5) ثابت بن سنان، ص206. ابن الأثير، ج6، ص430. المقرئ، اتعاض، ج1، ص178.

(6) ابن مسكويه، ج4، ص419.

(7) الطبري، ج10، ص126. ثابت بن سنان، ص206. ابن الأثير، ج6، ص430.

(8) النويري، ج25، ص161. المقرئ، اتعاض، ج1، ص177.

(9) الطبري، ج10، ص125.

(10) النويري، ج25، ص161. المقرئ، اتعاض، ج1، ص178.

* **الجمازة**: نوع من الآلات التي تُستخدم في نقل المحامل، وهي كذلك من أسماء الناقة، وتُطلق أيضاً على المركبة السريعة التي تُجرّ بوساطة الخيل. يُنظر: مرتضى الزبيدي، ج15، ص(71-72). أنيس، وآخرون، ص134.

(11) الطبري، ج10، ص126. ثابت بن سنان، ص206. ابن مسكويه، ج4، ص419. ابن الأثير، ج6، ص430. النويري، ج25، ص161.

(12) الطبري، ج10، ص126. ابن مسكويه، ج4، ص419.

بعد أن استقوى بما جمعه من الغنائم⁽¹⁾، وهروباً من رائحة الجثث التي أخذت بالتحلل؛ قرّر الأخير ترك موقع المعركة والرحيل باتجاه نهر المثنية الواقع على بعد خمسة أميال منهم⁽²⁾.

وكان لهذه الهزيمة وقعها الكبير على الخليفة المكتفي بالله والناس، واستدراكاً للوقت عجل المكتفي بالله بتوجيه جيش جديد نحو الكوفة؛ لحرب زكرويه، وتأمين الحجيج، وجعل في هذا الجيش مجموعة من القادة، وضمّ إليهم ألفي مقاتل من بني شيبان، ثم فرض الأرزاق لكل من انخرط في هذه الحملة، وأُسديت قيادة هذه الجيش إلى محمد بن إسحاق بن كُنداج⁽³⁾، وفي هذه الأثناء رحل زكرويه عن نهر المثنية، وفي نيّته التعرّض للحجيج⁽⁴⁾، وبنوّه ابن الصّابي⁽⁵⁾ (ت. 448هـ/1.56م) بأنّ المكتفي بالله كان قد تنبه بالخطر المحدق بالحجيج؛ نتيجة الثّورات المتتالية التي قام بها القرامطة خلال هذه الفترة؛ ما دفعه إلى تكليف وزيره العباس بن الحسن بتجريد جيش ليخرج برفقة الحجيج حتّى إذا ما بلغوا الكوفة، وانصرف الحجيج إلى وجهتهم، يمكث الجيش مواظباً على حرب القرامطة، وحافظاً في الوقت نفسه سلامة الحجيج حال تعرّضهم للخطر، غير أنّ الوزير طمأن الخليفة إلى أنّه لا حاجة إلى ذلك، وفي حال اقتضت الضرورة ذلك، فإنّ هذا الجيش سيُوجّه حال انتهاء شعائر الحج، وبداية عودة قوافل الحجيج⁽⁶⁾.

ويعلّل زكار استهداف القرامطة المتكرر لقوافل الحجيج؛ بأنها محاولة لتعطيل فروض الشريعة الإسلامية؛ تمهيداً لقيام الدين الجديد الذي يبشّر به القرامطة، خاصّة أنّ الحج هو الشعيرة العالمية الأبرز التي يتميّز بها الإسلام، علاوة على ذلك فهي ترمز إلى استمرار الإسلام والعمل بمبادئه على صعيد الأمة قاطبة، وبالتالي فإنّ تعطيل هذه الفريضة يُعدّ بمثابة ضربة قاصمة لوّحدة الأمة العقديّة والسّياسيّة⁽⁶⁾.

(1) الطّبري، ج 10، ص 126. ثابت بن سنان، ص 206. ابن مسكويه، ج 4، ص 419. ابن الأثير، ج 6، ص 430. النويري، ج 25، ص 161.

(2) الطّبري، ج 10، ص 126.

(3) الطّبري، ج 10، ص 128. ثابت بن سنان، ص 206. ابن الأثير، ج 6، ص (430-431).

(4) الطّبري، ج 10، ص 130. ثابت بن سنان، ص 112. ابن سعيد القرطبي، ص 22. ابن الأثير، ج 6، ص 432.

(5) ابن الصّابي، رسوم، ص (47-78). ابن الصّابي، الوزراء، ص (80-81).

(6) زكار، ج 1، ص (115-116).

واصل زكرويه مسيره إلى أن استقر بعين سلمان الواقعة على بُعد أربعة أميال من واقصة* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 6)، وهناك أخذ ينتظر قدوم قافلة الحجيج الأولى⁽¹⁾، وبالتزامن مع ذلك تابع جيش محمد بن إسحاق تقدّمه وصولاً إلى عيون الطّف*، وفيها وصل إليه خبر نزول القرامطة بسلمان، فارتحل فوراً عن موضعه، وأنفذ على وجه السرعة علان بن كشمرد ومعه مفرزة من الفرسان إلى واقصة⁽²⁾، وفي السابع من محرم 294هـ/الثامن والعشرين من أكتوبر 906م حطّت القافلة رحالها في واقصة، إلّا أنّها سرعان ما غادرتها بعد أن حدّرها الأهالي من خطر زكرويه، وأنّه مقيم بسلمان ينتظر قدومهم إليها؛ ليفتك بهم، وبفعل ذلك تمكّنت القافلة من الإفلات من خطر القرامطة، ولمّا أحسّ زكرويه بابتعاد القافلة، اتّجه نحو واقصة، واتّهم أهلها بأنّهم خانوه، وانتقم منهم بأن هاجم محيط المدينة، وقتل من قبض عليه من العلافين، وأحرق بيادر العلف، في حين احتّمى الأهالي بسور المدينة وحصنها، وأقام زكرويه على ذلك بضعة أيام، ثمّ رحل عنها صوب زبالة*⁽³⁾، ووصلت أخبار هذه الأحداث إلى بغداد في الثاني عشر من محرم/الثاني من نوفمبر⁽⁴⁾، وبخصوص علان ابن كشمرد، فقد نزل في واقصة بعد رحيل القرامطة عنها⁽⁵⁾.

وتابع القرامطة تقدّمهم على وجه السرعة نحو العقبة؛ لاعتراض الحجيج الراجعين من مكة، وفي طريقهم أغاروا على جماعة من بني أسد، ونهبوا ما أمكنهم منهم، وفي يوم الأحد الحادي عشر من

* واقصة: ويقال لها واقصة الحزون، وهي بلدة تقع إلى الجنوب الغربي من الكوفة قبل القاع، وتعدّ من محطات طريق الحج العراقي. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص (353-354). مؤنس، ص 390.

(1) الطّبري، ج 10، ص 130. ثابت بن سنان، ص 206. ابن سعيد القرطبي، ص 22. ابن الأثير، ج 6، ص 432.

* عيون الطّف: نسبة إلى الطّف، وهي أرض بادية تقع بحيط الكوفة، وتشتهر بكثرة عيونها، وفيها كان مقتل الحسين عليه السلام سنة 61هـ/680م. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص (35-36).

(2) الطّبري، ج 10، ص 130. ثابت بن سنان، ص 207. ابن الأثير، ج 6، ص 432.

* زبالة: تقع بعد القاع وقبل الشقوق، وهي من محطات طريق الحج العراقي، وتشتهر بأسواقها العامرة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص (129-130).

(3) الطّبري، ج 10، ص 130. ثابت بن سنان، ص (206-207). ابن مسكويه، ج 4، ص (422-423). ابن الأثير، ج 6، ص 432.

(4) الطّبري، ج 10، ص 130.

(5) الطّبري، ج 10، ص 130. ثابت بن سنان، ص 207. ابن الأثير، ج 6، ص 432.

محرم/الأول من نوفمبر، نزلوا في العقبة*، واعترضوا القافلة الخراسانية، واشتبكوا معها، لكنّها تمكّنت من الصمود على الرّغم من خلّوها من أيّ قوات نظامية، وبعد أن عجز القرامطة عن النيل منها، لجؤوا إلى الحيلة للإيقاع بها؛ فقد خلّوا سبيلها بعد أن أكّد لهم الحبيج عدم وجود أيّ ممثل للسلطة العبّاسيّة بينهم، وحين أدبرت هجم عليها القرامطة، وقتلوا معظم مَنْ فيها، ثمّ حازوا على ما فيها من أموال⁽¹⁾، والتقى من نجا منهم بعلان بن كشمرد، وطلبوا منه الإسراع في المضيّ نحو القافلة الثالثة؛ لمؤازرتها، وأنّ زكرويه متريّص بها في العقبة، غير أنّ إعلان أحجم عن نجاتهم، ورأى في ذلك مجازفة كبيرة يمكن أن تُعرّض مَنْ معه من الجند إلى الفناء المؤكّد، وقرّر أن يعود أدراجه صوب محمد بن إسحاق، تاركاً بذلك القافلة تواجه مصيرها بنفسها⁽²⁾، ويذهب النويري إلى أنّ هذا القرار الخاطئ عرّضه فيما بعد لعقاب المكتفي بالله الشديد⁽³⁾.

وبعد يوم من نكبة القافلة الخراسانية وصلت إلى العقبة القافلة الثالثة⁽⁴⁾ التي تضمّ عدداً من القادة، كان منهم المبارك القمي، وأبو العشائر أحمد بن نصر العقيلي، وأحمد بن علي بن الحسين الهمداني، ولهذا عدّت قافلة سلطانية⁽⁵⁾، وكان الناجون من القافلة السابقة قد حذّروهم من خطر القرامطة⁽⁶⁾، وسبق أن وجّه الخليفة كتبه إلى قوافل الحبيج كافّة بالعودة إلى فيد، أو المدينة المنورة، أو الانعطاف شرقاً صوب البصرة؛ حتّى يأمنوا خطر القرامطة، ريثما تصل نجاداته إليهم⁽⁷⁾، وعلى الأرجح أنّ هذه التحذيرات قد وصلت متأخرة، فأضحت قوافل الحبيج في دائرة الخطر القرمطي في ظلّ تأخّر الدعم العسكري الرسمي، وفور وصولهم إلى العقبة وجدوا القرامطة قد استعدوا لمهاجمتهم، وكانوا قد عمدوا خلال ذلك على طمر آبار الماء الموجودة هناك بجيف الدواب التي قتلوها خلال مهاجمتهم للقافلة

* **العقبة:** عين ماء تقع إلى الجنوب من واقصة وقبل القاع، وتُعدّ من محطات طريق الحج العراقي، وهي بخلاف العقبة التي

بويع بها النبي -صلوات الله عليه- بمكة في بداية بعثته. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص(134-135).

(1) الطّبري، ج10، ص131. ثابت بن سنان، ص207. ابن مسكويه، ج4، ص423. النويري، ج25، ص162.

(2) الطّبري، ج10، ص131. ثابت بن سنان، ص207. ابن مسكويه، ج4، ص423. ابن الأثير، ج6، ص432.

(3) النويري، ج25، ص162.

(4) الطّبري، ج10، ص131. ابن مسكويه، ج4، ص424. النويري، ج25، ص162.

(5) الطّبري، ج10، ص131.

(6) ثابت بن سنان، ص207. ابن الأثير، ج6، ص432.

(7) الطّبري، ج10، ص131. ابن مسكويه، ج4، ص423. النويري، ج25، ص162.

الخراسانية⁽¹⁾، وما إن هاجمهم القرامطة حتّى انتظموا في مجموعتين: الأولى بقيادة أبي العشائر، وتولّت حماية المقدّمة، والثّانية: بقيادة المبارك القمي، وتكفّلت بالدفاع عن السّاقة، وشارف الحبيج على تحقيق النصر لولا أن تراخت السّاقة، فأدرك القرامطة الخلل الذي أصابها، فكثّفوا هجومهم على هذه الثّغرة، ثمّ ما لبثت القافلة أن انهارت⁽²⁾، وتذهب بعض المصادر إلى أنّ القتال طال لمدة ثلاثة أيام، عجز بعدها الحبيج عن مواصلة القتال؛ بعد أن نال منهم العطش؛ ما أرغمهم على الاستسلام⁽³⁾.

وأوغل القرامطة في سفك دماء الحبيج؛ فقد قتلوا منهم زهاء العشرين ألفاً، وشكّل هذا الرقم مجموع العدد الكلي لهذه القافلة، ولم ينجُ منهم سوى عدد قليل، ولم يكتفِ زكرويه بذلك، فقد تتبّع رجاله من هرب من الحبيج لمسافة خمسة أميال قتلاً وتثقيباً، ولم يسلم الجرحى من القتل، وكانت نساء القرامطة يطفنّ بالماء يعرضنه على الجرحى، فمن كلمهنّ منهم أجهزّن عليه، وكان من جملة القتلى المبارك القمي وابنه المظفر، وأبو العشائر الذي لاقى حتفه بعد أن قُطعت يداه ورجلاه، وكُدّس زكرويه القتلى فوق بعض على شكل تلة عظيمة⁽⁴⁾، ويعتقد ابن العديم أنّه هدف من وراء ذلك الثّأر لصاحب الشّامة؛ وذلك بعمل دكّة من جثث الحبيج مشابهة لتلك التي قُتل عليها في بغداد⁽⁵⁾، وغنم القرامطة ما لا يُحصى من الأمتعة والأموال بما يُقدّر قيمته بمليونَي دينار، وكان من جملتها أموال ابني طولون، كانت قد صُهرت وسُيكت ووجّهت سراً مع الحبيج المصريين إلى مكة؛ بهدف نقلها إلى بغداد⁽⁶⁾.

(1) الطّبري، ج10، ص131. ثابت بن سنان، ص(207-208). ابن سعيد القرطبي، ص23.

(2) الطّبري، ج10، ص(131-132). ابن سعيد القرطبي، ص23. ابن مسكويه، ج4، ص423. النويري، ج25، ص163.

(3) ثابت بن سنان، ص208. ابن الأثير، ج6، ص433.

(4) الطّبري، ج10، ص132. ثابت بن سنان، ص208. ابن سعيد القرطبي، ص(22-23). ابن مسكويه، ج4، ص424. ابن

الأثير، ج6، ص433. النويري، ج25، ص(162-163).

(5) ابن العديم، ج2، ص940.

(6) الطّبري، ج10، ص132. ثابت بن سنان، ص208. ابن سعيد القرطبي، ص23. ابن مسكويه، ج4، ص424. ابن الأثير،

ج6، ص433.

وثَلَّقَى الخليفة العباسي المكتفي بالله أخبار قوافل الحجيج ببالغ الحزن يوم الجمعة السادس عشر من محرم 294هـ/السادس من نوفمبر 906م⁽¹⁾، وندب الوزير العباس بن الحسن محمد بن داود متولّي ديوان الخراج في المشرق*، وديوان الجيش للخروج للكوفة؛ حتّى يقيم بها، ويوجّه السرايا لحرب زكرويه، وأمدّه بأموال طائلة؛ لينفق منها على أرزاق الجند⁽²⁾، وفي التاسع عشر من محرم/التاسع من نوفمبر خرج محمد من بغداد إلى وجهته⁽³⁾، بعد أن قدّمت أمامه خزانة السلاح، ولم تنزل بقاياها في الكوفة إلى أن استولى عليها أبو طاهر سليمان بن حسن الجنابي(301-332هـ/913-944م)* سنة 315هـ/927م⁽⁴⁾.

وبخصوص زكرويه؛ فبعد أن فرغ من القافلة الثالثة، ترك العقبة وسار باتجاه زباله، ومنها أخذ يبيت الطلاع؛ خوفاً من أن يدركه جيش الخليفة المقيم بالقادسية، وحتّى يقف كذلك على خبر القافلة الرابعة؛ بهدف التعرض لها، ولهذا سار إلى الثعلبية* ثمّ رجع نحو الشقوق**، ونزل بموضع قريب منها يُعرف بالهبير⁽⁵⁾، وهناك انتظر قدوم القافلة التي كانت قد نزلت في فيد؛ منتظرة قدوم دعم الخليفة⁽⁶⁾، ومن ناحية أخرى، فقد عُدتّ هذه القافلة الأكبر والأعظم شأنًا خلال هذا الموسم⁽⁷⁾، وما

(1) الطّبري، ج 10، ص 131، ص 133.

* ديوان الخراج بالمشرق: أحد فروع ديوان الخراج التي استُحدثت في عهد المعتضد بالله، ويُعنى هذا الديوان بتنظيم شؤون الخراج في الولايات الواقعة شرقي العراق. يُنظر: السامرائي، المؤسسات، ص (199-200).

(2) الطّبري، ج 10، ص 133. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. النويري، ج 25، ص 163.

(3) الطّبري، ج 10، ص 133. ابن سعيد القرطبي، ص 23. النويري، ج 25، ص 163.

* أبو طاهر سليمان بن حسن الجنابي: تولّى الحكم بعد أن عجز أخوه سعيد عن تدبير شؤون الدولة بعد وفاة أبيه بوقت وجيز، وعظم خطر قرامطة البحرين في عهده؛ فقد استباحوا البصرة سنة 311هـ/923م مدة سبعة عشر يوماً، وأغاروا على الكوفة سنة 315هـ/927م، وفي سنة 317هـ/929م تعرّضوا للحجيج واستباحوهم في الحرم وقتلوه عن بكرة أبيهم، ثمّ انتزعوا الحجر الأسود وكسوة الكعبة، واقتلعوا بابها، ومكث الحجر الأسود في حوزتهم إلى أن ردّوه سنة 329هـ/941م، ومات أبو طاهر بالجدري في هجر سنة 322هـ/944م. يُنظر: الصفدي، ج 15، ص (224-226). الزركلي، ج 3، ص 123.

(4) النويري، ج 25، ص 163.

* الثَّغْلَبِيَّةُ: من محطات طريق الحج العراقي، وتقع بعد الشقوق وقبل الخزيمية. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص (78-79).

** الشَّقُوقُ: من محطات طريق الحج العراقي، وتقع بعد الزباله وقبل الشقوق. يُنظر: اليعقوبي، ص 150. مؤنس، ص 390.

(5) الطّبري، ج 10، ص 133. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. النويري، ج 25، ص 163.

(6) الطّبري، ج 10، ص 133. ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن مسكويه، ج 4، ص 425.

(7) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 160. النويري، ج 25، ص 163.

يؤكد هذا العدد الكبير الذي رافقها من أعيان الدولة ورجالها من سائر الأمصار⁽¹⁾، فضلاً عن وجود شمسة الحج فيها⁽²⁾، وهي عبارة عن مجموعة من الجواهر الثمينة التي كان قد جمعها المعتضد بالله خلال خلافته⁽³⁾، وعلى الأغلب أنه كانت تُحمل مع قوافل الحجج ذهاباً وإياباً؛ كدليل على عظمة الدولة العباسية وقوتها الاقتصادية، ويبدو أن هذه العادة ظلت دارجة حتى خلافة المكتفي بالله، وحوّت القافلة بخلاف الشمسة أموالاً كثيرة لا تُحصى⁽⁴⁾.

ومكثت القافلة بفيد منتظرة قدوم إمدادات الخليفة، وخلال ذلك وصل إليهم خبر رجوع علان بن كمشرد عن نصرة الحجج، وبعد أن طال مقامهم بفيد نفذ ما معهم من المؤن، فغادروا إلى الهبير⁽⁵⁾، وهناك هاجمهم زكرويه، واستمر القتال بين الطرفين ما يقرب من ثلاثة أيام، نال المسلمون خلالها من الخوف والإعياء والجوع والعطش الشيء الكثير، وعلى الرغم من انضمام إحدى قوافل العمرة إليهم لمؤازرتهم، إلا أنهم هُزموا⁽⁶⁾، وطال القتل الغالبية الساحقة منهم⁽⁷⁾، ويقدر المسعودي عدد القتلى بأكثر من خمسين ألفاً⁽⁸⁾، ثم حاز القرامطة على ما فيها من أموال وأمتعة⁽⁹⁾.

وبعد أن فرغ زكرويه من ذلك كله سار جنوباً باتجاه مدينة فيد؛ لمهاجمتها⁽¹⁰⁾، وعندما علم واليها العباسي حامد بن فيروز بالأمر، عمل على تنظيم شؤون مدينته الدفاعية، وعلى الرغم من قلة عدد حاميته العسكرية، إلا أنه استطاع تأمين حصني المدينة اللذين التجأ إليهما عامة الناس⁽¹¹⁾ والحجج

(1) الطبري، ج 10، ص 133. ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. النويري، ج 25، ص 163.
(2) الطبري، ج 10، ص 133 المسعودي، التنبيه، ص 326. ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. النويري، ج 25، ص 163.

(3) الطبري، ج 10، ص 133. ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن مسكويه، ج 4، ص 425.
(4) الطبري، ج 10، ص 133. ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. النويري، ج 25، ص 163.
(5) النويري، ج 25، ص 164.

(6) النويري، ج 25، ص 164. المقرئ، اتعاط، ج 1، ص (178-179).
(7) المسعودي، التنبيه، ص 326. ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن الجوزي، ج 13، ص 49. النويري، ج 25، ص (163-164).
(8) المقرئ، اتعاط، ج 1، ص (178-179).

(9) المسعودي، التنبيه، ص 326.
(10) ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن الجوزي، ج 13، ص 49. النويري، ج 25، ص 164.
(11) ابن سعيد القرطبي، ص 23. النويري، ج 25، ص 164. المقرئ، اتعاط، ج 1، ص 179.

(12) الطبري، ج 10، ص 133. ثابت بن سنان، ص (208-209). ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن مسكويه، ج 4، ص 425.
ابن الأثير، ج 6، ص 433.

المقيمون معهم⁽¹⁾، وبعد أن فشل زكرويه في اقتحامها لجأ إلى الحيلة، حيث عرض على الأهالي الأمان إن هم سلّموا إليه عامل المدينة⁽²⁾، وأخرجوا له الحجيج⁽³⁾، وعندما رفض الأهالي عرضه، توعدّهم بالقتل والنهب، فما زادهم ذلك إلّا إصراراً على موقفهم، وحين أيقن زكرويه صعوبة السيطرة على فيد تتحّى عنها شرقاً إلى النباح*، ثمّ إلى حفير أبي موسى الأشعري** (حفير الباطن حالياً)⁽⁴⁾.

وتأثّر الناس والخليفة بما أنزله القرامطة بالحجيج⁽⁵⁾، وغشيهم الحزن؛ فقد طال شر زكرويه كلّ بيت في العراق، وعظم الأمر على الخليفة حتّى قيل عنه إنه: "اعتزل النساء همّاً وغماً"⁽⁶⁾، وانقطعت أخبار زكرويه مدة من الزمن، ولم يُعلَم عنه شيء غير أنّه سار باتجاه الشرق، وبثّ المكتفي بالله عيونه وأخذ يتتبع أخبار القرامطة، وأمّن كلّ بلد يحتمل تعرضه لخطرهم عن طريق شحن حاميتها بما يكفي من الجند⁽⁷⁾، وفي الأوّل من ربيع الأوّل 294هـ/العشرين من ديسمبر 906م⁽⁸⁾ ندب المكتفي بالله جيشاً عظيماً لقتال زكرويه⁽⁹⁾ بقيادة⁽¹⁰⁾ وصيف بن صوارتكين، وضمّ إليه جماعة من القادة

(1) الطّبري، ج 10، ص 133. ثابت بن سنان، ص 209. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. ابن الأثير، ج 6، ص 433.

(2) الطّبري، ج 10، ص 133. ابن سعيد القرطبي، ص 23.

(3) ابن الأثير، ج 6، ص 433.

* النباح: ذكرها الحموي باسم النَّبَاجُ، وهو لفظ أُطلق على عديد من المواضع، ولعلّ المقصود هنا هو نباج بني عامر الواقع بمحيط فيد، ويقال إنّ قرية في بادية البصرة على الطريق المؤدية إلى مكة، وهي بجوار فيد. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص (255-256).

** حفير أبي موسى الأشعري: وتُلفظ حَفَرٌ وهو البئر الكبير، ويقع هذا الحفير على طريق البصرة المؤدية إلى مكة، ويبعد عن البصرة مسير خمسة أيام، وجاء اسم هذه البئر؛ نسبة إلى منشئها الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس بن سليم (ت. 44هـ/665م)، ولعلّ ذلك وقع خلال ولايته على البصرة (17-29هـ/638-650م). يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 275.

(4) الطّبري، ج 10، ص 133. ثابت بن سنان، ص 210. ابن سعيد القرطبي، ص 23. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. ابن الجوزي، ج 13، ص 50. ابن الأثير، ج 6، ص 433.

(5) ثابت بن سنان، ص 210. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. ابن الأثير، ج 6، ص (433-434).

(6) النويري، ج 25، ص 164. المقرئ، ج 1، ص 179.

(7) النويري، ج 25، ص (164-165).

(8) الطّبري، ج 10، ص 134. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن الأثير، ج 6، ص 434.

(9) الطّبري، ج 10، ص 134. ثابت بن سنان، ص 210. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن الجوزي، ج 13، ص 50. ابن الأثير، ج 6، ص 434. النويري، ج 25، ص 164.

(10) الطّبري، ج 10، ص 134. ثابت بن سنان، ص 210. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن مسكويه، ج 4، ص 425. ابن الجوزي، ج 13، ص 50. ابن الأثير، ج 6، ص 434.

كان منهم: القاسم بن سيما⁽¹⁾، ولجيم بن الهيصم⁽²⁾، وألحق بهم عدداً كبيراً من بني شيبان⁽³⁾، وهياً الخليفة لهذا الجيش كل ما يحتاج إليه من المال والسلاح والمؤن، وبعد وقت قصير وصلت الكتب إلى المكتفي بالله من فيد تُخبر بأن زكرويه مقيم بنواحي خفان بالقرب من القادسية، فوجه فوراً إلى محمد بن إسحاق بن كُنداج يأمره بأن يمكث بجيشه في القادسية ونواحي الكوفة؛ ليحامي هذه الجهات من أي خطر قد تتعرض لها، وكُتِبَ إلى وصيف أن يسير إلى خفان؛ آملاً في أن يلقى زكرويه هناك، وأمره أن يبث طلائع جيشه وبعض من معه من الأعراب؛ ليقع على أخبار القرامطة أولاً بأول⁽⁴⁾.

وعبر الجيش العباسي من القادسية باتجاه طريق خفان⁽⁵⁾، وهناك وصلت إلى قادته معلومات تفيد أن زكرويه لا ينوي التوجه نحو البصرة، ويذهب النويري هنا بعيداً، ويشير إلى أن خطته كانت ترمي إلى الاجتماع مع أبي سعيد الجنابي، فاجتمع أمر القادة على أن يسلكوا الطريق الشامي المعروفة بطريق الطّفّ الواصلة بين الكوفة والبصرة، وانحدر الجيش جنوباً حتّى نزل في الثاني والعشرين من ربيع الأول 294هـ/العاشر من يناير 907م في قرية خارية يُقال لها صماخ، تبعد عن البصرة مسيرة ثلاثة أيام، وفيها اجتمعوا بجماعة من الأعراب، الذين أطلعوهم أن زكرويه مقيم بالثني على بعد عشرة أميال منهم، وبات الجند ليلتهم في صماخ، ومع حلول العشاء تراءت لهم طلائع جيش زكرويه، وفي الصباح زحف زكرويه نحوهم مؤملاً نفسه بالنصر، والتقى الفريقان بموضع يُقال له إرم على بعد ثلاثة أميال من الثني حيث معسكر القرامطة⁽⁶⁾، واختلفت المصادر حول تحديد مكان اندلاع المعركة، فالطبري -وعنه نقل بعض المؤرخين- يرى وقوعها في خفان⁽⁷⁾، في حين ذهب المسعودي إلى أنها اندلعت بموضع يُقال له باوم بين الكوفة والبصرة⁽⁸⁾، ولعلّها هي نفسها إرم التي ذكرها

(1) المسعودي، التنبيه، ص 326. النويري، ج 25، ص 164.

(2) النويري، ج 25، ص 164.

(3) المسعودي، التنبيه، ص 326.

(4) النويري، ج 25، ص (164-165).

(5) الطبري، ج 10، ص 134. ثابت بن سنان، ص 210. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن الأثير، ج 6، ص 434.

(6) النويري، ج 25، ص 165.

(7) الطبري، ج 10، ص 134. ثابت بن سنان، ص 210. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن الأثير، ج 6، ص 434.

(8) المسعودي، التنبيه، ص 326.

النويري⁽¹⁾، وأشار ابن عساكر وابن العديم إلى أنها كانت في الفراض بين الكوفة والبصرة⁽²⁾، وعلى الأرجح أنها كانت في نواحي البصرة، وفيما يتعلّق بتاريخ وقوعها، فقد حصرها المؤرخون بين الثاني والعشرين إلى الرابع والعشرين من ربيع الأوّل 294هـ/العاشر إلى الثاني عشر من يناير 907م⁽³⁾.

وبدأت المعركة بين الطرفين بعنف، وطال أمد القتال إلى أن حجز الليل بينهم، فباتوا وهم يتحارسون؛ خشية أن يباغت إحداهما الآخر، وفي الصباح استؤنف القتال من جديد، غير أنّ القرامطة ما لبثوا أن تعرّضوا للهزيمة، وقُتل منهم ما لا يُحصى عدده، وخلال ذلك تمكّن أحد الجنود من زكرويه وهو هارب، فوجّه إليه ضربة قوية على رأسه أفضت إلى دماغه⁽⁴⁾، ونقلًا عن النويري، فقد اخترق أحد صعاليك العرب صفوف القرامطة إلى أن تمكّن من الوصول إلى معسكرهم، وخلال ذلك أُلقيت نفاطة على إحدى الخيام، وعندما خرج زكرويه من خلفها، تلقّفه الأعرابي وضربه بسيفه دون أن يعلم هويته، فلاحظ ذلك رجل من أصحاب القائد لجيم بن الهيصم، وحينها سارع إليه وأسرّه، وسار به إلى صاحبه، وحين وصل إلى لجيم دفع الأخير إليه خاتمه وأمره بالإسراع إلى بغداد؛ لإعلام الوزير بخبر هزيمة زكرويه⁽⁵⁾، وحال أسر الأخير قبض معه على جماعة من أقاربه وخاصته كان فيهم كاتبه، وابنه، وزوجته⁽⁶⁾ التي يُقال لها مؤمنة⁽⁷⁾، وأطلق العسكر العبّاسي سراح الأسرى الموجودين داخل معسكر القرامطة⁽⁸⁾، ثمّ حازوا بعد ذلك ما في داخله من أموال⁽⁹⁾.

(1) النويري، ج25، ص165.

(2) ابن عساكر، ج43، ص64. ابن العديم، ج2، ص940.

(3) الطّبري، ج10، ص134. المسعودي، التنبيه، ص326. ابن سعيد القرطبي، ص24. ابن مسكويه، ج4، ص425. ابن الجوزي، ج13، ص50. ابن الأثير، ج6، ص434. النويري، ج25، ص165.

(4) الطّبري، ج10، ص134. ثابت بن سنان، ص210. ابن سعيد القرطبي، ص24. ابن مسكويه، ج4، ص425.

(5) النويري، ج25، ص165.

(6) الطّبري، ج10، ص134. ثابت بن سنان، ص210. ابن سعيد القرطبي، ص24. ابن مسكويه، ج4، ص425.

(7) النويري، ج25، ص165.

(8) الطّبري، ج10، ص134. ابن مسكويه، ج4، ص424. ابن سعيد القرطبي، ص24.

(9) الطّبري، ج10، ص134. ثابت بن سنان، ص210. ابن الأثير، ج6، ص434.

ومات زكرويه بعد خمسة أيام متأثراً بجراحه⁽¹⁾، وقيل في صبيحة اليوم التالي⁽²⁾، وحتى لا يفسد جسده شُقَّ بطنه، وأُخرجت أحشأؤه، وحُمِلَ على هيئته هذه إلى بغداد⁽³⁾، وأدخل إليها وهو مشدود على جمل⁽⁴⁾، وقُدِّمت أمامه رؤوس أصحابه القتلى، ومن أُسر منهم⁽⁵⁾، ثم طيفَ به في بغداد، وشمسة الحج ظاهرة للعيان؛ ليعلم الناس أنها قد استُرْجعت⁽⁶⁾، وبعد أن صُلِبَت جثته⁽⁷⁾، حُمِلَ رأسه ووُجِهَ إلى خراسان؛ حتى يطمئن أهلها على سلامة طريق الحج، بعد أن قُتِلَ من كان يهاجم قوافلهم؛ وذلك خوفاً من انقطاع مواسم الحج⁽⁸⁾.

وأصدر الخليفة تعليماته لقادته بضرورة اجتثاث خطر القرامطة من العراق وبلاد الشام؛ فشنوا حملة قوية ضدهم قُتِلَ على إثرها بعضهم، وحُبِسَ آخرون، في حين مات قسم منهم داخل السجون⁽⁹⁾. واستمرَّ العبَّاسيون في تتبُّع أنصار زكرويه؛ ففي جمادى الأولى 294هـ/ مارس 907م أوقع الحسين بن حمدان بجماعة منهم كانت تنوي الفرار نحو الشام؛ فقتل بعضهم وأسر من بقي منهم، وقبضت القبائل البدوية بطريق مكة على رجلين من دعاة زكرويه يُقال لهما الحداد والمنتقم، والأخير هو أخو زوجة زكرويه؛ وذلك بعد أن حاولا حثَّ الأعراب على نصرتهما في رفع لواء الثَّورة ضدَّ الخلافة، فما كان منهم إلَّا أن قيدهما، وأرسلوهما إلى بغداد⁽¹⁰⁾.

واختلف من بقي حياً من أتباع زكرويه في منطقة السواد حول مصيره، فأنكر بعضهم مقتله؛ وقالوا إنَّه قد شُبِّهَ لهم، وأنَّه لا يزال على قيد الحياة، في حين أقرَّ آخرون بمصرعه، وأنَّ الحجة لم تزل قائمة لمحمد بن إسماعيل، وقد نتج عن مقتل زكرويه فتور كبير في نشاط القرامطة، حتى "انقطعت

(1) الطُّبري، ج 10، ص 134. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن مسكويه، ج 4، ص 426. ابن الجوزي، ج 13، ص 50. ابن الأثير، ج 6، ص 434.

(2) المسعودي، التنبيه، ص 326.

(3) الطُّبري، ج 10، ص 134. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن مسكويه، ج 4، ص 426. ابن الجوزي، ج 13، ص 50.

(4) المسعودي، التنبيه، ص 326.

(5) المسعودي، التنبيه، ص 326. النويري، ج 25، ص 166.

(6) ابن عساكر، ج 43، ص 65. ابن العديم، ج 2، ص 940.

(7) ابن خلدون، ج 4، ص 114.

(8) ابن الأثير، ج 6، ص 434. ابن كثير، ج 14، ص 736. ابن خلدون، ج 4، ص 114.

(9) ثابت بن سنان، ص 210. ابن الأثير، ج 6، ص 434. النويري، ج 25، ص 166.

(10) الطُّبري، ج 10، ص 135. ثابت بن سنان، ص 210. ابن الأثير، ج 6، ص 434. النويري، ج 25، ص 166.

حركتهم وذكر دعوتهم"، غير أنّ ذلك لم يحلّ دون قيامهم ببعض التمردات التي عُدَّت محدودة الأثر بفارق كبير إذا ما قورنت بما سبقها من الثورات القرمطيّة، إذ لم تجد السلطة العبّاسيّة صعوبة في إخمادها؛ فما إن دخلت سنة 295هـ/908م حتّى خرج رجل منهم من الزط* يُقال له أبو حاتم في منطقة السواد، وقصد فرقة من القرامطة يُقال لها البورانية؛ نسبة للبوراني مؤسسها، ويبدو أنّ دعوته لاقت قبولاً لدى هذه الجماعة؛ ما دفعه إلى استحداث مجموعة من الشرائع الخاصّة بأنصاره؛ فأخذت هذه الفرقة تُعرّف بالبقليّة، غير أنّ دعوتها لم تطلّ لأكثر من عام، وخرج بعده رجل من بني عجل يدعى محمد بن قطبة، فاجتمع إليه قرابة المئة رجل، اتّجه بهم إلى واسط، وحين وصل إليها، خرج إليه أمير تلك الناحية، فقتل منهم جماعة، وأسر البقية⁽¹⁾، وعموماً فقد نجحت الدّولة العبّاسيّة منذ قتل زكرويه بطيّ آخر صفحات الوجود القرمطي في العراق وبلاد الشّام، ولعلّ ذلك هو ما قصده المقرئ بقوله: "ومات خبر القرامطة بموت زكرويه"⁽²⁾.

قرامطة البحرين

لمّا توفيّ المعتضد بالله سنة 289هـ/902م، كان أبو سعيد الجنابي قد أحكم سيطرته على نصف أراضي البحرين⁽³⁾، وبعد أن تولّى المكتفي بالله حاولت الخلافة العبّاسيّة الحدّ من نفوذ القرامطة المتزايد هناك، فقد ورد إلى بغداد سنة 290هـ/903م خبر نجاح ابن بانوا عامل الدّولة في تصفية جماعة منهم بعد أن هاجم أحد حصونهم⁽⁴⁾، وفي الثّالث عشر من ذي القعدة/الثامن من أكتوبر من هذه السنة⁽⁵⁾، وصل إلى بغداد خبر طرد القرامطة من القطيف* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 5)،

* الزّط: وهم الهنود، وقد تواجدوا خلال هذه الفترة بمجموعات قليلة، وكانوا يشتغلون خصوصاً في تربية الجواميس. يُنظر: الدوري، تاريخ، ص 33.

(1) النويري، ج 25، ص 166. المقرئ، اتعاض، ج 1، ص (179-180).

(2) المقرئ، اتعاض، ج 1، ص 179.

(3) دي خويه، ص 47.

(4) الطّبري، ج 10، ص 104. ثابت بن سنان، ص 200. ابن الأثير، ج 6، ص 419.

(5) الطّبري، ج 10، ص 104.

* القطيف: تقع إلى الشّمال من هجر، وهي مدينة ساحلية تُطلّ على مياه الخليج العربي، وقد عُرفت قديماً بالكورة، وهي من أكبر مدن البحرين وأعظمها، وإلى جانب هجر كانت أحد أهمّ قصبات بلاد البحرين. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 378. مؤنس، ص 194.

وسيطرة ابن بانوا عليها، وكان من جملة قتلاهم قرابةً لأبي سعيد، قيل عنه إنه ولي عهده⁽¹⁾، ويبدو أن هذه الانتصارات لم يكن لها أي تأثير كبير على أرض الواقع؛ فقد تمكن أبو سعيد خلال هذه السنة من إخضاع هجر قصبة البحرين؛ وذلك بعد حصار طال لمدة سنتين، واتخذ منها بعد ذلك عاصمة له⁽²⁾.

ودانت البحرين بعد سقوط هجر قاطبة لأبي سعيد، وبُعِدَ ذلك أخذ يخطّط لبسط نفوذه على المناطق المجاورة له؛ فقد نجح في إخضاع اليمامة كلّها⁽³⁾، بينما فشل في السيطرة على عُمان⁽⁴⁾، وعلى الرغم من ذلك، فقد انصبَّ جلّ اهتمامه على توطيد أركان حكمه، وإصلاح وضعه الداخلي⁽⁵⁾، ومن اللافت أنّه في أثناء هذه المرحلة لم يمارس أي سياسة عدائية تجاه الخلافة العباسية، وفيما يتعلّق بموقف الأخيرة جرّاء التطورات الخطيرة الحاصلة في البحرين؛ يبدو أنّ ظروفها الداخليّة، وانشغالها بحرب قرامطة الشام والعراق قد منعها من توجيه أيّ ضربة عسكريّة لأبي سعيد الجنابي، وبذلك انعدمت الصدامات المسلحة بين الطرفين خلال هذه المرحلة، ويبدو أنّ العباسيين قد استسلموا لسلطة الأمر الواقع، وقبلوا بخروج البحرين من سيادتهم، ولم يمضِ وقت طويل حتّى بات قرامطتها خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي الكيان السياسي الأكثر تهديداً لاستقرار الدولة العباسية.

الشيعة الزيدية والإسماعيلية في اليمن

تُنسب الدولة الزيدية في اليمن إلى مؤسسها الإمام يحيى بن الحسين الشهير بلقب الهادي إلى الحق، الذي يعدّ أول من أدخل المذهب الزيدي إلى اليمن⁽⁶⁾، وكان قد نشط في بادئ أمره بمنطقة طبرستان، لكنّه فشل بسبب قوة الدولة الزيدية، وتفرّد حكامها بتزعّم الوجود الزيدي في هذه البلاد، وبعد التهديدات التي تلقّاها من الأمير محمد بن زيد، أيقن الإمام يحيى استحالة نجاح مشروعه في طبرستان، فأخذ يبحث عن منطقة جديدة، ووقع اختياره على اليمن؛ بسبب ضعف النفوذ العباسي فيها، وحالة الانقسام

(1) الطبري، ج10، ص104. ثابت بن سنان، ص201. ابن مسكويه، ج4، ص408. ابن الأثير، ج6، ص419.

(2) النويري، ج25، ص(140-142). يُنظر أيضاً: دي خويه، ص(47-48). الدوري، دراسات، ص109.

(3) دي خويه، ص49.

(4) النويري، ج25، ص142. يُنظر أيضاً: دي خويه، ص49.

(5) النويري، ج25، ص(144-146).

(6) نشوان الحميري، ص250.

السِّيَاسِي الذي تشهده؛ ما سيسهل من نجاح مهمته، فدخلها سنة 284هـ/897م، وسيطر على صعدة* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 5)، وجعلها عاصمة له، وتمكّن انطلاقاً منها من إخضاع مناطق واسعة، على حساب نفوذ آل يعفر⁽¹⁾.

وبالتزامن مع اندلاع ثورات القرامطة في العراق وبادية الشام، واصلت الحركة الإسماعيلية نشاطها في اليمن، بقيادة كلّ من منصور اليمن الحسن بن فرج بن حوشب وعلي بن الفضل، ونجحت خلال وقت قصير في إيجاد موطئ قدم لها في هذه البلاد؛ ومنافسة الدولة الزيدية وآل يعفر في الحكم، وتراوحت السيادة على الأرض بين هذه الأطراف بين مدّ وجزر؛ وفق ظروف القوة والضعف لدى كلّ منها، وفيما يخصّ سياسة الدولة العباسية حيال اليمن في هذه الفترة؛ فقد اقتصرته جهودها على تعيين الولاة، غير أنّ قوة الأطراف المتنفذة وضعف النفوذ العباسي في هذه الولاية، إلى جانب عدم وجود اهتمام الإدارة العباسية الكافي بهذه البلاد؛ لاعتبارات سياسية داخلية ولوجستية؛ كلّ ذلك أدى إلى إفشال مساعيها لفرض سيادتها الكاملة عليها من جديد.

وفي سنة 289هـ/902م احتدم التنافس بين الهادي إلى الحق وآل يعفر؛ من أجل إخضاع اليمن، خاصّة مدينة صنعاء، ففي جمادى الآخرة/مايو من هذا العام، نجح أسعد بن يعفر وابن عمه عثمان بن أبي الخير بإرغام الإمام الزيدي على ترك صنعاء، بعد أشهر من سيطرته عليها، ولعب موالى بني يعفر بقيادة إبراهيم بن خلف دوراً مهماً في استعادة المدينة⁽²⁾، وخلال تلك الفترة كان المكتفي بالله قد عهد بولاية اليمن والحرمين إلى عجم بن حاج (ت. 306هـ/918م)*⁽³⁾، وعلى الأغلب أنّه كان قد وليهما في زمن المعتضد بالله، فلما ولي المكتفي بالله جدّد له ولايته⁽⁴⁾، ونظراً لإقامة والي

* صُعدَة: تقع إلى الشمال الغربي من صنعاء، وتبعد عنها مسافة ستين فرسخاً؛ أي ما يعادل ثلاثمئة وستين كم، وهي مدينة زاخرة تشتهر بنشاطها التجاري، ودباغة الجلود، ويضاف إلى ذلك فهي ذات أرض خصبة وفيرة الخيرات. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص (406-407). هنتس، ص 94. مؤنس، ص 194.

(1) أحمد، ص (54-56)، ص (65-75)، ص (80-85).

(2) إدريس الحمزي، ص 53.

* عجم بن حاج: مولى المعتضد بالله، ولّاه الأخير على مكة عام 281هـ/894م، وعلى الأرجح أنّه مكث في منصبه حتّى توفّي سنة 306هـ/918م. يُنظر: ابن سعيد القرطبي، ص 71. أحمد، حاشية ص 99.

(3) إدريس الحمزي، ص 53. النويري، ج 33، ص 72. يحيى الشهاري، ص 37.

(4) الطُّبري، ج 10، ص 84.

الحرمين بمكة؛ فقد كان يكلف من يدير شؤون اليمن نيابة عنه⁽¹⁾، وفي كثير من الأحيان، كان اختيار والي الحرمين يقع على عاتق إحدى القوى المتغلبة على اليمن، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان ولاية الحرمين الوسطاء الرسميين بين اليمن والخلافة العباسية، ولعل ذلك هو ما يفسر الورود المتكرر لأخبار اليمن في كتب ولاية الحرمين⁽²⁾.

ووفد إلى بغداد في هذه الأثناء جماعة من أهل اليمن، وكان في نيتهم لقاء المعتضد بالله؛ لكي يستنصروه على حرب الهادي إلى الحق، الذي سيطر على قسم كبير من بلادهم، إلا أنهم وجدوا الخليفة قد توفي، وولي مكانه ابنه المكتفي بالله الذي أظهر حماساً لمؤازرتهم في هذه الحرب، فأصدر أوامره بتجهيز جيش كبير لهذا الغرض، غير أنه -وبعد بضعة أيام- وصل كتاب من والي الحرمين يفيد بأن الهادي إلى الحق قد أخرج من صنعاء، ففترت عزيمة الخليفة، وتقاعس عن نجدة اليمانية⁽³⁾، ويبدو أن انشغال الخليفة بحرب قرامطة الشام هو ما جعله يصرف نظره عن حرب الهادي إلى الحق⁽⁴⁾.

وفيما يتعلّق بعج بن حاج؛ فقد وجّه إلى أسعد وعثمان ابني يعفر كتاباً يعترف فيه بولايتهما على اليمن⁽⁵⁾، ولم يمض وقت قصير حتّى ساءت أوضاعها؛ فقد عانى الناس من الجفاف والقحط، ومات قسم كبير منهم جرّاء الجوع⁽⁶⁾، ويبدو أن سوء هذه الأوضاع، ورغبة الخليفة في تعزيز نفوذ دولته في بلاد اليمن دفعه إلى عزل واليه الحالي، وتعيين والٍ مستقل لها، وقد وقع اختياره على علي بن الحسين الشهير بجفتم⁽⁷⁾، الذي كان قد سبق له أن ولي اليمن بين 279-282هـ/892-895م؛ وأثبت في ولايته الأولى كفاية إدارية، وسار بالناس سيرة حسنة⁽⁸⁾؛ ولعلّ هذا هو ما يفسر وقوع اختيار الخليفة عليه، خاصّة في ظلّ الظروف الصعبة التي كانت تمرّ بها هذه الولاية.

(1) أحمد، حاشية ص 99.

(2) الطبري، ج 10، ص 84. نشوان الجُميري، ص 251.

(3) نشوان الجُميري، ص (250-251)

(4) أحمد، ص 98.

(5) إدريس الحمزي، ص 54. النويري، ج 33، ص 72. يحيى الشهاري، ص 37.

(6) إدريس الحمزي، ص 54.

(7) العلوي، ص 250. إدريس الحمزي، ص 54. النويري، ج 33، ص 72. يحيى الشهاري، ص 36.

(8) إدريس الحمزي، ص 52. النويري، ج 33، ص 71.

وبالتزامن مع ذلك استنبد إبراهيم بن خلف مولى بني يعفر بحكم صنعاء؛ ما دفع آل يعفر إلى طلب مساعدة عدوهم الهادي إلى الحق، ويبدو أنّ الأخير وجد في ذلك فرصة لاستعادة حكم المدينة، فجهز جيشاً لهذه الغرض⁽¹⁾، وسار بنفسه على رأسه في الثاني من جمادى الأولى 290هـ/الثالث من إبريل 903م، وفي الأول من رجب/الواحد والثلاثين من مايو اندلعت معركة شرسة بين الطرفين⁽²⁾ انتهت بهزيمة الهادي إلى الحق، وأسر ابنه⁽³⁾ محمد المرتضي (298-301هـ/911-914م)*، وعلى إثر ذلك دخل الإمام الزيدي في مفاوضات مع إبراهيم بن خلف؛ لإطلاق سراح ابنه، وفي أثناء ذلك شاع خبر وصول جفتم إلى مكة؛ ما أرغم الهادي على ترك ولده، وعاد أدراجه إلى عاصمته صعدة؛ خشية أن يسيطر عليها والي العباسي⁽⁴⁾، وبحلول شهر شوال/أغسطس وصل جفتم إلى مشارف مدينة صنعاء، ومكث ستة أيام دون أن يؤذن له بدخولها، وفي اليوم السابع أُلقي القبض عليه، وحُبِس⁽⁵⁾ بأمر من إبراهيم بن خلف⁽⁶⁾.

ومكث والي العباسي في سجنه حتّى الخامس والعشرين من صفر 291هـ/السابع عشر من يناير 904م⁽⁷⁾؛ حيث تمكّن من الهرب بعد أن احتال على سجنائه⁽⁸⁾، ويقال إنّ الفضل في إخراجه يعود لأسعد بن يعفر الذي نجح في إخراجه ومجموعة من الأسرى كان من ضمنهم ابن الهادي إلى

(1) العلوي، ص (245-246). إدريس الحمزي، ص 54. يحيى الشهاري، ص (35-36).

(2) العلوي، ص (245-250).

(3) العلوي، ص (247-250). يحيى الشهاري، ص 36.

* محمد المرتضي: أبو القاسم، تولى الحكم بعد وفاة والده سنة 298هـ/911م، ولم تطل مدته فقد اعتزل الحكم سنة 301هـ/914م، توفي في سنة 310هـ/922م. يُنظر: زامبور، ص 187.

(4) العلوي، ص 250.

(5) العلوي، ص (252-253). يحيى الشهاري، ص 36.

(6) العلوي، ص 253. إدريس الحمزي، ص 54. النويري، ج 33، ص 72.

(7) العلوي، ص 270.

(8) إدريس الحمزي، ص 54. النويري، ج 33، ص 72.

الحق⁽¹⁾، وبعد بضعة أيام فرّ إبراهيم بن خلف إلى تهامة* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 5)، وترك صنعاء التي دخلها الوالي العبّاسي، وأسعد بن يعفر، وعثمان بن أبي الخير، وفي هذه الأثناء كانت المدينة تعاني من ظروف صعبة؛ فقد عمّ الغلاء، وانتشرت المجاعة التي حصدت أرواح كثير من الأهالي⁽²⁾، وبعد وقت قليل طلب جفتم من أسعد وعثمان تسليمه شؤون الولاية حتّى يقوم بمهامّه، غير أنّهما أخذاً يماطلان، فتوجّس الوالي خيفة من نواياهما، وهاجمهما على حين غرّة⁽³⁾؛ ما أدى إلى هزيمة ابني يعفر، غير أنّهما فشلا في الفرار من المدينة، وفي محاولة أخيرة لنجاتهما، سارا بمواليهم ومن انضمّ إليهم من أهل صنعاء، واتجهوا صوب جفتم، ويبدو أنّ الأخير ظنّ أنّه قد أمن شرّهما، فأخذه على حين غرّة، وتمكّنوا من قتله، فانحاز الجند إليهم، أمّا جفتم فلم ينتهِ مصابه بمقتله؛ فقد قيل إنّ الناس أكلوا بعضاً من جثته⁽⁴⁾، وإذا صحّت هذه الرّواية فهي دليل على شدة المجاعة التي عانها أهل صنعاء في أثناء هذه الفترة، وفيما يتعلّق بمصير ابن الهادي إلى الحقّ أبي القاسم محمد المرتضي، فقد وجّهه ولدا يعفر إلى أبيه معزّزاً مكرّماً⁽⁵⁾، ولم يمضِ وقت طويل على مقتل الوالي العبّاسي حتّى وثب أسعد بن يعفر على ابن عمه عثمان بن أبي الخير وحبسه، وسيطر على مقاليد الحكم، وظلّت صنعاء خاضعة له إلى أن استولى عليها عليّ بن الفضل سنة 293هـ/906م⁽⁶⁾.

وفي المقابل تابعت الحركة الإسماعيليّة نشاطها في بلاد اليمن، فقد بلغت الدعوة ذروتها خلال عهد المكثفي بالله، وسرعان ما تحولت إلى حركة مسلحة استطاعت أن تبسط سيادتها على رقعة واسعة،

(1) العلوي، ص (270-271).

* تهامة: إقليم جغرافي في شبه الجزيرة العربية يقع القسم الأكبر منه في بلاد اليمن، وهو يشمل المنطقة الساحلية المحاذية لبحر القلزم "الأحمر"، ويمتد هذا الإقليم من زبيد جنوباً بمحاذاة صعدة ونجران والحجاز وصولاً إلى مكة شمالاً، وتعد زبيد أهم مدن الإقليم وقصبتها، ويضاف إليها الحديدة ومُوزع، وتذهب بعض المصادر بأن مكة جزء من تهامة، ويشتهر هذا الإقليم بخصوبة أراضيه ووفرة محاصيله الزراعية، وتكثر فيه تربية المواشي ما جعل منه مصدراً مهماً للثروة الحيوانية. يُنظر: ابن الحائك الهمداني، ص (122-125). الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص (63-64). الجُميري، ص (141-142). المقحفي، ج 1، ص 253.

(2) العلوي، ص 273.

(3) العلوي، ص 273. إدريس الحمزي، ص 54. النويري، ج 33، ص 72.

(4) إدريس الحمزي، ص 54. النويري، ج 33، ص 72.

(5) العلوي، ص (273-274).

(6) إدريس الحمزي، ص 54. النويري، ج 33، ص 72.

وبحلول 289هـ/902م تمكن الحسن بن فرج بن حوشب من إخضاع مناطق أخرى، بما فيها جبل مسور*، الذي عمل على تحصينه، وبنى فوقه بلدة يُقال لها بيت ريب، واتخذ منها دار إمارة، وأخذ يشن الغارات على القبائل المجاورة "حتى أبادهم وأخذ أموالهم، فملك جميع مخاليف المغرب**"، ثم سار إلى بلدة يُقال لها شاور ففتحها، واتجه بعدها إلى شبام***، وهناك اصطدم مع بني حوال****، الذين نجحوا في إنزال هزيمة قاسية به، فعاد أدراجه إلى مسور، ثم ما لبث أن هاجم شبام مرة أخرى، ونجح في إخضاعها لبعض الوقت، غير أنه سرعان ما أخرج منها بعد أن هاجمته عساكر صنعاء، وفي 290هـ/903م راسل الإمام الإسماعيلي؛ ليطلعه على أحوال الدعوة، وما حققته من نجاحات في أثناء هذه الفترة⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى واصل الداعية الإسماعيلي علي بن الفضل نشر دعوته في بلاد يافع*، واستطاع في بادئ أمره لفت أنظار الناس إليه بورعه وتقواه، بعد أن اعتكف في أحد الجبال، وأظهر لهم مواظبته على العبادات وانشغاله بالصلاة والصيام وقيام الليل، وبعد أن ألح الناس عليه بالنزول إليهم، لبى دعوتهم بعد أن أخذ العهود والمواثيق منهم على طاعته ونصرته، ثم أمرهم بجهاد العاصين حتى يدخلوا في دين الله طوعاً أو كرهاً، وبعد وقت وجيز أخضع بلاد يافع، وسار بأتباعه إلى البلاد المجاورة له، ففتح عديداً منها⁽²⁾، ونجح ابن الفضل على نحو جيد باستغلال التنافس الحاصل بين

* **جبل مسور**: وعُرف بمسور منتاب؛ نسبة إلى أحد أهم حصونه الجاثمة عليه، وهو جبل عظيم يُطل على بلاد حجة وتهامة من جهة الغرب، ويقع الآن شمال غرب مدينة ثُلا بمحاذاة جبل المصانع. يُنظر: ابن حائك الهمداني، ص108، ص113. مرتضى الزبيدي، ج2، ص(549-550). المقحفي، ج3، ص(1881-1882).

** **مخاليف المغرب**: والمخاليف عند أهل اليمن هي المنطقة والنّاحية، وهي مرادفة لمصطلح الأجناد في بلاد الشام، والكور في العراق، وغيرها من الألفاظ الدالة على هذا المعنى، ومخاليف المغرب مناطق غربي اليمن. يُنظر: ابن منظور، ج9، ص96. مرتضى الزبيدي، ج23، ص255.

*** **شبام**: اسم أُطلق على عدّة مواضع في بلاد اليمن، والمقصود هنا هي شبام حمير أو كوكبان الواقعة على سفح جبل كوكبان المعروف قديماً باسم دُخار، وهي إلى الغرب من صنعاء، وتبعد عنها مسافة يوم واحد، وتشتهر بوفرة أشجارها وعيونها التي تغذي مدينة صنعاء. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص318. المقحفي، ج2، ص1030.

**** **بنو حوال**: اسم عُرف به بنو يعفر. يُنظر: زامبور، ص179.

⁽¹⁾ إدريس الحمزي، ص(55-57).

* **بلاد يافع**: نسبة إلى قبيلة يافع إحدى أعظم قبائل جنوب شبه الجزيرة العربية وأكثرها عدداً، وتقع بلادهم إلى الشمال الشرقي من عدن في المنطقة المعروفة قديماً بسرو حمير، وتقع الآن بين محافظتي أبين والبيضاء. يُنظر: كحالة، ج3، ص1259. المقحفي، ج3، ص2262.

⁽²⁾ إدريس الحمزي، ص(57-58).

حكّام المناطق المحيطة به لصالح تعزيز مركزه⁽¹⁾، وفي ربيع أول 292هـ/يناير 905م⁽²⁾ سيطر على المذيخرة* واتخذها عاصمة له⁽³⁾، وفي مستهلّ محرم 293هـ/بداية نوفمبر 905م سار إلى ذمار*، وتمكّن من إخضاعها بعد أن أرغم حاكمها على الدخول في طاعته، ثم سار بعساكره ومن انضمّ إليه من جند ذمار باتجاه صنعاء، وقُدّر جشيه وقتذاك بنحو أربعين ألف مقاتل، وعندما وصل إلى مشارف صنعاء خرج إليه أسعد بن يعفر، واشتبك معه يوم الثلاثاء السادس من محرم/السابع من نوفمبر، إلّا أنّه لم يقدر على مقاومته، حيث انسحب على الفور إلى داخل المدينة بعد أن فقد أربعمئة من رجاله، أمّا القرامطة فقد صعدوا إلى قمة جبل نقم المُطلّ على المدينة، ومكثوا هناك حتّى يوم الجمعة، وفي ليلة يوم السبت تمكّن علي بن الفضل من اقتحام مدينة صنعاء من جهة سكّة الشهابيين، فقاتلهم أسعد حتّى حلول وقت صلاة العصر من هذا اليوم، وحين يئس من طردهم خرج من المدينة⁽⁴⁾.

وأقام ابن الفضل مدة خمسة عشر يوماً في صنعاء⁽⁵⁾، وخلال هذه الفترة برز الأخير بمظهر المستقل عن الدعوة الإسماعلية، فقد ادّعى النبوة، واستحدث مجموعة من الشرائع التي أباح من خلالها محرمات الشريعة الإسلامية، كشرب الخمر والزنا، وأسقط بعض العبادات كالحج والصلاة والصيام، وفي ذلك قال شاعره:

(البحر المتقارب)

لِكُلِّ نَبِيٍّ مَضَى شَرْعُهُ وَهَذِي شَرِيعَةُ هَذَا النَّبِيِّ
فَقَدْ حَطَّ عَنَّا فَرُوضُ الصَّلَاةِ وَحَطَّ الصَّيَّامَ وَلَمْ يُنْعَبْ

(1) إدريس الحمزي، ص(57-58). يحيى الشهاري، ص45.

(2) العلوي، ص389.

* المَذْيَخْرَة: تقع إلى الجنوب من صنعاء، وهي مدينة ذات طابع جبلي تحيط بها المدرجات الزراعية، وتشرف على عديد من الوديان وعيون الماء؛ وقد جعل ذلك منها منطقة خصبة غنية بالخيرات الطبيعية، ويُعدّ البُن والزعفران من أشهر محاصيلها الزراعية، وتتبع في الوقت الراهن محافظة إبّ. يُنظر: المقحفي، ج3، ص(1831-1832).

(3) العلوي، ص389، ص394. إدريس الحمزي، ص58. النويري، ج33، ص73.

* ذِمَار: مدينة كبيرة تقع إلى الجنوب من صنعاء، وتبعد عنها مسافة مئة كيلومتر، وهي قديمة المنشأ يعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي، وتشتهر بوفرة بساتينها ومزارعها، وكثرة عيون الماء فيها. يُنظر: الجُمَيْري، ص(256-257). المقحفي، ج1، ص(651-655).

(4) العلوي، ص390.

(5) نفسه.

وَإِنْ صُومُوا فَكُلِي وَاشْرَبِي
وَلَا زُورَةَ الْقَبْرِ فِي يَثْرِبَ
مِنَ الْأَقْرَبِينَ وَمِنْ أَجْنَبِي
وَصِرْتَ مُحَرَّمَةً لِلْأَبِ
حَالاً فُقِدْتُ مِنْ مَذْهَبٍ⁽¹⁾

إِذَا النَّاسُ صَلَّوْا فَلَا تَنْهَضِي
وَلَا تَطْلُبِي السَّعْيَ عِنْدَ الصَّافَا
وَلَا تَمْنَعِي نَفْسَكَ الْمُعْرِسِينَ
فَمِنْ أَيْنَ حُلَلْتَ لِلْأَبْعَدِينَ
وَمَا الْخَمْرُ إِلَّا كَمَاءِ السَّمَاءِ

وفي ربيع الآخر 293هـ/فبراير 906م وصل إلى بغداد خبر سيطرة علي بن الفضل على صنعاء، وبعد شهر قدم إلى العاصمة وفدٌ من أهالي مكة مكونٌ من عشرة أشخاص يعرضون على الخليفة أن يوجّه معهم جيشاً لحرب الخارجي بناحية اليمن؛ فقد عظم خطره، وبات يهدّد مكة بقوة⁽²⁾، وعلى الأرجح أنّ المقصود من ذلك هو علي بن الفضل؛ نظراً لاتساع رقعة سيطرته خلال هذه الفترة، ومما يعزز هذا الرأي ما أوردته المصادر اليمانية بوجود نية لديه في التعرض للحجيج خلال هذا الوقت من دعوته⁽³⁾، ويبدو أنّ الخليفة لم يتعامل بجدية مع مطالب هذا الوفد، حيث لم تذكر المصادر أية ردة فعل منه على ما عرضه عليه المكيّون.

وأثارت تصرفات ابن الفضل مخاوف ابن حوشب؛ فقد أخذ يشكّ بنواياه وإخلاصه للدعوة الإسماعيلية، وبعد نحو شهرين من مغادرة ابن الفضل صنعاء التقى بابن حوشب في شبام⁽⁴⁾، وخلال ذلك حرص على تبديد مخاوف الأخير تجاهه؛ حيث أكّد له فضله عليه، وأثّنه صنيعته، وما هو إلّا رجل من أتباعه، غير أنّ ابن حوشب لم يطمئنّ إليه، خاصّة في ظلّ النجاح المتسارع لدعوته⁽⁵⁾، وعرض ابن الفضل عليه أن يتوجّه معه إلى تهامة؛ لفتحها، غير أنّه رفض ذلك⁽⁶⁾؛ فقد رأى أن يهتم أولاً بإصلاح حال البلاد الخاضعة له، فلم يقبل رأيه، وقرر أن يسير وحده إلى تهامة، وفي طريقه إليها وقع في كمين محكم، ولم يتمكّن من النجاة إلّا حين قدم إليه ابن حوشب واستنقذه، وعلى الرّغم ممّا

(1) نشوان الحميري، ص(253-254). إدريس الحمزي، ص59. النويري، ج33، ص(71-72).

(2) الطّبري، ج10، ص128.

(3) إدريس الحمزي، ص60.

(4) العلوي، ص391. إدريس الحمزي، ص59.

(5) إدريس الحمزي، ص59.

(6) العلوي، ص391. إدريس الحمزي، ص59.

تعرض له ابن الفضل، فإنّ عزيمته لم تفتّر؛ فقد تابع بحماسة بسط نفوذه على مناطق جديدة من بلاد اليمن⁽¹⁾.

وبقيت صنعاء خاضعة لعلي بن الفضل إلى أن سيطر عليها الإمام الهادي إلى الحق في جمادى الآخرة 293هـ/إبريل 906م؛ وذلك بعد أن سار إليه جماعة من أهلها، وعرضوا عليه أن يسير إليهم حتّى يحكم مدينتهم⁽²⁾، وفي يوم الجمعة الثاني عشر من رجب/التاسع من مايو علمت بغداد بخبر طرد خارجي اليمن (علي بن الفضل) من صنعاء، ويبدو أنّ الخليفة رأى أنّ الفرصة أصبحت مواتية لتعيين والٍ مستقل لبلاد اليمن يتولّى مهمة ترميم النفوذ العبّاسي الهشّ في هذه الولاية، ونزولاً عند ذلك عقد المكتفي بالله في شهر شوال/أغسطس من هذا العام لمظفر بن حاج(ت. 298هـ/910م) على ولاية اليمن، وبعد شهر من تعيينه غادر بغداد قاصداً ولايته⁽³⁾، وقد سبق له أن تولّى أعمال النُّعُور لمدة عام في بداية خلافة المكتفي بالله⁽⁴⁾.

ولم تطل إقامة الإمام الزيدي في صنعاء؛ فقد رحل عنها في العاشر من محرم 294هـ/الواحد والثلاثين من أكتوبر 906م؛ وذلك بعد أن ثار عليه موالي بني يعفر⁽⁵⁾، وعادت المدينة من جديد لحكم أسعد بن يعفر⁽⁶⁾، وفي جمادى الآخرة/مارس من هذا العام، خرج ابن الفضل من عاصمته المذيخرة قاصداً صنعاء، فدخلها في الأوّل من رجب 294هـ/السابع عشر من إبريل 907م⁽⁷⁾؛ وذلك بعد أن عجز أسعد بن يعفر عن صدّه عنها، واستباح أتباعه المدينة، وصبّوا جام غضبهم على العلويين؛ حيث قتلوا كلّ من وجدوه مقيماً في بيته⁽⁸⁾، وبقيت صنعاء خاضعة لهم ثلاث سنوات⁽⁹⁾ عاثوا فيها فساداً؛ فقد قتلوا قسماً كبيراً من أهلها، ومات منهم أيضاً ما لا يُحصى عدده؛ بعد أن نقشّى بينهم وباء

(1) إدريس الحمزي، ص(59-60).

(2) العلوي، ص 391.

(3) الطُّبري، ج 10، ص 128. ابن سعيد القرطبي، ص 21.

(4) الطُّبري، ج 10، ص(97-98). ابن الأثير، ج 6، ص 420. ابن العديم، ج 3، ص 1183. ابن خلدون، ج 3، ص 440.

(5) العلوي، ص 393.

(6) العلوي، ص 393. إدريس الحمزي، ص 60. يحيى الشهاري، ص 48.

(7) العلوي، ص(393-394). يحيى الشهاري، ص 49.

(8) العلوي، ص(393-394).

(9) العلوي، ص 394. يحيى الشهاري، ص 49.

خطير، وفي سنة 297هـ/910م⁽¹⁾ تنكّر ابن الفضل للدعوة الإسماعيلية، وقطع علاقته بها، وأظهر حقيقة دعوته، وحاول أن يُخضع ابن حوشب له بالقوة إلا أنه فشل في ذلك⁽²⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى نقطة مهمة وهي أنّ بعض المصادر التاريخية⁽³⁾ والمراجع الحديثة⁽⁴⁾ أطلقت لفظ القرمطي على علي بن الفضل، على الرغم من أنّ الأخير ليس له أيّ علاقة بحركة القرامطة، فهو مجرد داعٍ إسماعيلي انتدبه إمام هذه الحركة؛ ليتولى شؤون الدعوة باليمن إلى جانب الحسن بن حوشب⁽⁵⁾، كما لا تتوفّر في المصادر التاريخية أيّ إشارة تُفيد بوجود صلة بين ابن الفضل ومؤسسي حركة القرامطة حمدان بن الأشعث وصهره عبدان، باستثناء ابن خلدون الذي ذكر في رواية غلب عليها الضعف والتناقض علياً بن الفضل باسم علي بن زكرويه، وهو الذي سبق له أن خرج في الشام، واستباح طبرية، ثم فرّ بعدها باتجاه اليمن، ثم كان من أمره ما كان⁽⁶⁾، ويبدو أنّ ابن خلدون حاول أن يقدّم تفسيراً لهذه العلاقة المبهمة بين القرامطة وعلي بن الفضل، غير أنّه أخطأ في ذلك حين جمع بين الأخير والثائر القرمطي أبي غانم عبد الله بن سعيد الشهير بنصر، الذي لاقى حتفه بعد أشهر من ثورته؛ لتطوى بذلك صفحة تمرده⁽⁷⁾، وعلى الأرجح أنّ التطرف الكبير الحاصل في دعوته جعله قريباً من الصورة النمطية السائدة في العالم الإسلامي عن القرامطة، الذين اعتُبروا رمزاً للغلو والتطرف الديني، وهذا ما يفسّر إطلاق صفة القرمطي على علي بن الفضل على الرغم من أنّه لم يتبنّ فكر القرامطة وسياستهم، ولعلّ هذا ما عبّر عنه المؤرخ اليمني نشوان الحميري(ت. 573هـ/1177م) حين تحدث عن ابن الفضل وصلته بالقرامطة قائلاً: "والقرامطة عند أهل اليمن عبارة عن الزندقة"⁽⁸⁾.

(1) العلوي، ص 394.

(2) العلوي، ص 394. إدريس الحمزي، ص 61. يحيى الشهاري، ص 54.

(3) العلوي، ص 393. نشوان الحميري، ص 254. ابن الأثير، ج 6، ص 431. النويري، ج 33، ص 72. المقرئ، ص 1، ص 167. يحيى الشهاري، ص 44.

(4) زكار، ج 1، ص 143.

(5) نشوان الحميري، ص 252. إدريس الحمزي، ص 55. النويري، ج 33، ص 72. المقرئ، ص 1، ص 51.

(6) ابن خلدون، ج 4، ص (112-113).

(7) الطبري، ج 10، ص (121-124). ثابت بن سنان، ص (203-204). ابن سعيد القرطبي، ص (18-19). ابن مسكويه، ج 4، ص (417-418). ابن الأثير، ج 6، ص (428-429).

(8) نشوان الحميري، ص 254.

وفيما يتعلّق بالوالي العبّاسي المظفر بن الحارث؛ فقد نقل حُجاج اليمن إلى بلادهم خبر وصوله إلى مكّة، فاتصل الخبر إلى بني الحارث؛ وهم من القبائل المتمردة في منطقة نجران* على حكم الهادي إلى الحق، حيث قرروا مراسلة المظفر في مكّة، ولهذا الغرض وجّهوا نحوه وفداً منهم حمل كتابهم إليه، وخلال لقائهم به أكدوا له ولاءهم له، وتمسكهم بطاعته، ومدى سرورهم بخبر قدومه، وأخذوا يرغبونه بحكم بلادهم، ويرجون منه أن يسير معهم؛ حتّى يكون عوناً لهم على قتال الهادي إلى الحق، وشكّوا له ما ألحقه بهم الأخير؛ جرّاء سياسته القاسية تجاههم، ويبدو أنّ ثوراتهم المتكررة عرضتهم لأعمال القمع والتتكيل، فأمرهم الوالي بالثّورة حتّى يُثبتوا له صدق نواياهم، وبعد أن انصرفوا من عنده، وساروا باتجاه بلادهم، قويت عزيمتهم على الثّورة، وقرروا إلقاء القبض على عامل الهادي في نجران أبي جعفر محمد بن عبيد الله؛ حتّى يُفادوا به أحد زعمائهم، ثمّ يستولوا بعد ذلك على ما عنده من مال وعتاد؛ ليستقوا به على حرب الهادي إلى الحق، وحين اجتمع بنو الحارث على الثّورة أيقن الوالي خطورة الوضع، فراسل سيّده، وذكر له ما طرأ من أحداث في نجران، فردّ عليه بكتاب حثّه فيه على الحزم في ضبط شؤون منطقته ريثما يتّضح موقف العبّاسيين⁽¹⁾.

وخلال هذه الفترة أخذ بنو الحارث يردّدون ذكر بني العبّاس، ويعلّون من شأنهم، ثمّ ما لبثوا أن تجرّؤوا على نقض عهودهم مع الهادي إلى الحق، وأعلنوا تمردهم عليه، ومكثوا على ذلك أربعة أشهر، وعامل الهادي لا يتعرّض لهم؛ فقد انشغل الأخير بشحن الحصون وتحصينها؛ خشية من وصول الوالي العبّاسي، ويشير هذا الموقف أيضاً إلى ضعف حامية نجران التي عجزت عن وضع حدّ لتمرّد بني الحارث، واكتفت بتجهيز تحصيناتها حتّى تستطيع الوقوف في وجه الخطر العبّاسي الآخذ بالاقتراب، وفي تلك الأثناء حدث تطوّر مفاجئ قلب مسار هذه الثّورة رأساً على عقب؛ فقد توقّع بنو الحارث وصول المظفر بن حاج إليهم، غير أنّه تابع مسيره باتجاه الكدر*، ومنها سار نحو تهامة، وحاول بنو الحارث أن يقفوا على حقيقة ما بدر من الوالي، إلّا أنّه أحجم عنهم، ولم يردّ على

* نَجْران: مدينة تقع إلى الشّمال الشرقي من صعدة، وقد حظيت بموقع استراتيجي مكّنها من الإشراف على طرق القوافل التجارية؛ ما أهلّها أن تلعب دوراً اقتصادياً مهماً، وتتبع الآن نجران للملكة العربية السعودية. يُنظر: سوردبيل، ص 969. مؤنس، ص 197.

(1) العلوي، ص (347-349).

* الكدر: وتُلفظ الكدراء، مدينة قديمة في نواحي زبيد تقع إلى الشّمال منها وإلى الشّرق من صنعاء، وهي الآن مدينة خاربة تقع بين مدينتيّ المنصوريّة والمراوغة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 242. المقحفي، ج 3، ص 1696.

كتبهم الموجهة إليه؛ ويمكن تفسير ذلك بأنّ الخلافة العبّاسيّة لم تتعامل منذ البداية بجدية مع بني الحارث، غير أنّها وجدت في ثورتهم -حال نجاحها- فرصة لا يمكن تفويتها لضرب نفوذ الإمام الزيدي، في حين كان اهتمامها ينصبّ بالدرجة الأولى على صنعاء الخاضعة لسيطرة علي ابن الفضل، وبُعِيد ذلك كتب محمد بن عبيد الله إلى الهادي إلى الحق يطلعه على آخر المستجدات، وأنّ سائر نجران خاضعة له باستثناء بني الحارث، ويبدو أنّ انصراف المظفر عنهم شجّع الإمام الزيدي على تسيير حملة إلى نجران؛ بغية قمع تمردهم، وفي السابع من شوال 295هـ/العاشر من يوليو 908م خرج الهادي إلى الحق بنفسه على رأس هذا الجيش، وأقام في نجران قرابة الشهر والنصف، عمل خلالها على تأديب بني الحارث، ثم ضبط شؤون الولاية من جديد، وانصرف بعدها عائداً إلى صعدة⁽¹⁾.

ويُلاحَظ ممّا سبق أنّ الدّولة العبّاسيّة وظّفت القوى القبليّة وتحالفاتها لصالح ضرب الحركات الشيعيّة في اليمن؛ حيث حاولت بذلك أن تعوّض النقص الحاصل في مركزها؛ نتيجة ضعف ثقلها العسكري في هذه الولاية، وعلى الرّغم من هذا الضعف فقد ظهر جلياً حذر الإمام الزيدي من أيّ نشاط عباسي على أرض اليمن؛ حيث شكّل ذلك مصدر قلق كبير بالنسبة له، ولعلّ هذه المخاوف ناتجة عن درايته لمدى شعبية العبّاسيين وحضورهم عند أهل اليمن؛ على اعتبار أنّهم هم أهل الخلافة وأصحاب الرئاسة على الأقلّ بالنسبة لأهل السّنة، ولعلّ الحضور السنّي كان لا يزال قوياً في اليمن خلال تلك الفترة؛ ما يجعل من مهمة إحياء السيادة العبّاسيّة هناك من جديد أمراً ممكناً، وبالتالي نفس المشروع الزيدي برمّته من اليمن.

وبخصوص الوالي العبّاسي مظفر بن حاج، فقد تابع مسيره في تهامة إلى أن استقرّ في مدينة زبيد*، واتخذ منها عاصمة له، ويبدو أنّ هذا الوالي كان له دور في محاربة علي بن الفضل، والحدّ من نفوذه؛ ما دفع الأخير إلى توجيه حملة إليه في صفر 297هـ/أكتوبر 909م، ونجح في إلحاق الهزيمة

(1) العلوي، ص(349-362).

* زبيد: وجاء اسمها نسبة لوادي زبيد الواقعة عليه، وعُرفت أيضاً باسم الحُصَيْب، وهي إلى الجنوب الغربي من صنعاء، وتُعدّ من أكبر مدن اليمن وأغناها بعد صنعاء، وتشتهر بخصوبة أراضيها، ووفرة محاصيلها الزراعية، وقد لعبت أيضاً دوراً تجارياً مهماً بين بلاد الحبشة والحجاز. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص(131-132). الجُمَيْري، ص(284-285). المقحفي، ج2، ص(907-908).

بالمظفر، واستباحة زبيد، وقتل عدد كبير من أهلها، غير أنّ سيطرته عليها لم تَطُلْ؛ فسرعان ما استعادها المظفر بعد أن عاد ابن الفضل إلى المذيخرة، وبقي المظفر بن حاج والياً على اليمن إلى أن توفّي في ربيع الآخر 298هـ/ديسمبر 910م، وقد حُمِلَ جثمانه من زبيد، ونُقِلَ إلى مكة؛ ليُدفن فيها⁽¹⁾.

(1) العلوي، ص(394-396).

الفصل الرابع

سياسة الدولة تجاه الدويلات المستقلة

الفصل الرابع

سياسة الدولة تجاه الدويلات المستقلة

الدولة السامانية (261-389هـ/874-999م)

ينحدر السامانيون من مدينة بلخ*، وتعود جذورهم إلى أصول زرادشتية** نبيلة، وجاء اسمهم نسبة إلى جدّهم سامان الذي اعتنق الإسلام في أواخر العصر الأموي، وبرز دورهم السياسي والإداري في عهد الخليفة المأمون، الذي ولّى أبناء أسد بن سامان الأربعة على بعض ولايات إقليم خراسان، وهي سمرقند وفرغانة والشاس وهيت، وتمكّن أحمد بن أسد (204-250هـ/819-864م)*** بعد وفاة إخوته من بسط نفوذه على القسم الأكبر من ولاياتهم، ويبدو أنّ كفاية هذه الأسرة، وولائها للطاهرين ساعدها على الاحتفاظ بنفوذها السياسي لفترة طويلة من الزمن، وبعد وفاة أحمد تولى ابنه نصر (250-279هـ/864-892م) زعامة العائلة السامانية، واتخذ من سمرقند عاصمة له، وبعد سقوط الدولة الطاهرية سنة 259هـ/873م، أخذ السامانيون يتطلعون لبسط نفوذهم على مزيد من الأراضي؛ مستغلين حالة الفوضى الحاصلة في الولايات الشرقية، حيث اتجهت أنظارهم نحو مدينة بخارى التي كانت في حينها من أهمّ مدن إقليم ما وراء النهر؛ وذلك بعد أن دعاهم أهلها لحكمها، فندب نصر سنة 260هـ/874م أخاه إسماعيل للإشراف على ضمّها لأملاك الدولة السامانية، ولعلّ هذا النجاح هو ما دفع الخليفة المعتمد على الله في العام التالي للاعتراف بنصر والياً على بلاد ما وراء النهر⁽¹⁾.

* بلخ: من أعظم مدن إقليم خراسان، وهي إلى الجنوب من سمرقند، وتشرف سهولها الزراعية على ضفاف نهر جيحون الجنوبية؛ ما جعل منها أرضاً خصبة تكثر فيها البساتين، وهي الآن مدينة صغيرة تقع في شمال غربي أفغانستان. يُنظر: الجُمُيزي، ص 96. سوردیل، ص (239-240). مؤنس، ص 217.

** الزرادشتية: ديانة وثنية فارسية قديمة تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وتقوم على مبدئين اثنين، هما: النور والظلام، واتخذت فيما بعد أساساً لدى عديد من الحركات الدينية الفارسية التي ناهضت الحكم العباسي، وبخاصة خلال العصر الأول (132-232هـ/749-847م)، كالمزديكية والخرمية، وعلى ما يبدو أنّ سدنة المعابد ورجال الدين المرتبطين بهذه الديانة كانت لهم مكانتهم الاجتماعية المرموقة. يُنظر: الدوري، العصر، ص (92-94)، ص (161-162). الخطيب، ص 219.

*** أحمد بن أسد: والد الأمراء السامانيين والمؤسس الأول لدولتهم، وكان حسن السيرة فاضلاً، وأثّر عنه روايته للحديث، توفّي في فرغانة سنة 250هـ/864م. يُنظر: الصفدي، ج 6، ص 152. الزركلي، ج 1، ص 96.

⁽¹⁾ الدوري، دراسات، ص 92. الفقي، ص (41-42). الأُلشي، ص (155-157).

وعلى الرغم من النزاع الداخلي الذي اندلع داخل البيت الساماني بين الإخوة نصر وإسماعيل، والذي انتهى بانتصار الأخير، غير أنّ دولتهم الوليدة حافظت على وحدتها بعد أن حفظ إسماعيل لأخيه نصر قدره ومكانته؛ فقد بقي الأخير على رأس الدولة على نحو شكلي حتى وفاته سنة 279هـ/892م، وعهد نصر من بعده لأخيه إسماعيل، وتابع السامانيون توسعاتهم، فتمكنوا سنة 287هـ/900م من ضمّ مناطق خراسان وطبرستان؛ بعد نجاحهم في القضاء على الدولتين الصفارية والزيدية⁽¹⁾.

وحرص إسماعيل بن أحمد الساماني وأخوه من قبله على تعزيز علاقة دولتهم بالخلافة العباسية، فعلى الرغم من كونهم أصحاب السلطة الفعلية على الأرض، غير أنهم كانوا بحاجة إلى عهود تولية الخلفاء العباسيين؛ حتى يضيفوا بذلك الصبغة الشرعية على سلطتهم القائمة، ولكي يضمنوا من خلالها ولاء العامة لهم، ومقابل هذا الاعتراف فقد أقرّوا بسيادة العباسيين الدينية على دولتهم، ومن مظاهر ذلك: إقامة الخطبة للخليفة العباسي، ونقش اسم الخليفة على النقود، وإرسال مقدار محدد من الخراج سنوياً إلى بغداد، وفي المقابل انتهج الخلفاء العباسيون وخاصة المعتضد بالله سياستهم تجاه السامانيين وفق ما تطلبه مصلحة الدولة؛ فقد تلاعب بهم الخليفة عن طريق ضربهم بالصافريين والزبيديين، محاولاً بذلك استغلال الطرف الأقوى في هذه الحلقة، وهذا ما تحقّق له على يد إسماعيل الذي مكّنه من التخلص من هذه الدويلات، وثمن المعتضد بالله جهود إسماعيل، وبارك توسعته في خراسان وطبرستان⁽²⁾.

وخلال عهد المكتفي بالله استمرت هذه السياسة وفق مسارها القائم، فقد مكّنت ظروف هذه الولايات والأحوال التي مرّت بها الدولة العباسية، إسماعيل بن أحمد من بسط نفوذه على أراضٍ جديدة في هذه الأقاليم؛ وقد شكّلت تولية المكتفي بالله له عام 290هـ/903م على مدينة الري التي كانت خاضعة في حينها للحكم العباسي المباشر النقطة الأبرز في هذا المجال؛ وجاء هذا القرار بعد تعرّض المدينة سنة 289هـ/902م لسيطرة محمد بن هارون والي إسماعيل على طبرستان، الذي

(1) الدوري، دراسات، ص92. الفقي، ص(42-43).

(2) الدوري، دراسات، ص(90-94). الألشي، ص(157-161).

حول سياسة المعتضد بالله تجاه الدويلات المستقلة يُنظر: البحث، الفصل الأول، الجزئية الثالثة.

سبق له أن تمرّد على سيده، وخرج عن طاعته⁽¹⁾؛ وذلك بتحريض من جستان الديلمي⁽²⁾، واستغلّ محمد بن هارون أيضاً حالة التذمر السائدة وسط أهالي مدينة الري على الوالي العبّاسي أوكرتمش التركي الذي أمعن في الإساءة إليهم؛ ما دفعهم إلى دعوة محمد لتخليصهم من ظلم هذا الوالي، وسار محمد باتجاه الري، وتمكّن من الاستيلاء عليها بعد أن هزم الوالي العبّاسي وقتله هو وولديه⁽³⁾، واستشعر إسماعيل بن أحمد خطورة ما قام به محمد بن هارون، ولعلّه رأى في ذلك تهديداً صريحاً لنفوذه، فتحرّك على وجه السرعة؛ لإنهاء هذا التمرد قبل أن يتسع نطاقه، وعلى مشارف الري التقى جيش إسماعيل بجيش محمد الذي بلغ تعدادة ثمانية آلاف مقاتل، ويبدو أنّ محمد جَبُنَ عن لقاء سيده، فتنهقر ومعه قسم من جيشه نحو بلاد الديلم*، في حين سار ألف من رجاله إلى بغداد يرجون أمان الخليفة⁽⁴⁾، وكلف إسماعيل بن أحمد عامله على جرجان* بارس الكبير (ت. 295هـ/908م) بإحضار محمد بن هارون إليه كرهاً عنه أو صلحاً، وظفر بارس به في مرو بعد أن مثاه بأمان إسماعيل، وما لبث محمد أن مات بعد شهرين في سجنه⁽⁵⁾.

وبعد أن دخل محمد إلى الري جاءه رسول المكتفي بالله حاملاً كتاباً منه بخصوص توليته على المدينة⁽⁶⁾، ويرى ياقوت الحموي أنّ إسماعيل بن أحمد السّاماني، وبعد قضائه على تمرّد محمد بن

(1) الطّبري، ج 10، ص 88. ابن الأثير، ج 6، ص 412. ابن الجوزي، ج 16، ص 259. النويري، ج 25، ص 203. ابن خلدون، ج 3، ص 441.

(2) ابن خلدون، ج 3، ص 441.

(3) الطّبري، ج 10، ص (88-89). ابن الأثير، ج 6، ص 412. النويري، ج 25، ص (203-204). ابن خلدون، ج 3، ص 441. * بلاد الدِّيْلَم: إقليم جغرافي يغلب عليه الطابع الجبلي، يقع إلى الجنوب من بحر قزوين، وإلى الغرب من طبرستان، يمتاز بمنعته، وقد جعل ذلك منه مأوى للحركات المناهضة للحكم العبّاسي، كالعلويين والإسماعيليين، ومن مدنه: أبهر، وقزوين. يُنظر: زيدان، ج 2، ص 50. سورديل، ص (431-432).

(4) الطّبري، ج 10، ص 96. ابن مسكويه، ج 4، ص 404. ابن الأثير، ج 6، ص 416. ابن الأثير، ج 6، ص 412. النويري، ج 25، ص (203-204). ابن خلدون، ج 3، ص 441.

* جُرْجَان: أو كُرْكَان، إقليم جغرافي يقع في أقصى الشّرق الجنوبي من بحر قزوين، ويحدّه من الجنوب إقليم طبرستان وخراسان، واشتهرت هذه المنطقة بوفرة مياهها وخصوبة أراضيها، وحظيت كذلك بموقع استراتيجي كفل لها أهمية تجارية كبيرة، وتعدّ جرجان أعظم مدنه وأكبرها على الإطلاق، ويقع هذه الإقليم الآن بين أراضي إيران وتركمانستان، وعلى الرّغم من اندثار مدينة جرجان غير أنّ مدينة إستراباد الإيرانية الواقعة على بعد مئة كم منها يشار إليها في الوقت الراهن باسم جرجان أو كركان. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص (119-122). سورديل، ص 311. مؤنس، ص 221.

(5) ابن الأثير، ج 6، ص (419-420). النويري، ج 25، ص (203-204). ابن خلدون، ج 3، ص 441.

(6) الطّبري، ج 10، ص 96.

هارون، رفض دخول المدينة وزهد في ولايتها على الرغم من إلحاح أهلها عليه بخصوص ذلك، وانصرف عن الري دون أن يُسمّى والياً عليها، ولمّا وصل خراسان وصله كتاب الخليفة بتعيينه والياً على الري، فولّى إسماعيل عليها ابن أخيه منصوراً بن إسحاق بن أحمد⁽¹⁾، في حين ذهبت أغلب المصادر إلى أنّ قرار التعيين كان قبل دخوله المدينة؛ فقد سبق أن ندب المكتفي بالله جيشاً بقيادة مولاه خاقان المفلحي؛ ليتولى له المدينة بُعيد استردادها من محمد، وفي أثناء مسير هذا الجيش وجّه الخليفة كتاب تولية إسماعيل على الري، وبالتالي أسند إليه بطريقة غير مباشرة مهمّة إنهاء تمرّد محمد بن هارون⁽²⁾؛ ويبدو أنّ حاجة المكتفي بالله الماسّة لجهود جيش خاقان المفلحي في دفع خطر القرامطة في بادية الشام والعراق، هو ما حمله على اتخاذ هذا القرار، والعدول عن رأيه بخصوص مواصلة مسير هذا الجيش نحو مدينة الري.

ومارس إسماعيل بن أحمد نشاطاً جهادياً كبيراً كان له أثره المهمّ في تأمين حدود الدّولة الشّرقية من خطر الترك والديالمة؛ فقد حقّق في عام 289هـ/902م نصراً كبيراً على جستان الديلمي بالقرب من طبرستان⁽³⁾، وفي سنة 291هـ/904م سيّر الترك حملة كبيرة باتجاه بلاد المسلمين، فسارع إسماعيل بإعلان النفير العامّ، ووجّه أحد قادته على رأس جيش كبير مكّون من العساكر والمتطوعين، وتمكّن جيش إسماعيل من الترك بعد أن باغتهم في معسكرهم على حين غرّة خلال ساعات الصباح الباكر؛ فقتل أعداداً كبيرة منهم، في حين تقهقر الباقون، وبذلك حقّق جيشه انتصاراً مظفراً⁽⁴⁾، واستكمالاً لهذا الدور، حرص إسماعيل على تعزيز الخطوط الدفاعية لبلاده عن طريق إنشاء سلسلة من الأربطة في المناطق الصحراوية المتاخمة لبلاد الترك* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 3)، وجعل سعة الرباط

(1) الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص (121-122)

(2) الطّبري، ج 10، ص 94. ابن الأثير، ج 6، ص 416، ص 420. النويري، ج 25، ص (203-204). ابن خلدون، ج 3، ص 441.

(3) الطّبري، ج 10، ص 94. ابن الأثير، ج 6، ص 415.

(4) الطّبري، ج 10، ص 116. ابن سعيد القرطبي، ص (14-15). ابن الجوزي، ج 13، ص 23. ابن الأثير، ج 6، ص 423. ابن العبري، ص 267. النويري، ج 25، ص 204. الذهبي، سير، ج 13، ص 482.

* بلاد الترك: أو تُركستان، لفظ أطلقه الجغرافيون المسلمون؛ للدلالة على البلاد الواقعة شمال إقليم بلاد ما وراء النهر، وشرقيه، وتقع هذه البلاد في الوقت الراهن بين أراضي أوزبكستان وكازاخستان، ولطالما تغيّر المدلول الجغرافي لهذا اللفظ؛ تبعاً لمواطن الاستقرار المتعددة التي انتهت إليها هجرات القبائل التركية عبر التاريخ. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص (23-26). سورديل، ص (279-280). مؤنس، ص 148.

الواحد منها ألف فارس⁽¹⁾، ولم يقتصر دور إسماعيل الجهادي على درء الأخطار، فقد كان له نشاطه الخاص في حركة الفتوح الإسلامية، حيث تمكّن عام 293هـ/906م من فتح عدد من المواضع في بلاد الترك والديلم⁽²⁾، وتأكيداً من إسماعيل على مشروعية دوره الجهادي المرتبط بالخلافة العباسية؛ حرص أولاً بأول على إطلاع الخلافة في بغداد على تفاصيل كلّ نصر يحققه؛ فقد كانت كتبه الموجهة إلى المكتفي بالله تُقرأ على مسامع العامة في جوامع بغداد⁽³⁾.

وشهدت العلاقات السياسية العباسية السامانية نشاطاً لافتاً خلال هذه الفترة؛ فقد تبادل الفريقان عدداً من السفارات السياسية التي أسهمت بدورها في تعزيز هذه العلاقات القائمة بينهما، وكان لإسماعيل دوره في حلّ بعض القضايا العالقة في أقاليم الولايات الشرقية، ومن قبيل ذلك قيامه، وبطلب من طاهر بن محمد الصفار، بعقد اتفاق بين الأخير والمكتفي بالله بخصوص إقليم فارس الذي سبق أن تغلّب عليه طاهر بعد الهزيمة التي مُني بها جده على يد إسماعيل، وقد وافق الخليفة عام 290هـ/903م على تولية طاهر على بلاد فارس مقابل مبلغ سنوي من المال يحمله الأخير إلى بغداد⁽⁴⁾، ولعلّ الدافع الحقيقي الذي حمل المكتفي بالله على قبول ذلك ظهور بوادر تمرّد جديد في إقليم فارس يقوده بدر المعتضدي الذي سبق أن وجّه والده المعتضد بالله للقضاء على طاهر، فأراد الخليفة بذلك أن يُضعف موقف بدر، ويقطع الطريق عليه للقيام بأيّ محاولة للاستقلال ببلاد فارس⁽⁵⁾، وفي سبيل تعزيز هذه العلاقات شهدت بغداد عام 292هـ/905م قدوم سفارة لإسماعيل الساماني محمّلة بالهدايا النفيسة والقيمة⁽⁶⁾، إلّا أنّ هذه العلاقات شهدت بعض التوترات؛ بسبب مخالفة إسماعيل بن أحمد لبعض قرارات الخليفة؛ فقد رفض طلبه بتسليمه زيد بن محمد العلوي(ت).

(1) ابن الجوزي، ج13، ص23.

(2) ابن الأثير، ج6، ص431. ابن خلدون، ج3، ص446.

(3) الطبري، ج10، ص94، ص116.

(4) ابن الجوزي، ج13، ص(74-75). الصفدي، ج9، ص55.

(5) الطبري، ج10، ص(83-84)، ص90. ابن مسكويه، ج4، ص399. ابن الأثير، ج6، ص413. ابن خلدون، ج3، ص440.

(6) ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص(156-157).

314هـ/926م)*، وعوضاً عن ذلك نزل زيد معززاً مكرماً عنده وعند بنييه من بعده⁽¹⁾، وحين بلغ المكتفي بالله خبر وفاة إسماعيل بن أحمد، عزّ عليه فراق رجل بمثل منزلته، فتمثّل حزناً عليه بقول أبي نواس:

(البحر البسيط)

لَنْ يَخْلِفَ الدَّهْرُ مِنْهُمْ أَبَداً عَلَيَّ هَيْهَاتَ شَأْنُهُمْ عَجَبٌ⁽²⁾

وتوفي أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد السّاماني في الرّابع عشر من صفر 295هـ/الرّابع والعشرين من نوفمبر 907م، وخلفه ابنه أحمد (295-301هـ/907-914م)* في قيادة الدّولة السّامانيّة، وأقرّ المكتفي بالله ولاية أحمد في شهر ربيع الآخر/يناير؛ حيث عقد له لواء الولاية بيده، ودفعه إلى طاهر بن علي بن وزير حتّى يحمله إليه⁽³⁾، ويبدو أنّ المكتفي بالله حاول استغلال هذه المرحلة الانتقالية؛ للحدّ من نفوذ السّامانيّين، وإضعاف مركزهم لصالح سيادة دولة الخلافة؛ وظهر ذلك عندما ناصر الخليفة والي جرجان بارس الكبير، المتمرّد على أحمد بن إسماعيل، وقد سبق لبارس الكبير أن هرب هو وأربعة آلاف من رجاله لما اقترب أحمد من جرجان، وكان سبب ذلك أنّ بارس، وبعد وفاة إسماعيل السّاماني، امتنع عن إرسال ما اجتمع بحوزته من أموال طائلة تحصّل عليها من خراج جرجان والري وطبرستان، وحين خرج أحمد لقتاله كاتب بارس المكتفي بالله، وطلب منه الموافقة على استقباله وأربعة آلاف من رجاله، فأجابه بالقبول، وعندما وصل بارس إلى بغداد كان المكتفي بالله قد توفي، ويبدو أنّ قراره كان صائباً؛ فقد ثمن المقتدر بالله كفاية بارس الإداريّة، وعهد إليه بولاية ديار ربيعة، ووجّهه إليها على رأس رجاله، ولم يطلّ مقامه، فما لبث أن مات مسموماً بتحريض من حاشية الخليفة؛ خوفاً من تزايد نفوذه⁽⁴⁾.

* زيد بن محمد العلوي: أبو الحسن، وُصِفَ أنّه كان فاضلاً حسن السيرة أديباً مليح الشعر. يُنظر: النويري، ج 25، ص 53. الصفدي، ج 15، ص 29.

(1) النويري، ج 25، ص (52-53). الصفدي، ج 15، ص 29.

(2) ابن الجوزي، ج 13، ص 74. الصفدي، ج 9، ص 55.

* أحمد بن إسماعيل الساماني: أبو نصر، حافظ على وحدة الدّولة، وتمكّن من القضاء على عديد من الحركات الانفصالية، وسار في الرعية بالعدل، وأحسن إليها، وكان مُحبّاً للعلماء والعربية، تأمر عليه غلمانه، وقتلوه في مخدعه وهو نائم على سريره سنة 301هـ/914م. يُنظر: الصفدي، ج 6، ص 156. الفقي، ص 44.

(3) الطّبري، ج 10، ص 137. ابن سعيد القرطبي، ص 25. ابن الأثير، ج 6، ص 436.

(4) ابن الأثير، ج 6، ص 436. النويري، ج 25، ص (203-204).

الدولة الطولونية (254-292هـ/868-905م)

تُنسب الدولة الطولونية إلى مؤسسها أحمد بن طولون الذي قدم إلى مصر عام 254هـ/868م، نائباً عليها من قبل واليها العباسي باكباك التركي (ت. 256هـ/870م)*، الذي أثر البقاء في سامراء؛ خشية تعرض نفوذه للخطر؛ جزاء الصّراع المحتدم بين قادة الترك حول السيطرة على مؤسسات الدولة، ونجح أحمد بن طولون في ضبط شؤون مصر، مستغلاً الصلاحيات الواسعة الممنوحة له، وحظي بشعبية واسعة ضمن من خلالها وولاء كبير من جانب المصريين له، وحرص في بداية عهده على إبقاء علاقته قوية بالخلافة العباسية؛ حتى يضمن استمرار اعترافها بشرعية حكمه⁽¹⁾، فنقش اسم الخليفة المعتمد على الله إلى جانب اسمه على النقود، وبدأ بإرسال مبالغ من المال لخزينة الخلافة، غير أن ذلك لم يعجب الموفق بالله الذي بذل قصارى جهده لتطويعه، والحد من نفوذه، وعندما علم ابن طولون بذلك بدأ يخطط للسيطرة على الخلافة العباسية، مستغلاً موقف الخليفة المعتمد على الله المستبد عليه من أخوي الموفق بالله؛ فقد دعا في مناطق نفوذه إلى خلع الأخير من ولاية العهد، وحاول إحضار الخليفة إلى مصر، وبعد أن فشلت هذه المحاولة، تأزمت العلاقة بين الفريقين لدرجة تبادل فيها كلّ منهما اللّعان العلني من على منابر الجوامع، ووصلت هذه العلاقة في نهاية عهد أحمد بن طولون، وبالتحديد سنة 269هـ/883م إلى درجة القطيعة النهائية، وبذلك تكون قد انفصلت مناطق النفوذ الطولوني رسمياً عن جسم الخلافة العباسية⁽²⁾.

توفي أحمد بن طولون سنة 270هـ/884م، وتولّى قيادة الدولة من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد، وفي عهده استمرت حالة العداء بين الطرفين، وتطورت إلى صدامات مسلحة حاولت من خلالها الخلافة العباسية سلخ بلاد الشام عن جسم الدولة الطولونية، غير أن خمارويه استطاع إفشال ذلك، وظلّ محتفظاً بها ضمن أملاكه⁽³⁾، ومع تولّي المعتضد بالله الخلافة عام 279هـ/892م أخذ

* باكباك التركي: ويكتب أيضاً بابكباك، قائد تركي، برز دوره منذ عهد أحمد المستعين بالله (248-252هـ/862-866م)، وحاول محمد المهدي بالله استغلاله؛ للتخلص من كبار القادة الأتراك في عهده، إلا أنه وُشي به إليهم، فما كان من الخليفة إلا أن قتله وجماعة من القادة. يُنظر: الطبري، ج9، ص(283-284)، ص315، ص327، ص(354-355)، ص405، ص409، ص466. عمر، ص(74-75).

(1) عمر، ص(226-227). العبادي، ص(128-129). الألسي، ص(180-181).

(2) الألسي، ص(181-185).

(3) الألسي، ص(186-188).

كلا الطرفين يركنان إلى ضرورة إنهاء حالة العداء القائمة بينهما، وكان الطولونيون هم المبادرين إلى ذلك، فحال مبايعة المعتضد بالله وجه خمارويه سفارة إليه محملة بالهدايا القيّمة؛ لتهنئته، وفي المقابل ردّ المعتضد بالله بإرسال سفارة مماثلة إلى خمارويه عام 280هـ/893م⁽¹⁾، وعمد الأخير إلى تعزيز هذا التقارب عن طريق ربطه بعلاقة مصاهرة، فتوّج ذلك في العام التالي بزواج المعتضد بالله من قطر الندى ابنة خمارويه⁽²⁾، وفي المقابل وظفت الدولة العباسيّة هذا التقارب، مستغلة حالة الضعف التي كان يمرّ بها الطولونيّون، فحاولت تقويض مركزهم، والحدّ من نفوذهم؛ فعقدت معهم عدداً من المعاهدات، كان آخرها عام 286هـ/899م؛ ما أتاح للعباسيين تقليص مناطق النفوذ الطولوني، وضمنوا أيضاً حصولهم على مبلغ سنوي يُدفع لخزينة بغداد مقابل اعترافهم بشرعية الحكم الطولوني لفترة محدودة من الزمن⁽³⁾.

وظلّت الدولة العباسيّة تتطلّع نحو تهيئة الظروف المناسبة التي تمكّنها من القضاء على الدولة الطولونيّة، وهذا ما حدث خلال عهد المكتفي بالله الذي لم يجد حرجاً في التنصل من الاتفاقيات المبرمة مع الطولونيّين، وجاء قرار المكتفي بالله نتيجة تضافر عدّة أسباب وعوامل ساعدته على الشروع في تنفيذ هذا المشروع الذي طال تحقيقه، وشكّلت حالة الضعف والتفكك التي كانت تمرّ بها الدولة الطولونيّة الحافز الرئيس وراء ذلك؛ فقد كشفت ثورات القرامطة المتتالية في بلاد الشّام عن حجم الضعف الكبير الذي ألمّ بجسم الدولة الطولونيّة، الأمر الذي نتج عنه تقويض كبير لدعائم الحكم الطولوني الهشّ في هذه الأنحاء؛ وذلك إثر الهزائم المتكررة التي ألحقها القرامطة بالجيوش الطولونيّة⁽⁴⁾.

(1) الكندي، ص 240. يُنظر أيضاً: الألسي، ص (188-189)

(2) الكندي، ص 240. ابن خلّكان، ج 1، ص (404-405). ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص (52-53)، ص 80. يُنظر أيضاً: الألسي، ص (189-192).

(3) الطّبري، ج 10، ص 70. ابن خلدون، ج 3، ص 439. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 53. يُنظر أيضاً: الألسي، ص 190، ص (194-195).

(4) الطّبري، ج 10، ص 116. المسعودي، التنبيه، ص 323. الكندي، ص 243. ابن مسكويه، ج 4، ص 412. ابن الأثير، ج 6، ص 423. النويري، ج 28، ص 18.

وفي ظلّ هذه العجز الطّولوني في التصدي لخطر القرامطة، وبناءً على طلب الشّاميين، دخلت الجيوش العبّاسيّة إلى هذه البلاد، ولعبت دوراً رئيساً في القضاء على ثورات القرامطة⁽¹⁾، وفي أثناء ذلك استغلّ العبّاسيون تنفيذهم لهذه الدور؛ لتعزيز نفوذهم في بلاد الشّام على حساب الطّولونيين، ومما ساعدهم في تنفيذ هذه المهمة خيانة بعض عمّال بلاد الشّام لهارون بن خمارويه، وتواطؤهم مع العبّاسيين، فقد اتصل بدر الحمامي والي دمشق بقائد الجيوش العبّاسيّة محمد بن سليمان المقيم في بلاد الشّام آنذاك، وحثّه على القدوم إليه بالجند؛ حتّى يساعده على تملك هذه البلاد، وبعد عودة محمد إلى بغداد أطلع المكتفي بالله على ذلك؛ ما شجع الأخير على الإسراع في تجريد الجيوش لتنفيذ هذا الغرض⁽²⁾، ويبدو أنّ تحركات العبّاسيين في بلاد الشّام أثارت رغبة هارون بن خمارويه الذي أحسّ بنوايا المكتفي بالله تجاهه؛ ما أدى إلى حدوث تباعد وفرقة بين الرجلين⁽³⁾، ولعلّ ذلك ما جعل المكتفي بالله يسارع إلى نقض العهود المبرمة مع الطّولونيين، ويعقد العزم على إنهاء حكمهم لبلاد الشّام ومصر.

وفيما يتعلّق بمصر، وعلى الرّغم من حالة الرّخاء التي عاشتها خلال العهد الطّولوني⁽⁴⁾، فإنّها ما لبثت أن مرّت بظروف عصيبة؛ فقد شهدت سنة 290هـ/903م موجة جفاف وقحط قاسية، نتج عنها حدوث غلاء عظيم عجز الناس بسببه عن توفير أقواتهم، فمات قسم كبير منهم⁽⁵⁾، ووفق سجلات ديوان المواريث*، فقد بلغ عدد الوفيات في هذه السنة مئتي ألف إنسان⁽⁶⁾.

(1) الطّبري، ج10، ص(97-98). المسعودي، التنبيه، ص(322-323). الكندي، ص243. ابن سعيد القرطبي، ص11. ابن الأثير، ج6، ص419.

(2) ابن الأثير، ج6، ص424.

(3) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص110.

(4) عمر، ص227. العبادي، في التاريخ، ص135.

(5) ابن الساعي، ص74. الدواداري، ج5، ص315.

* ديوان المواريث: أحد الدواوين المؤقتة التي عُيّنت بتحصيل ضريبة الإرث غير المشروعة، التي كانت تفرض على تركة من مات دون أن يكون له من يرثه من ذوي الرحم، وأحياناً كانت تُجبي في ظلّ وجود ورثته، وخاصة إذا تعلّق الأمر بالتركات الضخمة، وقد وُضعت هذه الضريبة أول مرّة في خلافة المعتمد على الله، ولعلّ إنشاء هذا الديوان كان مقترناً بهذه الفترة، وعلى الرّغم من المحاولات المتكررة المبذولة من بعض الخلفاء ورجال الدّولة لإلغائها، غير أنّ هذه الضريبة بقيت تُجبي لفترة طويلة. يُنظر: الدوري، تاريخ، ص(190-192). السامرائي، المؤسسات، ص(292-297).

(6) الدواداري، ج5، ص315.

وحرصاً من المكتفي بالله على استغلال الظروف المشار إليها، فقد عمل على الإسراع في تنفيذ مشروع ضمّ بلاد الشام ومصر لحوزة الخلافة العباسية من جديد، وبعد ثلاثة أشهر من قضائه على حركة القرمطي صاحب الشامّة⁽¹⁾، كلف في الأول من رجب 291هـ/التاسع عشر من مايو 904م محمداً بن سليمان بقيادة الجيش العباسي المُنوي توجيهه للسيطرة على أعمال هارون ابن خمارويه⁽²⁾، وجاء قرار اختيار محمد بن سليمان تأكيداً من جانب الخليفة على أهمية هذه الحملة، وخطورته في الوقت نفسه؛ ما أوجب تكليف محمد بهذه المهمة؛ فهو صاحب الرتبة الأعلى في الجيش العباسي، ومقتل ديوان الجيش⁽³⁾، وتزامن ذلك مع سطوع نجمه بعد الدور الكبير الذي اضطلع به في القضاء على حركة صاحب الشامّة في بلاد الشام⁽⁴⁾، فضلاً عن درايته بأحوال مصر؛ فقد سبق له أن أقام بها مدة من الزمن عمل خلاها في خدمة لؤلؤ مولى أحمد بن طولون⁽⁵⁾، ويرى ابن خلدون أنّ محمداً بن سليمان، ومنذ بروز دوره السياسي والإداري في بغداد، لم تغب عنه فكرة إنهاء الحكم الطولوني لمصر؛ فقد أخذ يحثّ الخلفاء مراراً على ضرورة انتزاع مصر من أيديهم، واستمرّ على ذلك حتّى تهيأت له الظروف المناسبة في عهد المكتفي بالله⁽⁶⁾.

وحشد الخليفة لمحمد بن سليمان مجموعة من القادة كان في طليعتهم محمد بن إسحاق بن كُنداج، وخليفة بن مبارك الشهير بأبي الأغَر، وبنْدقة بن كمشجور، وغيرهم، بعد أن خلع عليهم أمرهم بالخروج نحو باب الشامسية حتّى يكتمل حشد الجيش، وفي السادس من رجب/الرابع والعشرين من مايو تحرّك الجيش العباسي⁽⁷⁾ الذي بلغ تعدادُه عشرة آلاف نحو بلاد الشام⁽⁸⁾، وحثّ المكتفي بالله محمد بن سليمان بالإسراع في تنفيذ المهمة الموكلة إليه⁽⁹⁾.

(1) الطُّبري، ج 10، ص 113. المسعودي، التنبيه، ص 323. ابن الجوزي، ج 13، ص 22. ابن الأثير، ج 6، ص 422.

(2) الطُّبري، ج 10، ص 116. ابن سعيد القرطبي، ص 14. ابن الأثير، ج 6، ص 423.

(3) الطُّبري، ج 10، ص 117. التتوخي، الفرج، ص 311.

(4) الطُّبري، ج 10، ص 113. ابن سعيد القرطبي، ص 13. ابن مسكويه، ج 4، ص 411. ابن الأثير، ج 6، ص 422.

(5) التتوخي، الفرج، ج 2، ص 308. ابن خلدون، ج 4، ص 402. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 142. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 111.

(6) ابن خلدون، ج 4، ص 402.

(7) الطُّبري، ج 10، ص 116. ابن سعيد القرطبي، ص 14. ابن الأثير، ج 6، ص 423.

(8) الطُّبري، ج 10، ص 116. ابن سعيد القرطبي، ص 14. ابن مسكويه، ج 4، ص 412. ابن الأثير، ج 6، ص 423. ابن كثير، ج 14، ص 728.

(9) ابن الأثير، ج 6، ص 423.

وسار الجيش العبّاسي باتجاه بلاد الشّام، وهناك لم يتعرّض لأيّ مقاومة تُذكر من جانب ولايتها الطّولونيّين؛ فقد كان أكثرهم ناقلين على هارون بن خمارويه، كما ساعد الضعف الكبير الذي وصل إليه النفوذ الطولوني في بلاد الشّام العبّاسيين على تسهيل مهمتهم، وما إن نزل محمد بن سليمان في حمص بعد إخضاعها، حتّى وصل إليه كتاب بدر الحماوي والي هارون بن خمارويه على دمشق بالسمع والطاعة⁽¹⁾، ويبدو أنّه وبأوامر مباشرة من المكتفي بالله⁽²⁾، أصدر محمد بن سليمان في أثناء ذلك تعليماته إلى أمير البحر دميانة غلام يا زمان بالتحرك بالأسطول العبّاسي من الثّغور باتجاه السواحل المصريّة حتّى يتمّ إخضاعها؛ وذلك كله من أجل فرض حصار بحري خانق على مصر⁽³⁾، وأمره كذلك أن يضمّ إليه في هذه الحملة ليو الطرابلسي الشهير بغلام زرافة*⁽⁴⁾، وخلال مسير هذا الأسطول باتجاه السواحل المصريّة حاول والي فلسطين وصيف بن صوارتيكين اعتراض حركته، غير أنّه فشل في ذلك⁽⁵⁾، وبعد سيطرة محمد بن سليمان على دمشق سار بمنّ انضمّ إليه من القوات الطّولونيّة باتجاه فلسطين، ولما اقترب منها وصله كتاب واليها ابن صوارتيكين بالسمع والطاعة، وبذلك فُرِضَت السيادة العبّاسيّة الكاملة على أرجاء بلاد الشّام كافّة⁽⁶⁾، ووصل محمد بن سليمان إلى تخوم مصر في شهر محرم 292هـ/نوفمبر 904م؛ وبذلك يكون قد قضى ما يقرب من ستة أشهر في إخضاع بلاد الشّام، وتنظيمها إدارياً تحت لواء الحكم العبّاسي⁽⁷⁾.

ووصلت أخبار محمد بن سليمان إلى هارون بن خمارويه في مصر، فأخذ يُعدّ جيشه للحرب، وفي الأوّل من ذي الحجة 291هـ/الرّابع عشر من أكتوبر 904م أخرج مضارب عسكره، وبدأ بحشد قواته؛ لدفع هذا الخطر الداهم⁽⁸⁾، وفي أثناء ذلك كان الأسطول العبّاسي قد اقترب من السواحل المصريّة،

(1) الكندي، ص 244. التّوخي، الفرج، ج 2، ص 311. الدواداري، ج 5، ص 318. الذهبي، سير، ج 14، ص 18. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 109.

(2) الطّبري، ج 10، ص 118. ابن سعيد القرطبي، ص 16. ابن الأثير، ج 6، ص 424. النويري، ج 28، ص 18.

(3) الكندي، ص 245. الدواداري، ج 5، ص 318. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 110.

* يُنظر حوله: البحث، ص (190-191).

(4) الكندي، ص 245.

(5) الدواداري، ج 5، ص 318.

(6) الكندي، ص 245.

(7) الطّبري، ج 10، ص 118. ابن مسكويه، ج 4، ص 413. ابن الأثير، ج 6، ص 424.

(8) الكندي، ص 245.

فأدرك خمارويه خطورة ذلك، وما ينضوي عليه من إغلاق المنافذ المائية كافة عنها⁽¹⁾، وفي الثامن ذي الحجة/ الواحد والعشرين من أكتوبر سارع خمارويه بتجهيز مراكبه؛ لصدّ دميانة⁽²⁾، وكلف لهذه المهمة القائد وصيف القطرميز، وضمّ إليه خصيب البربري، وحمار بن مايخشي، وتابعت المراكب المصريّة مسيرها صعوداً بالنيل حتّى وصلت تنيس*، وفيها احتشد أسطول خمارويه؛ حتّى يمنع دميانة من السيطرة على هذا المنفذ المائي، وفي ليلة العاشر من ذي الحجة/الثالث والعشرين من أكتوبر وصل الأسطول العبّاسي إلى دمياط، وسرعان ما اشتبك مع الأسطول المصري، ولم يمض وقت حتّى مُنيت البحرية المصريّة بهزيمة نكراء، وبعد أن هُزم أسطول خمارويه، توافد عدد كبير من قواته البحرية للدخول في أمان دميانة، أمّا وصيف القطرميز فقد فرّ هارباً هو وقادته⁽³⁾، وإثر ذلك تمكّن دميانة من السيطرة على مدينة تنيس⁽⁴⁾، ثمّ تابع بعد ذلك مسيره باتجاه دمياط، وخلال ذلك كان حمار بن مايخشي قد اتجه نحو الجنوب؛ ليحشد ما أمكنه من قوات لحرب دميانة، ويبدو أنّه نجح في ذلك بعد أن بذل كثيراً من المال، وقدم بهم بعدها إلى دمياط، وحين اقترب دميانة بأسطوله من دمياط كاتب قادة هارون وجنده، ودعاهم للدخول في طاعة المكتفي بالله، فرفضوا، فلم يجد مفرّاً من الاشتباك معهم، وإثر ذلك اندلع في السابع والعشرين من ذي الحجة/التاسع من نوفمبر قتال قوي بين الطرفين داخل خليج دمياط، ونجح دميانة بإنزال هزيمة قاسية بالأسطول المصري؛ فقد أباد معظم قواته، وأسر قادته بمنّ فيهم وصيف القطرميز وخصيب البربري وحمار مايخشي، وحاز بعد ذلك على مراكبهم، واستولى على ما فيها، ثمّ دخل مدينة دمياط، وسيطر عليها⁽⁵⁾.

وبفعل هذه الانتصارات نجحت البحرية العبّاسيّة في تدمير الأسطول المصري، وفقد الطّولونيّون قدرتهم على استغلال هذا السلاح الحيوي لصالحهم في أثناء صدّهم للحملة العبّاسيّة، ومن ناحية

(1) الكندي، ص 245. المقرئزي، الخطط، ج 2، 135. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 110.

(2) المقرئزي، الخطط، ج 2، 135. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 83.

* تنيس: جزيرة تُعرف باسم البحيرة التي تقع فيها، وهي إلى الشرق من دمياط، وتشتهر بوفرة بسايتها وكرومها، وتُعرف أيضاً بـحياكة الثياب الملونة والفُرش. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص (51-53). المقرئزي، الخطط، ج 1، ص (326-335). مؤنس، ص 314.

(3) الكندي، ص (145-146).

(4) الكندي، ص (145-146). المقرئزي، الخطط، ج 2، 135. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 110.

(5) الكندي، ص (145-146).

أخرى تمكّن دميانة من قطع شوط كبير في إخضاع مصر، ونجح كذلك في فرض حصار بحري عليها قبل وصول الجيش البري. ويبدو أنّ فقدان تنيس ودمياط وتدمير الأسطول المصري كان له وقعه الكبير على هارون الذي شعر بخطورة الوضع، حتّى إنّهُ لم يَعدُ يأمن على نفسه وأهله البقاء في القسطنطينية، فخرج منها ومعه أهله وما حشده من قواته إلى العباسية⁽¹⁾، ويرى ابن تغري بردي أنّ هارون في أثناء توجّهه إليها كان عازماً على الخروج إلى الشام بعساكره؛ حتّى يدفع خطر العباسيين عنه، وذلك قبل وصولهم لحدود مصر، وإنّه في سبيل ذلك راسل قاداته في بلاد الشام، وحاول تنيهم عن مناصرة محمد بن سليمان؛ بعد أن ذكرهم بحرمة ما بينهم من عهود، وناشدهم بحفظ ذمة أبيه وجده، ويبدو أنّ محاولة استدرار عطف هؤلاء القادة باءت بالفشل⁽²⁾، وبالتّزامن مع ذلك كان دميانة يتابع تقدّمه عبر النيل باتجاه الجنوب، وقد تمكّن في أثناء ذلك من السيطرة على دميّة*، وفي المقابل كانت قد فشلت كلّ المحاولات التي بذلها خمارويه لعرقلة تقدّمه⁽³⁾.

وفي محرم 292هـ/نوفمبر 904م وصل الجيش البري بقيادة محمد بن سليمان إلى تخوم مصر، وبعد أن توغل داخل الأراضي المصريّة، أخذ محمد يرسل قادة هارون؛ حتّى ينضموا إليه، فالتحق به بعضهم، وأيقن هارون خطورة الوضع؛ فعاجل في إخراج جيشه من العباسية قبل أن ينفطر جمعه، واشتبك مع الجيش العباسي، وعلى الرّغم من تفكّك الجيش الطّولوني، إلّا أنّه استطاع الصمود أمام القوات العباسيّة؛ فقد دارت سلسلة من المعارك القوية بين الفريقين، راح ضحيتها عدد كبير من كلا الجانبين، وطال أمد القتال بين الطرفين⁽⁴⁾.

وبالتّزامن مع ذلك قُتل هارون بن خمارويه في ظروف غامضة، واختلفت الروايات التاريخيّة حول سبب مقتله، وترجّح أغلب المصادر باستثناء المصريّة منها أنّه قتل على يد أحد جنوده المغاربة في

(1) الكندي، ص 146. المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 135. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص (109-110).

(2) ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 109.

* دميّة: بلدة كبيرة تقع إلى الجنوب من دمياط. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 472. مؤنس، ص 314.

(3) الكندي، ص 246.

(4) الطّبري، ج 10، ص 118. ابن سعيد القرطبي، ص 16. ابن مسكويه، ج 4، ص (413-414). ابن الأثير، ج 6، ص 424.

أثناء سعيه لحلّ خلاف شائك اندلع داخل معسكره⁽¹⁾، في حين ذكرت مصادر أخرى تعرّضه للاغتيال؛ جرّاء مؤامرة حاكها له عمّاه شيبان وعدي ولدا أحمد بن طولون؛ فقد انكبّ هارون في العباسية على اللّهُو واللّعب، وانشغل بهما بعد أن تفرّق عنه كثير من عساكره الذين تتابع انضمامهم للجيش العباسي، وظلّ هارون على حاله حتّى أصبح في قلّة من الأنصار، فاجتمع عليه عمّاه شيبان وعدي، وقرّرا قتله بالتواطؤ مع غلمانهم وخدمته، حيث دخلا عليه ليلاً في مخدعه بعد أن غطّ في سكره، وقتلاه⁽²⁾ ليلة التاسع عشر من صفر 292هـ/الواحد والثلاثين من ديسمبر 904م⁽³⁾، وتذهب مصادر أخرى في رواية ثالثة إلى أنّ قادة هارون هم الذين دبّروا عملية الاغتيال، ثمّ نصبوا بعدها شيبان؛ ويرجع السبب في ذلك إلى مخالفة القادة لرغبة سيدهم في الاستسلام لمحمد بن سليمان، فقد سبق للأخير أن اتصل بهارون عند وصوله إلى حدود مصر، فأخبره بتولية الخليفة له على مصر، وعرض عليه إن أطاعه وقبّل بذلك أن يسير بنفسه وأهله وماله إلى الحضرة في بغداد دون أن يتعرّض لهم أحد بشرّ أو مكروه، فمالّت نفسه إلى إجابته بما عرضه عليه، وكاشف قاداته بحقيقة الأمر، غير أنّهم لم يقبلوا، وأبوا عليه إلّا أن يقاتل، فخرج مكرهاً، وعندما اقترب من عسكر محمد حاول أن يتصل به، فأدرك القادة رغبته في الاستسلام وأنّه بذلك يسعى لهلاكهم، فسدّوا عليه أحد غلمانهم فقتله، ثمّ أقاموا مكانه عمّاه شيبان⁽⁴⁾، وعند تحليل عناصر كلّ رواية، وربطها بما وقع قبلها وبعدها من الأحداث، نجد أنّ الرّواية الثّانية هي الأكثر قبولا؛ لانسجامها مع التطورات الحاصلة ضمن مراحل هذا الحدث التّاريخي.

وفي صبيحة الليلة التي قُتل فيها هارون ببيع مكانه عمّاه شيبان بن أحمد بن طولون⁽⁵⁾، وترك مقتله تداعيات وخيمة على بقايا الوجود الطّولوني في مصر؛ ما ساعد بدوره العباسيين على تحقيق

(1) الطّبري، ج10، ص119. ابن سعيد القرطبي، ص16. ابن مسكويه، ج4، ص414. ابن الأثير، ج6، ص424. ابن العبري، ص267. النويري، ج28، ص18. الذهبي، سير، ج13، ص483. ابن خلدون، ج4، ص403. ابن العماد الحنبلي، ج3، ص386.

(2) الكندي، ص146. التّوخي، الفرّج، ج2، ص311. النويري، ج28، ص18. الذهبي، سير، ج14، ص18. المقرئزي، الخطط، ج2، ص135. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص(109-110)، ص135.

(3) الكندي، ص146. المقرئزي، الخطط، ج2، ص135. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص110.

(4) سبط ابن الجوزي، ج16، ص308. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص111. ابن العماد الحنبلي، ج3، ص386.

(5) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص110. المقرئزي، الخطط، ج2، ص135.

أهدافهم؛ فقد أنكر مجموعة من القادة على شيبان قتله لهارون؛ ما أدى إلى حدوث سلسلة من الانقسامات داخل الجيش الطولوني، تمخّضت عن رحيل طعج بن جفّ وأبي جعفر محمد بن أبي، وغيرهم من القادة عن العبّاسة، وأخذوا يرسلون الحسين بن حمدان الذي كان وقتذاك على رأس إحدى الفرق العبّاسيّة⁽¹⁾، وفي أثناء ذلك نقل موالى خمارويه خبر مقتل هارون إلى محمد بن سليمان الذي كان في حينها مقيماً بجرجير⁽²⁾، وبالتزامن مع ذلك وصلت إليه كُتُب القادة الطولونيين بالسمع والطاعة⁽³⁾، ثمّ وصل إليه خبر دخول الحسين بن حمدان إلى الفرما، وأنّه في طريقه إليه، أمّا محمد بن سليمان فقد انتقل بجيشه إلى العبّاسة بعد أن رحل عنها شيبان إلى الفسطاط⁽⁴⁾.

وأخذ شيبان بعد دخوله الفسطاط ينظّم شؤون دولته، ويتأهّب لحرب الجيوش العبّاسيّة، وبعد أن خُطِبَ له على منابر جوامع الفسطاط، سارع بفرض العطاء للجند؛ حتّى يكسب تأييدهم، غير أنّه لم يجد ما يكفي من المال للقيام بذلك، فعلم أنّ والده هارون كانت قد جمعت أموالاً، وأودعتها في دور بعض تجّار الفسطاط، فأرسل بمنّ يستحوذ عليها، ويحملها إليه⁽⁵⁾، ويرى ابن خلدون أنّ شيبان بذل كلّ ما لديه من مال في وقت قصير؛ وذلك بعد أن أباح لجنده في سبيل كسب ودّهم وتأييدهم له أخذ ما أمكنهم من المال، فحازوا كلّ ما لديه في ساعة واحدة، ولمّا احتاج لصرف مزيد منه عجز عن جمعه، فاختلفت أحواله، وفشلت سياسته في تدبير شؤون دولته⁽⁶⁾.

وتابعت الجيوش العبّاسيّة زحفها باتجاه الفسطاط، فبعد أن أقام الحسين بن حمدان في جرجير ارتحل عنها إلى العبّاسة، وفي طريقه إليها لقيه محمد بن أبي ومَنْ معه من القادة والجند الذين سبق لهم أن انفصلوا عن شيبان، حيث ساروا جميعاً صوب العبّاسة، وخلال ذلك راسلهم محمد بن سليمان وحثّهم على الإسراع في المسير إليه، وعندما انضمّوا إليه ساروا بجيش واحد نحو الفسطاط، وفي الثامن والعشرين من صفر 292هـ/التاسع من يناير 905م وصل دميانة إلى الفسطاط بأسطوله البالغ

(1) الكندي، ص(146-147). المقرئزي، الخطط، ج2، ص135. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص135.

(2) ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص135.

(3) الكندي، ص 247.

(4) ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص135.

(5) نفسه، ص(135-136).

(6) ابن خلدون، ج4، ص403.

عدده ثمانية عشر مركباً مشحونة بالرجال والسلاح، وحتّى يسهل للبحرية اختراق نهر النيل والتوغل داخل مياهه؛ سارع فور وصوله إلى تدمير جسري المدينة الشرقي والغربي، ونجح في تدمير الأول بأكمله في حين لحق الدمار ببعض أطراف الجسر الثاني، وفي اليوم التالي وصل محمد بن سليمان مشارف المدينة، وضرب خيام معسكره على مقربة من أحد أبواب الفسطاط⁽¹⁾.

وعندما علم شيبان بخبر اقتراب الجيوش العباسية من الفسطاط، حشد جيشاً كبيراً من الفرسان والراجلة، وخرج بهم من المدينة⁽²⁾ باتجاه عين شمس⁽³⁾، وهناك أخذ يستعد لحرب الجيش العباسي ومنعه من دخول الفسطاط، واصطفّ الجيشان للقتال، اندلعت بينهما مناوشات استمرت لساعات، وفي أثناء ذلك أخذ قادة شيبان وعساكره يتخلّون عنه، وينضمّون لمحمد بن سليمان⁽⁴⁾، وكان لبدر الحمامي دور كبير في حثّهم على ذلك⁽⁵⁾، ثمّ وجه محمد كتاباً إلى شيبان يعرض عليه الأمان إن قبل بالاستسلام، وكان شيبان حينذاك يدرك حقيقة الفرق الكبير في القوة بين جيشه والجيش العباسي، وأنّ الهزيمة مسألة وقت ليس إلّا⁽⁶⁾، وعلى الأغلب أنّه هو من بادر في مراسلة محمد بخصوص طلب الأمان؛ خوفاً على مصيره وأهله، ولمّا رأى خذلان أصحابه له⁽⁷⁾، سار إلى محمد بأهله وماله دون أن يعلم بذلك أحد من خاصته وجنده⁽⁸⁾ في ليلة التاسع والعشرين من صفر 292هـ/العاشر من يناير 905م، بعد تسعة أيام قضاها في الحكم⁽⁹⁾، وانفرد ابن خلدون بأنّ استسلام شيبان تمّ بعلم أعيان دولته، وموافقتهم؛ وذلك بعد أن فاوضهم بخصوص أمره، فأشاروا عليه بهذا الرأي⁽¹⁰⁾.

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص(136-137).

(2) الكندي، ص 247. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص137.

* عين شمس: مدينة قديمة بناها الفراعنة، وهي إلى الشرق من القاهرة وتبعد عنها مسافة أربعة فراسخ؛ أي ما يعادل أربعة وعشرين كيلو متراً. يُنظر: الجُمَيري، ص422. هنتس، ص94.

(3) الكندي، ص 247.

(4) ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص137.

(5) ابن الأثير، ج6، ص424. النويري، ج28، ص19.

(6) ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص137.

(7) الكندي، ص 247. ابن الأثير، ج6، ص424. النويري، ج28، ص19. المقرئ، الخطط، ج2، ص135.

(8) ابن الأثير، ج6، ص424. النويري، ج28، ص19. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص137.

(9) المسعودي، التنبيه، ص324. الكندي، ص247. المقرئ، الخطط، ج2، ص135. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص137.

(10) ابن خلدون، ج4، ص403.

وبعد مضيّ ساعات علم الفرسان بخبر استسلامه، فكفّوا عن القتال، أمّا الراجلة فظلّوا في مواقعهم، وعندما حلّ الصباح وجدوا أنفسهم دون قادة، فاشتبكوا مع العباسيين، لكنّهم سرعان ما تفهقروا، وفرّوا منسحبين باتجاه القطائع، فتبعتهنّ خيالة الجيش العباسي، وتمكنت من القبض على أكثرهم، ثمّ حُمِلوا إلى محمد بن سليمان، فدُبحوا "بين يديه كما تُذبح الشاة"⁽¹⁾، وفي اليوم الأوّل من ربيع الأوّل/ الحادي عشر من يناير⁽²⁾ دخل محمد بجيشه إلى مدينة الفسطاط، وطاف بها بمنّ معه من الجند المصريين الذين سبق لهم أن انضمّوا إليه، وأمّا من قاتل ضده؛ فقد تتبّعهم وقتل كلّ من ألقى القبض عليه منهم⁽³⁾، وفي اليوم التالي من دخوله المدينة دعا من على منابرهما في صلاة الجمعة للخليفة المكتفي بالله⁽⁴⁾.

وعلى الرّغم من استسلام مدينة الفسطاط للجيش العباسي الذي لم يمانعه الأهالي عند دخوله إليها، إلّا أنّ محمد بن سليمان انتهج سياسة قاسية تُجاه أهل مصر، حيث عاث جنده فساداً وتخريباً ونهباً بالفسطاط وما حولها؛ فتعرضت القطائع للدمار والحرق، وقُتل إثر ذلك عدد كبير من سكانها، ودُمّرت حتّى باتت أثراً بعد عين⁽⁵⁾، ثمّ تفرّغ العباسيون للنيل من أرباب الدّولة الطّولونيّة، ومكثوا على ذلك أياماً كثيرة، فدبّ الذعر بين الناس، و"هرب أغلب أهل مصر عنها"؛ وذلك بعد أن فعل بهم الجيش العباسي "ما لا يفعلونه بالكفرة"، ثمّ خرج محمد بن سليمان بجيشه من المدينة، وعند حافة النيل، وفي موضع يُعرّف بالمقس، نصب خيام عسكره، وبعد أن انتهى من ذلك أمر أن يُشهر بالأسرى المصريين الذين قبض عليهم دميانة في دمياط؛ فحُمِلوا على الجمال، وطيف بهم داخل المعسكر ذهاباً وإياباً، وتابِع محمد تنكيله بأهل مصر؛ فقد قبض على جماعة من العامّة والكتّاب ثمّ صادر أموالهم، وغرّمهم بمبالغ طائلة بعد أن أذاقهم ألواناً من العذاب والوعيد، ولم يسلم حتّى من انضم إليه من القادة المصريين؛ فقد قبض على أبي جعفر محمد بن أبي، وصادر منه خمسمئة ألف دينار⁽⁶⁾.

(1) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص137.

(2) الكندي، ص248. المقرّبي، الخطط، ج2، ص135. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص137.

(3) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص137.

(4) الكندي، ص248. المقرّبي، الخطط، ج2، ص142. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص144.

(5) الكندي، ص248. المقرّبي، الخطط، ج2، ص135. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص137.

(6) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص(137-138). ص(137-138).

وبعد ذلك كلّه نظم محمد خلال إقامته في مصر شؤونها الإدارية؛ حيث عيّن ما استوجبه الأمر من عمّال وقضاة وكُتّاب دواوين، ويبدو أنّه مُنِحَ صلاحيات واسعة في إدارة كلّ ما ينتزعه من أيدي الطّولونيّين داخل مصر وخارجها؛ فقد أقرّ بدر الحمامي على حاله في ولايته على دمشق خلال عهد خمارويه، ثمّ بعثه إلى الشّام؛ ليستلم أعمالها، ولعلّ هذه الخطوة كانت بمثابة مبادرة جيدة من جانبه؛ لاستمالة كبار القادة الطّولونيّين، ومكافأتهم على ما بدر منهم من تأييد ودعم للعباسيين؛ حتّى يضمن بقاء ولائهم للخلافة العبّاسيّة⁽¹⁾، وخلال ذلك راسل الخليفة محمداً بن سليمان، وأمره بتتبع آل طولون، والقبض عليهم، وإحضارهم جميعاً إلى بغداد⁽²⁾، ويبدو أنّ المكتفي بالله أراد بذلك قطع دابر الطّولونيّين، وحتّى يضمن دوام السيطرة العبّاسيّة على مصر.

وفي السابع من جمادى الآخرة 292هـ/ السادس عشر من إبريل 905م، دخل أبو موسى عيسى ابن محمد النوشري إلى الفسطاط والياً على مصر⁽³⁾، وكان من ضمن القادة الذين رافقوا محمد بن سليمان في حملته عليها، ولما أنجزَ هدف الحملة، أرسله محمد بن سليمان إلى المكتفي بالله؛ ليبشره بتحقيق النصر، وعندما بلغ عيسى دمشق وصله كتاب الخليفة بتقليده ولاية مصر، فعاد أدراجه إليها، ودخلها في التّاريخ المذكور⁽⁴⁾، وجاء اختيار عيسى النوشري لولاية مصر نتيجة تضافر عدة أسباب؛ جاء في مقدّماتها تمتّعه بالخبرة الإداريّة الكافية؛ فقد سبق له أن تولّى دمشق في عهد المنتصر بالله محمد بن جعفر (247-248هـ/ 861-862م)*، وتولّى كذلك أصبهان في عهد المكتفي بالله، وأظهر في ولايته الأخيرة كفاية إداريّة عالية، وقد سبق له أيضاً أن تولّى شرطة بغداد

(1) الكندي، ص 248، ص 258.

(2) الطّبري، ج 10، ص 119. الكندي، ص 248. ابن سعيد القرطبي، ص (16-17). ابن مسكويه، ج 4، ص 414. ابن الأثير، ج 6، ص 425. النويري، ج 28، ص 19.

(3) الكندي، ص 258. ابن مسكويه، ج 4، ص 414. ابن عساكر، ج 47، ص 347. ابن الأثير، ج 6، ص 425. النويري، ج 28، ص 19. الذهبي، سير، ج 14، ص 46. المقرئ، الخطط، ج 2، ص 142. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 145.

(4) ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 145.

* **محمد المنتصر بالله**: وقيل عبد الله، أبو جعفر، وُلِدَ في سامراء عام 222هـ/ 837م، تولّى الحكم بعد أن تأمر مع القادة الأتراك على قتل ولده المتوكل على الله سنة 247هـ/ 861م، وسرعان ما أبدى ندمه على ذلك، وحاول التخلص من نفوذ الأتراك، غير أنّهم تمكّنوا منه بعد أن قتلوه بالسّم بعد أقل من عام على توليه الحكم. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج 2، ص (484-487).

في عهد المكتفي بالله⁽¹⁾، ونتيجة ذلك رأى الخليفة أن تاريخ عيسى الإداري يؤهله للعمل على تقوية دعائم الحكم العباسي في مصر، وينفرد ابن العماد الحنبلي (ت. 1089هـ/1678م) بأن تولياته جاءت بعد أن شعر المكتفي بالله بتخوفات من وجود نوايا استقلالية لدى محمد بن سليمان في حكم مصر؛ ما دفعه إلى التعجيل في تعيين والٍ جديد من طرفه⁽²⁾.

واستقبل محمد بن سليمان القائد عيسى النوشري عند دخوله للفسطاط، وطاف به في أرجاء المدينة معلناً إياه والياً على مصر، وياشر عيسى في تدبير شؤون مصر، ثم وصله كتاب من الخليفة بخصوص تسمية من اقتضى تعيينه من عمال وقضاة وكتاب دواوين، وفيه أيضاً طلب من دميانة الرحيل بأسطوله عن سواحل مصر، فغادرها في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة 292هـ/الأول من مايو 905م⁽³⁾، وفي أوائل رجب/منتصف مايو رحل محمد بن سليمان عن مصر بعد أربعة أشهر قضاه فيها بعد إخضاعها⁽⁴⁾، مصطحباً معه إلى بغداد من تبقى من بني طولون⁽⁵⁾، وقد بلغ عددهم حوالي العشرين، ولعل هذا العدد القليل يشير إلى تعرض قسم منهم للقتل⁽⁶⁾، وضم إليهم عدداً كبيراً من كبار القادة الطولونيين ورجال دولتهم، وعند وصوله إلى دمشق أطلق سراح عدد منهم؛ وربما كان ذلك لعدم خطورتهم، غير أن الحذر اقتضى إبعادهم عن مصر، وحمل من بقي منهم مكبلين بالحديد إلى حلب⁽⁷⁾.

وعندما بلغ محمد مدينة حلب وصلت إليه كتب الخليفة تأمره بتسليم ما حملة من أموال آل طولون النقدية منها والعينية، وقدّرت قيمتها بمليونين دينار⁽⁸⁾، ويُقدّر ابن الزبير (ت. القرن 5هـ/11م) في كتابه الذخائر والتحف قيمة ما حملة محمد بن سليمان من أموال الطولونيين بنحو مليون دينار، في

(1) ابن عساكر، ج 47، ص 347.

(2) ابن العماد الحنبلي، ج 3، ص 386.

(3) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 145.

(4) الكندي، ص 481. المقرئ، الخطط، ج 2، ص 142. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 141.

(5) الكندي، ص 248. ابن سعيد القرطبي، ص 17. ابن مسكويه، ج 4، ص 414. ابن الأثير، ج 6، ص 425. المقرئ، الخطط، ج 2، ص 135.

(6) الكندي، ص 248. المقرئ، الخطط، ج 2، ص 135. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 139.

(7) الكندي، ص 248. المقرئ، الخطط، ج 2، ص 135. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 139.

(8) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 146.

(8) نفسه، ص 147.

حين نقل من ذخائرهم وحُلِيَّهم وفُرُشهم ما بلغ حمولة أربعة وعشرين ألف جمل⁽¹⁾، فضلاً عما كان قد استحوذ عليه محمد بن سليمان وجنده، وأصدر المكتفي بالله أوامره لوصيف مولى المعتضد بالله بإلقاء القبض على ابن سليمان وحمله إلى بغداد بعد أن اتهمه في أمانته، وحينها تفرّق مَنْ كان معه من الجند المصريين، فمنهم مَنْ تابع مسيره إلى بغداد، ومنهم مَنْ عاد أدرجه إلى مصر⁽²⁾.

وبعد أن وصل محمد بن سليمان إلى بغداد تعرّض للتتكيل على يد الخليفة؛ فقد قيّده، وصادر أمواله، وطالبه بفارق الأموال التي أخذها من مصر، ثمّ بعدها سجنه، وبقي محمد في سجنه إلى أن اطلق سراحه وزير المقتدر بالله علي بن محمد بن محمد بن الفرات (ت. 312هـ/924م)*، وبعثه والياً على قزوين⁽³⁾، ويرى ابن العماد الحنبلي أنّ خوف المكتفي بالله ووزيره من تغلب محمد بن سليمان على مصر هو ما دفع الوزير لمراسلة القادة من أجل إلقاء القبض عليه⁽⁴⁾، ولعلّ صعود نجم الأخير إثر نجاحه بقيادة أكثر من حملة عسكريّة، أثار مخاوف الدّولة العبّاسيّة من ازدياد قوته، الأمر الذي قد يهدّد استقرار الدّولة وسيادتها. وقُيّد جميع الطّولونيّين الذين أُحضروا إلى بغداد، وأُرسِلوا إلى سجن الحديد⁽⁵⁾، وفي ذلك يقول سعيد القاصّ متحسراً على ما آل إليه حالهم:

(بحر الخفيف)

آل طولون كننم زينة الأز ض قاضحى الجديّد أهدام لبس⁽⁶⁾

(1) ابن الزبير، ص 228. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 112.

(2) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 112، ص 147.

* **علي بن الفرات**: أبو الحسن، وُلِدَ عام 243هـ/857م، كان من دهاة الكُتّاب، لعب دوراً كبيراً في تقليد الخلافة للمقتدر بالله، وقد حاز بذلك منزلة عالية عنده، وعهد إليه الأخير بالوزارة على ثلاث فترات كان آخرها عام 311هـ/923م، غير أنّه ما لبث أن أساء السيرة، وأطلق يد ولده المحسن على الخاصة والعامة، ولم تمضِ عشرة أشهر حتّى عُزِلَ وقُيِّضَ عليه ثمّ ضُرِبَت عنقه، وطُرِحَت جثته بدجلة. يُنظر: ابن خلّكان، ج 3، ص (421-429). الزركلي، ج 4، ص 324.

** **قزوين**: من أعظم مدن إقليم الديلم، وتقع أقصى جنوب غرب بحر الخزر، وهي إلى الشّمال الغربي من مدينة الري، وتبعد عنها مسافة سبعة وعشرين فرسخاً؛ أي ما يعادل مئة واثنين وستين كيلو متراً، وتتميّز هذه المدينة بموقعها الاستراتيجي المهمّ الذي جعل منها ملتقى لطرق المواصلات التجارية التي تعبر إلى القسم الشّمالي من الولايات الشّرقية. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص (342-343). الحميري، ص 465. سوردیل، ص (759-760). هنتس، ص 94. مؤنس، ص 217.

(3) ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 113.

(4) ابن العماد الحنبلي، ج 3، ص 386.

(5) الكندي، ص 266. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 139.

(6) الكندي، ص 266.

وبات مصيرهم بعد ذلك مجهولاً؛ وقد يفتح ذلك باب الاحتمال بأنه قد تمت تصفيتهم على يد العباسيين، وأن الأمر بقي طيّ الكتمان، وإن صحّ هذا الرأي فإنّ الخلافة العباسيّة لم تحترم وعود الأمان التي قطعتها لشييان بن أحمد بن طولون بخاصّة، وللطولونيين بعامّة.

الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909م)

قامت دولة الأغلبة في بلاد المغرب الأدنى (إفريقية) من برقة شرقاً حتّى إقليم الزاب* في بلاد المغرب الأوسط غرباً (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم4)، أسسها إبراهيم بن أغلب بن سالم التميمي (184-197هـ/800-812م)، عامل هارون الرشيد على بلاد المغرب الأدنى، وجعل من مدينة القيروان عاصمة لها؛ فقد استطاع بفعل كفايته الإداريّة أن يوطّد نفوذه في تلك البلاد، ثمّ بادر بالقيام بخطوات من شأنها الاستقلال بمناطق نفوذه، وجعل حكمها وراثياً في أسرته؛ فأظهر للخليفة استعداداه للاستغناء عن المعونة السنوية المبعوثة من مصر لبلاد المغرب الأدنى، المقدّرة بنحو مئة ألف دينار، وزاد على ذلك بأن أبدى تعهّده بإرسال أربعين ألف دينار سنوياً إلى بغداد، وبسبب ثورات البربر والخوارج المتتالية في تلك الأنحاء، بات هارون الرشيد مقتنعاً أنّ انفصال إفريقية عن جسم الدولة العباسيّة أصبح أمراً محتوماً، ونظراً لمقدرة إبراهيم وكفايته الإداريّة وافق الخليفة على مطلبه، فقد وجّه له عهد الولاية عام 184هـ/800م⁽¹⁾.

ونصّ عهد الولاية على أن يكون لإبراهيم ولاية إفريقية طيلة حياته، ولأولاده من بعده؛ شريطة أن يكون ذلك بعهد مباشر من الخليفة العباسي. فتحقّق له ما كان يصبو إليه؛ إذ مُنح وأسرته الأغلبية استقلالاً ذاتياً في حكم مناطق نفوذهم؛ مقابل اعترافهم بالتبعية الاسمية للخلافة العباسيّة من خلال الدعاء للخلفاء من على المنابر، ونقش اسمهم على النقود المتداولة في دولتهم، ودفع مبلغ سنوي من المال لخزينة بغداد، وحافظ أمراء الأغلبة على ولائهم للخلافة العباسيّة؛ لكي يضمنوا ديمومة اعترافها بشرعية حكمهم على مناطق نفوذهم، وحتّى في ذروة أوقات الضعف التي مرّت بها الدولة العباسيّة خلال عصرها الثّاني تشبّث الأغلبة في ولائهم لبني العباس⁽²⁾.

* إقليم الزّاب: منطقة جغرافيّة واسعة تقع بين إفريقية وبلاد المغرب الأوسط، ومن مدنها: طولقة، ومسيلة، وبسكرة، وتوجروت.

يُنظر: مؤنس، ص158.

(1) سالم، ص(278-279)، ص287.

(2) الأُلشي، ص205، ص208.

وتولّى حكم دولة الأغالبة بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب عشرة أمراء، كان من أبرزهم زيادة الله بن إبراهيم (201-223هـ/817-838م) الشهير بزيادة الله الأول، وخلال عهده بلغت الدولة ذروة قوتها ومجدها، وعاشت بلاد المغرب الأدنى في عهد الأغالبة ازدهاراً اقتصادياً لم تعرفه منذ عهد الرومان⁽¹⁾، وامتلك الأغالبة قوة بحرية هائلة مكّنتهم من فتح جزيرتي صقلية ومالطة، كما هدّدوا سواحل إيطاليا الجنوبية⁽²⁾.

وتعاقب على حكم دولة الأغالبة خلال عهد المكتفي بالله ثلاثة أمراء، هم: إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (261-289هـ/875-902م)*، وعبد الله بن إبراهيم (289-290هـ/902-903م)**، وزيادة الله الثالث بن عبد الله (290-296هـ/903-909م)⁽³⁾، وفي عهد الأخير كان الضعف والوهن قد نال كثيراً من جسد الدولة، وبات زوالها أمراً محتوماً؛ فقد تفكك البيت الأغلبي، واختلت قواعد الحكم فيه، خاصّة بعد أن قتل زيادة الله الثالث والده، وما أمكنه من إخوته وأعمامه في سبيل وصوله لسدة الحكم، وحتىّ يضمن سيطرته الكاملة على مقاليد، ومن جهة أخرى استفحل خطر أبي عبد الله الشيعي⁽⁴⁾، واشتدّ بأس دعوته التي أخذت بعد سنة 292هـ/905م شكل الثورة المسلحة⁽⁵⁾.

(1) سالم، ص 283، ص (294-307).

(2) العبادي، ص 226.

* **إبراهيم بن أحمد بن الأغلب**: إبراهيم الثاني، أبو إسحاق، وُلِدَ عام 237هـ/852م، تولّى الحكم بعد وفاة أخيه أبي الغرانيق محمد (250-261هـ/864-875م)، ويُعدّ إبراهيم من أعظم أمراء بني الأغلب، حافظ في عهده على وحدة الدولة، وقضى على عديد من الثورات، وتعدّ مدينة الرقادة وقصر الفتح من أبرز مآثره المعمارية. اختلت أحواله في نهاية عهده، وساءت سيرته، وأمعن في البطش حتىّ راح ضحية ذلك بعض أبنائه وجميع بناته وبعض إخوته، وقد قيل: إنّ ذلك ناتج عن إصابته بمرض عقلي، توفي في صقلية سنة 289هـ/902م في أثناء قيادته لحملة جهادية كبيرة على المعقل البيزنطية في هذه الجزيرة. يُنظر: الذهبي، ج 6، ص (698-702). الزركلي، ج 1، ص 28. سالم، ص (313-316).

** **عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب**: عبد الله الثاني، أبو العباس، سار في الناس سيرة حسنة، ورفع المظالم عنهم، وأظهر التقشف، وكانت ولايته رحمة؛ حتىّ إنه أزاح عن العامّة العذاب الذي عاشوه في عهد أبيه، وقد كثرت الاضطرابات في عهده؛ حتىّ إنّ ابنه زياد الله ثار عليه وقتله. يُنظر: سالم، تاريخ المغرب، ص (316-317).

(3) سالم، ص (316-318).

(4) ابن الأثير، ج 6، ص (444-445). ابن عذاري، ج 1، ص (134-147). يُنظر أيضاً: سالم، ص (317-320).

(5) العبادي، ص 225.

ويبدو أن سقوط الدولة الطولونية، وخضوع مصر من جديد للسيادة العباسية، جعل الأغلبية، خاصة الأمير زيادة الله الثالث، يعملون على تقوية علاقاتهم مع المكتفي بالله، وتأكيد تبعيتهم لدولة الخلافة العباسية؛ حتى إن زيادة الله سمى قصره الجديد الذي نزل به في الرقادة* قصر بغداد⁽¹⁾؛ أملاً منه في الحصول على مؤازرتها لدفع الخطر الشيعي الذي بات يهدد مصير دولته، وعلى الأغلب إن زيادة الله كان قد اتصل بالمكتفي بالله منذ بداية حركة أبي عبد الله الشيعي، وحاول الحصول على دعمه وتأييده في حربه له؛ حتى يستطيع احتواء حركته والقضاء عليها قبل أن يتسع خطرهما، ولعلّ انشغال الخلافة العباسية في دفع خطر القرامطة عن العراق وبلاد الشام حال دون إرسال جيش عباسي لنجدة الأغلبية، وعوضاً عن ذلك اكتفى الخليفة عام 292هـ/905م بتوجيه كتاب إلى أهالي إفريقية يحثهم فيه على نصرته زيادة الله في حربه ضدّ أبي عبد الله الشيعي⁽²⁾.

ومع مرور الوقت ازدادت خطورة حركة أبي عبد الله الشيعي الذي تمكّن في غضون مدة قصيرة من إخضاع مناطق واسعة من بلاد المغرب، وفي المقابل فشلت كلّ الجهود التي بذلها زيادة الله للقضاء على ثورته أو حتى احتوائها، ويبدو أنّ ذلك ما دفع الأخير إلى دقّ أبواب الخلافة العباسية من جديد، والأمل يحده هذه المرة بالحصول على دعم عسكري حقيقي من المكتفي بالله؛ لدفع الخطر الشيعي الذي شارف على نزع ملكه، ففي السابع عشر من رمضان 295هـ/العشرين من يونيو 908م⁽³⁾، وفدت سفارة زيادة الله إلى بغداد، وحرصاً من الأخير على تكريم المكتفي بالله؛ فقد احتوت هذه السفارة على كمية كبيرة من الهدايا القيّمة والنفيسة⁽⁴⁾، وكان من ضمنها مبلغ كبير من

* الرقادة: تقع في نواحي جنوب القيروان، وقد أسسها إبراهيم الثاني الأغلب عام 263هـ/877م، واتخذها هو ومن جاء بعده من أمراء هذه الدولة عاصمة لهم، وقد حوت كثيراً من المرافق المعمارية التي كان من أبرزها قصر الفتح، واشتهرت أيضاً بكثرة بساطتها، وفي العصر الفاطمي هدمها المعز لدين الله الفاطمي، ولا تزال آثارها وبعض بيوتها موجودة حتى يومنا هذا. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص(55-65). سورديل، ص452. سالم، ص313.

(1) إسماعيل، ص56.

(2) ابن عذارى، ج1، ص140. يُنظر أيضاً: إسماعيل، ص57.

(3) الطبري، ج10، ص138. المسعودي، مروج، ج4، ص231. ابن سعيد القرطبي، ص25.

(4) الطبري، ج10، ص138. المسعودي، مروج، ج4، ص231. ابن سعيد القرطبي، ص25. ابن الزبير، ص(47-48). ابن

عساكر، ج19، ص(128-129). ابن العديم، ج9، ص(3907-3908). الصفدي، ج15، ص12.

النقود تُقَشَّ عليها أبيات من الشعر، أظهر من خلالها خضوعه وولاءه للخليفة، ونقش على الوجه الأول:

(البحر الكامل)

يا سائراً نَحْوَ الْخَلِيفَةِ قُلْ لَهُ أَنْ قَدْ كَفَاكَ اللَّهُ أَمْرَكَ كُلَّهُ
بزيادة الله بن عبد الله سيـ فِ اللَّهِ مِنْ دُونِ الْخَلِيفَةِ سُؤْلُهُ

في حين تُقَشَّ على الجانب الآخر:

(البحر الكامل)

مَا يَنْبَرِي لَكَ بِالشَّقَاقِ مُنَافِقٌ إِلَّا اسْتَبَاحَ حَرِيمَهُ وَأَذْلَهُ
مَنْ لَا يَرَى لَكَ طَاعَةً فَالَّهُ قَدْ أَعْمَاهُ عَنْ سُبُلِ الْهُدَى وَأَضَلَّهُ⁽¹⁾

وترى بعض المصادر أنَّ المكتفي بالله هو مَنْ بادر في مراسلة زيادة الله؛ لحنه على تأكيد طاعته له؛ نزولاً عند مشورة العباس بن الحسن، فما كان من الأمير الأغلبي إلا أَنْ وجّه هذه السفارة، وإن كان يعتري هذه الرواية بعض الضعف، خاصةً أنَّها ترتبط بالفترة الأخيرة من وزارة القاسم بن عبيد الله، وما بين وفاة الأخير، ووصول هذه السفارة ما يقرب ثلاث سنوات ونصف⁽²⁾، ويبدو أنَّ مرض الخليفة ووفاته فيما بعد، فضلاً عن الظروف الداخليَّة العباسيَّة؛ حال دون توجيه أيِّ قوة عباسية لنصرة زيادة الله الثالث، فعجز عن مقارعة الداعية أبي عبد الله الشيعي الذي تمكَّن من إخضاع عديد من المناطق في إفريقية لنفوذه، وبعد سيطرته على الأُرْبُس * سنة 296هـ/909م سقطت باقي أراضي الدولة الأغلبيَّة في يد الداعية الشيعي⁽³⁾؛ ما أرغم الأمير الأغلبي على المسارعة بالخروج

(1) ابن الزبير، ص (47-48). ابن عساكر، ج9، ص(128-129). ابن العديم، ج9، ص(3907-3908). الصفدي، ج15، ص12.

(2) ابن عساكر، ج19، ص128. ابن العديم، ج9، ص3907. الصفدي، ج15، ص12.
* الأُرْبُس: تقع إلى الغرب من القيروان، وتبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام، وهي مدينة كبيرة تمتاز بمَنَعَتها، وتشتهر بزراعة الزعفران الذي يتوفَّر فيه معدن الحديد بكميات كبيرة. يُنظر، الحموي، معجم البلدان، ج1، ص136. مؤنس، ص162.

(3) سالم، ص(317-319).

بأهله وما أمكنه من ماله ورجاله باتجاه مصر⁽¹⁾، وتُقدَّر بعض المصادر خطأً أنّ خروجه إلى مصر وقع في عهد المكتفي بالله⁽²⁾، وأمضى آخر ما تبقى من حياته متنقلاً بين مصر والشّام، إلى أن توفي في الرملة، ودفن فيها سنة 304هـ/917م⁽³⁾.

(1) ابن الأثير، ج6، ص(445-444). ابن العديم، ج9، ص3906. ابن عذاري، ج1، ص(148-146). المقرئ، الخطط،

ج2، ص143. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص156. يُنظر أيضاً: سالم، ص(320-319).

(2) ابن عساكر، ج19، ص(129-128). ابن العديم، ج9، ص(3908-3907).

(3) ابن عساكر، ج19، ص(129-128). ابن الأثير، ج6، ص(446-445). ابن العديم، ج9، ص(3908-3905).

الفصل الخامس

السِّياسة الخارجيّة

الفصل الخامس

السياسة الخارجية

الأعمال الحربية المتبادلة بين العباسيين والبيزنطيين في مناطق الثُغور

تشكّلت ملامح السياسة الخارجية العباسية خلال عهد المكتفي بالله، تبعاً لمجمل الظروف السياسية الداخلية التي مرت بها الدولة العباسية، وتأثرت كذلك بالأوضاع الداخلية والخارجية للكيانات السياسية المجاورة، خاصةً تجاه الإمبراطورية البيزنطية، وما تخلل ذلك كله من أطوار القوة والضعف لدى كلّ من دولة الخلافة العباسية والكيانات المحاذية لها، ويتّضح ممّا سبق أنّ الدولة العباسية خلال عهد المكتفي بالله قد عانت من اضطرابات عنيفة؛ نتيجة اندلاع غير ثورة، كان أخطرها ثورات القرامطة في العراق والشّام، فضلاً عن إنهاء الوجود الطّولوني في مصر وبلاد الشّام؛ ما أجبر الدولة على الوقوف في وجه خطر هذه الحركات والقوى الانفصالية؛ حفاظاً على سيادتها ووحدّة أراضيها، فأدى ذلك إلى استنزاف طاقاتها البشرية والمادية؛ ما ترك بدوره أثراً كبيراً على طبيعتها الخارجية، وفعالية دورها الجهادي تجاه الإمبراطورية البيزنطية، العدو التاريخي للمسلمين منذ مطلع القرن الأوّل الهجري/السابع الميلادي.

وكان يقف على رأس الإمبراطورية البيزنطية خلال عهد المكتفي بالله الإمبراطور ليو السادس المقدوني (Leo VI) الشهير بليو الحكيم (273-300هـ/886-912م)، وتميّز عهده بالتناقض بين الإنجازات العظيمة التي حقّقها على الصعيد الداخلي، والفشل الذريع الذي مُنيت به سياسته الخارجية؛ فقد عمل على تحديث التشريعات القانونية، ووظّف خبراته في النهوض بالسياسة الحربية لدولته؛ فقد ألّف كتاب التكتيكات (Tactica) في العلوم العسكرية؛ شرح فيه التنظيمات العسكرية لجيوش الإمبراطورية، والخطط العسكرية المتلى الواجب اتباعها لتحقيق النصر، وعمل على إصلاح نظام الثُغور عن طريق زيادة عدد الثيمات العسكرية (Themata)*، حيث قسم الثيمات الكبيرة إلى وحدات

* الثيمات: كلمة مرادفة لمصطلح الثُغور، وقد استُخدِمَ هذا اللفظ في البداية؛ للدلالة على فرق الجيش المتواجدة في أقاليم الدولة البيزنطية وخاصة الحدودية، وتطوّر هذا المفهوم مع الوقت وصار يُطلق على أقاليم الدولة الحدودية المتواجدة في آسيا الصغرى، والمتاخمة بالتحديد للأراضي الإسلامية. يُنظر: رنسيان، ص(97-98). عبيد، ص(138-139).

أصغر، وبذلك أضحت فرقها العسكرية أكثر مرونة وأسرع حركة؛ ما زاد من فعاليتها وكفايتها القتالية، وفيما يتعلق بالأوضاع الخارجية؛ فقد زاد خطر البلغاريين على الحدود الشمالية منذ تولّى الملك سيميون الأوّل (Simeon I) (280-313هـ/893-927م)* زمام الحكم؛ فقد هدّد البلغار بقوة أراضي الإمبراطورية البيزنطية التي أُجبرت سنة 283هـ/896م على دفع جزية سنوية لهم، ثمّ أرغمت سنة 291هـ/904م على التنازل لهم عن أجزاء من أراضيها في منطقة البلقان، وأدى انشغال البيزنطيين في حروبهم مع البلغار إلى إضعاف قوتهم القتالية في مواجهة المسلمين في كلّ من الجبهة الشرقية والغربية على حدّ سواء؛ ففي سنة 289هـ/902م سيطر الأغالبة على مدينة بالرمو، آخر المعاقل البيزنطية في القسم الشمالي الغربي من جزيرة صقلية؛ ما سهّل من حركة الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط، وزاد من فاعليته القتالية في تهديد أراضي الإمبراطورية البيزنطية⁽¹⁾.

وعطفاً على ما ذُكر سابقاً فإنّه وبالتزام مع خلافة المكتفي بالله فقد عانت كلّ من الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية من مشاكل عديدة على صعيد الجبهة الداخلية والخارجية؛ ما أثر على طبيعة العلاقات القائمة بين الطرفين خلال وقت الحرب أو السلم، فعلى صعيد العلاقات الحربية، كانت الإمبراطورية البيزنطية هي الأكثر تهديداً للنفوذ العباسي في مناطق الثُغور باستثناء السنوات الأخيرة من خلافة المكتفي بالله، وعلى الرّغم من ذلك فقد شهد عهد الأخير انطلاق غير حملة جهادية صوب الثُغور البيزنطية؛ إذ بادر بعد شهر من تسلّمه الخلافة إلى توجيه أولى الحملات الجهادية صوب البيزنطيين على الحدود مع الثُغور الجزرية⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أنّ الخليفة كان على دراية واسعة بأحوال الثُغور الإسلامية والبيزنطية في هذه الثُغور المذكورة، خبيراً بشؤونها؛ فقد كان قائداً عليها لأبيه المعتضد بالله منذ تسلّمه منطقة العواصم

* سيميون الأوّل: وعُرف أيضاً بالكبير، وهو ابن بوريس الأوّل (Boris I) (238-276هـ/852-889م)، نشأ في البلاط البيزنطي، وتعلّم اللغة اليونانية هناك، وقد تولّى الحكم بعد مقتل أخيه الملك فلاديمير (Vladimir) (276-280هـ/889-893م)، ويعدّ أعظم حاكم لمملكة بلغاريا في العصر الوسيط. يُنظر: عمران، ص150. عبيد، ص(142-143). فرحات، ص(186-187).

(1) عمران، ص(145-156)، ص(150-152). الشيخ، ص(197-198)، ص(202-205). عبيد، ص(136-137)، ص(142-143). فرحات، ص(182-183)، ص(186-187). وللاطلاع بالتفصيل على فترة حكم ليو السادس، يُنظر:

Tougher, Shaun, The Reign of Leo VI, New York, 1997

(2) الطُّبري، ج10، ص87. ابن الجوزي، ج13، ص3. ابن الأثير، ج6، ص411.

وقنسرين من الطولونيّين عام 286هـ/899م، وظلّ فيها حتّى تولّيه الخلافة⁽¹⁾، فاكْتَسَب خبرة واسعة في كيفية إدارة الصّراع الحربي مع البيزنطيّين في هذه المناطق الحدودية، ويبدو أنّ ذلك هو ما شجّعهُ على تجريد الصوائف في مطلع عهده. ففي الرّابع من جمادى الآخرة 289هـ/السّادس عشر من مايو 902م قلّد الخليفة القاسم بن سيما قيادة الصوائف بالتّغور الجزرية، وللقيام بأعباء ذلك فرض له اثنين وثلاثين ألف دينار⁽²⁾. وتتبع الخليفة أخبار التّغور، وحرص على استقرار أحوالها واستتباب الأمن فيها؛ حتّى تستطيع القيام بواجبها الدفاعي في درء الأخطار الخارجيّة، وبلغ به الأمر إلى عزل والي التّغور المظفر بن حاج سنة 290هـ/903م، وعيّن بدلاً منه أبا العشائر أحمد بن نصر⁽³⁾، وذلك بعد عام واحد فقط من استعماله عليها؛ إثر تظلم أهلها من سياسته⁽⁴⁾.

وفي المقابل خرج البيزنطيون سنة 291هـ/904م في جيش كبير، وشنّوا حملة على التّغور الإسلاميّة، ويبدو أنّ هذه الحملة طالت مناطق عديدة، إلّا أنّ ثغر الحدث* كان الأكثر تضرراً؛ فقد أُحرق وسُبي قسم من سكانه، ونال الدمار بعضاً من أجزائه⁽⁵⁾، وورد خبر هذه الغارة إلى بغداد في شعبان/ يوليو من السنة المذكورة⁽⁶⁾، ثمّ أغار البيزنطيون في محرم 292هـ/نوفمبر 904م⁽⁷⁾، بقيادة أندرونيقوس دوقاس (Andronikos Doukas) (ت. 301هـ/914م)، القائد العسكري للإمبراطور ليو السّادس،

(1) الطّبري، ج10، ص71، 88. ابن الأثير، ج6، ص397، ص412. ابن العديم، ج6، ص2725.

(2) الطّبري، ج10، ص96.

(3) الطّبري، ص(97-98). ابن الأثير، ج6، ص420. ابن العديم، ج3، ص1183.

(4) ابن خلدون، ج3، ص440.

* الحدث: وتُعرّف بالحمراء؛ بسبب لون تربتها المائل إلى الأحمر، وهي من ضمن ثغور بلاد الجزيرة، وتقع إلى أقصى الشّمال الشرقي من مرعش وإلى الشّمال الغربي من زبطرة. يُنظر: الجنزوري، ص(88-92).

(5) الطّبري، ج10، ص116. ابن الجوزي، ج13، ص23. ابن الأثير، ج6، ص423. ابن خلدون، ج3، ص445.

(6) الطّبري، ج10، ص116.

(7) الطّبري، ج10، ص118. ابن العديم، ج3، ص1183.

على ثغر مرعش* ونواحيه، فنفر أهل طرسوس** والمصيصة***؛ للدفاع عن هذه المواقع الإسلامية، وخلال ذلك قُتِلَ أبو الرجال بن أبي البكار، وعلى الأرجح أنَّ هذا الهجوم وقع في أثناء الهدنة التي رافقت إجراءات الفداء الأوَّل مع البيزنطيين في عهد المكتفي بالله، وحمل الخليفة والي الثُّغور أبا العشائر أحمد بن نصر تبعيات هذا الهجوم؛ كونه المسؤول عن ترتيب إجراءات الفداء؛ وكان نتيجة ذلك أن عزله وعيَّن بدلاً منه رستم بن بردوا(ت. 302هـ/915م)****⁽¹⁾، وفي سنة 293هـ/906م توغَّل البيزنطيون داخل الأراضي الإسلامية، وهاجموا مدينة قورس⁽²⁾، الواقعة في محيط حلب⁽³⁾، وعندما شارفوا عليها، خرج أهالي المدينة لمواجهتهم، ومُنِيَ المسلمون بهزيمة نكراء، وقُتِلَ أكثرهم، وكان من جملة مَنْ قُتِلَ زعماء من بني تميم؛ ما مكن البيزنطيين من دخول قورس، فعاثوا فيها فساداً، وأحرقوا مسجدتها، ولمَّا فرغوا من ذلك أسروا مَنْ بقي من أهلها، واقتادوهم معهم⁽⁴⁾، ووصل خبر قورس إلى بغداد في السابع من شوال 293هـ/الأوَّل من أغسطس 906م⁽⁵⁾.

* **مرعش**: مدينة قديمة تعود إلى العهد اليوناني، وتُعدّ من ضمن ثغور بلاد الجزيرة، وهي إلى الشرق من زبيرة، وتبعد عنها تسعة فراسخ؛ أي ما يعادل أربعة وخمسين كيلو متراً. يُنظر: الحميري، ص 541. الجنزوري، ص (75-88). مؤنس، ص 150.

** **طرسوس**: مدينة قديمة، وهي عاصمة الثغور، وأحد أهمّ الثغور الإسلامية، تُصنّف بأنّها من الثغور الشّامية، وتقع إلى الغرب من المصيصة، وهي إلى الشّمال الشرقي من جزيرة قبرص، وقد جعل منها هذا الموقع عرضة للهجمات البيزنطية المتكررة التي استطاعت فرض سيطرتها عليها أكثر من مرّة. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص (28-29). الجنزوري، ص (29-50). مؤنس، ص 150.

*** **المصيصة**: وهي من الثغور الشّامية، وتقع إلى الشرق من طرسوس، وإلى الشّمال الشرقي من أنطاكية، وتتكون هذه المدينة من قسمين يفصل بينهما نهر جيجان؛ أحدهما يعرف بالمصيصة، والآخر بكفرييا. يُنظر: الحميري، ص 554. الجنزوري، ص (61-68)، ص 198.

**** **رستم بن بردوا**: من كبار القادة في عهد المكتفي بالله، وكان من ضمن القادة الذي صاحبوا محمداً بن سليمان في حملته على مصر، وعندما عاد الأخير ووصل حلب وافته كتب للخليفة؛ تأمره بتقليد رستم على الثغور، وأن يُوجّه إلى عمله بعد أن يضمّ إليه جماعة من الجند، وكان لهذا الوالي نشاطه الجهادي الكبير في مقارعة البيزنطيين. يُنظر: ابن العديم، ج 8، ص (3650-3651).

⁽¹⁾ الطُّبري، ج 10، ص (118-120). ابن الأثير، ج 6، ص 425. ابن العديم، ج 3، ص (1183-1184). ابن خلدون، ج 3، ص 445.

⁽²⁾ الطُّبري، ج 10، ص 129. ابن سعيد القرطبي، ص 21. ابن الأثير، ج 6، ص 431. ابن العبري، ص 267. النويري، ج 23، ص 8. ابن خلدون، ج 3، ص 445.

⁽³⁾ الحموي، ج 4، ص 412. النويري، ج 23، ص 8.

⁽⁴⁾ الطُّبري، ج 10، ص 129. ابن سعيد القرطبي، ص 21. ابن الأثير، ج 6، ص 431. النويري، ج 23، ص 8.

⁽⁵⁾ ابن سعيد القرطبي، ص 21.

وبعد أن أجهزت الدولة العباسية على ثورة الخليجي، ونجحت في تطهير بلاد الشام من خطر القرامطة، باتت الظروف مشجعة على نحو أفضل للقيام بعمل عسكري ضد الثغور البيزنطية، وحتى يتسنى للدولة شن حملة عسكرية قوية تقرر تكليف والي دمشق والأردن أحمد بن كيغلق بالخروج بعساكره إلى طرسوس⁽¹⁾، التي وصلها في الأول من محرم 294هـ/الثاني والعشرين من أكتوبر 906م⁽²⁾، وبعد أن اجتمع بوالي الثغور رستم بن بردوا وقواته، انطلقت الحملة الإسلامية في جيش كبير صوب الأراضي البيزنطية، وجابت هذه الحملة مناطق متعددة؛ فقد استولى الجيش الإسلامي على سلندوا*، ثم سار إلى آيس*، وكانت محصلة هذه الحملة قتل كثير من البيزنطيين وأسّر خمسة آلاف منهم، وعادت الحملة أدرجها سالمة إلى طرسوس⁽³⁾، وتزامن مع هذه الحملة أن اتصل القائد البيزنطي أندرونيقوس بأحمد بن كيغلق، وطلب منه أمان الخليفة، وأبدى استعداداه لاعتناق الإسلام، والقدوم إلى بغداد إن استجاب إلى مطلبه⁽⁴⁾.

ويبدو أن المكتفي بالله رأى في انضمام هذا القائد فرصة لا يمكن تفويتها لخلخلة النفوذ البيزنطي في منطقة الثغور؛ ما سيضمن تفوق الدور العسكري الإسلامي هناك، ولو لفترة زمنية محدودة، وبالفعل فقد أجيب طلب أندرونيقوس، وتقرر خروجه وأهله ومن ناصره من أتباعه، ومعهم مئتا أسير مسلم إلى الأراضي الإسلامية، وعندما تسرب خبر هذا القائد إلى الإمبراطور البيزنطي ندب فرقة عسكرية من أجل القبض عليه، فلجأ أندرونيقوس إلى حصنه بمن معه، بمن فيهم أسرى المسلمين المنتئين الذين مدّهم بالسلاح، ولما اقتربت الفرقة البيزنطية منهم خرجوا للتصدي لها، واستطاعوا إنزال هزيمة قاسية بها بعد أن أوقعوها في كمين محكم، وبعد هذا الانتصار عادوا إلى الحصن، وعلى

(1) الطبري، ج 10، ص 130. ابن سعيد القرطبي، ص 22. ابن الأثير، ج 6، ص 434. ابن العديم، ج 8، ص 3651. النويري، ج 23، ص 8. ابن خلدون، ج 3، ص 445.

(2) الطبري، ج 10، ص 130. ابن سعيد القرطبي، ص 22. ابن العديم، ج 8، ص 3651.
* سلندوا: وقيل ولندور، وهي مدينة تقع في أقصى ثغور الروم الشرقية المتاخمة للحدود الإسلامية. يُنظر: المسعودي، التنبيه، ص 153.

** آيس: نهر يبعد عن طرسوس مسيرة يوم، عليه مدينة بيزنطية تُعرف باسمه. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 55.
(3) الطبري، ج 10، ص 130. ابن سعيد القرطبي، ص 22. ابن الأثير، ج 6، ص 434. النويري، ج 23، ص 8. ابن خلدون، ج 3، ص 446.

(4) الطبري، ج 10، ص 134. ابن سعيد القرطبي، ص 24. ابن الأثير، ج 6، ص 434. ابن العديم، ج 8، ص 3651. النويري، ج 23، ص 8. ابن خلدون، ج 3، ص 446.

الأغلب أنَّ أندرونيقوس كان قد عجز عن العبور إلى الأراضي الإسلامية؛ نتيجة تشديد خناق البيزنطيين عليه؛ ما دفع والي الثُّغور للخروج بجيشه لنجدته⁽¹⁾.

ففي جمادى الأولى 294هـ/فبراير 907م⁽²⁾، توغّل جيش القائد المسلم رستم بن بردوا في الأراضي البيزنطية، ووصل إلى محيط قونية*، ويبدو أنَّ حصن أندرونيقوس كان في هذه النواحي، وبعد أن علمت القوات البيزنطية بقدوم الجيش الإسلامي تركت حرب أندرونيقوس، وانسحبت، وما لبث أن بعث رستم بمنْ يخلّص مَنْ في الحصن ويجلبهم إليه، وبعد أن انتهى هدف الحملة الرئيس، شنّ الجيش الإسلامي هجوماً على قونية التي لحق الخراب بها، ودُمّرت بعض نواحيها، ثم عاد بعد ذلك أدراجه سالماً إلى طرسوس⁽³⁾، وبعدها توجه أندرونيقوس بأهله إلى بغداد، واعتنق الإسلام⁽⁴⁾، وأقام بها إلى أن توفي، وعلى الأرجح أنَّ وفاته وقعت سنة 301هـ/914م؛ وهو العام نفسه الذي هرب فيه ابنه قسطنطين إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وأعلن التمرد على الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (Constantine VII) (300-348هـ/913-959م)*، وزحف نحو القسطنطينية، غير أنَّ الإمبراطور تمكّن من إفشال ثورته، وقتله في العام نفسه⁽⁵⁾.

(1) الطُّبري، ج10، ص134. ابن العديم، ج3، ص3651.

(2) ابن العديم، ج3، ص3651. ابن شداد، ج1، قسم2، ص290.

* **قونية**: تقع إلى الجنوب من عمورية، وإلى أقصى الشمال الغربي من طرسوس، تمتعت هذه المدينة بموقع استراتيجي مهم جعل منها ملتقى الطرق التجارية، واستطاع السلطان ألب أرسلان (455-465هـ/1063-1073م) أن يدخلها في دائرة الحكم الإسلامي بعد انتصاره على البيزنطيين في معركة ملاذكرد سنة 463هـ/1071م، وقد برز دور المدينة في العصر الإسلامي بعد أن اتخذ منها سلاجقة الروم (470-634هـ/1078-1237م) عاصمة لدولتهم مع مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج4، ص415. سوريدي، ص(782-783). مؤنس، ص150.

(3) الطُّبري، ج10، ص134. ابن شداد، ج1، قسم2، ص290.

(4) الطُّبري، ج10، ص134، ص136.

* **قسطنطين السابع**: ابن ليو السادس، توفي والده سنة 299هـ/912م وهو لا يزال في السادسة من عمره، وبذلك انتقلت السلطة إلى الأوصياء الذين تولّوا مهمة الإشراف على الحكم حتّى عام 333هـ/945م، وبعد هذا التاريخ استأثر قسطنطين بالحكم حتّى وفاته، وعُرف عنه ميله إلى حياة الدعة والترف، وكان شغوفاً بالعلم، مواظباً على الكتابة والتأليف، ومُنيت الإمبراطورية البيزنطية في عهده بعدد من الهزائم على يد المسلمين في مختلف الجبهات. يُنظر: الشيخ، ص(206-211).

(5) المسعودي، التنبيه، ص148. ابن الأثير، ج1، ص259.

حملة الأسطول الإسلامي على مدينة سالونيك 291هـ/904م

اشتدّ التنافس بين العباسيين والبيزنطيين في الوصول إلى حالة من التفوق في القوة البحرية المتوسطية، وسعى العباسيون بدورهم إلى إحكام السيطرة على الحوض الشرقي منه، خاصة منطقة بحر إيجه؛ بهدف إنشاء سلسلة من القواعد العسكرية التي من شأنها تمكينهم من سالونيك، كمقدمة لفتح مدينة القسطنطينية، وإفناء الإمبراطورية البيزنطية⁽¹⁾.

وتقع مدينة سالونيك ومينائها البحري في أقصى الشمال الغربي لبحر إيجه، عند نهاية حوض داخلي منبثق من شمال الخليج الثيرمي (Thermaic Gulf)، وتطلّ من جهة الشرق على سواحل شبه جزيرة كاساندر (Kassandra)، ويمرّ بها غير نهر، وتحيط بها من الجهة الغربية جبال أليمبوس (Olympus) وأوسا (Ossa)، ويفعل هذا الموقع الجغرافي وتنوع التضاريس اكتسبت المدينة حصانة طبيعة ضدّ الأخطار الخارجية، وما زاد من منعها سورها الضخم المعزز بالقلع والأبراج، المشاد على طول سواحلها⁽²⁾، ونتيجة ذلك كلّه أضحت أهمّ قاعدة بحرية للأسطول البيزنطي في بحر إيجه⁽³⁾.

وعُدّت سالونيك مركزاً اقتصادياً مهماً، فهي ذات حركة تجارية نشطة؛ بفعل وقوعها على طريق إجناتيا (Via Egnatia)، الذي عدّ لعدّة قرون الطريق التجارية الرئيسة التي تصل بين القسطنطينية وروما؛ ما مكنها من القيام بدور الوسيط التجاري بين شقّي الإمبراطورية الشرقي والغربي، خاصة أنها كانت تحتضن فعاليات أهمّ الأسواق الموسمية في الإمبراطورية البيزنطية⁽⁴⁾، المُسمّى باسم القديس ديمتريوس (Demetrius of Thessalonica) (270-306م)*، الذي كان يستمر لمدة

(1) Panayiotou, p. 342.

(2) Finlay, pp. (316-317). غنيم، ص 194. تدمري، ص 106.

(3) غنيم، ص 193.

(4) Finlay, p. 17. غنيم، ص 194. تدمري، ص 106.

* القديس ديمتريوس: لا يُعرّف مكان مولده على وجه التحديد، وربما كان من أصل إسباني، وعُدّ من شهداء المسيحية، وقيل إنّ الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الأول (379-395م) نقل رفاته إلى سالونيك، ونظراً لتمتعه بمكانة عظيمة في أوساط رجال الدين البيزنطيين، فقد بُنيت كنيسة باسمه، فضلاً عن ذلك، تُنسب له عديد من المعجزات في الانتصارات التي حققتها الحملات الصليبية ضدّ المسلمين، يُنظر: Lapina, pp. (95-96)، ولمزيد من التفاصيل حوله، يُنظر:

Russell, Eugenia: St. Demetrios of Thessalonica, Peter Long, Oxford, 2010.

أسبوع، وخلال انعقاده كان التجار يتوافدون إليه من أنحاء العالم كافة⁽¹⁾. فضلاً عن ذلك، فقد تمتعت المدينة بمكانة دينية مرموقة؛ نظراً لاحتوائها على ضريح القديس ديمتريوس صانع المعجزات، كما انتعشت فيها الحركة الفكرية، فباتت من أهم المراكز الحضارية في الإمبراطورية البيزنطية⁽²⁾، ولهذا كله شهدت المدينة اكتظاظاً سكانياً كبيراً⁽³⁾؛ فقد قُدِّرَ عدد سكانها في هذه الفترة بنحو رُبْع مليون نسمة⁽⁴⁾، وقد جعل ذلك منها عاصمة لإقليم مقدونيا (Macedonia)*⁽⁵⁾، وأعظم المدن البيزنطية وأكثرها ازدهاراً بعد القسطنطينية⁽⁶⁾، ولعلَّ هذا ما شجَّع البحرية الإسلامية، وحفَّزها إلى استهدافها.

وعلى الرِّغم من الازدهار الاقتصادي والمعيشي الذي شهدته سالونيك، غير أنَّها لم توظف ذلك لصالح تعزيز قدراتها العسكرية، الدفاعية منها والهجومية، وعلى ما يبدو أنَّ السلام الطويل الذي عاشته خلال القرنين المنصرمين، وما تخلَّل ذلك من ازدهار لمظاهر الحياة الاقتصادية والفكرية جعل سكانها يميلون إلى حياة الترف والدَّعة؛ ما أفقدهم صفات المحاربين وفطنتهم. وممَّا زاد من تواكلهم إيمانهم المطلق ببركة القديس ديمتريوس، وقدرته -وَفَقَ اعتقادهم- على دفع الأخطار عن مدينتهم، وأثَّر ذلك سلباً على قوة المدينة وفعالية تحصيناتها الدفاعية التي اشتهرت بها عبر العصور، وكان سور المدينة الضخم المتضرر الأكبر جزاء هذا الإهمال؛ فقد عانى جزؤه المتاخم للخليج من التصدع والتآكل والسقوط في غير موضع، أمَّا من جهة البرِّ فقد كان سور المدينة المُطلَّ على الشاطئ الساحلي ليس بأحسن حال من سابقه، فقد نال التآكل والخراب من بعض أجزائه؛ ما صعب على المدافعين امتطاء ممشى السور والتنقل بين أجزائه المختلفة، كما عانت أبراج السور الرابطة بين أجزائه من الخراب؛ ما من شأنه أن يعيق تنظيم العملية الدفاعية، ويحدِّ من فعاليتها وجدواها، وأمَّا السور المتهاوي المحاذي للميناء، فمن شأنه تمكين البحارة المهاجمين للمدينة من ارتقائه بوساطة

(1) غنيم، ص 195.

(2) Finlay, p. 319. غنيم، ص 195.

(3) Finlay, p. 317.

(4) تدمري، ص 106.

* مقدونيا: منطقة جغرافية تقع في أقصى جنوب بلاد البلقان. يُنظر: سوردِيل، ص 921.

(5) Finlay, p. 317. غنيم، ص 194.

(6) Finlay, p. 317. عمران، ص 152. غنيم، ص 195. تدمري، ص 105.

أشركة السفن، خاصة في ظلّ توقّر عمق مائي كافٍ في بعض مناطق الميناء لاقترب السفن المهاجمة إلى هذا السور⁽¹⁾، وفيما يتعلّق بوضع الحامية العسكرية؛ فقد عانت من الإهمال، وعلى الأرجح أنّ المدنية كانت خلال هذه الفترة خالية من أيّ قوة نظامية يمكن أن تتولّى مهمّة الدفاع عنها⁽²⁾.

وجاءت الرواية الإسلامية بخصوص هذه الحملة مبهمّة ومقتضبة على نحو كبير، ونقلًا عن الطّبري، فقد ورد إلى بغداد في آخر شهر رمضان 291هـ/منتصف أغسطس 904م كتاب من الرقة، حرّر بتاريخ العاشر من رمضان/السادس والعشرين من يوليو، يفيد بأنّ القائد البحري غلام زرافة قد انطلق من طرسوس إلى مدينة أنطاليا*، وكانت في حينها تعادل القسطنطينية، وتمكّن من السيطرة عليها، فقتل من أهلها خمسة آلاف وأسر عددًا مماثلاً، ثمّ حرر أربعة آلاف أسير مسلم كانوا في سجونها، وغنم كثيرًا من الغنائم، حتّى بلغ نصيب الرجل الواحد ألف دينار، كما استولى على ستين مركبًا حمل عليها أسراهم وغنائمهم⁽³⁾، وبدورهم تناقل بعض المؤرخين عن الطّبري الرواية ذاتها، وإن اختلفوا معه في سرد بعض التفاصيل⁽⁴⁾، واستبدلوا أنطاليا البيزنطية بأنطاكية الإسلامية دون قصد⁽⁵⁾، ولمّا كان النقل هو العادة الدارجة عند جمهور المؤرخين، فعلى الأرجح أنّهم تناقلوا هذه الرواية عن بعضهم بعضًا دون تدقيق أو تمحيص، وهنا يقف المسعودي وحيدًا من بين المؤرخين المسلمين، ويؤكد صحة الرواية البيزنطية حول استهداف سالونيك، وإن كانت روايته خالية من أيّ تفاصيل باستثناء تاريخ هذه الحملة، وهوية قائدها لاون الشهير بغلام زرافة⁽⁶⁾. ومن الجدير بالذكر أنّ الرواية البيزنطية التي

(1) Finlay, pp. (318-319). غنيم، ص(195-196). تدمري، ص(108-109).

(2) غنيم، ص196. تدمري، ص109.

* أنطاليا: وتكتب أنطالية في المصادر الإسلامية، تقع في القسم الجنوبي من بلاد الأناضول، وهي مدينة ساحلية تشرف على مياه البحر المتوسط، كانت من أهمّ الموانئ البحرية والتجارية التي تربط بلاد المشرق الإسلامي بالغرب الأوروبي، وهي ذات أرض خصبة غنية بالمياه، وقد خضعت للحكم الإسلامي عام 603هـ/1207م بعد أن فتحها السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو الأول(600-607هـ/1203-1210م). يُنظر: الحميري، ص39. سورديل، ص(175-176). مؤنس، ص150.

(3) الطّبري، ج10، ص117.

(4) ابن سعيد القرطبي، ص15. ابن الجوزي، ج13، ص5. ابن الأثير، ج6، ص423. النويري، ج23، ص6. ابن خلدون، ج3، ص445. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص132. السيوطي، تاريخ، ص582.

(5) ابن الجوزي، ج13، ص5. ابن الأثير، ج6، ص423. النويري، ج23، ص6. الذهبي، سير، ج13، ص483. خلدون، ج3، ص445. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص132.

(6) المسعودي، التنبيه، ص153.

أتحتفتنا بها المراجع الحديثة تؤكد أنّ مدينة سالونيك دون غيرها هي مَنْ تعرّضت للهجوم الإسلامي الأعنف خلال هذه الحملة⁽¹⁾.

ويتّضح من خلال ذلك أنّ أغلب المصادر الإسلاميّة، بما فيها تاريخ الطّبري، قد أهملت تناول مجريات هذه الحملة، وأخفقت في تحديد هدفها، وخلطت بين أنطاليا وأنطاكية، وجعلتها مدينة واحدة، متجاهلة أنّ أنطاكية كانت حتّى ذلك التّاريخ ضمن دائرة الحكم الإسلامي، وأنّها بقيت كذلك حتّى انتزعها البيزنطيون سنة 359هـ/968م⁽²⁾، أمّا أنطاليا فقد نفت الرّواية البيزنطية أن تكون هي المقصودة في هذا الهجوم، وحاول الدكتور تدمري أن يجمع بين أنطاليا وسالونيك، موضحاً أنّ كلا المدينتين وقعتا ضمن دائرة الهجوم الإسلامي، وأنّ الطّبري المقيم ببغداد ذكر مدينة دون أخرى وفق ما انتهى إليه من معلومات، بخلاف المسعودي الذي استقى مادته من مصادره المباشرة خلال رحلته التي طاف بها في أرجاء المتوسط، والتقى خلالها عدداً من أمراء البحر المسلمين الذين كان من ضمنهم غلام زرافة بطل هذه الحملة⁽³⁾.

وبذلك تكون الرّواية البيزنطية قد تفوّقت على الرّواية الإسلاميّة بتغطيتها هذا الحدث، وكان في مقدّمة المصادر البيزنطية كتاب قهر سالونيك كما تسميه الدكتورّة إسّمت غنيم⁽⁴⁾، الذي كان من أكثرها إسهاباً، لمؤلفه يوحنا كامينيّاتي (John Kaminiates)، من سكان سالونيك، وكان من ضمن رجال الدين المقيمين في المدينة خلال هذه الحادثة، وقد قدّر له أن يقع في أسر المسلمين، فدوّن خلال فترة أسره تفاصيل هذه الحملة بقلم الشاهد الذي عاش الحدث بأبعاده كافّة⁽⁵⁾.

(1) Finlay, pp. (316-330). عمران، ص152. غنيم، ص(185-201). تدمري، ص(104-122). الشيخ، ص200.

رنسيّمان، ص178. فرحات، ص(148-183). عنان، ص(93-97). سالم؛ العبادي، ج1، ص56.

(2) ابن الأثير، ج7، ص318. الذهبي، العبر، ج2، ص(103-104). يُنظر أيضاً: غنيم، ص188.

(3) تدمري، ص101، ص103.

(4) غنيم، ص185.

(5) Finlay, pp. (328-330). غنيم، ص185. تدمري، ص104.

وفيما يتعلّق ببطل هذه الحملة، فقد اشتهر في المصادر الإسلامية بعدّة ألقاب، كان أبرزها غلام زرافة⁽¹⁾؛ وعلى الأرجح أنّ ذلك جاء نسبة إلى زرافة حاجب المتوكل على الله (ت. 252هـ/866م)*، الذي سبق له أن تولّى طرابلس في أثناء النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري/العاشر الميلادي خلال خلافة أحمد المستعين بالله*، ويبدو أنّ بطلنا نشأ في كنف هذا الوالي حتّى صار يُعرَف به⁽²⁾، وذكره الكندي برشيق الوردامي الشهير بغلام زرافة؛ وذلك حين أشار إلى مشاركته إلى جانب دميانة حينما سار بالأسطول العبّاسي إلى السواحل المصريّة لحرب الطّولونيّين⁽³⁾، وربما يشير هذا اللقب إلى مدى رشاقتة، أو إلى احمرار بشرته الشبيهة بلون الدم الوردى؛ ما يعطي دلالة على أصوله الأوروبيّة⁽⁴⁾، وبخصوص اسمه فقد ذكره المسعودي باسم لاون⁽⁵⁾، في حين ورد في المراجع الحديثة الناقلة عن المصادر البيزنطية باسم ليو⁽⁶⁾، ولاوون⁽⁷⁾، وليو الطرابلسي، وليون الطرابلسي⁽⁸⁾.

وينحدر ليو الطرابلسي من مدينة أنطاليا التي وُلِدَ فيها لأبوين نصرانيين، ثمّ شاعت الأقدار بعد ذلك أن ينتقل إلى طرابلس حيث اشتهر بها⁽⁹⁾، وعلى الأغلب أنّه أُسِرَ صغيراً خلال إحدى الحملات الإسلاميّة على سواحل جنوبي آسيا الصغرى، ثمّ حُمِلَ بعد ذلك إلى طرابلس، وكان ذلك بالتزامن

(1) الطّبري، ج 10، ص 117. المسعودي، التنبيه، ص 153. ابن سعيد القرطبي، ص 15. ابن الأثير، ج 6، ص 423. النويري، ج 23، ص 6. خلدون، ج 3، ص 445. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 132.
* زرافة حاجب المتوكل على الله: تولّى حجابة المتوكل على الله، وبعد مقتل الأخير انتظم في خدمة المستنصر بالله والمستعين بالله، وقد عهد له الأخير بولاية طرابلس، وكان لزرافة درب كبير في سامراء يُعرَف باسمه. يُنظر: تدمري، ص (78-81).

* أحمد المستعين بالله: بن محمد المعتصم بالله، أبو العباس، وُلِدَ عام 221هـ/836م، بويع بالخلافة بعد موت المنتصر بالله، ووقع تحت تأثير القادة الأتراك والحاشية، وفي محاولة منه للتخلص من نفوذ الأتراك ترك سامراء سنة 251هـ/865م، واتجه إلى بغداد، وحين فشل القادة الأتراك من إعادته بايعوا ابن عمه المعتز بالله، وما لبث أن دخلت الدولة في حالة صراع انتهت بانتصار الأخير، وأُجبر المستعين بالله سنة 252هـ/866م على خلع نفسه، وقُتِلَ بعد تسعة أشهر في محبسه. يُنظر: الذهبي، ج 6، ص (32-35). عمر، ص (70-71).

(2) تدمري، ص (78-80)، ص 82.

(3) الكندي، ص 245.

(4) تدمري، ص 82.

(5) المسعودي، التنبيه، ص 153.

(6) Finlay, p. 317. عمران، ص 152. تدمري، ص 93. فرحات، ص 183.

(7) رنسيما، ص 178.

(8) غنيم، ص 187. عنان، ص 193.

(9) Finlay, p. 317. تدمري، ص (81-82). عنان، ص 93.

مع ولاية زرافة الحاجب، ويبدو أنّ قدره ساقه إلى هذا الوالي، فنشأ في كنفه، واعتنق الإسلام، وراح يتدرّب منذ صباه على فنون القتال، ومع الوقت صار من أخصّ غلمان زرافة، وهذا ما يفسّر اشتهاره بهذا اللقب⁽¹⁾، ويرى فينلي أنّ ليو الطرابلسي ارتدّ عن المسيحية طوعاً، وذهب بعدها إلى طرابلس، واستقر فيها؛ وهذا يفسّر نعتة له بالقائد المرتد⁽²⁾، وكان قد تمرّس منذ نعومة أظفاره على القتال البحري، وأبدى همّة ونشاطاً منقطعاً النظير حتّى صار في غضون وقت قصير من أعظم البحّارة المسلمين في عصره، بل "أعظم بحّار مسلم على الإطلاق"⁽³⁾، ووُصِفَ بأنّه كان من أكثر الأدميرالات المسلمين نشاطاً ومهارة في عصره⁽⁴⁾، واستمرّ ليو الطرابلسي يجوب مياه المتوسط، ويهدّد السواحل البيزنطية إلى أن تعرّض سنة 313هـ/924م إلى هزيمة قاسية من البحرية البيزنطية، وأتت هذه الهزيمة على معظم أسطوله، وقُتِلَ معظم بحّارته، في حين تمكّن هو من النجاة بأعجوبة، ويبدو أنّ هذه الهزيمة حدّت من نشاطه البحري، ويُقدّر أنّ وفاته وقعت بين سنتي 313-318هـ/925-930م⁽⁵⁾.

وبخصوص سبب الحملة الإسلامية على سالونيك؛ ترى غنيم في مؤلّفها الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية أنّها جاءت رداً على الهزائم المتكررة التي ألحقتها البحرية البيزنطية بالمسلمين، خاصّة في ظلّ الخسائر الفادحة التي تعرّض لها الأسطول الإسلامي في جزيرة كريت⁽⁶⁾، ويُرجّح أيضاً أنّها كانت رداً على الحملة البيزنطية التي استهدفت ثغر الحدث في شعبان 291هـ/يوليو 904م⁽⁷⁾، وقد تكون هذه الغارة أحد الأسباب التي سارعت في البدء في إعداد هذه الحملة وتسييرها صوب السواحل البيزنطية. وفي حدود شهر شعبان 291هـ/يونيو 904م انطلق ليو بسفنه من طرابلس إلى طرسوس (يُنظر مسار الحملة: الملاحق، خريطة رقم 8)⁽⁸⁾، وعلى الأرجح أنّ طرابلس آنذاك كانت قد دخلت حديثاً ضمن النفوذ العبّاسي؛ بُعيد الحملة التي شنّها محمد بن سليمان

(1) تدمري، ص 82.

(2) Finlay, p. 317.

(3) عنان، ص 93.

(4) Finlay, p. 317.

(5) الطّبري، ج 10، ص 116. يُنظر أيضاً: تدمري، ص (129-130).

(6) غنيم، ص 185، ص 189.

(7) تدمري، ص (99-100).

(8) غنيم، ص 189. تدمري، ص 107.

على الطولونيين في بلاد الشام مع بداية رجب/مايو من هذا العام⁽¹⁾، ويُحتمل أن يكون تكليف ليو الطرابلسي بقيادة هذه الحملة صدر عن محمد بن سليمان الذي كان في حينها صاحب ديوان الجيش، أو قد يكون من دميانة قائد الأسطول العباسي الذي أثر البقاء في السواحل الشامية؛ للإشراف على حرب الطولونيين.

وبعد أن وصل ليو الطرابلسي إلى طرسوس انضمت إليه السفن الموجودة هناك، ثم سار الأسطول العباسي كاملاً وفي نيته شنّ حملة بحرية على الثغور البيزنطية، خاصة البحرية منها، وتكون هذا الأسطول من أربع وخمسين سفينة، في كلّ منها مئتا مقاتل، عدا عن القادة ونخبة البحارة، والتحق به أيضاً عدد من البحارة المسلمين الذين قدموا من الشرق؛ للمشاركة في هذه الحملة⁽²⁾، وينبغي هنا الإشارة إلى نقطة مهمة أكدتها الرواية البيزنطية، وهي مشاركة البحارة المصريين إلى جانب القوات الإسلامية في هذه الحملة⁽³⁾، ومن المستبعد أن يكون هؤلاء جزءاً من القوات النظامية للبحرية الطولونية؛ لأنه يستحيل أن يكون هناك أيّ تعاون مشترك بين البحرية العباسية والطولونية في وقت كانت قد أعلنت فيه الخلافة العباسية الحرب على الطولونيين، الذين كانوا أحوج إلى هذه القوات لتأمين ما تبقى من سواحلهم الشامية والمصرية من خطر الجيوش العباسية وأسطولها البحري، وعلى الأرجح أنّ هؤلاء البحارة المصريين كانوا غير نظاميين، يجوبون مياه المتوسط، ويتنقلون بين جزره الإسلامية، فوجدوا في الالتحاق في هذه الحملة فرصة لتعزيز نفوذهم، وتحسين ظروفهم الاقتصادية عن طريق ما يتحصلون عليه من الغنائم.

وسار الأسطول الإسلامي بمحاذاة السواحل البيزنطية مروراً ببحر إيجه حتّى شارف على مضيق الدردنيل (Dardanelles)، وخلال ذلك كانت قد تسرّبت أخبار هذا الأسطول إلى البلاط البيزنطي؛ غير أنّ الإمبراطور لم يُبدِ مسؤولية كافية في التعامل مع هذا الخطر الوشيك، وما زاد من هذا التخبّط حالة الضعف وعدم الجاهزية التي كان عليها الأسطول البيزنطي خلال هذه الفترة، وكان بإمكان الإمبراطور معالجة هذا النقص عن طريق الاستعانة بسفن الأسطول التجاري اليوناني؛ غير

(1) الطُّبري، ج 10، ص 116. ابن سعيد القرطبي، ص 14. ابن الأثير، ج 6، ص 423.

(2) Finlay, p. 318. تدمري، ص 107. عنان، ص 94.

(3) Finlay, p. 324. غنيم، ص 198. تدمري، ص 108. عنان، ص 96.

أنّ عدم جدية الأخير في مساعيه، والتي تزامنت أيضاً بعدم وجود رغبة لدى التجار اليونانيين في تقديم أيّ دعم للقوات البيزنطية، حال دون قيام أيّ تعاون بحري مشترك بين كلّ من البحرية البيزنطية والبحارة اليونانيين، الذي كان من شأنه -لو تحقّق- أن يلعب دوراً مهماً في التصدي للحملة الإسلامية⁽¹⁾.

وفي ظلّ هذا الموقف لم يجد الإمبراطور بُدّاً من حشد ما قدر عليه من القوات البحرية، وزوّد القائد يوستاثيوس أرجيروس (Eustathios Argyros) بعدد من السفن؛ لمواجهة الخطر الإسلامي، غير أنّ الأخير فضّل الانسحاب وعدم الاشتباك مع الأسطول الإسلامي ذي العدد الكبير من السفن، وارتدّ نحو ضفاف الدردنيل، إلّا أنّ ليو الطرابلسي استمرّ في ملاحقته إلى باريوم (Parium)*، وبعد أن تأكّد للأخير خروجه من الدردنيل هاجم مدينة أبيدوس (Abydos)**⁽²⁾ التي كانت وقتذاك الميناء الرئيس للسفن القادمة من المضيق باتجاه القسطنطينية ذهاباً وإياباً⁽³⁾، وبعد أن سيطر على أبيدوس باتت الطريق مفتوحة أمامه لحصار القسطنطينية، وعلى نحو غير متوقّع انسحب الأسطول الإسلامي من المضيق، وسار غرباً بمحاذاة السواحل قاصداً مدينة سالونيك⁽⁴⁾.

ويبدو أنّ ليو الطرابلسي أدرك صعوبة إخضاع العاصمة البيزنطية القابضة في عمق استراتيجي ممتاز، وتتمتّع بحصانة فاقت بكثير غيرها من المدن البيزنطية، وحتى يكون الحصار ذا جدوى أدرك الأميرال المسلم أنّه بحاجة إلى إحكام قبضته على المدينة من جهة البر والبحر، وهذا لا يتأتّى إلّا في ظلّ وجود جيش بري⁽⁵⁾، وفي تلك الأثناء عاد يوستاثيوس بأسطوله إلى القسطنطينية، في الوقت

(1) Finlay, p. 318. تدمري، ص 107.

* باريوم: مدينة ساحلية تقع على السواحل الجنوبيّة لبحر مرمرة من جهة مضيق الدردنيل. يُنظر: غنيم، ص 190.
** أبيدوس: مدينة ساحلية تشرف على مضيق الدردنيل، وهي إلى الغرب من باريوم، ويقال: إنّ مسلمة بن عبد الملك (ت. 120هـ/738م) حفر فيها عين ماء في أثناء حصاره للقسطنطينية 98-101هـ/717-719م. يُنظر: غنيم، ص 190.
تدمري، حاشية ص (107-108).

(2) Finlay, pp. (318-320). غنيم، ص 189، ص 193. تدمري، ص (107-108).

(3) تدمري، ص (107-108).

(4) غنيم، ص 193. تدمري، ص 108.

(5) غنيم، ص 193.

الذي كان فيه ليو الطرابلسي سيهاجم سالونيك، بعد الانطلاق من جزيرة ثاسوس (Thasos)*⁽¹⁾، فبعد أن مكث في هذه الجزيرة لبعض الوقت؛ عمل خلال ذلك على إعداد قواته، وتأكد من جاهزيتها العسكرية؛ استعداداً لشنّ الهجوم المقبل على سالونيك⁽²⁾، وفي أثناء ذلك انضمت إليه عدد من السفن الإسلامية القادمة من جزيرة كريت، التي كان من ضمنها عدد من السفن المصرية، وبذلك يكون قد اجتمع لليو الطرابلسي أسطول كبير تحت إمرته⁽³⁾.

وخلال ذلك قام الإمبراطور ليو السادس بتوجيه القائد بتروناس (Petronas) إلى سالونيك؛ حتى يتخذ ما أمكنه من التدابير التي تساعد في النهوض بواقع المدينة اللوجستي والعسكري الهش؛ ما من شأنه تعزيز قدراتها الدفاعية؛ للوقوف في وجه هذا الهجوم الإسلامي وردّه، وعندما وصل إليها أدرك أنّ الوقت غير كافٍ لترميم الأسوار، فجمع ما توفّر له من الحجارة الضخمة وشواهد القبور، وطرحها في البحر على مقربة من الرصيف؛ حتى يتسنى له إعاقة حركة الأسطول الإسلامي في أثناء اختراقه للمياه المحاذية للمدينة؛ ما سيحدّ من حركته، ويجعله مكشوفاً للدفاعيين الذين سيمطرونه بالقذائف والنيران الإغريقية*، وفيما يتعلّق بأهالي سالونيك؛ فقد غفلوا عن حجم الخطر المحدق بهم، ومنحوا ثقّتهم المطلقة بالقديس ديمتريوس دون غيره، واعتبروه المخلص الوحيد لهم من هذا الخطر، وبذلك لم يبدو أيّ اهتمام بتدابير القائد بتروناس⁽⁴⁾.

ولم يمضِ وقت طويل على شروع بتروناس بالبدء بإجراءاته، حتى عيّن الإمبراطور قائداً جديداً للمدينة يدعى ليو (Leo)، وما إن وصل إليها حتى تجاهل إجراءات بتروناس، وبدأ بإصلاح الأسوار وترميمها وزيادة ارتفاعها⁽⁵⁾، فأمر بانتشال القطع الحجرية التي ألقتها بتروناس في المياه المحاذية

* جزيرة ثاسوس: تقع إلى الشرق من شبه جزيرة كاساندر. يُنظر: تدمري، ص 323.

(1) تدمري، ص 108.

(2) Finlay, p. 321. تدمري، ص 108.

(3) تدمري، ص 108.

* النار الإغريقية: خليط سائل يتكوّن من مواد شديدة الاشتعال، ويدخل في تركيبته الكبريت والقار والفحم ووبر الكتان، وقد أُضيف إليه في حقبة الحروب الصليبية ملح البارود، وزيت الترننتين، والشحم، ناهيك عن غيرها من المواد، وكانت تُستخدَم في المعارك البرية والبحرية على حدّ سواء، وتُعدّ من أفنك الأسلحة التي عرفتها العصور الوسطى. يُنظر: عنان، ص (124-129).

(4) Finlay, p. 319. غنيم، ص 196. تدمري، ص (109-110). عنان، ص 95.

(5) Finlay, p. 320. غنيم، ص 196. تدمري، ص (110-111).

للمدينة؛ لاستخدامها في ترميم الأسوار⁽¹⁾، وفي التزامن مع ذلك وصل القائد نيكيتاس (Niketas)؛ ما زاد من حالة التخبط والإرباك داخل المدينة، وعلى نحو غير متوقع تعرّض ليو لإصابة بالغة إثر سقوطه عن حصانه في أثناء تفقّده للتحصينات التي شرع بها، وتلقائياً تولّى نيكيتاس قيادة المدينة، وأصبح المسؤول عن إعداد خططها الدفاعية، ويبدو أنّه كان يمتلك خبرة عسكرية أكثر من سابقه؛ فقد أيقن ضعف الفرق الدفاعية التي كوّنّها قسم من الأهالي؛ للدفاع عن المدينة، وعدم جاهزيتها، ورأى أنّ الوضع يقتضي ضرورة الاستعانة بعساكر نظاميين، فلجأ إلى الصقالبة حلفاء الإمبراطورية البيزنطية، وطلب دعم حاكم مقاطعة ستريمون (Strymon)*، غير أنّ الإهمال والحسد حمل الأخير على رفض طلب نيكيتاس على الرغم من تهديده له بأنّه سيُطلع الإمبراطور على حقيقة هذا الموقف المتخاذل، إلّا أنّه لم يُبدِ أيّ اكتراث بهذه التهديدات، وبذلك فشلت خطة نيكيتاس بتعزيز قوة الحامية العسكرية، ولم يجد مفرّاً من الاستعانة بما توفّر له من الصقالبة المجهّزين تجهيزاً سيئاً ممّن كانوا يقيمون في محيط المدينة⁽²⁾.

ويُتّضح لنا من خلال ذلك أنّ الإدارة البيزنطية قد ارتكبت خطأ فادحاً في تنظيم العملية الدفاعية؛ وذلك بإرسالها لعدد من القادة الذين أسدت لهم مهمّة الإشراف على هذه العملية، وكمّنت الخطورة بأنّ كلّ قائد جديد كان يتبع خطة دفاعية مختلفة، ناسفاً بذلك أعمال سلفه؛ ما أحدث حالة من التخبط في التنفيذ، والفشل في تحقيق أيّ إنجازات عملية من شأنها تعزيز قدرات المدينة اللوجستية والعسكرية، للتمكّن من الصمود في وجه هذا الخطر المحدق.

وبالتزامن مع ذلك، كان ليو الطرابلسي قد غادر جزيرة ثاسوس، ويبدو أنّ الإمبراطور حاول خلال ذلك منع الأسطول الإسلامي من التقدم إلى سالونيك، وأسند مهمة التنفيذ إلى القائد هيميريوس (Himerius)، غير أنّ الأخير عجز عن اللحاق بالقوات الإسلامية، ورجع من حيث أتى⁽³⁾، وواصل الأدميرال المسلم تقدّمه مروراً بشبه جزيرة كاساندرًا مجتازاً رؤوسها الثلاثة، ثمّ اقترب من رأس الخليج المُطلّ على المدينة، ومع اقتراب الخطر كثّف الأهالي من تضرّعهم للقديس ديميتريوس؛ لدفعه،

(1) Finlay, p. 320.

* سترمون: تقع على ساحل مقدونيا إلى الشمال من شبه جزيرة خلقيدية. يُنظر: غنيم، حاشية ص 197.

(2) Finlay, pp. (320-321). غنيم، ص (196-197). تدمري، ص (111-112).

(3) غنيم، ص 193.

وحتّى ينالوا رضاه، نظّموا موكباً ضخماً شارك فيه الأهالي ورجال الدين، وسار في مقدمتهم مطران سالونيك، وأدّوا الصلوات في كنيسة القديس ديمتريوس؛ أملاً في رفع هذا الخطر عنهم⁽¹⁾.

وفي صباح يوم الأحد الثالث عشر من رمضان 291هـ/التاسع والعشرين من يوليو 904م، وصل الأسطول الإسلامي إلى رأس الخليج المطل على المدينة، وبسرعة كبيرة انتشر الخبر في سالونيك، التي علت فيها صرخات العويل والنحيب، وبادر الأهالي إلى الانضمام إلى الفرق المدافعة عن المدينة، ولم يمضِ وقت طويل حتّى بدأت طلائع السفن الإسلاميّة تتكشف لهم، ومع حلول الظهر رست بالقرب من المدينة، وكان مدخل الميناء مغلقاً بوساطة السلسلة الحديدية الممتدة على جانبي الرصيف، التي طُرِحَ أمامها مجموعة من الأوتاد الحجرية؛ لمنع السفن من الاندفاع نحوها، وبدوره تفحص ليو الطرابلسي تحصينات بتروناس غير المكتملة، فعرف مواطن القوة والضعف، وأدرك أنّه يستطيع الاقتراب من المدينة من جهة الرصيف والميناء، وحين انتهى من جولته الاستطلاعية، أمر قواته بشنّ هجوم متقطع على المدينة؛ حتّى يقف من خلاله على ردّة فعل العدو، ويختبر جاهزيته الدفاعية⁽²⁾.

وشنّت البحرية الإسلاميّة في اليوم الثاني هجوماً قوياً على أسوار المدينة، وتحت غطاء من قذائف المنجنيقات وسهام الرماة نفذت القوات الإسلاميّة إنزالاً ناجحاً على الشواطئ، وحاولت اقتحام المدينة من جهة السور الشرقي، عبر استهداف بوابة روما بوساطة سبعة من الدبابات التي سبق أن صنعوها خصيصاً لهذا الغرض خلال إقامتهم في ثاسوس، وتحت الغطاء الذي وفّره لهم هذا الدبابات حاولوا تسلّق الأسوار بوساطة السلالم، غير أنّ استبسال المدافعين أحبط هذه المحاولة، وفي مساء اليوم نفسه بدّل ليو الطرابلسي من خطّته الهجومية، وقرّر اقتحام المدينة عن طريق إحراق بوابتي روما وكاسندرا؛ ولتنفيذ هذه الخطّة جهّز عدّة عربات مملأها بالخشب الجافّ المطليّ بالزفت والكبريت، وحتّى يحول دون إحراق المدافعين لها قبل وصولها إلى هدفها، غطّى سطوحها، وجزّها على يد عدد من المقاتلين المدججين بالدروع، وحين اقتربوا من هدفهم أحرقوها، ودفعوها إلى البوابات، ثم انسحبوا بسرعة، واشتعلت النيران حالاً في البوابات، وبدأت الخطّة وكأنها تسير وفق المطلوب، وأخذ الحديد

(1) Finlay, p. 321. تدمري، ص12.

(2) Finlay, pp. (320-321). غنيم، ص197. تدمري، ص112.

ينصهر بفعل الحرارة العالية، وما إن خمدت النيران حتّى انكشفت للمسلمين بوابات داخلية من الحجارة خلف كلّ بوابة، وبالتالي لم يحقق هذا الهجوم أيّ جديد بالنسبة للقوات الإسلامية المهاجمة⁽¹⁾.

ويبدو أنّ هدف ليو الطرابلسي من المحاولة السابقة كان صرف أنظار المدافعين عن خطّته الرئيسة والرامية إلى اقتحام المدينة عن طريق امتطاء جنّبات السور المتهالكة من جهة الميناء، وكان قد سبق له أن استطلع تحصينات المدينة، وحدّد بدقّة النقاط المستهدفة التي يمكن من خلالها تنفيذ خطّته، وبات الفريقان ليلتهم الثّانية في حالة تأهب؛ فقد انتشرت فرق الحراسة الليلية من جانب الأهالي على طوال السور، في حين أخذ ليو الطرابلسي يشرع في إعداد خطّته، وحرص أن يتمّ ذلك على وجه من السريّة، وحتّى لا يقف العدو على تفاصيل خطّته عمد إلى اصطناع ضجة كبيرة على مراكبه طغى عليها صراخ البحّارة العرب والأحباش، ويبدو أنّه هدف من ذلك أيضاً إلى التأثير على معنويات المدافعين وإرهابهم، وحتّى يتسنى لقواته تسلّق السور بسهولة؛ ربط مركّبين معاً بإحكام، وشيّد فوقهما برجاً خشبياً يتّسع لعدد قليل من الجنّد، وأتاح ارتفاع هذا البرج لراكبيه الإشراف على السور، وامتطائه بسهولة، وعلى هذه الشاكلة أعدّ مجموعة من المراكب، ووجدت هذه المراكب طريقها إلى الميناء، مستغلّة العمق المائي الموجود في بعض المناطق، والذي يسمح لها بالاقتراب من السور لأكبر قدر ممكن، بل حتّى ملاصقته⁽²⁾.

ومع بزوغ الفجر تفاجأ المدافعون بالأبراج الخشبية المصطفّة على جنّبات السور، التي كانت ترتفع بنحو أعلى منهم، وفور التصاق هذه المراكب بالسور اندلع القتال بين الطرفين، ويبدو أنّ ارتفاع دكّة الأبراج ضمن التفوق للمهاجمين الذين انهالوا بوابل من النيران والسهم صوب المدافعين الذين لم يقدرُوا على الحدّ من شراسة الهجوم الإسلامي، حيث لم يكن لهم خيار سوى الانسحاب بسرعة، تاركين أماكنهم هدفاً يسهل نزول القوات الإسلامية إليه، التي أخذت تعبر شيئاً فشيئاً نحو ممشى السور، وكان بحّارة الإسكندرية هم أول من صعد إلى السور، ثمّ انطلقوا فوراً صوب البوابات وفتحوها أمام المهاجمين الذين تدفّقوا بقوة إلى داخل المدينة؛ وإثر ذلك هُزمت فرق المقاومة الشعبية، في حين

(1) Finlay, pp. (322-323). غنيم، ص(197-198). تدمري، ص(113-114). عنان، ص95.

(2) Finlay, pp. (323-324). تدمري، ص(114-115). عنان، ص(95-96).

فرّ الصقالبة بسرعة عبر إحدى بوابات القلعة التي أعدّوها مسبقاً لهذا الغرض⁽¹⁾، وحاولت بقايا القوات البيزنطية اعتراض المقتحمين، إلّا أنّهم تلقّوا هزيمة قاسية، وبذلك يكون المسلمون قد قضوا على آخر محاولة مبذولة للمقاومة من داخل مدينة سالونيك⁽²⁾.

وفور دخول المسلمين إلى المدينة قسّموا أنفسهم إلى مجموعتين⁽³⁾، وفي تلك الأثناء ساد الذعر والهلع في أوساط الأهالي الذين تدفّقوا بقوة إلى إحدى بواباتها؛ أملاً في الهروب من المصير المحتوم الذي ينتظرهم، ونتج عن ذلك ازدحام كبير أعاق فتح البوابة، ومع توافد مزيد تدافع السكان على بعضهم بعضاً، قُتل كثير منهم جرّاء ذلك؛ ما سهّل من مهمّة المقتحمين الذين شرعوا في أعمال القتل والأسر والنهب، وخلال ذلك تعرّض مؤرخنا يوحنا كامينيّاتي للأسر، واستطاع أن يحافظ على حياته وحياة عائلته؛ بعد أن تعهّد لآسريه الأحباش بأنّه سيفتدي حياته وحياة مَنْ معه مقابل كشفه لهم عن مكان كنز مدفون تملكه عائلته، وكان من ضمن الأسرى الذي لقيهم نيقّتاس قائد الحامية العسكريّة في سالونيك، وليو المبعوث الثّاني من الإمبراطور إلى المدينة، وردوفيل (Rodophyles)⁽⁴⁾ رسول الإمبراطور ليو السّادس؛ الذي كان قد أرسل معه مئة باوند من الذهب ليحملها إلى جيشه المتواجد في إيطاليا⁽⁵⁾. وتجدر الإشارة إلى أنّ الرّواية البيزنطية لم تذكر شيئاً عن عدد الأسرى المسلمين الذين أنقذوا من سجون المدينة، والذين قدرتهم المصادر الإسلاميّة بنحو أربعة آلاف⁽⁶⁾.

ومكث الأسطول الإسلامي في سالونيك مدة عشرة أيام؛ جمع المسلمون خلالها ما أمكنهم من الغنائم والأسلاب، ومن ناحية أخرى، يقدر يوحنا كامينيّاتي عدد الأسرى المسيحيين باثنين وعشرين ألفاً، فضلاً عن عدد كبير من الأسرى الذين ماتوا بفعل الظروف السيئة التي عاشوها في السفن خلال

(1) Finlay, p. 324. تدمري، ص115. عنان، ص96.

(2) غنيم، ص198.

(3) Finlay, p. 324.

(4) Finlay, pp. (324-326). تدمري، ص116.

(5) Finlay, p. 326.

(6) الطّبري، ج10، ص117. ابن سعيد القرطبي، ص15. ابن الجوزي، ج13، ص5. ابن الأثير، ج6، ص423. النويري، ج23، ص6. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص132.

رحلة العودة إلى كريت⁽¹⁾، في حين جاءت التقديرات الإسلامية أقل بكثير؛ حيث ذكرت أنّ عددهم بلغ خمسة آلاف رجل⁽²⁾، وفي ظلّ هذا البون الشاسع يُحتمل أن تكون المصادر الإسلامية قد تطرّقت إلى حصة الأسطول العباسي دون غيره من الأساطيل الإسلامية التي شاركت في هذه الحملة. ومن الجدير بالذكر أنّ المسلمين أطلقوا سراح عدد من الأسرى ممّن افتداهم أهلهم وأصدقائهم بالمال، وثُبِّق كذلك مع سايمون (Simeon) مبعوث الإمبراطور على أن يُطلق ليو الطرابلسي سراح منّي أسير مقابل تعهّد سايمون بإرسال عدد مساوٍ لهم من الأسرى المسلمين إلى طرسوس، وخلال هذه الفترة نجح ليو الطرابلسي بالظفر بكنز ردوفيل الذي فضّل الموت على أن يكشف مكانه، غير أنّ القائد ستريمون (Strymon) المؤتمن على هذا الكنز أفشى سره إلى الأدميرال المسلم؛ خوفاً من التهديدات التي أطلقها الأخير بحرق المدينة إن لم يُسلم له هذا الكنز⁽³⁾.

ومما يثير الاستغراب أنّ الإمبراطور البيزنطي لم يقم بأيّ محاولة لاسترداد سالونيك من القوات الإسلامية طوال عشرة أيام التي مكثتها في المدينة، والظاهر أنّ المسلمين لم يهدفوا من وراء هذه الحملة اقتطاع سالونيك من الدولة البيزنطية، وضمّها إلى دائرة النفوذ الإسلامي، وأنّ هدفهم كان يتلخّص في توجيه ضربة انتقامية سريعة ضدّ إحدى قواعد البحرية البيزنطية؛ وذلك ردّاً على غاراتها المتكررة على الثُغور الإسلامية البرية منها، والبحرية⁽⁴⁾، ولعلّ موقع سالونيك الواقع في عمق دائرة النفوذ البيزنطي جعل مهمّة إلحاقها في الحكم الإسلامي، أو حتّى الحفاظ عليها لفترة أطول أمراً مستبعداً، بل ومستحيلاً؛ كون ذلك يتطلب إعداد خطة متكاملة الجوانب كفيلة بتوفير عمق استراتيجي للقوات الإسلامية التي ستقيم في المدينة، وتؤمن في الوقت نفسه استمرارية تدفّق الدعم اللوجستي لها، وبالتالي تمكينها من مجابهة الإمبراطورية البيزنطية في عقر دارها.

⁽¹⁾ Finlay, p. 327.

غنيم، ص 199. تدمري، ص 118. عنان 96.

⁽²⁾ الطبري، ج 10، ص 117. ابن سعيد القرطبي، ص 15. ابن الأثير، ج 6، ص 423. النويري، ج 23، ص 6. خلدون، ج 3، ص 445. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 132.

⁽³⁾ Finlay, pp. (326-327). تدمري، ص 117.

⁽⁴⁾ غنيم، ص (199-200).

وقبل أن يفیق الإمبراطور البيزنطي من هول الصدمة، قرّر ليو الطرابلسي مغادرة سالونيك بعد أن مضى على اقتحامها عشرة أيام، وانطلق الأسطول الإسلامي ومعه المراكب البيزنطية التي تحصّل عليها خلال هذه الحملة، ونقلًا عن يوحنا كامينيائي فإنّ السفينة التي نقلته حمل على متنها ثمانمئة أسير وُضِعوا جميعاً في الطابق السفلي، وكان أغلبهم من الرجال والنساء والأطفال الذين ينتمون إلى الطبقة الراقية، وحرص ليو الطرابلسي في أثناء عودته على الابتعاد عن السواحل والجزر البيزنطية؛ تفادياً لحدوث أيّ صدام معهم؛ فقد كانت السفن تعجّ بالأسرى، ويستحيل معها الدخول في أيّ مواجهة مع العدو⁽¹⁾، واستغرقت رحلة العودة وصولاً إلى جزيرة كريت قرابة الأسبوعين⁽²⁾، وسار الأسطول الإسلامي دون توقّف حتّى وصل إلى جزيرة باثموس (Pathmos) إحدى جزر بحر إيجه، وهناك مكث ستّة أيام رحل بعدها إلى جزيرة ناكسوس (Naxos) التي كانت أيضاً من ضمن جزر بحر إيجه، حيث أقام هناك مدّة يومين، وكانت كلا الجزيرتين تدينان بالتبعية لجزيرة كريت الإسلاميّة؛ ولعلّ ذلك هو ما يفسّر سبب اختياره لهما، ثمّ تابع الأسطول مسيره حتّى نزل في جزيرة ديا الواقعة إلى الشّمال الغربي من جزيرة كريت⁽³⁾، وخرج جميع أهالي كريت لاستقبال القوات الإسلاميّة، وقد عبروا عن عظيم فرحتهم بهذا الانتصار الكبير، بدقّ الطبول، والنفخ في الأبواق، وأخذت النساء يُطلقن الزغاريد، والأطفال يرددون الأهازيج⁽⁴⁾.

ويبدو أنّ ميناء جزيرة ديا (Dia) وفّر الظروف الملائمة لاقتسام الغنائم بين القوات المشاركة في هذه الحملة، واستغرقت عمليّة التوزيع ثلاثة أيام، وبعدها تفرّقت قطع الأسطول الإسلامي، ورحلت كلّ إلى وجهتها ومينائها الذي انطلقت منه، وسار الأسطول العبّاسي باتجاه السواحل الشّامية، وقُدّر ليوحنا كامينيائي أن يكون هو وبعض أفراد عائلته من نصيب هذا الأسطول، وطراً في أثناء رحلة العودة حادث خطير كاد أن يؤدي بحياة عدد كبير من الأسرى البيزنطيين؛ وذلك بعد أن شارفت سفينتهم على الغرق، وعلى الرّغم من بشاعة الصورة التي رسمها الأخير عن ليو الطرابلسي خلال اقتحامه لسالونيك، إلّا أنّه أشاد خلال حديثه عن هذا الموقف بنبله وإنسانيته، بعد أن قرّر نقل

(1) Finlay, p. 327. تدمري، ص(117-118).

(2) تدمري، ص117.

(3) Finlay, p. 327. غنيم، ص200. تدمري، ص(117-118).

(4) غنيم، ص201.

الأسرى البيزنطيين إلى سفينته التي كانت تعجّ بركابها، معرضاً بذلك حياته وطاقمه للخطر؛ بسبب الحملة الزائدة، وأثار هذا التصرف إعجاب كلّ من القائدين ليو ونيقتاس، وما لبث أن وصل الأسطول إلى سواحل قبرص، وهناك أقام لبضعة أيام عمل خلاله ليو الطرابلسي على ترميم الأضرار، ثمّ تابع طريقه صوب السواحل الشّامية، وفي الأوّل من ذي القعدة 291هـ/الرّابع عشر من سبتمبر 904م وصل الأسطول إلى طرابلس، وبعدها نقل الأسرى إلى طرسوس، حتّى يتمّ مبادلتهم في الفداء القادم⁽¹⁾، وفي أثناء ذلك كتب يوحنا كامينيّاتى مؤلّفه عن اقتحام سالونيك، ويبدو أنّه مكث مدّة عام واحد في الأسر؛ حيث أطلق سراحه في الفداء الذي وُقّع عام 292هـ/905م⁽²⁾، وفيما يتعلّق بليو الطرابلسي، فعلى الأرجح أنّه لم يعدّ إلى طرسوس، وظلّ في طرابلس، حيث انضمّ بناءً على أوامر محمد بن سليمان - إلى أسطول دميانة المَنوي إرساله إلى السواحل المصريّة؛ للمباشرة في استعادة مصر من الطّولونيين⁽³⁾.

ويَتَضَحّ ممّا سبق أنّ المسلمين قد تمكنوا من خلال هذه الحملة، التي تجلّى فيها التعاون البحري المشترك، والنّشاط الاستخباري الذي لعب دوراً كبيراً في تحقيق النصر، من توجيه ضربة قاسية للإمبراطورية البيزنطية⁽⁴⁾؛ فقد وُصِفَت هذه الحملة بأنّها كانت من أكبر المآسي التي تعرّضت لها عبر تاريخها الطويل، ولم تقتصر نتائج هذه الحملة على علاقة بيزنطة بالمسلمين، بل تعدّتها إلى علاقتها مع جيرانها الآخرين؛ فقد حطّت هذه الهزيمة من هيبتها في نظر أعدائها⁽⁵⁾، وبالمقابل، نبّهت هذه الحملة الإمبراطورية البيزنطية إلى ضرورة زيادة تحصيناتها في سالونيك وسائر ثغورها البحرية، وتعزيز قدراتها العسكريّة، خاصّة البحرية منها، عن طريق الشروع بتدابير فعّالة لتقوية أسطولها البحري؛ حتّى يستطيع تأمين شواطئها، وليكون قادراً في الوقت نفسه على تهديد السواحل الإسلاميّة، وتدمير أساطيلها البحرية⁽⁶⁾. أخيراً، أثبتت وقائع هذه الحملة أنّ قادة الأسطول الإسلامي

(1) Finlay, pp. (327-329). تدمري، ص(118-120).

(2) تدمري، ص(121-122).

(3) الكندي، ص245.

(4) Panayiotou, p. 342.

(5) غنيم، ص201.

(6) Finlay, p. 329. عمران، ص152. تدمري، ص122.

وجنوده ليسوا "قراصنة، أو برابرة متعطّشين للدماء"، كما وصفتهم كتابات الكنيسة والمصادر البيزنطية، بل كانوا جزءاً من أسطول نظامي، يتحلّى أفرادها بأخلاقيات الحرب⁽¹⁾.

وعلى الرّغم من حالة العداء التي سادت العلاقات الإسلاميّة البيزنطية خلال عهد المكتفي بالله، إلّا أنّ ذلك لم يمنع قيام علاقات سياسية ومفاوضات بين الطرفين، تمحور معظمها حول عمليّات فداء الأسرى؛ ففي عام 290هـ/903م، كلّف الخليفة واليه الجديد على النُّعُور أبا العشائر أحمد بن نصر العقيلي بحمل مجموعة من الهدايا إلى الإمبراطور البيزنطي ليو السادس⁽²⁾، ولا يُعرَف على وجه الدقة سبب ذلك؛ غير أنّه من المؤكد أنّ بغداد شهدت في العام نفسه قدوم سفارة من الإمبراطور البيزنطي، تشتمل على مجموعة من الأسرى المسلمين؛ بهدف عقد فداء بين الطرفين، وأبدى المكتفي بالله بدوره موافقته الكاملة على ما عُرضَ عليه، وزاد على ذلك بأن خلع على رسل الإمبراطور وأكرمهم⁽³⁾، ومن خلال ذلك يُحتمل أن تكون هذه السفارة البيزنطية ردّاً على سفارة المكتفي بالله السابقة، ويبدو أنّ هذه المباحثات لم يتمخّض عنها أيّ نتائج ملموسة على أرض الواقع، فسرعان ما تازّمت العلاقات بين الطرفين، بعد أن شنّ كلّ منهما حملات عسكريّة على أراضي الطرف الآخر.

وفي الرّابع والعشرين من ذي القعدة 292هـ/السابع والعشرين من سبتمبر 905م، عُقدَ فداء بين الخلافة العبّاسيّة والإمبراطورية البيزنطية⁽⁴⁾، في اللامس*، واستمرّ هذا الفداء لمدة أربعة أيام⁽⁵⁾، وقُدِّرَ عدد منْ فُدي من أسرى المسلمين بألف ومئتين⁽⁶⁾، وقيل: ألف ومئة وخمسة وخمسون⁽⁷⁾، ثمّ غدر

(1) Panayiotou, p. 343.

(2) الطُّبري، ج 10، ص 97. ابن العديم، ج 3، ص 25.

(3) الطُّبري، ج 10، ص 107.

(4) الطُّبري، ج 10، ص 120. المسعودي، التنبيه، ص 163. المسعودي، مروج، ج 4، ص 222. ابن سعيد القرطبي، ص 17.

ابن الجوزي، ج 13، ص 33. ابن الأثير، ج 6، ص 425. المقرئ، الخطط، ج 3، ص 336.

* اللامس: نهر يقع إلى الشّرق من طرسوس، وقيل: إنّ قرية تقع على شاطئ البحر المتوسط إلى الشّرق من طرسوس، وتبعد عنها مسافة خمسة وثلاثين ميلاً، وعلى الأرجح أنّ هذه البلدة كانت تقع على هذا النهر، وأنّها عُرِفَتْ به، وقد شهدت هذه المنطقة عبر التاريخ الوسيط إنجاز كثير من عمليّات الفداء بين البيزنطيين والمسلمين. يُنظر: المسعودي، التنبيه، ص 160.

الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 8. الجوزي، ص 198.

(5) المسعودي، التنبيه، ص 163. المقرئ، الخطط، ج 3، ص 336.

(6) الطُّبري، ج 10، ص 120. ابن سعيد القرطبي، ص 17. ابن الجوزي، ج 13، ص 33. ابن الأثير، ج 6، ص 425. النويري، ج 23، ص 7.

(7) المسعودي، التنبيه، ص 163. المسعودي، مروج، ج 4، ص 222. المقرئ، الخطط، ج 3، ص 336.

البيزنطيون بالمسلمين، وهاجموا ثغر مرعش، فتوقّف الفداء ولم يكتمل⁽¹⁾، فعُرفَ باسم فداء الغدر⁽²⁾، وتجدر الإشارة إلى نقطة مهمة، وهي تاريخ انعقاد هذا الفداء؛ فقد أكدت المصادر الإسلامية أنّ عدم استكمال هذا الفداء راجع إلى الهجوم الذي شنّه البيزنطيون على مرعش⁽³⁾ في محرم 292هـ/نوفمبر 904م⁽⁴⁾؛ ما دفع الخليفة إلى عزل والي الثُّغور أبي العشائر، وتعيين رستم بن بردوا بدلاً عنه؛ كونه المسؤول عن ترتيب إجراءات الفداء⁽⁵⁾، وقد تسلّم الوالي الجديد مهامّه في منتصف شوال 292هـ/الربيع الأخير من أغسطس 905م⁽⁶⁾، وفي المقابل تُصِرّ المصادر على أنّ هذا الفداء شُرِعَ به في ذي القعدة 292هـ/سبتمبر 905م، وأنّه كان السبب في عزل أبي العشائر، وتعيين ابن بردوا، ونستنتج من خلال ذلك حدوث أخطاء في رصد تاريخ انعقاد هذا الفداء وما تخلّله من أحداث، وأنّ وقوعه كان بين نهاية سنة 291هـ وبداية السنة الجديدة.

وتحت وطأة الحملات العسكريّة التي شنتّها الدّولة العبّاسيّة على ثغور الإمبراطورية البيزنطية خلال السنوات الأخيرة من خلافة المكتفي بالله؛ فقد أرغم الإمبراطور البيزنطي ليو السّادس⁽⁷⁾ على إيفاد سفارة إلى بغداد في سنة 294هـ/907م لطلب موافقة الخليفة على عقد فداء بينهما، وكانت هذه السفارة على مستوى عالٍ، حيث تخلّلتها مشاركة شخصيات من البلاط البيزنطي، وكان برفقتهم عشرة من أسرى المسلمين، ولعلّ ذلك يعكس جدية الإمبراطور في مساعيه، وعرضوا على الخليفة أن يبعث مندوباً إلى الأراضي البيزنطية؛ بهدف إحصاء أسرى المسلمين، وفي المقابل يقيم أحد أفراد هذه السفارة في طرسوس منتظراً قدوم أسرى المسلمين إليه، فوافق الخليفة على ذلك⁽⁸⁾، وأنجز هذا

(1) الطُّبري، ج 10، ص (118-120). ابن الأثير، ج 6، ص 425. ابن العديم، ج 3، ص (1183-1184). ابن خلدون، ج 3، ص 445.

(2) المسعودي، التنبيه، ص 163. المسعودي، مروج، ج 4، ص 222. المقرئ، الخطط، ج 3، ص 336.

(3) الطُّبري، ج 10، ص (118-120). ابن الأثير، ج 6، ص 425. ابن العديم، ج 3، ص (1183-1184). ابن خلدون، ج 3، ص 445.

(4) الطُّبري، ج 10، ص 118. ابن العديم، ج 3، ص 1183.

(5) الطُّبري، ج 10، ص (118-120). ابن الأثير، ج 6، ص 425. ابن العديم، ج 3، ص (1183-1184). ابن خلدون، ج 3، ص 445.

(6) الطُّبري، ج 10، ص 120. ابن سعيد القرطبي، ص 17. ابن العديم، ج 8، ص 3650.

(7) ابن الأثير، ج 6، ص 435. النويري، ج 23، ص 8.

(8) الطُّبري، ج 10، ص 135. ابن سعيد القرطبي، ص 24.

الفداء باللامس في شوال 295هـ/يوليو 905م⁽¹⁾ وقيل في شهر ذي القعدة/أغسطس في أواخر عهد المكتفي بالله⁽²⁾، وبلغ عدد الأسرى المسلمين الذين تمّ فداؤهم ثلاثة آلاف⁽³⁾، وقيل: ألفان وثمانمئة واثان وأربعون⁽⁴⁾، ونظراً لاكتماله فقد عُرفَ هذا الفداء بفداء التمام⁽⁵⁾.

ونقلًا عن المسعودي في التنبيه والإشرف؛ فقد شهدت خلافة المكتفي بالله وقوع فداءين من أصل اثني عشر فداءً حتّى تاريخ تأليف هذا الكتاب، ولم ينافس في هذا العدد إلّا هارون الرشيد، والمتوكل على الله، والمقتدر بالله⁽⁶⁾، وإن كان هو أقلّهم مكوثاً في الحكم، فمدّة حكمه لم تتجاوز نصف مدة المتوكل على الله، أو حتّى ربع مدة هارون الرشيد أو المقتدر بالله، ولعلّ ذلك يعكس النشاط الذي اتّسمت به السّياسة العبّاسيّة الخارجيّة خلال عهد المكتفي بالله مقارنة بفترة حكمه القصيرة، التي ما كان لها أن تتكلّل بالنجاح لولا الانتصارات العسكريّة التي حقّقتها الدّولة.

سفارة الأميرة بيرثا بنة لوثير الثّاني الكارولنجي إلى المكتفي بالله 293هـ/906م

لم تقتصر السّياسة الخارجيّة العبّاسيّة خلال عهد المكتفي بالله على السفارات المتبادلة مع الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل شهدت أيضاً سفارة من طرف الأميرة بيرثا (Bertha of Toscani) (ت. 313هـ/925م)⁽⁷⁾، ابنة الملك لوثير الثّاني الكارولنجي (Lothair II of Lorraine) (240-255هـ/855-869م). وتتحدّر الأميرة بيرثا من سلالة أسرة إمبراطورية؛ فأبوها لوثير الثّاني ابن لوثير الأوّل (202-241هـ/817-855م)، الابن الأكبر للإمبراطور شارلمان (151-198هـ/768-814م)، وعندما قسّم لوثير الأوّل أملاكه بين أبنائه عام 241هـ/855م، حصل ابنه

(1) المسعودي، التنبيه، ص 163. المسعودي، مروج، ج 4، ص 222. ابن العديم، ج 8، ص 3650. المقريزي، الخطط، ج 3، ص 336.

(2) الطّبري، ج 10، ص 135. ابن سعيد القرطبي، ص 26. ابن الأثير، ج 6، ص 440.

(3) ابن سعيد القرطبي، ص 26. ابن الجوزي، ج 13، ص 59. ابن الأثير، ج 6، ص 440. الذهبي، سير، ج 13، ص 484. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 162.

(4) المسعودي، التنبيه، ص 164. المسعودي، مروج، ج 4، ص 222. ابن العديم، ج 8، ص 3650. المقريزي، الخطط، ج 3، ص 336.

(5) المسعودي، التنبيه، ص 163. المسعودي، مروج، ج 4، ص 222. المقريزي، الخطط، ج 3، ص 336.

(6) المسعودي، التنبيه، ص (160-165).

(7) ذكرها ابن الزبير باسم برتا بنت الأوتاري، أما الأبشيهي فثريا بنت الأوباري، يُنظر: ابن الزبير، ص 48. الأبشيهي، ص 342.

لوثير الثاني على منطقة لوثرينجيا (Lotharingia) الواقعة بين فرنسا وألمانيا، التي كانت تُدعى اللورين (Lorriane)، وفي عام 248هـ/862م تزوّج من والدرادا (Waldrada of Lotharingia)، التي كانت قبل سنتين من التاريخ المذكور قد أنجبت له ابنتهما بيرثا. وتزوّجت الأخيرة من ثيوبالد ملك آرل (Theobald of Arles) (240-282هـ/854-895م)، ثم من أدالبرت الثاني (Adalbert II) (261-302هـ/875-915م) ماركيز توسكاني عام 281هـ/894م، وكانت تنعت نفسها بملكة الفرنجة⁽¹⁾.

وأتى عدد قليل من المصادر الإسلامية على ذكر سفارة الأميرة بيرثا، غير أنّ معظمها تناولها باقتضاب، واقتصرت معلوماتها على ذكر الهدايا النادرة التي وجّهتها بيرثا إلى المكتفي بالله⁽²⁾، وانفرد ابن الزبير دون غيره في كتابه الذخائر والتحف في عرض نصّ رسالة الملكة، وردّ الخليفة عليها (يُنظر: الملاحق، وثائق رقم 3-4)، فتعرّفت الدّراسة من خلالها إلى ظروف إرسال هذه السفارة، وماهيّة أهدافها، وموقف الخليفة منها⁽³⁾.

وأُسندت الأميرة بيرثا مهمّة القيام بهذه السفارة إلى أحد خدامها المخلصين، الذي عُرفَ باسم علي، الذي كان يعمل فيما مضى في خدمة الأغالبة⁽⁴⁾؛ وقد سبق له أن شارك قبل سبعة أعوام في إحدى الحملات الجهادية التي شنتها بحرية الأغالبة ضدّ السواحل الإيطالية، وخلال ذلك تعرّض للأسر هو ومئة وخمسون رجلاً من أصحابه، وبطريقة أو بأخرى وصل علي إلى الأميرة بيرثا، وانتظم في خدمتها، وصار مع الوقت من أخصّ جلسائها، وفي أثناء ذلك عرّفها بالخليفة المكتفي بالله، وأطلعها على عظيم مكانته بين الملوك، وأنّ دولته أكبر نفوذاً وسلطاناً من دولة الأمير الأغلبي، ويبدو أنّ ذلك قد شجّع الملكة على مراسلة الخليفة، ولم تجد أفضل من خادمها عليّ للقيام بهذه المهمّة⁽⁵⁾.

وحوت السفارة قدراً كبيراً من الهدايا النفيسة والنادرة التي تكوّنت من خمسين سيفاً، وخمسين درعاً، وعشرين رداءً من الصوف موشاة بالذهب، وعشرين من الصقالبة، وعشرين من الإماء الحسان،

⁽¹⁾ Hamidullah, p. 8, pp.(19-22). Metcalfe, pp.(40-41).

⁽²⁾ ابن النديم، ص22. ابن الزبير، ص(48-59). الغزولي، ص(135-136). الأبيشي، ص342.

⁽³⁾ ابن الزبير، ص(48-59).

⁽⁴⁾ ابن النديم، ص22. ابن الزبير، ص(48-49). يُنظر أيضاً: لويس، اكتشاف، ص109.

⁽⁵⁾ ابن الزبير، ص50، ص55.

وعشرة من الكلاب القوية القادرة على الفتك بالوحوش، وسبعة صقور، وسبعة عقبان، وعشرين ثوباً من الصوف الذي تتقلب ألوانه في ضوء الشمس؛ فتبدو كقوس قزح، وثلاثة من الطيور النادرة التي تستطيع تمييز الطعام المسموم من غيره؛ إذ إنها تطلق صرخات قوية وغريبة، وتعمل على تحريك أجنحتها بطريقة تلفت النظر إلى هذا السم، وغيرها من الهدايا النفيسة والقيمة⁽¹⁾، وعلى الأغلب أنّ هذه الهدايا أو القسم الأكبر منها لم يُحمل في الأصل إلى المكتفي بالله، وأنها تُرِكَت إلى سفارة أخرى؛ خشية أن يستولي عليها الأغلبة، وأكدت بيرثا خالص نيتها، واستعدادها لتوجيه ما ذكرته حال تكللت هذه السفارة بالنجاح⁽²⁾، ويبدو أنّ المصادر الإسلامية نقلت وصف هذه الهدايا من خلال كتاب بيرثا دون التحقق من دقة ذلك وصدقه، ولربما أضاف بعض المؤرخين إلى الهدايا بعض ما لا تحتمله من الزيادات؛ بهدف إضفاء طابع الغرابة والندرة عليها.

وحطّت هذه السفارة رحالها في بغداد عام 293هـ/906م⁽³⁾، وكان الخليفة وقتذاك مقيماً في متصيدة في ناحية سامراء، فوجّه كتاب الملكة إليه، وقد دُوّن نصّه باللغة الفرنجية⁽⁴⁾، ولما اطلع عليه أمر بمن يترجمه، وكلف بذلك خادماً فرنجياً يعمل تحت إمرة القائد بشر الخادم⁽⁵⁾ في دار الثياب السلطانية*⁽⁶⁾، وكان يجيد لغة قومه كتابة وقراءة، وفي الحال ترجم نصّه إلى اللغة الرومية، ثمّ أحضر بعدها إسحاق بن حنين (ت. 298هـ/910م)، فنقله إلى العربية⁽⁷⁾.

وحرصت بيرثا من خلال رسالتها على إظهار تمجيدها للخليفة؛ فقد قرنت اسمه بكثير من ألقاب التعظيم والتبجيل⁽⁸⁾، ويؤكد لنا نصّها أنّ هدف بيرثا من هذه السفارة عقد تحالف مع الخليفة ضدّ

(1) ابن الزبير، ص 49، 56. الغزولي، ص (135-136). الأبيهي، ص 342. يُنظر أيضاً: لويس، اكتشاف، ص 109.

(2) ابن الزبير، ص 53، 55.

(3) ابن الزبير، ص 49. الغزولي، ص 135. الأبيهي، ص 342.

(4) وقيل: بأحرف تشبه في الكتابة أحرف اليونانية، لكنّها أكثر انتظاماً. يُنظر: Metcalfe, p. 40.

(5) ابن الزبير، ص (50-51)، لعلّ المقصود ببشر الخادم: القائد بشر الأفييني.

* دار الثياب السلطانية: ويقال لها دار الطراز، وتُعنى بتصنيع الثياب والبسط والأعلام والفُرُش المتعلقة بالخليفة، أو ما يُمنَح لكبار الموظفين كعلامة تشريف لهم، وكانت تُعدّ مظهراً من مظاهر السلطان. يُنظر: الدوري، تاريخ، ص 106.

(6) Metcalfe, p. 40.

(7) ابن الزبير، ص (50-51).

(8) ابن الزبير، ص (51-54).

الإمبراطور البيزنطي⁽¹⁾، وحاولت أيضاً صرف نظر الخليفة عن أيّ علاقات سياسية قد تجمع به؛ وذلك بعد أن رفعت من شأنه، مُظهرة له أنّ تحالفه معها سيكون أكثر نفعاً، وأظهرت استعدادها لتعزيز علاقاتها السّياسيّة به، وتبادل السفارات والهدايا، كما تعهّدت أن تحمل إليه كلّ ما بحوزتها من الأسرى المسلمين، واشتملت الرسالة أيضاً على شقّ شفهي على لسان الملكة، من خلال سفيرها، بحيث لا يعلم بفحواه سوى الخليفة نفسه⁽²⁾. وتذهب بعض المصادر إلى حدّ بعيد عند الحديث عن سبب إرسال هذه السفارة؛ وتصرّح أنّ بيرثا قصدت منها تزويج نفسها من المكتفي بالله⁽³⁾، وعلى الرّغم من أنّ نصّ الرسالة التي أوردها ابن الزبير يخلو من أيّ إشارة إلى ذلك، غير أنّ الأخير طرح هذه الاحتمال⁽⁴⁾، ويبدو أنّ الشقّ الشفهي السريّ من الرسالة قد دفع البعض للتكهّن بهذا الأمر، الذي كان في حدّ ذاته نوعاً من المبالغة البعيدة والظريفة التي أُضيفت إلى هذا الحدث التّاريخي.

وفي الحال كلّف الوزير العباس بن الحسن الكاتب أبا الحسن الأصفهاني بمهمّة صياغة ردّ الخليفة، عوضاً عن متولّي ديوان الرسائل* أبي الحسن علي بن الفرات الذي كان قد ألمّ به عارض مرّضيّ، وحين فرغ أبو الحسن الأصفهاني من كتابة ردّه عرضه على الوزير، ولمّا وقف الأخير عليه وجد فيه كثيراً من معاني الخشونة والغلظة، فأمره أن يعيد الكرّة، وأن يكون ردّه هذه المرة أكثر ليناً من سابقه، وحين انتهى منه عرضه على الوزير "استحسنه"، ثمّ أمر العباس بعليّ الخادم، فدفع إليه جواب المكتفي بالله، ووصله بمبلغ من المال⁽⁵⁾.

وعلى الأغلب فإنّ المكتفي بالله أبدى موافقته الأولى على ما جاء في رسالة بيرثا؛ وخاصّة موضوع المهادنة والتحالف، وتبادل السفارات والأسرى، نافياً وجود أيّ علاقة ودّيّة بينه وبين الإمبراطور البيزنطي، وأشار إلى تلقّيه الرسالة الشفهية، وأنّ رسولها قد نقل جوابه بالقبول، وحثّ الخليفة الملكة

(1) ابن الزبير، ص 52. الغزولي، ص 135.

(2) ابن الزبير، ص (52-53).

(3) ابن النديم، ص 22. ابن الزبير، ص 49. يُنظر أيضاً: Metcalfe, p. 40.

(4) ابن الزبير، ص 49، ص (51-54).

* ديوان الرسائل: وكان يُسمّى أحياناً باسم ديوان الإنشاء وديوان التوقيع، وكان اختصاص هذا الديوان ينحصر في تحرير الرسائل الرسمية والعهود والتقليدات المتعلقة بالدولة، ويُشترط بصاحب ديوان الرسائل "أن يكون متصرفاً في جميع فنون المكاتبات، مكمّلاً للمعاني". يُنظر: السامرائي، المؤسسات، ص (275-281).

(5) نفسه، ص 54.

على الإسراع في الردّ على كتابه، وأنها سوف تلقى القبول منه إن وُجِّهَتْ إليه أيّ سفارة أخرى⁽¹⁾، وعلى ما يبدو أنّ المكتفي بالله وجد في تحالفه مع بيرثا فرصة مناسبة يمكن توظيفها لصالحه في خضمّ صراعه مع الإمبراطورية البيزنطية.

ويبدو أنّ هذه المحاولة لم يُقدَّر لها أن تقطع شوطاً أكبر ممّا قطعت؛ ويُرجَّح ابن الزبير أنّ هذا الفشل ناتج عن ظروف قسرية خارجة عن إرادة الطرفين؛ وذلك بعد أن أكّد أنّ عليّاً الخادم رسول بيرثا قد مات خلال رحلة العودة⁽²⁾، ويذهب أليكس ميتكالف (Alex Metcalfe) أستاذ التاريخ في جامعة لانكستر (Lancaster) الإنجليزية إلى القول: إنّ هذه السفارة تكشف عن جهل الأميرة بيرثا بالديناميات السياسيّة للحكم الإسلامي خلال تلك الفترة؛ إذ لم يكن الخليفة العبّاسي، على حدّ قوله، اسماً ولا رسماً، لا يملك من أمره شيئاً. ويضيف أنّ هذه الخطوة قد كلفت الملكة ثمناً كبيراً من دون أيّ طائل، وهذا ما ذكره الإيطاليون الشماليون. وفي المقابل، لم يستفد الخليفة من الهدايا سوى أنّ بيرثا مكنته بطريقة أو بأخرى من عيش حياة الرفاهية على النمط التوسكاني، فضلاً عن ذلك، فإنّ هذه السفارة تظهر عدم فاعلية العلاقات الدبلوماسية بين الدول التي تفصلها عن بعضها مسافات طويلة، فلم تُؤخَذ سفارتها من جانب العبّاسيين على محمل الجدّ⁽³⁾. وعلى الرّغم من ذلك كلّه، إلّا أنّها تعبّر بشكل أو بآخر عن قوة الدّولة العبّاسيّة في عهد المكتفي بالله، وسياسته المنفتحة تجاه الكيانات السياسيّة الأجنبيّة المسالمة.

(1) السامرائي، المؤسسات، ص(54-59).

(2) نفسه، ص54.

(3) Metcalfe, p. 41.

الفصل السادس
نظم الحكم والإدارة

الفصل السادس

نظم الحكم والإدارة

الوزارة

اقتضى النظام السياسي العباسي أن يترفع الخليفة على رأس الهرم السياسي والعسكري والإداري والديني في دولته؛ ما جعل منه المصدر الرئيس للسلطات كلها⁽¹⁾، وإضافة إليه، فقد استحدث العباسيون نظام الوزارة منذ قيام دولتهم؛ بفعل المستجدات التي فرضتها التطورات الإدارية والتنظيمية التي مرت بها الدولة الإسلامية، وتطور هذا النظام مع الوقت جنباً إلى جنب مع مؤسسة الخلافة، وتركت أطوار الضعف والقوة التي مرت بها المؤسسة المذكورة أثراً بالغاً على سلطة الوزراء وفعالية دورهم في الحكم⁽²⁾، وعلى نحو خاص، فقد تأثر نظام الوزارة في العصر العباسي الثاني بمدى قوة الخليفة وضعفه، في حين كان التهديد الأكبر لها يتمثل بتعاظم نفوذ المؤسسة العسكرية التركية، عماد الدولة العباسية، كما تأثر هذا النظام بنفوذ الحاشية، ومدى تدخلها في شؤون الحكم، وما نتج عن ذلك كله من أزمات مالية وإدارية⁽³⁾، واستمر هذا الأمر على هذه الحال إلى أن فقدت مؤسسة الوزارة مركزها مع بداية مرحلة أمير الأمراء (324-334هـ/936-946م)*⁽⁴⁾.

وعلى الرغم مما ذكر، فقد مرت الدولة العباسية بمرحلة صحوة التي رافقت عهدي المعتضد بالله وابنه المكتفي بالله؛ حيث عاشت مؤسسة الوزارة انتعاشاً ملحوظاً؛ بفعل حالة الاستقرار الحاصلة في مؤسسات الدولة المختلفة، وعلى رأسها مؤسسة الخلافة التي بسطت سيطرتها شيئاً فشيئاً على مقاليد

(1) السامرائي، المؤسسات، ص120.

(2) الدوري، النظم، ص185.

(3) السامرائي، المؤسسات، ص(148-149).

* **مرحلة أمير الأمراء:** مرحلة ارتبطت بظهور منصب أمير الأمراء في عهد الراضي بالله، وقد أرغم الأخير تحت وطأة الأزمة المالية الخانقة الناتجة عن سوء السياسة الإدارية إلى منح صلاحيات مطلقة للقائد التركي ابن رائق (ت. 330هـ/942م) مقابل تعهد الأخير بدفع الاستحقاقات المالية اللازمة لنفقات الدولة كافة؛ ونتيجة ذلك تسلط الجيش على كل شيء، وانهارت المؤسسات الإدارية، وقد شهدت هذه الفترة فوضى عارمة؛ بفعل احتدام التنافس بين القادة الأتراك على منصب أمير الأمراء، وازدادت وطأة الحركات الانفصالية، وفي نهاية ذلك كله بانتهت الدولة العباسية لقمة سائغة للبويهيين الذين لم يجدوا صعوبة في إخضاعها. يُنظر: الدوري، دراسات، ص(24-25). عمر، ص(99-106).

(4) السامرائي، المؤسسات، ص140.

الحكم؛ ما أدى إلى ازدياد فاعلية الماكينة الإدارية، فاستعادت بسبب ذلك الوزارة هيبتها ودورها، وأخذت تُدير مؤسسات الدولة المختلفة بالتفويض من الخليفة وتحت إشرافه، ومن المؤشرات الدالة على حالة الاستقرار التي شهدتها الوزارة في هذه المرحلة أنّ أغلب وزرائها لم يُعزلوا، ومكثوا في مناصبهم حتّى وفاتهم، أو وفاة الخليفة؛ ما يشير إلى ارتفاع شأن الوزارة، وعلوّ مرتبة القائم بأمرها، وأنّها كانت بمنأى عن المؤثرات التي عصفت بها خلال الفترات السابقة (1).

ومن الطبيعي أن يكون حال الوزارة في عهد المكتفي بالله امتداداً لما كانت عليها في عهد والده المعتضد بالله، وبلغ نفوذ الوزراء في عهده إلى درجة كبيرة، حتّى قيل: إنّهُ وقع تحت نفوذهم وتأثيرهم، واستبدّوا بالأمر دونه في بعض الأحيان (2)، وهذا لا يستقيم مع الواقع التاريخي؛ فعند دراسة مختلف جوانب الحياة السياسيّة والإداريّة في عهد المكتفي بالله نجد أنّ هذا الحكم يشوبه كثير من المغالطات، ولعلّ هؤلاء المؤرخين ذكروا ذلك دون تمحيص أو دراية، ويبدو أنّهم أخذوا المكتفي بالله بجريرة ما راج في عصور الضعف من استبداد القادة وبعض الوزراء بالخلفاء، ومن ناحية أخرى يشير هذا الرأي إلى تعاظم نفوذ وزراء المكتفي بالله الذين لعبوا دوراً فعالاً في إدارة مؤسسات الدولة، وبلغ هذا النفوذ ذروته عندما لعب وزيره الثّاني العباس بن الحسن دوراً رئيساً في ترشيح المقتدر بالله ومبايعته بالخلافة.

وتعاقب على منصب الوزارة في عهد المكتفي بالله وزيران اثنان: الأوّل كان القاسم بن عبيد الله، وهو وزير أبيه من قبله، حيث أبقاه في منصبه إلى أن توفّي سنة (291هـ/ 904م)، فولّى مكانه وزيره الثّاني العباس بن الحسن، ومكث الأخير في منصبه إلى أن توفّي الخليفة، وحتّى يسهل لنا فهم أحوال هذه المؤسّسة وطبيعة عملها خلال هذه المدة، سنتناول فترة كلّ وزير على حدة.

(1) السامرائي، المؤسسات، ص149.

(2) المسعودي، مروج، ج4، ص219. ابن الأبار، ص185. النويري، ج23، ص23. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص128.

وفيما يتعلق بالوزير الأوّل، فهو أبو الحسين⁽¹⁾، القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب⁽²⁾، الذي وُلِدَ عام 258هـ/872م⁽³⁾ وقيل: عام 259هـ/873م⁽⁴⁾، وينحدر من عائلة لها تاريخها الحافل في العمل الإداري؛ فقد كان جدّه سليمان بن وهب(ت. 272هـ/885م)* من وزراء المعتمد على الله⁽⁵⁾، وكذلك وزر والدّه عبيد الله بن سليمان لهذا الخليفة حتّى وفاة الأخير، ومكث بعدها وزيراً للمعتضد بالله حتّى وفاته سنة 288هـ/901م، وخلال هذه الفترة عمل القاسم في خدمة المعتضد بالله، وازدادت منزلته عنده، ولمّا توفّي والده ولّاه الخليفة الوزارة عوضاً عنه، ومكث على ذلك إلى أن توفّي المعتضد بالله، وبويع المكتفي بالله⁽⁶⁾ الذي أبقاه في منصبه؛ نظراً لدوره المهمّ في أخذ بيعة الخلافة له في أثناء إقامته في الرقة، وكونه نجح على نحو سليم في ضبط شؤون الدّولة وخزيرتها الماليّة إلى أن قدم إلى بغداد، وتسلم مقاليد الحكم⁽⁷⁾.

وحظي القاسم بن عبيد الله بمكانة كبيرة عند المكتفي بالله حتّى قال بحقه: "هو عمدة مملكتي، وقلمه ناظم عقد دولتي"⁽⁸⁾، وليس أدلّ على هذه المكانة إلّا لقب والي الدّولة الذي منحه إياه⁽⁹⁾، ويرى المؤرخون أنّ القاسم هو أول من لُقّب بالدّولة في التّاريخ الإسلامي⁽¹⁰⁾، وما كان لهذا النفوذ أن

(1) ابن حنين، ص 149. ابن الصّابيّ، رسوم، ص 130. ابن خلّكان، ج 3، ص 361. الصّفي، ج 24، ص 95. ابن تغري بردي، موارد، ج 1، ص 176.

(2) ابن خلّكان، ج 3، ص 361. الذهبي، سير، ج 13، ص 484. الصّفي، ج 24، ص 95.

(3) سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 304.

(4) الصّفي، ج 24، ص 95.

* **سليمان بن وهب**: أبو أيوب، وُصِفَ بأنّه جواد، وافر الأدب، ومن فضلاء الكُتّاب، انتظم في خدمة الخلفاء منذ أيام المعتصم بالله، ولّاه المعتمد على الله الوزارة في ذي القعدة من 263هـ/أغسطس من 877م، وظلّ في منصبه إلى أن نكبه الموفق بالله، وسجنه سنة 265هـ/879م، ومكث في حبسه إلى أن توفّي سنة 272هـ/885م. يُنظر: الطّبري، ج 9، ص 112، ص 114، ص 125، ص 128، ص 408، ص (446-448)، ص 532، ص 543، ج 10، ص 9. الذهبي، تاريخ، ج 6، ص 556.

(5) السامرائي، المؤسسات، ص (88-89).

(6) سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 245. الذهبي، سير، ج 13، ص 484. يُنظر أيضاً: السامرائي، المؤسسات، ص (90-91).

(7) الطّبري، ج 10، ص 87. التّوحي، نشوار، ج 6، ص (133-134). الخطيب البغدادي، ج 11، ص 305. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 257.

(8) الثّعالبي، الإعجاز، ص (93-94).

(9) ابن حنين، ص 149. التّوحي، نشوار، ج 8، ص 157. ابن الصّابيّ، رسوم، ص 130. ابن الأبار، ص 185. ابن العديم، ج 2، ص 935. الذهبي، سير، ج 13، ص 19. الصّفي، ج 24، ص 95. الفلقشندي، ج 5، ص 415.

(10) ابن الصّابيّ، رسوم، ص 130. ابن الأبار، ص 185. الفلقشندي، ج 5، ص 415.

يتحقّق لولا الجهد الكبير الذي بذله في تعزيز مكانته عند المكتفي بالله؛ فقد أثبت له منذ البداية إخلاصه له حينما لعب دوراً بارزاً في أخذ بيعة الخلافة له، وزاد من أواصر هذه العلاقة حينما زوج المكتفي بالله ابنه محمداً من ابنته عام 291هـ/904م⁽¹⁾، وبدوره لم يتوان القاسم بن عبيد الله في الإطاحة في كلّ مَنْ يرى في مركزه تهديداً مباشراً أو غير مباشر لمكانته ونفوذه في الدولة، على خلاف المؤسسة التي ينتمي إليها هذا المنافس المحتمل، سواء أكانت إدارية أم عسكرية، ولعلّ هذا النهج هو ما أكسب سياسة هذا الوزير طابعاً من القسوة والغلظة تُجاه الخاصّة والعامة على حدّ سواء، فعلى صعيد المؤسسة العسكريّة كان للقاسم دور رئيس في الإطاحة ببدر المعتضدي وتصفيته⁽²⁾.

ومارس الوزير القاسم بن عبيد الله سياسة أكثر مركزية وحزماً تُجاه أرباب المؤسسات الإدارية، ونقلًا عن الطُّبري، فقد قُبِضَ في الواحد والعشرين من شوال 290هـ/السابع عشر من سبتمبر 903م على كاتب المكتفي بالله الحسين بن عمرو النصراني الشهير بالشيرازي؛ بعد أن دسّ عليه مراراً في مجلس الخليفة محاولاً الإيقاع بينهما، وحاول الوزير إلقاء القبض على كاتب الحسين، إلّا أنّه هرب، وبعد بضعة أيام نُفِيَ الشيرازي إلى واسط، وهناك التقى بكاتبه بحلول ذي القعدة/أكتوبر من هذا العام، ويبدو أنّ الوزير استغل هذا الظرف لتعزيز مركزه؛ فعين ابنه الأكبر مسؤولاً عن ضياع الولد والحريم والنفقات*، في حين كلف الأصغر بالكتابة لمحمد بن المكتفي بالله⁽³⁾، ويعرض لنا التتوخي(ت. 384هـ/944م) على نحو أكثر إسهاباً تفاصيل هذه الحادثة التي رمى من خلالها الشيرازي إلى عزل القاسم عن منصبه بالتعاون مع فارس داية المكتفي بالله، ويبدو أنّ فطنة القاسم هي من كشفت خطوط هذه المؤامرة؛ فقد ارتاب الأخير من تحركات الشيرازي، وحتّى يأمن من خطره تقصّى أخباره عن طريق ابنه؛ بعد أن اشترى مغنيّة كان يهواها الأخير، وحينها لم يجد ابن الشيرازي

(1) الطُّبري، ج 10، ص 115. الذهبي، سير، ج 13، ص 482. الصفدي، ج 24، ص 95. ابن تغري بردي، النجوم، ج 3، ص 131.

(2) الطُّبري، ج 10، ص 89. المسعودي، مروج، ج 4، ص 220. ابن مسكويه، ج 4، ص 399. ابن الجوزي، ج 13، ص (9-10). ابن الأثير، ج 6، ص 413.

* ضياع الولد والحريم والنفقات: لعلّ المقصود بذلك الإشراف على الإقطاعات التي كان يملكها أبناء الخليفة، ونساء القصر، ويضاف إليه تقليده إياه ديوان النفقات.

(3) الطُّبري، ج 10، ص (98-99).

مفراً من دخول قصر الوزير الذي أخذ يتقرب منه، ونجح بوساطته بتتبع أخبار والده، وعندئذٍ تكشفت له ملامح خطة الشيرازي التي حيكت بالتعاون مع فارس داية المكتفي بالله التي عقدت اتفاقاً بين الخليفة والشيرازي على عزل القاسم ومصادرة أمواله على أن يعين بدلاً عنه في الوزارة إبراهيم بن حمدان كاتب الشيرازي، واستطاع القاسم أن يتخلص من هذه المؤامرة بفضل أحمد ابن الفرات(ت). 291هـ/904م)*؛ وذلك بعد أن سلمه كتاباً منسوباً إلى الشيرازي كان قد وُجّه فيما مضى إلى عبيد الله بين سليمان والد القاسم؛ يحذره فيه من المكتفي بالله، ويصفه بخصال ذميمة، كالبلخ والضعف وسقوط المروءة، وعندما اطلع الخليفة على هذا الكتاب أمر القاسم بالقبض على الشيرازي وكاتبه، وعندما تمّ للوزير ذلك نكّل بهما ونفاهما إلى الأهواز*، وهناك أمر بحبسهما، ومنع الماء والطعام عنهما إلى أن هلكا، وعلى الرغم من إنقاذ أحمد بن الفرات للوزير القاسم إلا أنه لم يأمن من شره؛ فقد استسلم الوزير لدسائس محمد بن فراس الذي حذره من ابن الفرات، وعظم خطره عليه إلى أن دفعه إلى التخلص منه؛ وذلك بأن دسّ له سماً في الطعام⁽¹⁾.

وممن تعرضوا للتكيد والقتل على يد الوزير القاسم بن عبيد الله أبو عبد الله محمد بن غالب الأصهباني الشهير بالمعداني الكاتب، متولّي ديوان الرسائل في عهد المكتفي بالله لمدة ثلاثة أعوام، وتمثّل سبب تخلص القاسم منه ترشيح ابن المعتزّ الوزارة له؛ نظراً لنجاحه دون غيره من كتاب الحضرة في الردّ على الكتب الواردة إلى الخليفة من الإمبراطور البيزنطي⁽²⁾، ويذكر عن الوزير قتله لكلّ من محمد بن بشار وابن منار؛ بعد أن وُشي بهما عنده، فقيدهما بالحديد، ووجههما إلى البصرة، وفي الطريق إليها تخلص منهما بعد أن أغرقهما⁽³⁾، وعزم الوزير أمره على الإيقاع بأبي العباس

* أحمد بن الفرات: أبو العباس، الأخ الأكبر للوزير علي بن الفرات، أحد أبرز كتّاب العصر العباسي الثاني، وُصِفَ بأنّه: "أكتبُ أهل زمانه وأحسنهم حالاً في تنفيذ الأمور والأعمال"، وقد كان وافر المعرفة ضليعاً في علوم الأدب والفقه حتّى قيل عنه: إنّه: "أعلمُ الناس بالفقه على سائر المذاهب". يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج6، ص889. الصفدي، ج8، ص87.

** الأهواز: اسم عربي عُرف به إقليم خوزستان في العصر الإسلامي، وهو أيضاً اسم لأحد أهمّ مدن هذا الإقليم، الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة البصرة، وتشتهر بوفرة وديانها؛ ما جعل منها منطقة خصبة تكثُر فيها المزروعات، وخاصة قصب السكر الذي يُعدّ من أشهر محاصيلها، وأجودها. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج1، ص(284-286). مؤنس، ص216.

(1) التتوخي، نشوار، ج3، ص(268-272).

(2) المسعودي، مروج، ج4، ص70. الصفدي، ج4، ص217.

(3) المسعودي، مروج، ج4، ص70.

أحمد بن محمد بن بسطام*، بعد أن توجّس منه، وارتاب من تحركاته، فحبسه في داره عدّة أيام، وكاد أن يقتله لولا أنّ ابن بسطام داراه، وبدّد مخاوفه تُجاهه، ولم يزل الأخير يتودّد له حتّى قلّده أعمال آمد، غير أنّ القاسم سرعان ما أبدى ندمه على ذلك، حيث بعث بأحد رجاله إليه، وأوكله به، فكان هو صاحب الأمر والنهي في عمل ابن بسطام، أمّا الأخير فقد لزم داره؛ خوفاً على نفسه من بطش الوزير بعد أن تأكّد له عزمه على قتله، وظلّ ابن بسطام مقيماً بها حتّى وفاة الوزير⁽¹⁾.

وعلى الرّغم من هذه السّياسة القاسية التي انتهجها الوزير القاسم بن عبيد الله، فإنّه كان إدارياً ناجحاً، مارس بكفاية مهمّته الموكلة إليه، فمنحه المكثفي بالله صلاحيات إداريّة وماليّة واسعة⁽²⁾؛ وكان الوزير يحذّر عمّاله من القيام بأيّ ممارسة من شأنها إلحاق الظلم والأذى بالرعية في ولاياتهم، أو إخفاء أيّ معلومة حول أحوال الولايات وشؤونها الإداريّة والماليّة، خاصّة أنّ بعض العمّال كانوا يستترون؛ تهرباً من المساءلة، وفي إحدى المرات، لجأ عامل الأهواز إلى الاستتار؛ ما أثار غضب الوزير، فطلب من رجاله إنكاء العيون عليه، وتتبع أخباره، وإحضاره إليه على وجه السرعة، ولمّا علم العامل بذلك، خشي من بطش الوزير، فقرّر تسليم نفسه إليه في بغداد، وبعد وصوله إليها، التقى بالكاتب علي بن عيسى*، وطلب منه أن يلتجئ عنده لبعض الوقت حتّى يستعد للمثول أمام الوزير، وحين علم الأخير بذلك استشاط غضباً على عيسى، وشكّ بإخلاصه له وللخليفة، وكاد أن

* أحمد بن محمد بن بسطام: أبو العباس، من كُتّاب الدواوين في العصر العباسي الثّاني، عهد إليه المعتضد بالله بضمّان واسط، فلمّا عجز عن دفع مبلغ الضمان حبسه، ثمّ أطلق سراحه، وفي عام 293هـ/906م كان قائماً على إحدى ولايات الشّام، وقد قلّده علي بن الفرات ولاية مصر عام 296هـ/909م، ويذكر الصفدي أنّه توفي بمصر سنة 297هـ/910م، في حين أورد ابن الصّابی اسمه من ضمن الذين صادر علي بن الفرات أموالهم سنة 306هـ/918م، بالتزامن مع بداية فترة وزارته الثّانية. يُنظر: الكندي، ص(524-525). ابن الصّابی، الوزراء، ص12، ص49، ص46. الصفدي، ج7، ص242.

(1) التّوخي، الفرج، ج2، ص(172-174).

(2) السامرائي، المؤسسات، ص149.

* علي بن عيسى: بن داود بن الجراح، أبو الحسن، وُلِدَ عام 245هـ/859م، كان من كُتّاب الحضرة، ولي الوزارة للمقتدر بالله على فترات، ثمّ تولّاهم للقاءه بالله، ويُعدّ من "خيار الوزراء"، وهو أحد أعظم وزراء العصر العباسي الثّاني، حاول جاهداً إصلاح الواقع المالي والإداري والسياسي في الدّولة، غير أنّ ضعف الخلفاء، وفساد الحاشية والقادة حال دون إتمام ذلك، وُصِفَ بأنّه كان مؤمناً، مواظباً على العبادات، مُجاب الدعوة، بَرّاً صالحاً، عفيفاً زاهداً؛ حتّى قال أبو بكر الصولي في حقه: "لا أعلم أنّه وزر لبني العباس وزير يُشبهه في عفته وزُهده"، وكان عالماً، وله من المصنّفات كتاب جامع الدّعاء، وكتاب معاني القرآن وتفسيره، توفي سنة 334هـ/946م. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج13، ص(459-462). الذهبي، تاريخ، ج7، ص(680-681).

يبيطش به، غير أنّ عيسى استدرك الموقف، وطلب منه أن يمهل بعض الوقت حتّى يجلب العامل إليه، وحين مَثَل الأخير في مجلس الوزير ناظره كُتَاب الدواوين بما وقع منه من أخطاء، وطالت المناظرة حتّى صلاة المغرب دون أن تنتهي، واستطاع مَنْ ناظره من الكُتّاب أن يثبتوا عليه مبلغ ستة وثلاثين ألف دينار، فحوّل الوزير أمره إلى علي بن عيسى على ألا يغرمه أقلّ من خمسين ألف دينار، غير أنّ الأخير طلب العفو عنه، وأن يعاد إلى عمله؛ فقد كان منهجه سليماً، وإنّ مقدار الارتفاع الحاصل في قيمة ما جباه من المال لم يسبقه إليه أحد من عُمال هذه النّاحية، فنزل الوزير عند رأي عيسى، وعفا عنه، وأعادته إلى عمله، إلّا أنّه أُنذره وتوعّده بالعقاب والتتكيل إن عاد لمثلها ثانية⁽¹⁾، وتوكّد مناظرة هذا العامل على سلامة الجهاز الإداري وانضباطه، وتشير أيضاً إلى درجة التوثيق العالية التي كانت عليها دواوين الدّولة التي دَوّنت بدقة كبيرة التفاصيل الاداريّة المتعلّقة بأعمال الولايات ومؤسسات الدّولة المختلفة كافّة.

ومما يُنسب للوزير القاسم بن عبيد الله فيما يتعلّق بسياسته الإداريّة عزله لأحمد بن الفرات عن واسط؛ بعد أن ضاق ذرعاً به وبأخيه علي بن الفرات؛ فقد كثرت أملاكهم بواسط بعد أن ألحقا بها كثيراً من الضياع بما فيها الضياع السلطانية*، واستطاعا إثر ذلك أن يحوزا مبلغ عشرين ألف دينار من غير وجه حقّ، حارمين بذلك خزينة الدّولة من هذا المال، وكان لا بدّ للوزير من رجل يضبط له شؤون واسط على نحو سليم عوضاً عن أحمد ابن الفرات، ويكشف له في الوقت ذاته حجم التجاوزات التي وقع بها ابنا الفرات، حتّى لا يجد حرجاً من مساءلتها عمّا بدر منهما من تقصير وتقريط بحق الأعمال الموكلة إليهما، فاستشار الوزير عليّاً بن عيسى بمنّ يصلح لأمر واسط، فذكر

(1) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(382-385).

* الضياع السلطانية: الأراضي التي تعود ملكيتها إلى الأسرة العباسية، وفي مقدمتهم الخليفة والحاوية، وتعود في أصلها إلى الأراضي التي صادرها العباسيون من الأمويين، وقد توسّعت تدريجياً عن طريق الشراء، ومصادرة ضياع كان يملكها موظفون ماتوا، أو فُصلوا من مناصبهم، أو بوساطة الإلجاء، وكانت هذه الضياع منتشرة في سائر أنحاء العراق، وفقد العباسيون ملكيتهم لها بعد أن استولى عليها معزّ الدّولة البويهية سنة 334هـ/945م، الذي منح الخيفة إقطاعاً صغيراً عوضاً عنها. يُنظر: الدوري، تاريخ، ص(38-39).

له أخاه إبراهيم بن عيسى (ت. 312هـ/924م)**، فقبل رأيه، وعهد إليه بولايتها، ولم يمض وقت طويل حتى أطرى الوزير على واليه الجديد؛ بعدما أظهره من كفاية وأمانة في تحصيل الموارد المالية؛ من ضرائب وخراج وغير ذلك، وإرسالها إلى بغداد دون أن يقطع منها شيئاً لصالحه، ووقف إبراهيم بن عيسى على أخطاء ابني الفرات بعد أن كان فارق الجباية في ولايته أكثر من عشرين ألف دينار، عدا عن الغلات العينية، وحين اطلع الوزير على ذلك طلب من إبراهيم مناظرة أحمد بن الفرات في حضرته؛ حتى يدمغه بذلك، ويثبت له سوء سيرته، وفساد إدارته ومطامعه، وحين ألزم ابن الفرات الحجة وتمّ للوزير ما أراد، عزم أمره على أن يقبض على ابني الفرات، وينكبهما، غير أن ظهور صاحب الشامة وانشغال الوزير بحربه صرفه عن ذلك، وحين فرغ من ذلك، وعاد إلى بغداد لم يطلّ مقامه بها؛ إذ ما لبث أن مات بعد ذلك، كما وقعت وفاة الحسن ابن الفرات في الفترة نفسها⁽¹⁾، وإن كنا أشرنا فيما سبق إلى أن التتوخي يرى خلاف ذلك، ويذكر أن مقتل الحسن بن الفرات كان على يد الوزير القاسم بن عبيد الله⁽²⁾.

وكان القاسم بن عبيد الله حريصاً على مباشرة أعماله بنفسه، وظهر ذلك جلياً خلال أيامه الأخيرة؛ فعلى الرغم من اشتداد مرضه عليه، إلا أنه أصر على أن يشرف بنفسه على شؤون الدواوين، وحتى يبقى متمسكاً ولا يغشاه المرض، بلغ به الأمر أن لجأ إلى شمّ الروائح العطرية، وغسل وجهه بماء الورد⁽³⁾.

ولم يقتصر دور الوزير القاسم على ضبط الأمور الإدارية في الدولة، فقد كان له إسهاماته في إخماد الثورات السياسية المندلعة في أرجاء الدولة؛ وأبرز ما سجّل له في هذا المجال دوره في القضاء على ثورة صاحب الشامة⁽⁴⁾، ويرى ابن العديم أن هذا النجاح هو الذي دفع المكتفي بالله إلى إطلاق لقب

**** إبراهيم بن عيسى:** أبو إسحاق، تقلّد أعمال الزاب الأعلى في خلافة المعتضد بالله، واعتزل العمل الإداري خلال وزارة حامد بن العباس (306-311هـ/918-923م) التي كانت بالشراكة مع أخيه علي، وحين ولي علي بن الفرات وزارته الثالثة (312-313هـ/924-925م) صادر أمواله، ودفعه إلى ابنه المحسن الذي نكل به، ثم نفاه إلى البصرة، وما لبث أن مات مسموماً بعد مدة قصيرة. يُنظر: ابن الصّابي، الوزراء، ص50، ص(149-150).

(1) ابن الصّابي، الوزراء، ص(150-152).

(2) التتوخي، نشوار، ج3، ص272.

(3) ابن الصّابي، الوزراء، ص250.

(4) الطّبري، ج10، ص107. ابن مسكويه، ج4، ص408. ابن الأبار، ص185. ابن العديم، ج2، ص935.

ولي الدولة عليه⁽¹⁾، ولم يكتفِ الخليفة بذلك، فقد خلع عليه حين عاد إلى بغداد، وذكر على الملاء فضله في تحقيق هذا النصر⁽²⁾.

وعند الحديث عن علاقة المكتفي بالله بوزير القاسم بن عبيد الله؛ نجد أنّ الأخير كان له نفوذه وتأثيره الكبيرين في بلاط الخليفة، غير أنّ ذلك لا يعني بالضرورة ضعف المكتفي بالله، وتغلّب وزيره عليه، ويبدو أنّ هذا النمط من العلاقة ما هو إلا نتيجة طبيعية فرضتها حالة الانتعاش الحاصلة في الدولة خلال مرحلة الصحوة، التي كان من أبرز مظاهرها ارتفاع شأن الوزارة، وازدياد نفوذها في الدولة، ومن قبيل هذه العلاقة كان المكتفي بالله يخاطب وزيره القاسم في قضاء بعض حوائجه الخاصة؛ ومن ذلك أنّه كتب إليه ذات مرّة أن يُعدّ له كلّ ما يحتاج إليه من لوازم الصيد بعد أن عزم أمره على أن يخرج في رحلة صيد إلى سامراء، فأمر الوزير كاتبه بتحرير كتاب بخصوص ذلك؛ حتّى يتسنى له إنفاذ حوائج الخليفة على وجه السرعة⁽³⁾، وظهر تأثير القاسم على الخليفة عندما نجح في صرف نظره عن إعادة إعمار سامراء بغية الانتقال إليها؛ وذلك بعد أن عظم عليه مقدار الأموال اللازمة للقيام بذلك⁽⁴⁾، ويبدو أنّ القاسم خشي من نقل مقرّ الحكم إلى سامراء، التي كانت فيما مضى عاصمة الخلافة، حيث ارتبط اسمها بصعود نجم الأتراك واستبدادهم بالخلافة، وفي المقابل نرى المكتفي بالله يلعب دوراً مهماً في إدارة دواوين الدولة، خاصّة فيما يتعلّق بترتيبات السلم الإداري داخل هذه المؤسسات، متدخلاً من خلال ذلك في صلب اختصاصات الوزير؛ فقد كان للخليفة كلمته في اختيار كُتّاب الدواوين حتّى وإن لم يلقَ مرشحه قبولاً عند الوزير، فقد استشار القاسم بن عبيد الله الخليفة فيمن يوليه مكان أبي العباس أحمد بن فرات بعد وفاته، فوقع اختيار المكتفي بالله على أخيه علي بن الفرات؛ نظراً لما خبر منه من كفاية في خلافة والده الذي كان يكثر من الثناء عليه، ويبدو أنّ هذا الاختيار لم يلاقِ قبول الوزير؛ فما إن عُيّن علي بن الفرات حتّى أخذ يسعى في عزله، والإيقاع به⁽⁵⁾.

(1) ابن العديم، ج2، ص935.

(2) الطّبري، ج10، ص107. ابن مسكويه، ج4، ص408.

(3) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(144-145).

(4) الطّبري، ج10، ص(98-99). ابن الجوزي، ج13، ص14. ابن الأثير، ج6، ص420. النويري، ج23، ص6.

(5) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(249-250).

وعطفاً على ما ذُكِرَ سابقاً، ونظراً للبون الشاسع بين سلوك القاسم بن عبيد الله الشخصي من جهة، وسياسته الإدارية من جهة أخرى؛ اختلف المؤرخون، وتباينت آراؤهم عند الحديث عن صفات القاسم الخُلقية وكفايته الإدارية، وتكاد تتفق المصادر فيما بينها على مدى هيبة هذا الوزير وقسوته وبطشه بالعمامة والخاصة على حدّ سواء⁽¹⁾، وأبلغ مَنْ عبّر عن ذلك المسعودي بقوله: "كان القاسم ابن عبيد الله عظيم الهيبة، شديد الإقدام، سفاكاً للدماء، وكان الكبير والصغير على رعب وخوف منه، لا يُعرّف أحداً منهم لنفسه نعمة منه"⁽²⁾، وبلغ امتعاض الناس منه بأن دسّوا إليه رقعة في مصلاه ورد فيها:

(بحر الرجز)

بَغَى وَلِلْبَغْيِ سِهَامٌ تَنْتَظِرُ أنفذ في الأحشاء من وخز الأبر⁽³⁾

ويبدو أنهم حاولوا بذلك تحذيره من عاقبة الظلم؛ أملاً أن يخفّف عنهم بعض ما أنزله بهم من جور، ولعلّ الوزير القاسم أدرك عاقبة ذلك في آخر أيامه؛ حيث أطلق سراح المحبوسين في سجنه من العُمال، ومعهم أيضاً بعض العلويين كان قد حبسهم ظلماً، وحاول أن يخفّف عن الناس بأن كفل بعض المدينين منهم⁽⁴⁾، غير أنّ هذا الفعل لم يمحُ صورته الفضّة من أذهان الناس؛ فما إن مات حتّى فرحوا بذلك، وأظهروا شماتتهم به، وعبّروا عن ذلك بنظم الشعر، وكان ممّا قيل في ذلك:

(البحر المتقارب)

شَرَبْنَا عَشِيَّةً مَاتَ الْوَزِيرُ وَشَرَبُ يَأْ قَوْمُ فِي ثَالِثَةِ
فَلَا قَدَسَ اللَّهُ تِلْكَ الْعِظَامَ وَلَا بَارَكَ اللَّهُ فِي وَارِثَةِ⁽⁵⁾

(1) المسعودي، مروج، ج4، ص223. سبط ابن الجوزي، ج16، ص304. ابن خلكان، ج3، ص(361-362). ابن الطقطقا،

ص257. الذهبي، سير، ج14، ص18. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص133.

(2) المسعودي، مروج، ج4، ص223.

(3) الزمخشري، ج3، ص323. الأبيشي، ص121.

(4) التتوخي، نشوار، ج7، ص275.

(5) المسعودي، مروج، ج4، ص(223-224). سبط ابن الجوزي، ج16، ص305. ابن خلكان، ج3، ص362. الذهبي، سير،

ج14، ص20. الصفدي، ج24، ص96.

ومما وُصِفَ به الوزير القاسم بن عبيد الله أنه كان زنديقاً فاسد العقيدة؛ وقد أظهر ذلك عندما رأى أفضلية عهد أردشير* على القرآن، وكان من جرأته على القرآن أنه كان يبذل في حروف كلماته حتى يفسح بذلك مجالاً للسخرية واللهو في مجلسه⁽¹⁾، ويبدو أن هذه الأخبار لم تخل من بعض المبالغات، ولعلها قيلت للطعن في إسلامه، وللتشكيك في سلامة عقيدته، وفي الصورة المقابلة نرى القاسم بن عبيد الله جواداً، كريماً⁽²⁾، مؤمناً يفتتح عهده في الوزارة بالصلاة والتضرع إلى الله بأن يبارك له، ويوفقه في مساعيه، وكذلك كان براً بأستاذه النحوي إبراهيم بن محمد الزجاج(ت). 311هـ/923م)*، حريصاً على صلته⁽³⁾، غير أن الصورة الأولى التي غلب عليها طابع القسوة والجبروت هي التي طغت على شخصيته، وكانت الأكثر حضوراً عند الحديث عن سلوكه وطباعه الخلقية.

واتهمت بعض المصادر الوزير القاسم -من دون تمحيص أو دراية- بأنه كان عديم التجربة، قليل الخبرة الإدارية⁽⁴⁾، فقد أثبتت الأحداث عكس ذلك؛ إذ أدى الوزير مهامه الموكلة إليه بمهارة وكفاية، ولعل من أكثر الآراء موضوعية وإنصافاً لهذا الوزير ما عبّر عنه ابن الطقطقا(ت. 709هـ/1309م) بقوله: "إن القاسم بن عبيد الله من دهاة العالم، ومن أفاضل الوزراء، كان شهماً فاضلاً لبيباً محصلاً، كريماً مهيباً جباراً، وكان يُطعن في دينه"⁽⁵⁾.

* عهد أردشير: نسبة إلى أردشير الأول(226-242م) مؤسس الدولة الساسانية(226-651م)، وهذا العهد عبارة عن وصية تركها هذا الملك لأبنائه وأحفاده، بين لهم فيها القواعد والأسس التي يقوم عليها الملك الرشيد، ومع مرور الزمن تحولت هذه الوثيقة إلى ما يشبه الكتاب المقدس في الموروث الساساني. يُنظر: ابن مسكويه، ج1، ص(97-107). العابد، ص(39-40).

(1) الذهبي، سير، ج14، ص(19-20). الصفدي، ج24، ص(95-96).

(2) الذهبي، سير، ج14، ص19. الصفدي، ج24، ص95.

* إبراهيم بن محمد الزجاج: أبو إسحاق، وُلِدَ في بغداد عام 241هـ/855م، عمل خراطاً للزجاج في صباه، وإليه نُسب، ثم صاحب المبرد، وأخذ عنه النحو، وصار بعد ذلك أحد أعلام اللغة والنحو، وله في ذلك عدة مصنفات، منها: معاني القرآن، والاشتقاق، وخلق الإنسان، والأُمالي في الأدب واللغة. يُنظر: الزركلي، ج1، ص40.

(3) التتويحي، نشوار، ج6، ص202.

(4) سبط ابن الجوزي، ج16، ص304. ابن تغري بردي، النجوم، ج3، ص133.

(5) ابن الطقطقا، ص257.

وعلى الرّغم من صغر سنّ القاسم إلّا أنّه لم يُعمر طويلاً؛ فقد مرض في رمضان 291هـ/أغسطس 904م⁽¹⁾، ويبدو أنّ مرضه طال لعدّة شهور⁽²⁾، وكان المكتفي بالله يعود في مرضه، وبلغ به حزنه عليه في إحدى زيارته له بأن تمثّل في بيت شعر قال فيه:

(البحر الطويل)

ولمّا أبى إلّا جماحاً فؤادُهُ ولم يسلّ عن ليلى بمالٍ ولا أهلٍ
تسلّى بأخرى غيرها فإذا التّي تسلّى بها تُغري بليلى ولا تُسلي⁽³⁾

وعندما اشتدّ مرضه عجز عن القيام بمهامّه، فأناّب عنه ابن أخيه أبا أحمد عبد الوهاب بن الحسن ابن عبيد الله؛ للقيام بأعباء الوزارة⁽⁴⁾، ثمّ ما لبث أن توفّي في السّادس من ذي القعدة 291هـ/التاسع عشر من سبتمبر 904م⁽⁵⁾، في حين ينفرد المسعودي وابن خلّكان بأنّ وفاته كانت في ربيع الآخر/فبراير⁽⁶⁾، وقُدّر عمره وقتذاك بحدود الثلاثة والثلاثين عاماً⁽⁷⁾.

وتكاد المصادر التّاريخيّة تتفق على أنّ القاسم بن عبيد الله لعب دوراً رئيساً في تعيين الوزير الجديد من بعده، العباس بن الحسن⁽⁸⁾، وعند الحديث عن تفاصيل هذا الدور نجد أنّ ابن الصّابيّ أورد روايتين مختلفتين؛ فقد جاء في الرّواية الأولى أنّه حين اشتد المرض على القاسم كتب إلى المكتفي بالله يشير عليه بتولية العباس بن الحسن، وذكره له بما يرغبه فيه، ولاقى هذا الاختيار قبول فارس داية المكتفي بالله؛ لما للعباس من مكانة عندها؛ فقد سبق لها أن استكثّبتّه فأحسن خدمتها، وكان الخليفة كثير القبول منها، فما كان من الأخير إلّا وأن نزل عند رأي وزيره ودأبته في استوزار العباس

(1) التّوخي، نشوار، ج 7، ص 275. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 305. ابن كثير، ج 14، ص 726.

(2) سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 305.

(3) التّوخي، نشوار، ج 7، ص 275. ابن العمراني، ص 151. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 305.

(4) التّوخي، نشوار، ج 7، ص 275. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 305.

(5) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص 387. ابن الأثير، ج 6، ص 423. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 304. الذهبي، سير، ج 13، ص 484. ابن كثير، ج 14، ص 727.

(6) المسعودي، مروج، ج 4، ص 223. ابن خلّكان، ج 3، ص 362.

(7) ابن الأثير، ج 6، ص 423. ابن كثير، ج 14، ص 727.

(8) التّوخي، نشوار، ج 8، ص 157. ابن الصّابيّ، الوزراء، ص 50، ص (388-391). ابن الأبار، ص 186. ابن الطقطقا، ص 258. الذهبي، سير، ج 14، ص 52. الصّفي، ج 20، ص 18.

بن الحسن⁽¹⁾، أما الرواية الثانية، وهي التي ترددت في اقتضاب عند بعض المصادر التاريخية⁽²⁾؛ فقد أشارت إلى أن القاسم بن عبيد الله وجه في آخر ساعته كتاباً إلى المكتفي بالله يذكر فيه فضل علي بن عيسى والعباس بن الحسن، ويشير عليه باستوزار أحد الرجلين، فوقع قرار الخليفة في بادئه على علي بن عيسى؛ لما خبر فيه من حسن السيرة خلال مقامه معه في الرقة، غير أن الأخير استغفى عن ذلك، وطلب منه تنصيب العباس بن الحسن، فقبل المكتفي بالله رأيه بعد أن ضمن منه وقوفه إلى جانب العباس ومناصحته له إلى أن يستقيم له الأمر، وأثار هذا القرار استغراب العامة، خاصة في ظل وجود جماعة من كبار كتّاب الدواوين ممن لهم خبرة أكثر من العباس⁽³⁾، ويشير اختيار المكتفي بالله لعلي بن عيسى منذ الوهلة الأولى إلى حرص الخليفة على تولية الوزارة لأكبر الكفايات الإدارية، غير أن استعفاءه حال دون ذلك، ويشهد لعلي بن عيسى أنه كان من أكثر كتّاب العصر العباسي الثاني ووزرائه زهداً وكفاية وحرصاً على الصالح العام للدولة.

وفيما يتعلّق بهوية الوزير الجديد ونشأته؛ فهو أبو أحمد⁽⁴⁾، العباس بن الحسن بن أيوب بن سليمان الجرجاني*⁽⁵⁾، الذي وُلِدَ عام 247هـ/861م، ويقال: إنه لما عُملَ له مولد عُرضَ على الفلكي الشهير جعفر بن محمد البلخي(ت. 272هـ/886م)* فتنبأ له بما سيؤول إليه حاله قائلاً: "ما أعجب هذا الولد! لو كان هاشمياً لحُكِمَ له بالخلافة، لكن أحكم له بالوزارة"⁽⁶⁾، ويبدو أن العباس كان حديث العهد في العمل الإداري، وأن بادئ أمره فيه كان خلال وزارة القاسم بن عبيد الله⁽⁷⁾، وعلى الرغم

(1) ابن الصّابي، الوزراء، ص 250.

(2) التّوخي، نشوار، ج 8، ص 157. ابن الأبار، ص 186.

(3) ابن الصّابي، الوزراء، ص (388-391).

(4) ابن الصّابي، الوزراء، ص 249. الذهبي، سير، ج 13، ص 51.

* الجرجاني: نسبة إلى بلدة جرجرايا، وهي من أعمال النهروان، وتقع هذه البلدة إلى الشرق من بغداد بينها وبين واسط. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 123.

(5) الذهبي، سير، ج 14، ص 51.

* جعفر بن محمد البلخي: أبو معشر، درس الحديث والفلسفة خلال فترة كبيرة من حياته، وحين قارب الخمسين عدل عن ذلك، وانشغل بتحصيل علم الفلك، وغدا بعد ذلك إمام عصره في علوم النجوم، وألف في ذلك عدّة مصنفات، كان منها: الزيج، والألوف، والمواليد، والأمطار والرياح، والطبائع، وإثبات علم النجوم، واشتهر أبو معشر في الغرب خلال العصور الوسطى باسم (Albomasar). يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج 6، ص 530. الصفدي، ج 11، ص (103-104). الزركلي، ج 2، ص 127.

(6) الذهبي، سير، ج 14، ص (51-52). الصفدي، ج 24، ص 370.

(7) التّوخي، نشوار، ج 8، ص 156.

من ذلك فقد أظهر في غضون وقت قصير مهارة وكفاية قلّ مثيلها عند نظرائه من الكُتّاب⁽¹⁾، وشهد له أبو بكر الصولي في ذلك قائلاً: "ما رأيتُ أنا يداً أسرع بالخطّ من العباس، ولا أقلّ سقطاً مع إقامة حُرُوفه، واستواء سطورهِ، وملاحة خطّه، وكانَ لَهُ حَظٌّ وافر من البلاغة من غير تلبّث ولا تمكّث"⁽²⁾؛ ولعلّ ذلك هو ما أثار إعجاب القاسم بن عبيد الله به، فقرّبه إليه، واتخذ منه كاتباً له⁽³⁾، وسرعان ما صعد نجمه، وازدادت فعالية دوره الإداري، وأخذ يتقرب من الخليفة على حساب القاسم نفسه؛ فقد أورد ابن عساكر، وابن العديم أنّ رغبة العباس أن يكون في نظر المكتفي بالله أكثر رأياً وتديباً من القاسم، دفعته إلى أن يشير على الخليفة بمكانة الأمير الأغلب زيادة الله الثالث؛ لحنه على الطاعة، فلاقت الفكرة استحسان الخليفة، حيث وجّه كتاباً إلى الأمير الأغلب بخصوص ذلك، ولاقت هذه السفارة نجاحاً لافتاً، وحققت غايتها⁽⁴⁾، فكان لذلك أثره في ازدياد مكانة العباس عند المكتفي بالله.

وبخصوص هذه المكانة، فمن الطبيعي أن تكون امتداداً لما كان عليه الحال في عهد سلفه القاسم ابن عبيد الله، وكان من قبيل ذلك أنّ المكتفي بالله أطلق على العباس لقب كرب الدوّاء؛ ولعلّ ذلك جاء تأكيداً منه على منزلة وزيره عنده، وعلى سلامة سياسته في إدارة شؤون دولته⁽⁵⁾، وبدوره سعى العباس إلى تعزيز هذه المكانة عن طريق الإطاحة بكلّ من يهدّد مركزه من أرباب الدّولة، خاصّة العسكريين منهم، إلّا أنّه لم يرتقِ إلى درجة القسوة والجبروت التي انتهجها القاسم بن عبيد الله، وكان القائد محمد بن سليمان أبرز ضحايا العباس بن الحسن؛ فقد رأى الوزير في تعاضم نفوذ هذا القائد تهديداً جدياً لمركزه، خاصّة بعد النجاحات العسكريّة المتتالية التي حقّقها، حيث لعب العباس دوراً رئيساً في عزله عن ديوان الجيش، وسجنه فيما بعد⁽⁶⁾، وممن بطش بهم هذا الوزير كان القائد طغج بن جفّ الذي كان قد غادر مصر بعد سقوط الدّولة الطّولونيّة، واتجه إلى بغداد، حيث التقى بالمكتفي بالله، وأخذ يتقرب منه، فارتاب العباس لذلك، وممّا عزز شكوكه فيه تنكّره له، فأغرى

(1) الذهبي، سير، ج14، ص(51-52).

(2) الصّفي، ج16، ص370.

(3) التّوخي، نشوار، ج8، ص156. الذهبي، سير، ج14، ص52.

(4) ابن عساكر، ج19، ص128. ابن العديم، ج9، ص(3908-3970).

(5) الثّعالبي، ثمار، ص687.

(6) ابن العماد الحنبلي، ج3، ص386.

ال خليفة به حتّى سجنه هو وابنه محمداً، وما لبث أن مات طغج في السجن بعد ذلك⁽¹⁾، وكان لهذا الوزير تأثيره الخاصّ على المكتفي بالله؛ فقد أقنعه بأن يصرف نظره عن توجيه جيش برفقة الحجيج لتأمينهم من خطر القرامطة، وكان رأى العباس أن يؤجل ذلك إلى حين عودة الحجيج، فنزل الخليفة عند رأيه فكان ما كان من أمر الحج⁽²⁾، وعظم نفوذ الوزير العباس بن الحسن مع الوقت حتّى إنّه حلّ مكان الخليفة عند مرضه، وصار يباشر شؤون الدولة عوضاً عنه⁽³⁾، وبلغ الأمر أن المكتفي بالله كتب له في ساعاته الأخيرة يوصيه بماله وعياله⁽⁴⁾، وبلغ هذا النفوذ ذروته عندما لعب العباس ابن الحسن دوراً رئيساً في اختيار المقتدر بالله، ومبايعته بالخلافة⁽⁵⁾.

وفي المقابل نرى نفوذ الخليفة حاضراً داخل صلب اختصاصات الوزير، يمارس دوره في تنظيم سير العمل الإداري في دولته؛ ومن قبيل ذلك أن المكتفي بالله توعدّ العباس بن الحسن وحذّره من التعرّض لعلي بن الفرات ونكبه؛ وذلك بعد أن ثبت للخليفة عدم سلامة هذا القرار الذي صدر على أساس المصالح والعدوات الشخصية دون أن يكون هناك أيّ مراعاة للمصالح العامّة، وتأكّد صحة قرار المكتفي بالله بعد أن نجح علي بن الفرات بتصحيح مبلغ ثلاثين ألف دينار كادت أن تُحرّم منها خزينة الدولة؛ بفعل بعض الأخطاء التي وقع فيها عدد من الكُتّاب، فما كان من ابن الفرات إلّا أن حرّر كتاباً بخصوص ذلك وبعثه للوزير على وجه السرعة؛ ليقطع عليه أيّ طريق قد يسلكه للإيقاع به⁽⁶⁾.

وبخصوص الجوانب الإداريّة في سياسة العباس بن الحسن، فقد شكّل نهجه الإداري الخاص به، إضافة إلى طبيعته علاقته بكُتّاب الدواوين، وما رافق ذلك من تنافس محتدم بين هؤلاء الكُتّاب، محاور مختلفة ومهمّة لفهم عناصر هذه السّياسة، ومدى كفايته الإداريّة.

(1) ابن خلّكان، ج5، ص57. الصفدي، ج3، ص142.

(2) ابن الصّابيّ، رسوم، ص(47-48). ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(80-81).

(3) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص143.

(4) الصفدي، ج16، ص370.

(5) التّوخي، نشوار، ج5، ص(64-67). ابن مسكويه، ج5، ص3. ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(130-133). ابن الأثير،

ج6، ص438. ابن العبري، ص(268-269). الذهبي، سير، ج16، ص371.

(6) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(251-252).

ويبدو أنّ علاقة العباس بن الحسن المتوترة بعلي بن الفرات دفعت آل الجراح وفي مقدمتهم محمد ابن داود، وعلي بن عيسى، ومحمد بن عبدون(ت. 296هـ/908)*، إلى إذكاء هذه العداوة؛ لحمل الوزير على النيل من علي بن الفرات، ولعلّ العباس أدرك خطورة استمرارية ذلك؛ لما له من نتائج وخيمة على فعالية الأداء الإداري في الدولة، ولقطع الطريق على الواشين بآبن الفرات، تصالح مع الأخير على مرمى من نظر أرباب الدولة، وحتى يُحدِث نوعاً من التوازن داخل مؤسسات الدولة، أجرى بعض التغييرات؛ فقد عزل علياً بن الفرات عن ديوان الجيش، وولّاه ديوان الزمام** بعد أن عزل علياً بن عيسى عنه، أمّا ديوان الجيش فقد قلّده لمحمد بن عبدون⁽¹⁾.

وسرعان ما ظهرت جدوى هذا التغيير الإداري؛ فقد وقف علي بن الفرات على بعض المخالفات الماليّة التي وقع فيها ابن عبدون؛ وذلك بعد أن أصدر الأخير صكّين مكرّرين بقيمة مئة وعشرين ألف دينار للصكّ الواحد، فراسل ابن الفرات العباس بخصوص ذلك، وحينما ناظر الأخير ابن عبدون اعترف بخطئه، فأصدر الوزير أمره إلى صاحب بيت المال بألا يطلق شيئاً من المال من دون الرجوع لعلي بن الفرات، وحاول ابن عبدون أن يرجع التفريط الحاصل في ديوان الجيش إلى أيام ابن الفرات، غير أنّ الأخير ألزّمه الحجة، واستطاع دحض اتهامه له، وأثنى الوزير العباس على حسن تدبير ابن الفرات قائلاً: "حالك يا أبا الحسن في الضبط والاحتياط معروفة، وطريقتك في الاستيفاء والاستقصاء معلومة، وما بك إلى هذا القول حاجة"⁽²⁾.

وزدادت حدّة الصّراع الدائر بين آل الجراح وآبن الفرات؛ فقد التجأ علي بن عيسى وأخواه إبراهيم ومحمد إلى الوزير العباس بن الحسن، واتهموا ابن الفرات في حضرة الوزير بأنّه يحتال في دفع ما وجب عليه من بعض ضياعه، فردّ ابن الفرات بأنّه لا علم له بحال ضياعه؛ فهو لم يقف على أخبارها منذ عشرين يوماً، وأنّه قد سبق له أن كلّف عمّاله بتأدية الحقوق السلطانية المفروضة عليها

* محمد بن عبدون: من كبار كُتّاب الدواوين في عهد المكتفي بالله، ناصر عبد الله بن المعتز في خروجه على المقتدر بالله، وحين انقضى أمر ابن المعتز، كان ابن عبدون من القلائل الذين أمر المقتدر بالله بقتلهم. يُنظر: ابن مسكويه، ج5، ص(3-6). ابن الصّابى، الوزراء، ص(29-33).

** ديوان الزمام: استُحدث في خلافة المهدي عام(162هـ/778م)، وهو مجموعة من الدواوين الصغيرة التي عُرفت باسم دواوين الأُرمة، وكانت تتولى الإشراف على عمل دواوين الدولة. يُنظر: الدوري، العصر، ص131.

⁽¹⁾ ابن الصّابى، الوزراء، ص(252-254).

⁽²⁾ نفسه، ص257.

وكذلك فعلوا، ووضّح ابن الفرات للوزير أنّ مماطلة محمد بن عيسى بدفع ثمانية آلاف دينار كانت قد فُرِضَتْ عليه بعد أن ابتاع محصوله من الأرزّ هو ما حمل الأخير على رميه بهذه التهمة، فأنفذ الوزير في الحال بمنّ يجبي المال المقرّر على محمد بن عيسى⁽¹⁾.

ويبدو أنّ نجاحات علي ابن الفرات وعلو منزلته عند الوزير العباس بن الحسن أثار امتعاض محمد ابن عبدون عليه، وعزم الأخير أمره على أن يكون سبباً في نكبته؛ فاستمال إليه محمداً بن داود، وأخذ ابن عبدون يحيك المؤامرات ضدّ ابن الفرات، وطلب من الوزير إطلاع الخليفة على إقطاعات ابن الفرات، وما وقع منه من تقصير في أداء أعماله، ولم يترك ابن عبدون طريقاً يمكن من خلالها أن ينال من ابن الفرات إلّا وسلكه، حتّى إنّه في سبيل ذلك تجرّد من كلّ شيء، وحاول ابن عبدون أن يستميل علياً بن عيسى إلى صفّه بعد أن مثّاه على لسان الخليفة بأنّه سيحلّ محلّ ابن الفرات حال عزله، غير أنّ علياً بن عيسى رفض ذلك، وصرّح له بأنّه في حال تقلّد هذه الأعمال لن يسير وفق مصالحهم ورغباتهم، فلا بدّ له من أن يضبط الأمور على وجهها الصحيح، ويبدو أنّ دعوات ابن عبدون وجدت صدّى لها في نفس الوزير والخليفة، فلجأ ابن الفرات إلى علي بن عيسى، وتعهّد الأخير له بأنّه كفيل بعمّه محمد بن داود بالآلا يتعرّض له، وأشار عليه في الوقت نفسه أن يستودع مبلغ خمسين ألف دينار في بيت مال الخاصّة؛* لتكون ضماناً منه على عدم تعرّضه لمال الدّولة، فقبل ابن الفرات رأيه، ومضى إلى الوزير، ودفع إليه هذا المبلغ، وشرح له قصده من ذلك، وحين اطّلع المكتفي بالله على ذلك، أطرى على علي بن الفرات، وذكر منزلته عنده، وأكد أنّه من الاستحالة أن يتعرّض له ما دام لم يبدّر منه أيّ إهمال أو تقصير يؤخذ بجريته⁽²⁾.

وكان العباس بن الحسن صارماً في التعامل مع عمّال الولايات، حريصاً على أن يؤدّوا ما فُرِضَ عليهم من التزامات السلطة المركزية في بغداد؛ ومن قبيل ذلك أنّ عامل البصرة علياً بن أحمد بن

(1) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(257-258).

* بيت مال الخاصّة: أحد فروع بيت المال، ويخضع لسيطرة الخليفة المباشرة، ويُعنى هذا الديوان بالإشراف على وارد ضياع الخليفة وأملاكه، وغيرها من الواردات التي يأمر أن تودّع فيه، ويتولّى هذا الديوان تغطية نفقات الخليفة الخاصّة، وقد يتعدّى الأمر أحياناً إلى تأمين بعض نفقات الدّولة، كالحملات العسكريّة، وبناء المنشآت المعماريّة وترميمها. يُنظر: السامرائي، المؤسسات، ص(247-248).

(2) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(153-154).

يحيى بن أبي البغل* حاول أن يحتال على الوزير العباس في دفع مال الصدقة الذي تقرّر إخراجَه عام 293هـ/906م؛ فقد سبق لابن أبي البغل أن بعث كتاباً إلى الوزير ذكر فيه مقدار ما عقده في أرض العرب** بالبصرة من مال الصدقة هذا العام، والبالغ مئة وعشرة ألف دينار، موضحاً أن غيره عقدوا في العام المنصرم أقلّ من ذلك بكثير، وهو ما قُدِّرَ حينها بستة وتسعين ألف دينار، ولمّا تحقّق كُتّاب ديوان الخراج من صحة ذلك، وجّهوا كتاب هذا الوالي إلى ابن الفرات؛ ليدرسه، وعندما تأكّد للأخير مقدار هذه الزيادة وكيفيتها، رفع توصيته إلى الوزير بتحرير كتاب يطالب فيه ابن أبي البغل بإرسال مقدار المال الذي ذكره، وحين وصل كتاب الوزير إلى ابن أبي البغل تهرب الأخير من دفع المبلغ كاملاً؛ متذرعاً بأنّ كاتبه وقع في خطأ حين جمع مال الشعبي والوالدي،*** وأضافها إلى الصدقات، وأنّ الفرق الحقيقي في مقدار مال الصدقات عن عام 292هـ/905م هو ستة آلاف دينار لا غير، وبالتّزامن مع ذلك كتب ابن أبي البغل إلى أنصاره من الكُتّاب بمساندة موقفه أمام الوزير، إلّا أنّ الأخير أصرّ على أن يرسل المبلغ كاملاً؛ مؤكداً على أنّه كيف لابن أبي البغل أن ينكر ما أقرّه سابقاً، وأنّ تذّره بأنّ ما وقع منه كان سهواً ما هي إلّا حجة واهية يتعذّر على الكُتّاب أن يقعو بمثلها، وبعد أن ألزم الوزير الكُتّاب الحجة في ذلك، بعث في الحال كتابه إلى ابن أبي البغل مطالباً إياه بإرسال المبلغ كاملاً غير منقوص⁽¹⁾.

وبلغ حرص العباس بن الحسن أنّه كان يتتبع أخبار كُتّابه، ويسعى في الوقت نفسه على الوقوف على ما استجدّ لهم من أملاك وأموال؛ ومن قبيل ذلك ورود عدّة كتب إليه ترصد له ما طرأ على أملاك كلّ من محمد بن داود، وعلي بن عيسى، ومحمد بن عبدون، وعلي بن الفرات، ولمّا فرغ من قراءتها كاشف كُتّابه وناظرهم بها⁽²⁾، وكان لهذا الوزير نشاطه في محاربة الفتوق والثورات، وظهر

* علي بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل: أبو الحسن، كان إلى جانب أخيه أبي الحسين محمد (ت. 313هـ/925م) من ضمن كُتّاب الحضرة خلال خلافة المقتدر بالله، وقد أوعز الأخير إلى أبي الحسن الإشراف على مصادرة أموال الوزير علي بن الفرات حين عزله عن ولايته الثالثة، ثم وُلّاه بعد ذلك بعض نواحي واسط. يُنظر: ابن الصّابي، الوزراء، ص285، ص292، ص(294-295).

** أرض العرب بالبصرة: منطقة جغرافيّة تقع جنوب البصرة، وتمتد بين نهر الأبلّة شرقاً إلى نهر القندل غرباً. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج5، ص323.

*** مال الشعبي والوالدي: لم تعثر لهما الدّراسة على ترجمة.

(1) ابن الصّابي، الوزراء، ص(185-187).

(2) نفسه، ص(242-243).

ذلك بشكل جلي خلال ثورة الخليجي، وعندما انتهت هذه الثورة خلع الخليفة على وزيره العباس، وذكر فضله في هذا النصر⁽¹⁾.

ومكث العباس بن الحسن وزيراً للمكتفي بالله حتى وفاة الأخير، وحين بويع المقتدر بالله بالخلافة أبقى العباس في منصبه، وظلّ على ذلك إلى أن قُتِلَ بعد أشهر في فتنة ابن المعتز، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ربيع الأول 296هـ/السّادس عشر من ديسمبر 908م⁽²⁾.

القضاء

نشأ القضاء في الإسلام منذ قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ومع مرور الزمن نما جهازه وتطور تنظيمه الإداري حتى بلغ ذروته خلال العصر العباسي، ونظراً لأهمية القضاء وحيويته في الإسلام، فقد أخذ عديد من الخلفاء على عاتقهم مهمة اختيار كبار القضاة وتعيينهم، سواء كان ذلك في العاصمة أو في الأمصار، ولعلّ من أبرز مظاهر تطور النظام القضائي استحداث منصب قاضي القضاة منذ العصر العباسي الأول؛ ما جعل الأخير يضطلع بمهمة تعيين القضاة والإشراف على عملهم، فأسهم هذا بدوره في تكريس مبدأ استقلال القضاء وانفصاله عن السلطة التنفيذية، وكحال أي مؤسسة في الدولة العباسية فقد تأثر النظام القضائي بحالة القوة والانتعاش، والانحطاط والتدهور خلال فترات الضعف⁽³⁾. وعلى الأغلب أنّ منصب قاضي القضاة كان شاغراً في عهد المكتفي بالله، ويبدو أنّ هذه العادة كانت دارجة في بعض الفترات⁽⁴⁾؛ ونظراً لذلك فقد كانت صلاحيات هذه المنصب من اختصاص الخليفة الذي مارس دوره الرئيس في تعيين القضاة وعزلهم، سواء كان ذلك داخل بغداد أو خارجها⁽⁵⁾.

(1) الطبري، ج10، ص129. ابن سعيد القرطبي، ص21. ابن مسكويه، ج4، ص421.

(2) الطبري، ج10، ص140. المسعودي، مروج، ج4، ص233. ابن سعيد القرطبي، ص28، ص31. ابن الأثير، ج6، ص(438-439).

(3) الرّحيلي، ص(226-228)، ص287.

(4) العلي، ص(197-198).

(5) الكندي، ص518. التّوخي، نشوار، ج6، ص122. الخطيب البغدادي، ج11، ص179. سبط ابن الجوزي، ج16، ص420. المقرئزي، الخطط، ج4، ص20.

وكان الخليفة المكتفي بالله من أحرص الناس على إشاعة العدل بين العامة والخاصة، حيث يجلس بنفسه للنظر في مظالم العامة وخصوماتهم، وردّ الحقوق إلى أهلها⁽¹⁾؛ ومن قبيل ذلك أنّ تجّار بغداد شكوا إليه حدوث عديد من السرقات التي ضرتّ بأموالهم ومصالحهم، فسارع إلى إحضار صاحب الشرطة أحمد بن محمد الوائقي، وأمره بالإسراع في الكشف عن اللصوص والقبض عليهم، وإلا سيغرمه مبلغاً من المال؛ جرّاء تقاعسه في عمله، فاستنفر الوائقي رجاله في الليل والنهار، وجدّ في البحث عن اللصوص حتّى تمكّن من القبض عليهم، واثّر ذلك زدت أغلب الأموال التي سُرفت إلى أصحابها⁽²⁾، وفي خارج بغداد تتبّع المكتفي بالله أخبار ولاته داخل ولاياتهم، وكان يرفع أيّ ظلم يقع منهم على الرعية؛ ومن ذلك أنّه أمر بضرب عامل الخراج في قرية بارجان* ألف سوط؛ جرّاء تعسفه في تحصيل الخراج بعد أن عمد إلى إحراق أحد البيوت في أثناء قيامه بعمله⁽³⁾، وتعدّى الأمر أحياناً إلى عزل بعض الولاة إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك؛ فقد عزل سنة 290هـ/903م والي النُغور مظفر بن الحاج بعد أن تذرّ منه أهل ولايته للخليفة⁽⁴⁾.

ولم يمارس القضاة في عهد المكتفي بالله دوراً يُذكر في إدارة دفة الحكم في الدولة، وكان حضورهم إلى مجلس الخليفة جزءاً من البرتوكولات الرسمية المعمول بها في هذه الفترة، خاصّة فيما يتعلّق بالشهادة على بعض إجراءات الدولة السيّاسيّة والإداريّة، وكان من قبيل ذلك إحضار الخليفة لكلّ من القاضي أبي حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، والقاضي يوسف بن يعقوب(ت. 297هـ/909م)* وابنه القاضي محمد، حين عقد لطاهر بن محمد بن عمرو الصفار على بلاد فارس عام

(1) الطّبري، ج10، ص97. التّوحي، نشوار، ج2، ص24. ابن العمراني، ص15. ابن الأثير، ج6، ص420. سبط ابن الجوزي، ج16، ص259. الصفدي، ج8، ص(89-90).

(2) الصفدي، ج8، ص(89-90).

* بارجان: من قرى أعمال أصبهان. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج1، ص319.

(3) التّوحي، نشوار، ج2، ص24.

(4) الطّبري، ج10، ص97. ابن الأثير، ج6، ص420.

* يوسف بن يعقوب: بن إسماعيل الأزدي البصري، أبو محمد القاضي، وُلد عام 208هـ/823م، من مشاهير القضاة في العصر العباسي الثّاني، تولّى قضاء البصرة عام 276هـ/889م، ثمّ أضيف إليه بعد مدّة قضاء واسط والجانب الشّرقي في بغداد، أثّر عنه أنّه كان رجلاً صالحاً، ثقة، أميناً، عالماً، روى عنه الناس كثير من الأحاديث، وشهد له بحُسن مذهبه في القضاء؛ فقد كان "شديداً في الحكم، لا يرقب فيه أحداً". يُنظر: الخطيب البغدادي، ج16، ص(456-458). الذهبي، تاريخ، ج6، ص1069.

290هـ/903م⁽¹⁾، وظهر ذلك أيضاً حينما أراد المكتفي بالله أن يكون عهده لأخيه جعفر بحضور عدد من القضاة⁽²⁾، ومنهم محمد بن يوسف، وعبد الله بن علي بن أبي الشوارب(ت). 298هـ/911م⁽³⁾، وعلى الرغم من هذا الدور الثانوي فقد كان للقضاء مكانته واستقلاله في عهد هذا الخليفة؛ ولعل من أبرز الأمثلة الدالة على ذلك رفض القاضي أبي حازم أن يكون جزءاً من خطة الوزير القاسم بن عبيد الله الرامية للإطاحة ببدر المعتضدي؛ وذلك بعد أن شكك بنوايا الوزير بخصوص طلب الأمان المُنوي توجيهه معه إلى بدر، وحتى يستوثق أبو حازم من صحة هذا الأمان، طلب سماع ذلك شفويّاً من الخليفة؛ ما سبّب انزعاج الوزير منه، وفي المقابل نجد القاضي أبا عمر محمد بن يوسف قبل بما لم يرض به أبو حازم؛ وإن كان قد غرّر به، وقد كان ذلك سبباً في طعن الناس به⁽⁴⁾.

وعُرفت مدينة بغداد في عهد المكتفي بالله عدداً من القضاة، كان منهم أبو حازم⁽⁵⁾، وقيل: أبو حازم⁽⁶⁾، عبد الحميد بن عبد العزيز⁽⁷⁾ البصري الحنفي⁽⁸⁾، وكان أبو حازم فيما مضى قد تولّى قضاء دمشق والأردن وفلسطين لأحمد بن طولون، ثم تقلد بعدها قضاء الكوفة⁽⁹⁾، وبعد ذلك ولّاه المعتضد بالله على قضاء الشّرقية* عام 383هـ/993م، وحين تولّى المكتفي بالله أبقاه في منصبه، ومكث

(1) الطّبري، ج10، ص98.

(2) المسعودي، مروج، ج4، ص231. ابن سعيد القرطبي، ص27. ابن الجوزي، ج13، ص60. ابن كثير، ج14، ص743.

(3) المسعودي، مروج، ج4، ص231.

(4) الطّبري، ج10، ص(90-91). المسعودي، مروج، ج4، ص220. ابن مسكويه، ج4، ص(400-401). ابن الجوزي، ج13، ص10. ابن الأثير، ج6، ص413.

(5) الطّبري، ج10، ص91. التّوحي، نشوار، ج1، ص239. القضاعي، ص488. الخطيب البغدادي، ج12، ص338. ابن الجوزي، ج13، ص38. سبط ابن الجوزي، ج16، ص311. الذهبي، سير، ج13، ص485.

(6) المسعودي، التنبية، ص322. ابن مسكويه، ج4، ص400. ابن الأثير، ج6، ص425. النويري، ج23، ص9.

(7) الخطيب البغدادي، ج12، ص338. ابن الجوزي، ج13، ص38. ابن الأثير، ج6، ص425. سبط ابن الجوزي، ج16، ص311.

(8) الخطيب البغدادي، ج12، ص338.

(9) سبط ابن الجوزي، ج16، ص311.

* الشّرقية: وهي خلاف الجانب الشّرق (الرصافة)، وعُرفت بالشّرقية؛ لوقوعها شرقي الصّراة، والصّراة اسم لنهر يرفد من نهر عيسى، ويقال أيضاً إنّ المهدي عزم أول أمره على بناء مدينته فيها، إلّا أنّه عدل عن ذلك إلى الجانب الشّرق، وبذلك استُهِتَر بالشّرقية. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج3، ص399. العلي، ص174، ص179.

على ذلك إلى أن توفي في جمادى الآخرة 292هـ/إبريل 905م⁽¹⁾، وشهد لأبي حازم بأنه من أفاضل القضاة؛ فقد كان ورعاً، تقياً، غزير العلم، عارفاً بعلوم الشرع، والجبر والمقابلة، وسائر علوم الحساب⁽²⁾، وحرص هذا القاضي على إحقاق العدل ونزاهة القضاء؛ فقد بلغ به الأمر أنه غضب من رجل ذكر له عفة قاضٍ وُلّي عليهم؛ فهو يرى أن العفة صفة وجب على القاضي أن يكون فوقها، وأن الرجل لم يبادر إلى قول ذلك إلا في زمان خبر فيه الناس قضاة انتفت عنهم صفة العفة والورع⁽³⁾.

وبعد أن توفي أبو حازم ولّى المكتفي بالله مكانه على الشرقية القاضي أبا عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب الأزدي (243-320هـ/875-932م)، الذي سبق له أن تولّى قضاء مدينة المنصور* عام 284هـ/897م، وضمّ إليه الخليفة خلال ذلك قضاء الجانب الشرقي، وكان والده القاضي يوسف بن يعقوب يساعده على القيام بمهامه، وبقي في منصبه إلى أن عزله المقتدر بالله سنة 296هـ/909م، وظلّ معتزلاً القضاء حتى سنة 301هـ/912م، وفي عام 317هـ/929م قلّده المقتدر بالله منصب قاضي القضاة، ويبدو أنه مكث في منصبه إلى أن توفي سنة 320هـ/932م، وعُرف عن أبي عمر أنه كان ثقة، فاضلاً، واسع العلم، لا نظير له بين القضاة في راحة عقله وذكائه⁽⁴⁾، وكان زاهداً في المال حتى افتقر إليه؛ فقد ورد عنه أنه عجز ذات يوم عن إكرام ضيف نزل في بيته⁽⁵⁾، وحرص أبو عمر على انتظام شؤون القضاء، واستيفاء حقوق العباد؛ ومن قبيل ذلك أنه عزل أحد أبناء الإمام أحمد بن حنبل (ت. 241هـ/855م) عن القضاء؛ لشبهة وردت إليه فيه⁽⁶⁾.

(1) الخطيب البغدادي، ج 12، ص 339، ص 344. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 311، ص 113. يُنظر أيضاً: العلي، ص 197.

(2) الخطيب البغدادي، ج 12، ص (338-339). سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 311.

(3) التتويحي، نشوار، ج 1، ص 239. ابن الجوزي، ج 13، ص (42-43).

* مدينة المنصور أو المنصورة: بغداد القديمة التي بناها أبو جعفر المنصور، وهي التي تُعرف بالمدورة. يُنظر: العلي، ص 170.

(4) الخطيب البغدادي، ج 4، ص (635-639). ابن الجوزي، ج 13، ص (313-315). يُنظر أيضاً: العلي، ص 197.

(5) التتويحي، الفرّج، ج 3، ص (228-229).

(6) التتويحي، نشوار، ج 1، ص 238.

وبعد أن نُقِلَ القاضي أبو عمر محمد بن يوسف إلى الشَّرْقِيَّة سنة 292هـ/905م، عيّن المكتفي بالله مكانه على قضاء مدينة المنصور⁽¹⁾ القاضي أبا العباس⁽²⁾، عبد الله بن علي بن محمد بن أبي الشوارب الأموري، ولم يزل الأخير في منصبه إلى أن نقله المقتدر بالله سنة 296هـ/909م إلى الجانب الشرقي⁽³⁾، ومكث على ذلك إلى أن توفي سنة 298هـ/911م⁽⁴⁾.

وكان ممّن تولّى القضاء في بلاد العراق خلال عهد المكتفي بالله أبو جعفر⁽⁵⁾، أحمد بن إسحاق بن البهلول (231-317هـ/844-929م)⁽⁶⁾، وكان من مشاهير القضاء؛ حيث سبق له أن تولّى ما يقرب من عشرين عاماً قضاء مدينة المنصور⁽⁷⁾، والشرقية، والجانب الشرقي⁽⁸⁾، وكان قد تقلّد عام 276هـ/889م القضاء في الأنبار، وهيت، وطريق الفرات، وظلّ على ذلك حتّى أيام المكتفي بالله، فأُضيف إليه الأخير عام 292هـ/905م بعض كور الجبال، ومكث في منصبه هذا حتّى فتنة ابن المعتز، حيث قلّده المقتدر بالله قضاء مدينة المنصور، وضمّ إليه حينها بعض المناطق، وأقام على ذلك إلى أن توفي سنة 317هـ/929م، وشهد لأبي جعفر بالبنان؛ فقد كان ورعاً، ثقة، عالماً، وإضافة إلى العلوم الشرعية، حاز أنواعاً شتى من العلوم كان أبرزها علوم اللغة وفنونها؛ من أدب ونحو وشعر وخطابة، وغير ذلك⁽⁹⁾، وكان عظيم الهيبة للقضاء، حريصاً على هيبة منصبه؛ حتّى إنّه من قبيل ذلك سارع إلى ارتداء قلنسوته واعتدل في جلسته حينما دخل عليه في مجلسه حفيده البالغ من العمر عشر سنوات⁽¹⁰⁾.

(1) التّوخي، نشوار، ج6، ص122. الخطيب البغدادي، ج11، ص179. سبط ابن الجوزي، ج16، ص420. يُنظر أيضاً: العلي، ص197.

(2) الخطيب البغدادي، ج11، ص179.

(3) التّوخي، نشوار، ج6، ص122. الخطيب البغدادي، ج11، ص179. سبط ابن الجوزي، ج16، ص(420-421).

(4) الخطيب البغدادي، ج11، ص179. سبط ابن الجوزي، ج16، ص421.

(5) الخطيب البغدادي، ج5، ص51.

(6) الخطيب البغدادي، ج5، ص51، ص53. التّوخي، نشوار، ج5، ص214.

(7) الخطيب البغدادي، ج5، ص51. يُنظر أيضاً: العلي، ص196.

(8) العلي، ص196.

(9) الخطيب البغدادي، ج5، ص(53-54). التّوخي، نشوار، ج5، ص(213-215).

(10) التّوخي، نشوار، ج1، ص47.

وفيما يتعلّق بقضاة الأمصار في عهد المكتفي بالله، فلم نستطع الوقوف على أحوال هذه المؤسسة داخل أغلب هذه الولايات عدا ولاية مصر التي قدّم لنا عنها مؤرخها الكندي في كتابة الولاية وكتاب القضاة ما يكفي من التفاصيل لإعطاء صورة عن أحوال هذه المؤسسة خلال هذه الفترة، ونقلاً عن الأخير، فقد ولّى محمد بن سليمان على قضاء مصر حال سيطرته عليها أبا عبيد الله، محمد بن عبدة بن حرب (218-319هـ/833-931م)، وقد سبق للأخير أن تولّى القضاء في مصر خلال عهد أحمد بن طولون بين عامي 277-283هـ/890-896م، ولم يمكث في ولايته الثانية إلا ثلاثة أشهر؛ فقد خرج مع محمد بن سليمان حين غادر مصر عائداً إلى العراق، وظلّت مصر من غير قاضٍ يتولّى الإشراف على شؤون القضاء فيها إلى أن عيّن المكتفي بالله على قضائها، في شعبان عام 293هـ/مايو 906م، أبا عبيد، علياً بن حسين بن حرب (237-319هـ/853-931م)، قاضي واسط الأسبق، واشتهر هذا القاضي بلقب حربويه، ومكث في منصبه إلى أن عُزل سنة 313هـ/925م، وشُهِدَ لحربويه بالعلم، والورع، والعفة⁽¹⁾، ويُذكر له أنّه كان آخر قاضٍ سار أمراء مصر إلى مجلسه، وبلغت به عزّة نفسه وعدالته أنّه كان لا يقوم للأمير إذا حضر إليه⁽²⁾، وقد سبق للمكتفي بالله أن عيّن عام 292هـ/905م حمزة بن أيوب بن إبراهيم الهاشمي على القصاص في مصر⁽³⁾.

ولاية العهد

تُعَدّ مسألة ولاية العهد وإشكاليّتها أحد أبرز القضايا التي أثّرت حولها الخلافات في التاريخ الإسلامي، ولطالما كانت هذه المسألة مصدراً للنزاعات التي ولّدت الفرقة والافتتال بين أفراد الأسر الحاكمة؛ ما ترك بدوره أثراً بالغاً ذا تداعيات وخيمة على أمن الدولة واستقرارها، وانحصرت مهمة اختيار ولي العهد في العصر العبّاسي الأوّل في شخص الخليفة، ولم يخلُ الأمر من بعض المؤثرات الداخليّة المتمثلة بدور الحاشية، وفي ظلّ الضعف الذي أصاب مؤسسة الخلافة في العصر العبّاسي الثاني، فقد جُردَ معظم الخلفاء من هذا الامتياز لصالح القوى المتغلّبة عليهم، وفي طليعتها كان العنصر

(1) الكندي، ص (514-518)، ص (523-531).

(2) الكندي، ص 528. يُنظر أيضاً: الرّحيلي، ص 233.

(3) المقرئزي، الخطط، ج 4، ص 20.

التركي عماد الجيش العبّاسي خلال هذه الفترة، واستهان القادة الأتراك بحرمة الخلافة، وتلاعبوا بالخلفاء كيفما شاؤوا، وفق ما ثُمليه عليهم مصالحهم ورغباتهم؛ فصاروا يعزلون كلّ مَنْ يرون فيه تهديداً لنفوذهم، وفي المقابل يولّون كلّ من يتوسّمون فيه الضعف؛ حتّى يكون أكثر انقياداً لمصالحهم، ومتماشياً مع رغباتهم، ولم تكن فترة الصحوة بمنأى عن هذه التأثيرات وإن قلّت فعاليتها بشكر كبير، خاصّة في ظلّ صعود نجم الوزارة، وما كان له من دور في هذه المسألة.

ويتّضح لنا من خلال المصادر التّاريخيّة حرص المكتفي بالله خلال المراحل الأولى من مرضه الذي سبق وفاته على حصر الخلافة في إخوته من بعده، غير أنّ صِغَر سنهم حال دون اتخاذ قراراً صريحاً بخصوص ذلك⁽¹⁾، ولا يُعرَف سبب عزوف المكتفي بالله عن تسمية أحد أبنائه لولاية العهد، ويعلّل الباحث مسامح حجّو في رسالته الموسومة بـ "ولاية العهد في العصر العبّاسي الثّاني" على نحو خاطئ هذا الإحجام أنّه كان بسبب صِغَر سنّ أولاده؛ لاعتقاده أنّ ابنه عبد الله المستكفي بالله كان أكبر أبنائه الذكور، مع العلم أنّ عُمُر الأخير يوم وفاة أبيه كان ثلاث أعوام⁽²⁾، وتجاهل حجّو أنّ محمداً هو أكبر أبناء المكتفي بالله، وأنّه به كان يُكَنّى⁽³⁾، وقد سبق لمحمد أن تزوّج في الأعوام الأولى من خلافة أبيه عام 291هـ/904م⁽⁴⁾، وبذلك تنتفي صحة أنّ عدم وجود أبناء بالغين للمكتفي بالله قد شكّل عائقاً أمام توليته لأحدهم؛ فقد كان محمد أبرز المرشحين لو وُجدت الرغبة عند والده بخصوص ذلك.

وعندما مرض المكتفي بالله، كان منصب ولاية العهد شاغراً، وفي ظلّ الحاجة الملحة إلى تعيين ولي للعهد، أخذ يتردّد على السنة العامّة اسماً عبد الله بن المعتز، ومحمد بن المعتمد على الله؛ على اعتبار أنّهما أبرز المرشحين لمنصب ولاية العهد، وعندما عُرضَ على الخليفة أن ينكّل بهما رفض ذلك، خاصّة بعد أن تأكّد له عدم وجود مساعٍ لديهما في الوصول إلى الخلافة⁽⁵⁾، وعلى الرّغم

(1) ابن سعيد القرطبي، ص 27. ابن الجوزي، ج 13، ص 60. ابن كثير، ج 14، ص 743.

(2) حجّو، ص 41.

(3) الطّبري، ج 10، ص 138. ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. المسعودي، التّنبية، ص 321. الكندي، ص 243. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج 13، ص 212.

(4) الطّبري، ج 10، ص 115. الذهبي، سير، ج 13، ص 482. الصّفي، ج 24، ص 95. ابن تغري بردي، النّجوم، ج 3، ص 131.

(5) ابن العمراني، ص 152. ابن سعيد القرطبي، ص 27.

من ذلك فقد أوقع هذا الكلام في نفس الخليفة الخوف والريبة، فأخذ يفكر جدياً في نقل الخلافة إلى أخيه جعفر (1).

وينفرد هنا ابن سعيد القرطبي بالقول: إنّ الوزير العباس بن الحسن قد سبق له أن تفاوض مع محمد بن المعتمد على الله بخصوص نقل الخلافة إليه حال وفاة المكتفي بالله مقابل بقائه في منصبه، وعقد هذا الاتفاق بحضور القاضي محمد بن يوسف الذي كان بدوره الشاهد الوحيد على ذلك، وأكد محمد بن المعتمد على الله التزامه بالوعود التي قطعها للوزير العباس، إلا أنه رفض في الوقت نفسه أخذ بيعة الخلافة منه؛ حفظاً لعهد المكتفي بالله ودمته، والذي لا زال في حينها على قيد الحياة، وانصرف المجتمعون عن مجلسهم وهم عازمون في نيتهم على تنفيذ ما اتفقوا عليه، غير أنّ محمداً بن المعتمد على الله ما لبث أن أُصيب بفالج* في شهر رمضان، ومات إثر ذلك، وبذلك انصرفت نية الوزير عنه؛ أملاً في تولية غيره، ولا يمكن التسليم تماماً بصحة هذه الرواية، خاصة أنّ صاحبها أكد لاحقاً عدم وجود أيّ أطماع عند ابن المعتمد على الله في خلافة المكتفي بالله (2)، وما يعزز هذا الشك ورود هذه الرواية عند مصادر أخرى في ظروف مغايرة؛ وتدور أحداثها هذه المرة حول رغبة الوزير العباس بن الحسن في خلع المقتدر بالله عن الخلافة، وتولية محمد بن المعتمد على الله عوضاً عنه، بعد أن كثر كلام الناس على صغر سنّ المقتدر بالله (3).

وتشير المصادر التاريخية إلى أنّ الوزير العباس بن الحسن اجتمع بكبار كتّاب الدواوين (4)، وهم محمد بن داود، وعلي بن عيسى، وعلي بن الفرات، ومحمد بن عبدون، وشاورهم بخصوص من يصلح للخلافة بعد المكتفي بالله، فوقع اختيار محمد بن داود على عبد الله بن المعتز؛ كونه أكبر الأمراء العباسيين وأكثرهم تمسكاً ودراية بشؤون الحكم والسياسة، وكان هذا الاختيار موافقاً لرغبة الوزير العباس بن الحسن (5)، أمّا علي بن عيسى فقد أحجم عن إبداء رأيه، إلا أنه نصح الوزير أن

(1) ابن سعيد القرطبي، ص 27.

* مرض الفالج: والفالج في اللغة هو شقّ النصفين، وهو مرض أقرب ما يكون إلى الشلل النصفي. يُنظر: مرتضى الزبيدي، ج 6، ص 154، ص 159.

(2) ابن سعيد القرطبي، ص (26-27).

(3) ابن مسكويه، ج 5، ص 4. ابن الأثير، ج 6، ص 439. النويري، ج 23، ص 11.

(4) التتويحي، نشوار، ج 64. ابن مسكويه، ج 5، ص 3. ابن الصّابيّ، الوزراء، ص 131. ابن الأثير، ج 6، ص 483.

(5) ابن مسكويه، ج 5، ص 3. ابن الأثير، ج 6، ص 438.

يَتَّقِي اللَّهَ، ويراعي صالح المسلمين بذلك⁽¹⁾، وعبر عن ذلك بقوله له: "فَقَلَّدَ هذا شيخاً قد فهم الأمور، وعُرفَ بالصواب الرأي والتدبير بعمارة هذه الثُّغُور، وحجَّ البيت المعمور، ويقيم الحدود"⁽²⁾، وبذلك جاء موقف علي بن عيسى متفقاً من دون أن يُسمِّي مرشحه مع رغبة الوزير وبعض كُتَّابه بتولية ابن المعتز.

وعلى عكس المتوقع، جاء رأي علي بن الفرات مخالفاً لما استقرَّ عليه رأي الوزير وأغلب الكُتَّاب؛ فقد حذر ابن الفرات الوزير العباس بن الحسن من تنصيب ابن المعتز؛ حرصاً منه على الإبقاء على امتيازاتهم، وتعزيز نفوذهم في الدولة، وأنَّ هذا الأمر لن يتحقق إذا ما وُلِّي ابن المعتز؛ لما للأخير من خبرة ودراية في شؤون الحكم والإدارة، وزاد ابن الفرات من مخاوف الوزير تُجاه ابن المعتز بعد أن ذكره بمعاملته القاسية له، وأنه لن يتردد في الإطاحة به إن تمَّ الأمر له، وأشار علي بن الفرات على الوزير العباس بن الحسن بتولية جعفر بن المعتضد بالله؛ ونظراً لصغر سنِّ الأخير أبدى الوزير استغرابه من هذا الاختيار، فوضَّح له ابن الفرات أنَّ ما عليه سوى إعلان خبر التولية تحت شعار الولاء للمعتضد بالله⁽³⁾، وأن يباشر فوراً في إطلاق مال البيعة؛ لتسكن نفوس الخاصة والجند، ومنعاً لاندلاع أيِّ شكل من مظاهر العصيان والتمرد، وبشَّر ابن الفرات الوزير بأنَّه في حال تمَّ ذلك، فسوف يكون جعفر "ال خليفة على الاسم، وأنت على الحقيقة"⁽⁴⁾، فمال العباس إلى رأي ابن الفرات وتبناه، وحرص على إنفاذه⁽⁵⁾.

وبعد أن كثر اللغط بخصوص ولاية العهد، خاف المكتفي بالله أن تُصرف الخلافة عن إخوته، وخلال أيامه الأخيرة في شهر ذي القعدة/ أغسطس، سأل الخليفة عن أخيه جعفر، فصحَّ عنده أنَّه بلَّغ، فاستدعى على الحال القاضيين محمداً بن يوسف وعبد الله بن الشوارب، وأشهدهما أنَّه قد

(1) ابن مسكويه، ج5، ص3. ابن الصَّابِي، الوزراء، ص143. ابن الأثير، ج6، ص438.

(2) ابن الصَّابِي، الوزراء، ص143.

(3) التَّوْخِي، نشوار، ج5، ص(65-66). ابن مسكويه، ج5، ص3. ابن الصَّابِي، الوزراء، ص(131-132). ابن الأثير، ج6، ص438.

(4) التَّوْخِي، نشوار، ج5، ص(65-66). ابن الصَّابِي، الوزراء، ص132، ص143.

(5) التَّوْخِي، نشوار، ج5، ص67. ابن مسكويه، ج5، ص3. ابن الصَّابِي، الوزراء، ص(131-132)، ص144. ابن الأثير، ج6، ص438.

أوصى بالخلافة من بعده لأخيه جعفر⁽¹⁾، وزاد ابن الجوزي (ت. 598هـ/1200م) على ذلك بأن المكتفي بالله أدخل إليه بعد أن فرغ من ذلك بعض الخاصة، فأشهدهم على ما عقده من الأمر لأخيه جعفر، ويذكر ابن الجوزي أنّ هذه الوصية تمت في الحادي عشر من ذي القعدة/الثاني عشر من أغسطس؛ أي قبل يوم من وفاة المكتفي بالله، وفق تقديره⁽²⁾.

واختلفت المصادر التاريخية حول طبيعة المرض الذي ألم بالخليفة المكتفي بالله؛ ما أدى إلى وفاته وهو في مكمل شبابه، إلا أنّها حصرت في مرضين اثنين، هما: الخنازير⁽³⁾، والذرب⁽⁴⁾، وأتى على ذكر المرض الأول عدد من المصادر، كان في طليعتها التتوخي في كتابة نشوار المحاضرة، وعنه نقل عدد من المؤرخين دون إضافة أيّ شروحات أو تعليقات حول ذلك، وهذه الرواية عبارة عن قصة غلب عليها الطابع الأسطوري الغيبي؛ تحكي عن فطنة المعتضد بالله الذي تنبأ أنّ ولاية ابنه علي من بعده لن تطول؛ نتيجة هذه "الخنازير التي كانت في حلقه"، وأنّ ضياع الدولة وانحلال عقدها سيكون في عهد ولده جعفر المقتدر بالله؛ لما رأى منه في صباه من إسراف وانغماس في اللهو واللعب⁽⁵⁾، وجاءت معلومات مرض الذرب أكثر تفصيلاً عن سابقتها، خاصّة عند الحديث عن ظروف إصابته به، والمراحل المرضية التي مرّ بها، ويُعدّ المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن

(1) المسعودي، مروج، ج4، ص231. ابن سعيد القرطبي، ص27. ابن مسكويه، ج5، ص3. ابن الجوزي، ج13، ص60. ابن الأثير، ج6، ص438. ابن كثير، ج14، ص743.

(2) ابن الجوزي، ج13، ص60، ص77.

* **داء الخنازير أو داء الملك:** هو تدرّن يصيب منطقة العنق؛ بسبب تورّم الغدد الليمفاوية المصابة ببكتيريا التدرّن (السّل)، وعادة ما ينتقل هذا المرض إلى الإنسان بواسطة الحليب الحامل للبكتيريا، وتُعدّ فئة صغار السنّ هي الأكثر عرضة للإصابة به، ولا يُعدّ هذا المرض خطيراً إلا في حالات نادرة، خاصة عندما يتحوّل التدرّن إلى ورم سرطاني، وسُمّي داء الخنازير؛ لسرعة انتشاره الشبيه بشراهة الخنزير، وقيل أيضاً: لأنّ رقبة المصاب به تكون شبيهة برقبة الخنزير. يُنظر: ابن سينا، ج3، ص(178-181). حبيب، ص(385-386).

(3) التتوخي، نشوار، ج1، ص288. ابن عساكر، ج71، ص204. ابن الجوزي، ج13، ص(65-66). ابن كثير، ج14، ص744. * **الذرب:** هو مرض يصيب الجهاز الهضمي تعجز المعدة بسببه عن هضم الطعام، ويفعل ذلك يفسد الطعام داخل الجسم؛ ما يؤدي إلى إصابة المريض باستطلاق البطن، ونتيجة عدم استقرار الغذاء داخل الجهاز الهضمي يُحرّم الجسم من الاستفادة من القيمة الغذائية للطعام، ومع مرور الوقت تصبح حياة المريض عرضة للخطر؛ بسبب حالة سوء التغذية المتواصلة العارضة له منذ إصابته بالمرض. يُنظر: الصحاري، ج2، ص132. ابن منظور، ج1، ص(385-387).

(4) ابن سعيد القرطبي، ص26. سبط ابن الجوزي، ج16، ص340.

(5) التتوخي، نشوار، ج1، ص288. ابن عساكر، ج71، ص204. ابن الجوزي، ج13، ص(65-66). ابن كثير، ج14، ص744.

الجوهر أول مَنْ شَخَّص إصابة المكتفي بالله بهذا المرض دون ذكر أيّ تفاصيل حول ذلك⁽¹⁾، غير أنّ رواية المصادر اللاحقة عند كلّ من ابن سعيد القرطبي(ت. 369هـ/979م)، وسبط ابن الجوزي(ت. 654هـ/1256م)، جاءت على ذكر ظروف الإصابة بهذا المرض ومراحلها التي مرّ بها، فقد أُصيب المكتفي بالله به في جمادى الأولى 295هـ/فبراير 908م بعد عودته من رحلة صيد، وما لبث بعدها أن فسدت أحشائه، وعجزت عن القيام بوظائفها الحيوية، واشتدّ عليه المرض في شهر شعبان/أغسطس حتّى زال عقله، ويئس من شفائه⁽²⁾، وقد جاء ذلك منسجماً مع غيرها من المصادر التي ذكرت أنّ مرض المكتفي بالله كان عارضاً، وقد طال عليه عدّة شهور حتّى توفّي، نافية بذلك إصابته بمرض مزمن⁽³⁾، وعند تشخيص داء الخنازير نرى أنّه يسبّب نموّ أورام كبيرة في منطقة الرقبة؛ بفعل تضخّم الغدد الليمفاوية؛ ما ينتج عنه إصابة المريض بتشوهات حادة في العضو المصاب⁽⁴⁾، وهذا ما لا يتفق مع صفات المكتفي بالله الخَلقية التي كانت على قدر كبير من الجمال والكمال⁽⁵⁾، ومن خلال ذلك يتّضح لنا أنّ إصابة المكتفي بالله بمرض الذرب هو الأكثر قبولاً عند الحديث عن سبب وفاته.

وتتفق معظم المصادر على أنّ وفاة المكتفي بالله كانت في شهر ذي القعدة 295هـ/أغسطس 908م، واختلفَ في تحديد تاريخ يوم وفاته بين اليوم السابع⁽⁶⁾، والحادي عشر⁽⁷⁾، والثاني عشر⁽⁸⁾، والثالث عشر من ذي القعدة⁽⁹⁾، ويبدو أنّ الوفاة وقعت في ساعات الليل الأولى⁽¹⁰⁾، ومات وعمره واحد

(1) المسعودي، مروج، ج4، ص231.

(2) ابن سعيد القرطبي، ص26. سبط ابن الجوزي، ج16، ص340.

(3) ابن الأثير، ج6، ص438. النويري، ج23، ص9.

(4) حبيب، ص(385-386)

(5) المسعودي، التنبية، ص321. ابن سعيد القرطبي، ص27. الثعالبي، ثمار، ص190. الخطيب البغدادي، ج13، ص241.

(6) الذهبي، سير، ج13، ص484.

(7) الكندي، ص266. ابن مسكويه، ج5، ص3.

(8) الطبري، ج10، ص138. ابن الجوزي، ج13، ص77. السيوطي، تاريخ، ص583.

(9) المسعودي، التنبية، ص321. ابن سعيد القرطبي، ص27. النويري، ج23، ص9.

(10) ابن مسكويه، ج5، ص3. ابن الصابى، الوزراء، ص143.

وثلاثون سنة ونيف⁽¹⁾، وبذلك تكون مدّة خلافته ستّ سنوات ونصف⁽²⁾، ودُفِنَ بجانب والده⁽³⁾ في دار محمد بن عبد الله بن طاهر*⁽⁴⁾. وفي اليوم الذي توفّي فيه المكتفي بالله بوبع جعفر بالخلافة، ولُقّبَ بالمقتدر بالله، وكاد الجند ينتفضون بالتزامن مع ذلك؛ غير أنّ مال البيعة كان كفيلاً باحتواء موقفهم، خاصّة بعد أن دعوا إلى جعفر تحت شعار الوفاء للمعتضد بالله⁽⁵⁾، ويبدو أنّ مال البيعة كان له الدور الأكبر في حمل العامّة والخاصّة على القبول ولو مؤقتاً ببيعة جعفر؛ خاصّة إذا ما علمنا أنّ ابن الصّابي قد قدّره بثلاثة ملايين دينار، أخرجته العباس بن الحسن دفعة واحدة⁽⁶⁾، وقُدّر عُمرُ المقتدر بالله وقتنْذِ بثلاثة عشر عاماً، ولم يولّ الخلافة قبله مَنْ هو بسنّه⁽⁷⁾.

ومن خلال ما ذُكِرَ كلّهُ يمكن الوقوف على عدد من الأمور المهمة؛ ذلك أنّ ظروفًا داخلية استثنائية قد أثّرت في اتخاذ القرار باختيار جعفر المقتدر بالله خليفة بعد أخيه المكتفي بالله، أهمّها مرض الأخير المفاجئ، وعجزه، وصغر سنّه، ودنوّ أجله، في وقت لم يكن فيه قد سمّى ولياً لعهدّه؛ ما أتاح المجال للمتنفذين في الدّولة كالوزير، والكُتّاب أن يلعبوا دوراً رئيساً في التدخل في هذا الأمر السيادي المهمّ الذي يقع في صُلب صلاحيات الخليفة وآل بيته واختصاصاتهم، فعمل هؤلاء المتنفذين على حصر خيارات الخليفة قبيل وفاته في أخيه جعفر، ليكون الخليفة من بعده، ويؤكد غير مصدر أنّ وصيته بولاية العهد لأخيه لم تكن سوى إجراء شكلي اقتضته أصول تداول السلطة وقواعده في ذلك

(1) المسعودي، التنبيه، ص 321. الخطيب البغدادي، ج 13، ص 214. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 339. الذهبي، سير، ج 13، ص 484.

(2) الطّبري، ج 10، ص 138. ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. الخطيب البغدادي، ج 13، ص 214. ابن الجوزي، ج 13، ص 77. ابن الأثير، ج 6، ص 437.

(3) الطّبري، ج 10، ص 86. ابن عبد ربه، ج 5، ص 383. التّوحي، نشوار، ج 5، ص 43. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 340. * دار محمد بن عبد الله بن طاهر: يبدو أنّ محمداً بن عبد الله (ت. 253هـ/867م) قد ورثها عن جدّه طاهر بن الحسين، وتقع في الجانب الغربي من مدينة بغداد بمحاذاة نهر دجلة، وكانت فيما مضى أشبه بالقصر الملكي، وقد ظلّت لسنوات عدّة مقراً لعمال بغداد، غير أنّها أخذت تفقد أهميتها مع انتقال الخلفاء إلى الجانب الشرقي، وأصبحت مجرد سجن لمن يُعزّل من الخلفاء، ومدفنًا لبعضهم. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 64. جواد؛ سوسة، (94-95).

(4) الطّبري، ج 10، ص 139. ابن سعيد القرطبي، ص 27. التّوحي، نشوار، ج 5، ص 43. ابن العمراني، ص 152. ابن الجوزي، ج 13، ص 77. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 340. النويري، ج 23، ص 9.

(5) التّوحي، نشوار، ج 5، ص 67. ابن الصّابي، الوزراء، ص 132.

(6) ابن الصّابي، الوزراء، ص 317.

(7) الطّبري، ج 10، ص 139. المسعودي، مروج، ج 4، ص 232. ابن سعيد القرطبي، ص (28-29). الخطيب البغدادي، ج 8، ص 127. ابن الجوزي، ج 13، ص 60. الصفي، ج 13، ص 73. ابن كثير، ج 14، ص 744.

العصر؛ أي أنها لم تتعدَّ درجة التزكية لما استقرَّ عليه رأي الوزير والكتاب⁽¹⁾. ولعبت ظروف هذا الحدث دوراً كبيراً في إحجامه عن تعميم وصيته وإشهارها بين العامة، وفوق العادة التي كانت سائدة في ذلك العصر، فبقي القرار طي الكتمان، محصوراً في شخوص أرباب الدولة ومن شهدوا عليه.

ويُلاحظ أيضاً أنَّ طبقة أرباب الدولة وفي مقدّمتهم الوزير العباس بن الحسن، وعلي بن الفرات، قد حرصت عند تنصيب الخليفة الجديد على الاحتفاظ بمصالحها، وتعزيز مركزها ونفوذها داخل الدولة، غير أبهين بموقف العامة من ذلك، ولا حتّى بمستقبل الدولة واستقرارها؛ جرّاء التخبّط المتوقّع حدوثه في مؤسسة الخلافة، ونتج عن هذا القرار مضاعفات خطيرة كان أولها فتنة عبد الله ابن المعتز التي اندلعت بعد أربعة أشهر من خلافة المقتدر بالله، التي راح ضحيتها الوزير العباس ابن الحسن، وعلى الرّغم من وصول ابن المعتز إلى الخلافة، فإنّه لم يمكث فيها غير يوم واحد، وكشفت هذه المحاولة -على الرّغم من فشلها- عن حالة السخط والرفض الحاصلة وسط الخاصة والعامة على قرار تولية المقتدر بالله⁽²⁾.

أخيراً، فقد كشفت وصية المكتفي بالله لأخيه جعفر دليلاً دامغاً عن قصور كبير في معالجته لمسألة ولاية العهد، وتمخّضت هذه الظروف مجتمعة عن بيعة المقتدر بالله وهو في الثالثة عشرة من عمره؛ وبالتالي لا يمكن إنكار مسؤولية المكتفي بالله عن هذه السابقة الخطيرة التي لم تشهدها مؤسسة الخلافة منذ نشوئها؛ ما ترك أثراً بالغاً نتج عنه تداعيات وخيمة أفقدت الخلافة مع نهاية هذا العصر سلطتها ودورها في الحكم، وبعيداً عن الاعتبار الديني أضحت الخلافة منذ بداية العصر العبّاسي الثالث (334-447هـ/946-1055م) منصباً رمزياً ليس إلّا.

(1) التّوخي، نشوار، ج5، ص(64-67). ابن مسكويه، ج5، ص3. ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(131-132). ابن الأثير، ج6، ص438.

(2) الطّبري، ج10، ص140. ابن سعيد القرطبي، ص(30-32). التّوخي، الفرج، ج3، ص(199-200). ابن مسكويه، ج5، ص(4-6). ابن الجوزي، ج13، ص63، ص(79-82).

الفصل السابع

الأحوال الاقتصادية والعلمية والعُمرانيّة

الفصل السابع

الأحوال الاقتصادية والعلمية والعمرانية

الإدارة المالية

لطالما شكّلت الإدارة المالية عبر التاريخ عنصراً مهماً في نجاح السياسة المالية العامة المعمول بها في أيّ دولة أو فشلها خلال فتراتنا التاريخية المتعاقبة، وترتكز الإدارة المالية السليمة في العصر الإسلامي حول مقدرة الدولة القائمة على ضبط مواردها ونفقاتها بما يتوافق مع إمكاناتها الاقتصادية واحتياجاتها المالية، وتأثرت هذه الإدارة في عهد المكنفي بالله بالانتعاش الاقتصادي الذي عاشته الدولة في عهد المعتضد بالله، خاصة بعد أن بذل الأخير جهوداً كبيرة في إصلاح الوضع المالي؛ فقد أرسى دعائم الخزينة على أساس ثابت ورصين؛ وذلك بعد أن ضبط نظام الضرائب في المناطق الخاضعة له، حيث ضمن بذلك تدفق الموارد المالية على نحو سليم، ثم عمد بعد ذلك إلى انتهاج سياسة قائمة على الاقتصاد في النفقات⁽¹⁾ لدرجة وصلت معها توفيراته السنوية مبلغ مليون ونصف المليون دينار للعام الواحد، وبذلك استطاع المعتضد بالله أن ينقل خزينة الدولة من وضع الإفلاس إلى حالة الفائض المالي⁽²⁾، ومن ناحية أخرى ما كان لهذه السياسة القديرة أن تتابع استمراريتها في عهد المكنفي بالله؛ لولا أن تبني نهج والده الإصلاح، وحرص في الوقت نفسه على الاحتفاظ في المكتسبات الاقتصادية التي أنجزت في عهده.

وفيما يتعلّق بالواردات المالية خلال عهد المكنفي بالله، فقد كانت المادة التاريخية المتعلقة بها شحيحة إلى حدّ ما، حيث لم يسعف الدّراسة الحظّ في الوقوف إلّا على مقدار قليل من قيمة هذه الواردات، وفي مقدّمها عائدات الضرائب، ومنها الضرائب المشروعة*؛ حيث بلغ مقدار مال الصدّقة من أرض العرب في البصرة عام 292هـ/905م سنّة وتسعين ألف دينار، في حين قدّر ما أُخذ منها

(1) الدوري، دراسات، ص142.

(2) الزهراني، ص(73-74).

* **الضرائب المشروعة:** وهي التي نصّ عليها الشرع الإسلامي، كالجزية والخراج والزكاة والركاز، وهي بخلاف الضرائب غير المشروعة التي نشأت بفعل ما استجدّ من ظروف وتطورات مرّت بها سياسة الدولة الاقتصادية، ومنها: ضرائب الإرث، والمكوس، والمستغلات، ومال الجهبذة. يُنظر: الدوري، تاريخ، ص(175-198).

في العام التالي بمئة وعشرة آلاف دينار⁽¹⁾، وبخصوص الخراج، المورد الرئيس لبית المال، فقد بلغ عائد الضياع السلطانية بالسواد والأهواز في إحدى السنوات ستمئة وثمانية وأربعين ألفاً وثلاثمئة دينار⁽²⁾، وورد عن المكتفي بالله أنه كان يقطع بعض الولايات والمناطق مقابل مبلغ مالي محدد، وهو عادة قيمة الخراج المتحصّل عليه من هذه الرقعة الجغرافية، وغالباً ما يكون الدافع وراء ذلك سياسياً، كضعف نفوذ الدولة في بعض الولايات مثلما حدث سنة 290هـ/903م عندما أقطع المكتفي بالله بلاد فارس لطاهر بن محمد بن عمرو الصفار مقابل مبلغ سنوي من المال⁽³⁾، وقد يكون السبب اقتصادياً في بعض الأحيان؛ رغبة من الخليفة في الحصول على مبلغ مقطوع من المال من عائدات هذه المنطقة⁽⁴⁾، ولعلّ ذلك ما حدث عندما ضمن الخليفة بلدة بادوريا* (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 1) لمحمد بن جعفر عام 293هـ/906م مقابل مليون وستمئة ألف درهم، وعشرة آلاف كرّ** مناصفة بين الحنطة والشعير⁽⁵⁾، وبخصوص الضرائب غير المشروعة، فقد بلغت قيمة المستغلات* خلال عام واحد اثنتي عشر ألف دينار⁽⁶⁾.

ومما أسهم في تعزيز وارد الدولة العباسية في عهد المكتفي بالله ضمّها للشام ومصر من جديد؛ حيث بات ناتج هذه الولايات الغنية من حقّ الخلافة العباسية، بعد أن استأثرت به الخزينة الطولونية لما يقرب من نصف قرن، وفضلاً عن هذا المورد السنوي من المال، فقد أسهمت أموال بني طولون التي غنمها العباسيون في إثراء خزينتهم؛ وقدّر ابن تغري بردي قيمة ما حمله محمد ابن سليمان من

(1) ابن الصّابي، الوزراء، ص 185.

(2) الزهراني، ص 137.

(3) الطّبري، ج 10، ص 98. ابن مسكويه، ج 4، ص 406.

(4) الدوري، تاريخ، ص 40.

* بادوريا: ناحية تقع إلى الجنوب الغربي من بغداد، ويبدو أنّ إيراداتها كانت تشكّل نسبة كبيرة من واردات ديون الخراج؛ بدليل قول علي بن الفرات: "من استقلّ من الكُتّاب ببادوريا استقلّ بديوان الخراج، ومن استقلّ بديوان الخراج استقلّ بالوزارة". يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص (317-318).

** كرّ: ويساوي ثلاثين كارة، وكارة القمح 97.5 كغم، بينما كارة الشعير 81.21 كغم، وبذلك يساوي كرّ القمح 2925 كغم، في حين يبلغ كرّ الشعير 2437.5 كغم. يُنظر: هنتس، ص 69.

(5) ابن الجوزي، ج 13، ص 45.

* المستغلات: الضريبة التي تفرضها الدولة على المرافق العمرانية والتجارية التي كانت قد بُنيت على أراضيها. يُنظر: الزهراني، ص 46.

(6) الزهراني، ص 46.

مصر بمليوني دينار⁽¹⁾، في حين قدّر صاحب الذخائر والتحف قيمة النقد بمليون دينار، أمّا الأموال العينية فقد بلغت حمولة أربعة وعشرين ألف جمل⁽²⁾، وعلى الرغم من المبالغة التي انضوى عليها الرقم الأخير، فإنّ هذه التقديرات تشير إلى حالة الانتعاش الكبيرة التي طرأت على الخزينة العباسيّة؛ جرّاء استعادة مصر والشّام.

وجاءت المعلومات مقتضبة كذلك فيما يتعلّق بسياسة الجباية التي انتهجتها الدّولة خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من ذلك فقد أشارت إلى أنّ المكتفي بالله اتّبع سياسة قائمة على الرفق واللين؛ فقد كان حريصاً على عدم تعرّض عمّال الجباية للعمّة، وأن يكون مقدار الضّرائب وكيفيّتها متفقاً مع إمكانيّاتهم الاقتصاديّة، ومن قبيل ذلك أنّه أمر أن يضرب عامل الخراج القائم على قرية بارجان بألف سوط على مرمى من العمّة؛ بعد أن تعسّف في تحصيل الخراج، وأحرق بعض البيوت خلال ذلك⁽³⁾، ومما يُنسب للمكتفي بالله في هذا المجال اقتفاؤه أثر والده في إلغاء ضريبة الإرث التي كانت تُجبي بغير وجه حقّ⁽⁴⁾.

وبخصوص النفقات؛ فقد شكّلت سياسة الإنفاق العامّ في الدّولة العنصر الأكثر أهمية في نجاح الإدارة الماليّة، أو فشلها؛ ونظراً لحيوية هذا الدور وأهميته فقد أسّست الدّولة العباسيّة ديواناً خاصاً للنفقات⁽⁵⁾، ولطالما أدى الفشل في إدارة النفقات إلى إزهاق مقدّرات الدّولة الماليّة، لينتج عن ذلك أزمت ماليّة متتالية عصفت بمقومات الحياة الاقتصاديّة والسياسيّة على حدّ سواء، ولعلّ فترة المقتدر بالله خير دليل على صحة ذلك؛ فقد ورث الأخير دولة غنية، غير أنّ بذخه وإسرافه هو وحاشيته بالدرجة الأولى، كان عاملاً رئيساً أدى به إلى أن ينفق في غضون سنوات قليلة المال الوفير الذي جمعه والده وأخوه⁽⁶⁾؛ فقد قدّرت نفقات المقتدر بالله الخاصّة على مدار خمس وعشرين سنة التي قضاها في الحكم باثنين وسبعين مليون دينار؛ أي ما يعادل مليونين وثمانمئة ألف دينار للعام

(1) ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص147.

(2) ابن الزبير، ص228.

(3) النّتوخي، نشوار، ج2، ص24.

(4) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص268. يُنظر أيضاً: السامرائي، المؤسسات، ص294.

(5) السامرائي، المؤسسات، ص230. الزهراني، ص107.

(6) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص308. يُنظر أيضاً: الدوري، دراسات، ص147.

الواحد⁽¹⁾، وعبر ابن الأثير (ت. 630هـ/1232م) على نحو بليغ عن هذا الإخفاق الحاصل في سياسة المقتدر بالله المالية بقوله: "كان جملة ما أخرج من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه، نيّفاً وسبعين ألف ألف دينار، سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة، وإذا اعتُبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفي ووالده المعتضد، رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً"⁽²⁾.

وعادة ما تنصدر نفقات دار الخلافة* قائمة النفقات المالية في الدولة، وبداية مع نفقات القصر؛ فقد بلغ مقدار إنفاق المكتفي بالله اليومي على مائتته خمسمئة درهم⁽³⁾، ويذكر لنا المسعودي أنّ غذاءه اليومي كان يتكوّن من عشرة ألوان من الأطعمة، وكان يُخصّص له في كلّ يوم جمعة جدّي وثلاث جامات* من الحلواء، ومع ذلك حرص على الاقتصاد في نفقات الطعام؛ فقد كلّف بعض الخدم عند نهاية كلّ وليمة بأن يُحصوا له ما تبقى من خبز وحلواء، حيث أمرهم أن يعزلوا المكسور في حين يعرض الصحيح في اليوم التالي على المائدة⁽⁴⁾، وبلغ عدد غلمان دار الخلافة في عهده عشرين ألفاً، أما الخدم السود والصقالبة فقد قدّروا بعشرة آلاف⁽⁵⁾.

وبخصوص نفقات أولاده؛ فقد زوّج المكتفي بالله ابنه محمداً عام 290هـ/903م من ابنة الوزير القاسم بن عبيد الله على مهر قيمته مئة ألف دينار⁽⁶⁾، وفي أثناء مراسيم هذا الزواج خلع الوزير على أربعمئة من الحضور ملابس من ديباج وخزّ⁽⁷⁾، وفي عام 294هـ/907م أعذّر (خنن) المكتفي بالله ابنه محمداً؛ ولهذه المناسبة أقيم حفل كبير في قصر الوزير العباس بن الحسن، وخلال ذلك خلع

(1) ابن الأثير، ج7، ص75. يُنظر أيضاً: الدوري، تاريخ، ص252.

(2) ابن الأثير، ج7، ص75.

* **نفقات دار الخلافة**: ويُقصد بها كلّ ما يُصرّف على الخليفة منذ بيعته حتّى نهاية ولايته، وتشمل هذه النفقات عدّة مصروفات، منها: مال البيعة، ولوازم قصر الخليفة من طعام، وخدم، إضافة إلى نفقات زوجات الخليفة وأولاده، وسائر بني هاشم العلويين، وأرزاق كلّ من يحضر إلى قصر الخليفة ومن يجالسه من علماء وشعراء وأطباء، وغيرهم. يُنظر: الزهراني، ص141.

(3) الزهراني، ص161.

* **جامات**: مفرداها جام، أو جامعة، وهو لفظ عامّ تداوله الناس خلال العصر العباسي، والمقصود به: طبق الطعام. يُنظر: الخطيب، ص119.

(4) المسعودي، مروج، ج4، ص223.

(5) ابن الصّابيّ، رسوم، ص8.

(6) الطّبري، ج10، ص115. سبط ابن الجوزي، ج16، ص288. الذهبي، سير، ج13، ص482. الصّفي، ج24، ص95.

ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص131.

(7) سبط ابن الجوزي، ج16، ص288.

على سائر الحضور من العامة والخاصة وفق منزلة كلّ منهم⁽¹⁾، ورفض المكتفي بالله في آخر أيامه عرض وزيره العباس بن الحسن بأن ينفق على أمّهات أولاده مليون دينار من بيت مال المسلمين، وحاول الوزير أن يثنيه عن رأيه بعد أن ذكر له أنّه في جُلّ من ذلك بعد أن وفرّ على المسلمين كثيراً من المال، إلّا أنّه أصرّ على موقفه، واكتفى بستمئة ألف دينار من ماله الخاصّ كان قد جمعها منذ صغره، وخلفها وديعة عند صافي الحرمي (ت. 298هـ/911م)* وفارس الداية⁽²⁾، أمّا نفقات سائر حريم القصر؛ فلم نقف إلّا على دور ملكتها فارس داية المكتفي بالله، فبلغ مجمل مساحة هذه الدور مئة وثلاثة وسبعين ألفاً وثلاثمئة وستة وأربعين ذراعاً⁽³⁾.

وفيما يتعلّق بجاري بني هاشم والطالبين؛ فقد ورد عن المكتفي بالله حين بويع بالخلافة أنّه وصل مجموعة من الأمراء العبّاسيين الواحد منهم بألف دينار⁽⁴⁾، وأثر عنه أنّه كان ينفق على الطالبين، ويحسن إليهم⁽⁵⁾.

وعجّ قصر المكتفي بالله بالشعراء والأدباء الذين نالوا نصيبهم كغيرهم في عطاء الخليفة؛ فقد منح الأخير عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ألف دينار؛ لقاء بيت شعر قاله فيه⁽⁶⁾، وفي موقف آخر عفا المكتفي بالله عن الشاعر يحيى بن علي المنجم؛ بعد أن اتصل إليه أنّه قد سبق له أن نظم شعراً ناشد فيه المعتضد بالله بصرف الخلافة عنه، وزاد الخليفة على ذلك بأن منحه خمسين ألف درهم⁽⁷⁾، وفرض المكتفي بالله مئتي دينار لأبي بكر الصولي بعد أن نظم له قصيدة يشكو فيها إليه منعه عن دخول مجلسه، ومن ناحية أخرى لم يكن المكتفي بالله ذاك الخليفة الذي يغدق في فرض العطاء للشعراء والأدباء؛ ومن قبيل ذلك أنّه غضب من أحمد بن محمد الماوردي بعد أن طلب منه منحه

(1) ابن الزبير، ص 123.

* صافي الحرمي: متولّي أمر دار الخلافة في عهد المكتفي بالله والمقتدر بالله، برز دوره حين سارع في إنجاز بيعة الخلافة للمقتدر بالله، وأثر عنه أنّه أعتق كلّ مماليكه قبل وفاته. يُنظر: ابن سعيد القرطبي، ص (27-28). الذهبي، تاريخ، ج 6، ص 952.

(2) ابن الجوزي، ج 13، ص 77. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 338.

(3) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص 29.

(4) التتوخي، الفرج، ج 2، ص (9-10). الخطيب البغدادي، ج 11، ص 305. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص (256-257).

(5) ابن العمراني، ص 150. ابن دحية الكلبي، ص 94. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 338. الدميري، ج 1، ص 130.

(6) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص (210-211).

(7) ابن العمراني، ص (151-152).

إقطاعاً؛ نظراً لمهارته في الشطرنج، وحتى يثبت له الخليفة عدم أحقيته بذلك ندب له الصولي؛ لينازله، فلما تغلب عليه الأخير سقطت ذريعة الماوردي عند الخليفة⁽¹⁾، وعانى جلساء المكتفي بالله وندماؤه من زهده وتقشفه؛ فقد شكوا ذات مرة على لسان يحيى بن المنجم ما لحق بهم من تعب وإعياء؛ جرّاء مرافقتهم له في إحدى رحلات صيده، وحين اطلع الخليفة على هذا الشعر، أمر بالعودة إلى بغداد؛ مراعاة لحالهم، فشكر من كان معه؛ ليحيي فضله في ذلك⁽²⁾.

وشكّلت نفقات الإدارة المركزية* جزءاً لا بأس به من مجمل نفقات الدولة المالية، وبخصوص جاري وزراء المكتفي بالله، ودخلهم؛ فقد بلغ قيمة ما كان يدخل على الوزير القاسم بن عبيد الله في كلّ عام من أملاكه ما يُقدَّر بسبعمئة ألف دينار⁽³⁾، ووُصِفَ هذا الوزير بالكرم؛ حتى إنّ أستاذه أبا إسحاق الزجاج نال منه ما يقرب من أربعين ألف دينار⁽⁴⁾، أمّا الوزير العباس بن الحسن فقد أجرى له المكتفي بالله في كلّ شهر خمسة آلاف دينار⁽⁵⁾، وزاد على ذلك بأن أقطعه ضياعاً بلغت غلتها في العام الواحد خمسين ألف دينار⁽⁶⁾، وكان هذا الوزير يتحصّل على بعض المال بطرق غير مشروعة؛ فقد بلغ مقدار المرفق (الرشوة) التي كان يتقاضها من علي بن الفرات خلال ولايته على بعض نواحي الشّام بعشرة آلاف دينار للشهر الواحد، غير أنّنا لا نستطيع أن نجزم تماماً إن ذلك وقع في خلافة المكتفي بالله أم في خلافة المقتدر بالله، أو أنّه استمرّ طوال وزارته في كلا العهدين⁽⁷⁾.

(1) إبراهيم الحصري، ج4، ص(1137-1138).

(2) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص252.

* **نفقات الإدارة المركزية:** يُقصد بها جاري موظفي الدولة، ودخلهم بمن فيهم الوزراء، وكُتّاب الدواوين، والقضاء، والجند، وتشمل أيضاً نفقات الحملات العسكرية، والعمارة، إضافة إلى غيرها من الالتزامات التي توجب على الدولة الإنفاق عليها. يُنظر: الزهراني، ص(518-519).

(3) الصفدي، ج24، ص96.

(4) التّوخي، نشوار، ج1، ص(75-77). الذهبي، سير، ج14، ص19.

(5) الذهبي، سير، ج14، ص52.

(6) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص30.

(7) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص106.

ويُقَدَّر جاري الكاتب الواحد العامل في ديوان السواد* خلال عهد المكتفي بالله بين العشرة والثلاثين ديناراً، في حين بلغ جاري الكاتب في ديوان الخراج بخمسة وعشرين ديناراً⁽¹⁾، وفيما يتعلّق بنفقات الجند؛ فقد ذكر لنا التتوخي أنّ راتب أحد الجند في عهد المكتفي بالله بلغ مئتين وأربعين ديناراً عن الشهرين؛ أيّ ما يعادل مئة وعشرين ديناراً عن الشهر الواحد⁽²⁾، ولعلّ هذا المبلغ فيه مبالغة كبيرة، خاصّة إذا ما قارناها بالجاري الذي كان يتقاضاه موظّفو الدّولة المدينون والعسكريون خلال هذه الفترة، وزاد المكتفي بالله من جاري المماليك الحجرية؛ فقد سبق أن قُسم هؤلاء المماليك خلال عهد المعتضد بالله إلى صغار وكبار، وكان عدّة شهرهم خمسين يوماً؛ حيث بلغ جاري الصغار منهم خمسة دانانير، في حين بلغ جاري الكبار منهم اثني عشر ديناراً؛ ونتيجة ذلك عُرفوا بالاثني عشرية، وحين ولي المكتفي بالله، وعزم أمره على أن يتخلّص من بدر المعتضدي، خشي من انحيازهم إليه؛ وحتّى يضمنهم إلى صفّه زاد الصغار منهم سبعة دانانير؛ ليلتحقوا بذلك في الاثني عشرية، بينما زاد الكبار منهم أربعة دانانير، حيث أضحت بذلك رواتبهم ستّة عشر ديناراً⁽³⁾.

وبذل المكتفي بالله أموالاً طائلة على الحملات العسكريّة التي جرّدها للقضاء على الثّورات التي اندلعت في عهده، والتي كان في مقدمتها ثورات القرامطة، حتّى قال في ذلك ابن ظافر الأزدي(ت). 613هـ/1216م): "وأنفق الأموال العظيمة في حرب القرامطة الخارجين على الحجيح حتّى أبادهم واستأصلهم"⁽⁴⁾، ومن قبيل ذلك أنّه فرض للجند في دفعة واحدة مئة ألف دينار حينما وجّههم لحرب صاحب الشّامة⁽⁵⁾، ويبدو أنّ هذا الأمر أثار فيما بعد حسرة الرازي بالله؛ فقد اشتدّ سنة 323هـ/935م خطر قرامطة البحرين، وهاجت العامّة، فأخذ يتمتّى الأخير أن يكون لديه أموال كأموال المكتفي بالله التي صرفها في القضاء على القرامطة؛ حتّى يخرج هو بنفسه لحرب قرامطة البحرين، غير أنّه لا حيلة له على جنده؛ لأنّه في عوز إلى المال الكفيل بحمل عساكره على امتثال أمره وطاعته⁽⁶⁾،

* ديوان السواد: أحد فروع ديوان الخراج الذي استُحدث في خلافة المعتضد بالله، ويختصّ هذا الديوان بالإشراف على خراج سواد العراق. يُنظر: السامرائي، المؤسسات، ص(200-202).

(1) الزهراني، ص365.

(2) التتوخي، الفرّج، ج3، ص233.

(3) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص21.

(4) ابن ظافر الأزدي، ج2، ص379.

(5) الطّبري، ج10، ص103. ابن مسكويه، ج4، ص407.

(6) الصولي، اخبار، ص69.

وكان للحملات الجهادية الموجهة إلى الأراضي البيزنطية نصيبها في النفقات العسكرية؛ فقد أطلق المكتفي بالله اثنين وثلاثين ألف دينار عندما وجّه عام 289هـ/902م صائفة إلى الثُغور البيزنطية⁽¹⁾، وفيما يتعلّق بنفقات العمارة، وعلى الرّغم من بناء المكتفي بالله بعض المرافق المعمارية وترميمها، إلّا أنّه لم يكن ذلك الخليفة المواظب على إعمار القصور المترفة وتشبيدها، ويُذكر عنه أنّه أبدى استياءه في آخر أيامه على سبعمئة ألف دينار أنفقها في تشييد مرافق معمارية لا حاجة لها⁽²⁾.

وعند تقييم سياسة الإدارة الماليّة في عهد المكتفي بالله، يتّضح لنا حدوث انتعاش ملحوظ في خزينة الدولة؛ نتيجة حالة الازدياد الحاصلة في تدفّق موارد الدولة الماليّة، وعلى الرّغم من تعدّد موارد الإنفاق، فقد حافظ هذا المخزون المالي على مستواه العامّ، وما كان لهذا الانتعاش أن يستمرّ لولا حرص المكتفي بالله على المال العامّ، وكثيرة هي الأمثلة التي ذكرناه سابقاً تحت هذا السياق، وقد انزعج الرعية خاصّتهم وعامّتهم؛ جرّاء حرص الخليفة المفرط، حتّى اتهموه بالشحّ والبخل⁽³⁾؛ وبلغ بهم الأمر أن لقّبوه بأبي مشكاح⁽⁴⁾، والمشكاح في اللغة هو الإنسان الفقير المعدم⁽⁵⁾؛ غير أنّ ذلك كلّه لا يعني أنّ المكتفي بالله كان شغوفاً بجمع المال، عزيزاً في إطلاقه، إنّما حرصه هذا هو رغبة منه في صرف هذا المال على وجه الصحيح بما يخدم صالح الدولة العامّ، ولعلّ ما جرى بينه وبين وزيره العباس بن الحسن في بداية ثورة زكرويه خير دليل على ذلك؛ فقد وجّه والي الكوفة إسحاق ابن عُمران إلى الوزير يطلب منه توجيه المدد إليه بعد أن اشتدّ خطر زكرويه، فتردّد الوزير في إخبار الخليفة، وهو الذي سبق له قبل يومين أن ناظره في دينار فضّل من قيمة مبلغ مخصّص له في نفقة، وعندما دخل الوزير إلى المكتفي بالله سبقه الأخير في عرض مسألته، ويبيّن له أن احترازه في المال إنّما هو لمثل هذا الوقت قائلاً له: "فلا تبخل بمال في مثل هذا"، وفي الحال أطلق له يديه في إنفاق المال؛ بغية اجتثاث خطر زكرويه⁽⁶⁾.

(1) الطّبري، ج10، ص96.

(2) السيوطي، تاريخ، ص853.

(3) المسعودي، المروج، ج4، ص223.

(4) التّوخي، نشوار، ج2، ص316. غرس النعمة الصابئ، ص161.

(5) دوزي، ج6، ص338.

(6) النويري، ج25، ص161.

وأثبتت سياسة المكتفي بالله الماليّة نجاحها حينما استطاع أن يخلف في بيت المال فائضاً مالياً كبيراً زاد عمّا خلفه والده المعتضد بالله⁽¹⁾، وتُقدّر بعض المصادر التّاريخيّة هذه المبلغ بين الخمسة عشر مليون دينار⁽²⁾، والستة عشر مليون دينار⁽³⁾، ويضيف إليها البعض ثلاثين مليون درهم⁽⁴⁾، هذا بخلاف الجواهر والثياب، وغيرها من الممتلكات العينية التي راوحت قيمتها بين العشرة ملايين دينار⁽⁵⁾ والأربعة عشر مليون دينار⁽⁶⁾، وبالغت بعض المصادر على نحو كبير في تقدير هذا الفائض حينما جعلته مئة مليون دينار⁽⁷⁾، وعلى الرّغم من هذا الاحتياط المالي الكبير الذي خلفه المكتفي بالله، إلّا أنّه ما إن توقّى وتولّى المقتدر بالله الخلافة حتّى "تفرّق المال وتمزّق"⁽⁸⁾.

الزراعة، والصناعة، والتجارة

عُدَّت الزراعة وما تنتجه الأرض عصب الاقتصاد الإسلامي وركيزته الأساسية، والرافد المالي الأساس للدولة⁽⁹⁾، خاصّة في العراق القطر الزراعي الأكبر الذي شكل عائدته المالي من النشاط الزراعي أكثر من (30%) من واردات خزينة الدّولة، وإلى جانبه احتلّت مصر المركز الثّاني من حيث الأهمية، وفيما يتعلّق ببلاد الشّام؛ فقد كان النّشاط الزراعي فيها محدود الأثر إذا ما قورن بالتطور والازدهار الحاصل في العراق ومصر⁽¹⁰⁾، وبصورة عامّة فقد نمت الزراعة وتطورت داخل أقاليم الدّولة المختلفة بما يتلاءم مع الظروف الطّبيعية السائدة فيها⁽¹¹⁾.

(1) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص157، ص317. ابن الجوزي، ج13، ص5، ص60. سبط ابن الجوزي، ج16، ص257، ص328.

(2) الطّبري، ج10، ص139. ابن سعيد القرطبي، ص28. ابن الجوزي، ج13، ص5. ابن الأثير، ج6، ص439. سبط ابن الجوزي، ج16، ص328. ابن كثر، ج14، ص713. ابن تغري بردي، النّجوم، ج3، ص162.

(3) ابن عبد ربه، ج5، ص383. ابن الصّابيّ، الوزراء، ص157. ابن الزبير، ص220.

(4) المسعودي، مروج، ج4، ص223. ابن الزبير، ص220.

(5) ابن الجوزي، ج13، ص5.

(6) ابن الزبير، ص221.

(7) الذهبي، سير، ج13، ص484. الصّفيدي، ج20، ص18. الكتبي، ج3، ص5. الفلقشندي، ج1، ص522.

(8) ابن الصّابيّ، الوزراء، ص(157-158).

(9) الدوري، تاريخ، ص37. الألسي، ص307. بيليايف، ص5.

(10) بيليايف، ص6.

(11) بيطار، ص360.

وصبّ الخلفاء العبّاسيين جانباً كبيراً من اهتمامهم لصالح تحسين الزراعة والنهوض بواقعها داخل دولتهم، ومن مظاهر هذه العناية الاهتمام بتطوير أساليب الري التي كانت تُعدّ عاملاً رئيساً لنجاح القطاع الزراعي وازدهاره، وقد تجلّى ذلك من خلال شقّ القنوات والترع المائية وإصلاحها، وتشديد الجسور والقناطر، وتزويد الفلاحين بوسائل الري المستحدثة⁽¹⁾، وعادةً ما كان يتمّ ذلك تحت إشراف ديوان الخراج، ولضمان قيامه على النحو السليم كان يُخصّص عدد كبير من المهندسين للإشراف على هذا العمل⁽²⁾، وعُيّنت الدّولة أيضاً بتطوير أساليب الزراعة من خلال: الإشراف على نوعية المزروعات لاختيار أفضلها داخل الصنف الواحد، وعملت كذلك على إصلاح نظام الجباية بما يتوافق والتقويم الزراعي، بحيث يتناسب ذلك مع إمكانيات المزارعين وقدرة الأرض الإنتاجية⁽³⁾، وغالباً ما كانت هذه الإصلاحات مجرد تدابير فردية مرتبطة بشخص الحاكم الموجود، حيث حال ذلك دون نشوء سياسة زراعية سليمة طويلة الأمد⁽⁴⁾.

وتميّز المعتضد بالله عن أقرانه من خلفاء العصر العبّاسي الثّاني بانتهاجه لسياسة زراعية حكيمة؛ وقد برز ذلك بصورة خاصّة فيما يتعلّق بإصلاحه لنظام التقويم الزراعي؛ حيث عمد في البداية على كبس سنة 278هـ/891م ونقلها إلى سنة 279هـ/892م، وأسقط الخراج المفروض عليها، واكتفى بخراج عام 279هـ/892م، أمّا إصلاحه الثّاني فقد كان تأخيره في عام 282هـ/895م موعد النوروز الفارسي (رأس السنة الشمسية) المخصص لجبي الخراج⁽⁵⁾.

وجاء الإجراء الأوّل؛ مراعاة للفرق القائم بين السنة الشمسية والهجالية والبالغ عشرة أيام وربع؛ على اعتبار أنّ الخراج كان يؤخذ على السنة الشمسية، وفي حال انقضت ثلاث وثلاثين سنة شمسية كان الفرق بين التقويمين سنة هلالية كاملة، لذلك وجب في كلّ ثلاث وثلاثين سنة إلغاء السنة الزائدة؛ لتعويض الفارق الحاصل في السنوات السابقة؛ حتّى لا يؤدي الفلاحون خراج أرضهم مرتين في

(1) الدوري، تاريخ، ص(60-62). بيطار، ص360. الأُلشي، ص307.

(2) الدوري، تاريخ، ص61.

(3) الدوري، تاريخ، ص(60-62). الأُلشي، ص307.

(4) الدوري، تاريخ، ص50.

(5) نفسه، ص51.

إحدى السنوات، وقد حدث هذا الكبس فيما مضى خلال خلافة المتوكل على الله بين سنتي 241-
242هـ/855-856م⁽¹⁾.

وبخصوص القرار الثاني الذي مثل الإنجاز الأعظم له في هذا المجال، فقد أحر الخليفة سنة 282هـ/859م موعد جباية الخراج من الحادي عشر من نيسان وهو النوروز الفارسي إلى السابع عشر من حزيران، وأصبح هذا التاريخ يُعرّف بالنوروز المعتضدي؛ وقد ارتبط هذا الإصلاح بالفرق الحاصل بين السنة الفارسية والسنة الشمسية والبالغ ريع يوم، وحتى يُعوّض الفارق وجب إضافة يوم إلى السنة الفارسية الرابعة، وقد أدى منع النسي -ولعلّ قلة الخبرة، أو أنّ الاعتبارات المالية الخاصة في الدولة كانت الدافع الرئيس وراء عدم اتخاذ هذا القرار- إلى تقدّم موعد النوروز الفارسي المرتبط بجباية الخراج، ومع مرور السنوات اتسع الفرق حتى بلغ أشهراً، ونتيجة ذلك صار الخراج يُفتح في وقت لا زال فيه الزرع أخضر لم ينضج بعد؛ وحتى يدفع الفلاحون ما وجب عليهم من خراج كانوا يلجؤون إلى الاستلاف؛ ما ألحق بهم ضرراً كبيراً، وقد حاول المتوكل على الله تأخير موعد النوروز، إلّا أنّ مقتله حال دون ذلك، وبقي الأمر على حاله إلى أنّ جاء المعتضد بالله، وأنجز هذا المشروع في خلافته⁽²⁾.

ووجّه المعتضد بالله عنايته إلى إصلاح نظام الري وتوسعته؛ حيث عمل على شقّ القنوات والترع، وأصلح ما أمكنه منها، ولم يكتف بذلك، فقد دعم الفلاحين وسلفهم بما يحتاجونه من النقود؛ لشراء لوازم الزراعة⁽³⁾، ومما لا شكّ فيه أنّ هذه السياسة السليمة قد تركت نتائج طيبة كان لها عظيم الأثر على مسيرة نشاط القطاع الزراعي وازدهاره في عهد المعتضد بالله، وخلفه المكتفي بالله.

وكحال معظم الأنشطة الاقتصادية فقد تأثر النشاط الزراعي بالاضطرابات السياسية، والكوارث الطبيعية التي كانت تتعرض لها الدولة من وقت لآخر؛ وشكّل ضعف النفوذ السياسي وما نتج عنه من ثورات، العامل الأبرز في هذا المجال، وعانت الخلافة العباسية خلال هذه الفترة من ثورتين خطيرتين، هما: ثورة الزنج، وحركة القرامطة، ومما لا شكّ فيه أنّ ذلك كان له تداعياته الوخيمة على

(1) الدوري، تاريخ، ص 51.

(2) نفسه، ص (51-52).

(3) الدوري، تاريخ، (52-53). الأتشي، ص 309.

العملية الزراعية، خاصة في العراق المتضرر الأكبر؛ جزاء هذه الأحداث⁽¹⁾، وتركت الكوارث الطبيعية هي الأخرى آثارها المدمرة على الأرض الزراعية؛ وشكّلت السيول وفيضانات الأنهار التهديد الأكبر في هذا الخصوص، وعادة ما كان ينتج عن هذه الكوارث تجريف للتربة، وتدمير للبنية التحتية التي تقوم عليها العملية الزراعية⁽²⁾.

ولم تكن خلافة المكتفي بالله بمنأى عن هذه التأثيرات، وفيما يتعلّق بالاضطرابات السياسية، فقد عمّت ثورات القرامطة، وغيرها من الثورات السياسية سائر أنحاء الدولة؛ ما ترك بدروه أثراً على نشاط القطاع الزراعي الذي فقد الأمن والاستقرار اللازمين لاستمراريته، وبخصوص الكوارث الطبيعية، فقد شهد عهد المكتفي بالله وقوع بعضها؛ حيث تعرّضت جُبي⁽³⁾ وهي بلدة من أعمال خوزستان تقع بالقرب من أطراف البصرة والأهواز⁽⁴⁾، إلى سيل كبير في جمادى الأولى 291هـ/مارس 904م، وقد نتج عن ذلك فيضان كبير طال ثلاثين فرسخاً، وغرقت المواشي والغلات في المياه، وقُدِّر عدد من توفّي من الناس جزاء ذلك بنحو ألف ومئتين⁽⁵⁾، وارتفع منسوب نهر دجلة عام 279هـ/902م خمسة عشر فرسخاً⁽⁶⁾، وتكرّر ذلك عام 292هـ/905م، لكنّ هذه المرة على نحو أكبر⁽⁷⁾؛ فقد بلغ مقدار الزيادة واحداً وعشرين ذراعاً⁽⁸⁾، ويبدو أنّ ذلك لفت انتباه الخليفة إلى ضرورة رصد منسوب نهر دجلة؛ ولهذا الغرض نُصِبَت مقاييس على نهر دجلة عام 293هـ/906م على غرار المقاييس الموجودة في نهر النيل⁽⁹⁾، وشهد عام 294هـ/907م هطول كميات كبيرة من الأمطار؛ ما تسبّب في حدوث بعض الفيضانات⁽¹⁰⁾.

(1) الأُلشي، ص308.

(2) الأُلشي، ص308. بيليايف، ص6.

(3) الطُّبري، ج10، ص115. ابن سعيد القرطبي، ص14. ابن الأثير، ج6، ص422.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص97.

(5) الطُّبري، ج10، ص115. ابن سعيد القرطبي، ص14. ابن الأثير، ج6، ص422.

(6) ابن الأثير، ج6، ص416.

(7) ابن الجوزي، ج13، ص33. ابن الأثير، ج6، ص425. الذهبي، سير، ج13، ص483. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص157. السيوطي، تاريخ، ص582.

(8) الذهبي، سير، ج13، ص483. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص157. السيوطي، تاريخ، ص582.

(9) ابن الجوزي، ج13، ص45. ابن تغري بردي، النُّجوم، ج3، ص158.

(10) ابن الجوزي، ج13، ص50.

وعرفت أقاليم الدولة العباسية زراعة أنواع مختلفة من المحاصيل الزراعية، التي كان من أهمها القمح والشعير والتمر والأرز، وإلى جانب هذه المزروعات كان هناك أنواع مختلفة من الحبوب والخضروات والفواكه، وغير ذلك من الأصناف، غير أن أهميتها كانت ثانوية إذا ما قورنت بالمحاصيل الزراعية السابقة⁽¹⁾، وتوزعت المزروعات بين أقاليم الدولة المختلفة؛ فقد زرع القمح الغذاء الرئيس في مناطق مختلفة كان أبرزها سواد العراق والموصل وخوزستان ومصر وبلاد الشام، وإلى جانب القمح انتشرت زراعة الشعير في هذه الولايات نفسها تقريباً، أما الأرز فقد زرع في بلاد الديلم وطبرستان، واشتهر أيضاً في خراسان ومصر، وبخصوص التمر فقد اشتهرت العراق وخاصة البصرة بزراعة أنواعه المتعددة التي فاقت الثلاثمئة صنف، التي كانت جميعها على درجة عالية من الجودة، وكان لشبه الجزيرة العربية نصيبها هي الأخرى في زراعة هذا المنتج، ومن المحاصيل الزراعية المهمة آنذاك القطن، وقد اشتهرت مصر دون غيرها بزراعته بكميات كبيرة، واحتلت خراسان المرتبة الثانية في هذه الزراعة، أما قصب السكر فقد زرع بكميات وفيرة في العراق ومصر، وإضافة إلى ما ذكر فقد عرفت الدولة وأقاليمها أنواعاً مختلفة من المحاصيل الزراعية التي لا يستع المجال لذكرها، والحديث عن مناطق زراعتها⁽²⁾.

أما بخصوص الصناعة، فقد ازدهرت في العصر العباسي الثاني ازدهاراً كبيراً، وعُدَّت إلى جانب الزراعة والتجارة أحد أهم مصادر الدخل والثروة في الدولة⁽³⁾، ومع حلول القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أضحت مدينة بغداد أحد أهم المراكز العالمية للإنتاج الحرفي⁽⁴⁾، وقد ساعد على تطور القطاع الصناعي تضافر عدة عوامل، كان من أهمها: توفر معظم المواد الأولية الداخلة في أغلب الصناعات⁽⁵⁾، إضافة إلى التحولات الاجتماعية الطارئة التي غيرت من نظرة المجتمع للصناعة وللحرف، وللمشتغلين بها، وكان من مظاهر هذه التحول ذبوع الانتساب إلى المهنة بعد أن كان ذلك مقتصرًا على القبيلة والمدينة، وقد اشتهر من هؤلاء: آل الجراح الذين كان منهم جماعة من الكتاب

(1) الدوري، تاريخ، ص 67.

(2) الألسي، ص (320-325).

(3) الألسي، ص 364.

(4) بيليايف، ص 11.

(5) الألسي، ص 365. بيليايف، ص 10.

والوزراء كان أبرزهم علي بن عيسى وزير المقتدر بالله، وابن الجصاص (ت. 315هـ/928م)* التاجر الشهير، والحلاج (ت. 309هـ/922م)** الصوفي الشهير، وغيرهم كثير من الوجهاء والعلماء، ومما ساعد على ازدهار النشاط الحرفي ظهور التجمعات الحرفية التي حصرت بدورها أصحاب كل حرفة ونظمتهم داخل جماعة واحدة⁽¹⁾، وكان لعناية الخلفاء خلال هذا العصر، وأبرزهم المعتضد بالله، أثره المهم في ازدهار هذا القطاع الاقتصادي⁽²⁾.

وتأثرت الصناعة كمعظم الأنشطة الاقتصادية بالاضطرابات السياسية الحاصلة في الدولة خلال هذه العصر، ولا سيما إن بعض هذه الثورات كحال ثورة القرامطة التي وجهت اهتمامها صوب قسم كبير من هؤلاء الحرفيين الذين كانوا يعيشون في ظروف معيشية صعبة، محاولة بذلك استقطابهم إلى صفها تحت شعار العدالة الاجتماعية التي كانت تتادي به⁽³⁾. وشكل الصناع والحرفيون السواد الأعظم من الطبقة العامة، ومارس هؤلاء أعمالهم داخل الأسواق التي أسست ونظمت بما يتوافق مع التنوع الحاصل في الحرف والصناعات المختلفة؛ فقد جعل لكل حرفة مكانها المخصص لها في السوق، وكان لكل حرفة رئيس عيّنته الحكومة وهو شيخ الحرفة، وكان السوق بالمجمل من ضمن مهام المحتسب الذي يتولى الإشراف على الأوزان، ومعايير الجودة الواجب توفرها في السلعة⁽⁴⁾.

* **ابن الجصاص:** أبو عبد الله، الحسين بن عبد الله بن الحسين، كان من أعيان التجار وأصحاب رؤوس الأموال في العصر العباسي الثاني، اشتغل في تجارة الجواهر، وكان أول عهد له في هذه الصنعة بقصر خمارويه بن أحمد بن طولون، ثم انتقل إلى بغداد بعد أن اختاره الأخير؛ للإشراف على تكاليف زواج ابنته قطر الندى من المعتضد بالله، وتمت تجارته بعد ذلك وعظم شأنه خلال خلافة المقتدر بالله، حتى إن وزراء الأخير كانوا يخشون نفوذه، وعلى ما يبدو أن الحص كانت مهنة والده أو جدّه، وإليها تُسبب. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج10، ص(210-216). الصفدي، ج12، ص(239-242).

** **الحلاج:** أبو مغيث، وقيل: أبو عبد الله، الحسين بن منصور الحلاج، أحد أعلام عصره، كان متصوفاً زاهداً، أثّرت حوله كثير من الشكوك، واستطاع أن يضم إليه بعض الأتباع، وقد انتهى أمره بعد أن أفتى الفقهاء للمقتدر بجواز إباحة دمه، فلما قبض عليه عذب وقتل، ثم أحرقت جثته، وصُلّيت رأسه، ومن مؤلفاته: الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية، وقرآن القرآن والفرقان، ومدح النبي والمثل الأعلى، والتوحيد، والسياسة والخلفاء والأمراء. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج7، ص143. الزركلي، ج2، ص260. **والحلاج:** مأخوذة من الحلاجة، وهو الذي ينقي القطن من الشوائب كالبذور وغيرها بواسطة الملح. يُنظر: ابن منظور، ج2، ص239. أنيس، وآخرون، ص191.

(1) الدوري، تاريخ، ص(90-92).

(2) الألسي، ص(364-365).

(3) الدوري، تاريخ، ص75، ص(79-80).

(4) نفسه، ص92، ص97.

وعرف القطاع الحرفي في عهد الدولة العباسية عدداً لا يحصى من الصناعات، التي كان من أهمها: صناعة الأسلحة والمعادن، والصناعات الخشبية، وصناعة المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، وصناعة المنسوجات الصوفية والقطنية، ودرجت أيضاً صناعة الخزف والفخار والزجاج، وبعد أن أصبح الورق مقترناً بالانتعاش الحاصل في الحركة العلمية خلال هذا العصر، أضحت صناعة الورق حاجة أساسية لا غنى عنها، ومن سمرقند نُقِلَت صناعة الكاغد إلى بغداد التي أُنشئت فيها في أثناء هذه الفترة عدد من مصانع الورق⁽¹⁾.

وكان المسلمون قد عملوا بالتجارة منذ نشوء دولتهم، غير أنّ هذا النشاط كان محدوداً ومقتصرًا على أعداد قليلة، ومع انتقال مركز الخلافة إلى العراق الذي كان في حينه ملتقى للطرق التجارية العالمية؛ فقد شكّل ذلك عاملاً على انبعاث حركة التجارة وانتعاشها، ومع مرور الزمن صار التجار يجنون أرباحاً طائلة؛ ما أغرى كثيراً من الناس على الاشتغال بها، وما إن دخل العرب إلى هذا القطاع الاقتصادي حتّى انتعشت طبقة التجار، وازداد نشاطها، وبفعل ذلك أخذ المجتمع ينتقل تدريجياً إلى طور اقتصادي أضحت فيه التجارة ركناً أساسياً من أركان الحياة الاقتصادية بعد أن كانت ثانوية⁽²⁾.

وساعد على ازدهار النشاط التجاري في عهد الدولة العباسية توفّر عديد من العوامل؛ ففضلاً عن حيوية الموقع الجغرافي، فقد أسهمت حالة الثراء والترّف التي تمتّع بها الخلفاء والطبقة الحاكمة بشكل كبير في تطوير القطاع التجاري؛ حيث انصبّ اهتمام التجار بالدرجة الأولى على تلبية احتياجات القصر من الجواهر والألبسة، وغير ذلك من سلع الترف والثراء وأدواته، ونتج عن ذلك ظهور طبقة ثرية من التجار استطاعت أن تجني أرباحاً طائلة جرّاء ذلك⁽³⁾، ولعب الاتساع الجغرافي الكبير للدولة العباسية دوراً مهماً في ازدياد الرقعة التجارية لهذه الدولة، لا سيما مع توفّر شبكة من المواصلات البرية والبحرية التي ربطت أمصار الدولة بعضها ببعض، ومن جهة أخرى فقد أتاح لها ذلك إقامة علاقات تجارية نشطة مع العالم الخارجي، وأسهم ازدهار النشاط الزراعي والصناعي في

(1) الألسي، ص (375-392).

(2) الدوري، دراسات، ص 18.

(3) الدوري، دراسات، ص 18. الألسي، ص 338.

زيادة الناتج المحلي، وتكوين فائض اقتضت الضرورة تصريفه إلى الأسواق الداخليّة والخارجيّة⁽¹⁾، وفي المقابل فقد عَجَّت الأمصار الإسلاميّة بالأسواق التي عُدَّت أهمّ مراكز النّشاط التجاري والصناعي⁽²⁾، ومن أعظم الأسواق وأكثرها ازدهاراً في هذه الفترة كان سوق الكرخ في بغداد⁽³⁾، وأسهمت المؤسسات المصرفية التي أخذت بالنشوء والتطور في زيادة حدّة النّشاط التجاري زيادة كبيرة من خلال تسهيلاتهما الماليّة⁽⁴⁾.

ومع حلول القرن الرّابع الهجري أضحت التجارة الإسلاميّة "مظهراً من مظاهر أبهّة الإسلام، وصارت هي السيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كلّ البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأوّل في التجارة العالميّة، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللّتان تُقَرَّان الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكميّة على الأقل"⁽⁵⁾، وكان من أبرز مظاهر هذه العظمة نشوء طبقة ثرية من التجار الذين كان من أشهرهم التاجر الشهير ابن الجصاص، الذي استطاع، من خلال اشتغاله بتجارة السلع الثمينة المرتبطة بحاجات القصر والطبقة الحاكمة، من تكوين ثروة ضخمة تضاهي المخزون المالي لدولة، فقد قدّرت بعض المصادر التّاريخيّة مقدار ما صودر منه سنة 296هـ/909م بعد اتهامه بإيواء ابن المعتز بما يتراوح بين الأربعة ملايين وستة عشر مليون دينار، وعلى الرّغم من هذه النكبة فقد تمكّن من بناء ثروته من جديد في غضون فترة قصيرة بعد معاودته نشاطه التجاري⁽⁶⁾، وقد عاصر ابن الجصاص المكتفي بالله، وربطته به علاقة قوية، حتّى إنّه تجرّأ عليه ونعته في إحدى المرات التي اجتمع فيها به بأبي مشكاحل؛ ردّاً على استفسار الخليفة حول سعر ثمن العقد الذي ينوي شراءه منه، وخسر ابن الجصاص بفعل تطاوله ثمن العقد؛ مقابل ضمان الوزير العباس بن الحسن له بعدم تعرّضه لعقاب الخليفة الذي كاد أن يبطش به جرّاء تجرّئه عليه⁽⁷⁾.

(1) الأُلشي، ص338. بيليايف، ص12.

(2) متر، ج2، ص385. الدوري، تاريخ، ص133. بيطار، ص368.

(3) الدوري، تاريخ، ص133.

(4) الدوري، تاريخ، ص119. الدوري، دراسات، ص18.

(5) متر، ج2، ص371.

(6) الدوري، تاريخ، ص(122-123).

(7) التّوخي، نشوار، ج2، ص(316-317). غرس النعمة الصّابيّ، ص(160-161).

وعززت الدولة العباسية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين من صلاتها التجارية مع العالم الخارجي؛ فحظيت بلاد الشرق الأقصى؛ الهند والصين بالنصيب الأوفر من هذه العلاقة، وقد تطوّر هذا النشاط التجاري حتّى أصبح للمسلمين في هذه البلاد مراكز تجارية مهمّة تقيم بها الجالية الإسلامية التي مارست حياتها الاقتصادية والدينية بحرية مطلقة، وقدّرت بعض الدراسات أنّ أقدام التجار المسلمين قد وطئت مناطق بعيدة في هذه الأنحاء مثل كوريا⁽¹⁾، وكان للمسلمين علاقتهم التجارية مع الروس والخزر والبلغار⁽²⁾، وبخصوص الإمبراطورية البيزنطية؛ فقد حدّت الحروب الدائرة فيما بينها وبين الدولة العباسية من وتيرة النشاط التجاري القائم بين البلدين، غير أنّ ذلك لم يمنع وجود صلات تجارية بين الطرفين⁽³⁾، وشكّلت التجارة الخارجية مورداً مالياً كبيراً لخزينة الدولة؛ فقد وقّرت المكوس التي كانت تُجبي من الواردات الأجنبية التي كانت تمرّ من أراضي الدولة أرباحاً طائلة للخزينة المالية، وفي المقابل ضمن له ذلك تصدير فائض إنتاجه المحلي، وقد أدرك الخلفاء حجم المنفعة التي يتحصّل عليها الاقتصاد؛ جرّاء هذه التجارة، وفي محاولة منهم لتشجيع التجار الأجانب عملوا على التخفيف من المكوس المفروضة على بضائعهم، ويُنسب للمعتضد بالله في هذا المجال إسقاطه ضريبة المكوس⁽⁴⁾، ولعلّ الأدقّ هو أنّه أسقطها في فترة معينة دون أن يلغيها تماماً؛ إذ لا يمكن للدولة أن تتخلّى عن هذا المورد المالي المهمّ بهذه السهولة.

وتمثّلت صادرات الدولة العباسية خلال هذه الفترة بعدد من المحاصيل والمنتجات، أهمّها: القمح والشعير، والتمور، وزيت الزيتون والصابون، وقصب السكر، والأقمشة القطنية والمنسوجات الصوفية، والمصنوعات المعدنية⁽⁵⁾. أمّا واردتها، فمن بلاد الهند: الحيوانات كالنمر والفيلة، وخشب الأبنوس والصندل والخيزران، والفلفل والقرنفل والزنجبيل، وجوز الهند، والأحجار الكريمة، ومنها الماس، والرصاص وغيرهما من المعادن. واستوردت من الصين: الحرير والثياب الحريرية، والديباج، والجواري

(1) متر، ج2، ص374. الدوري، تاريخ، ص(149-150). بيطار، ص372.

(2) الدوري، تاريخ، ص(150-151).

(3) بيلياف، ص16.

(4) الألسي، ص(341-345).

(5) نفسه، ص(355-360).

والخصيان، والمسك، والقرفة، والكاغد، والمعادن الثمينة كالذهب والفضة. ومن أوروبا: الديباج الرومي، والمعادن، والرقيق، والشمع، والصوف، والسجاد والفُرَش⁽¹⁾.

الأحوال العلميّة

ساعدت الأوضاع الداخليّة في عهد المكتفي بالله على قيام بعض مظاهر الحضارة العلميّة والعُمرانيّة، التي أسهمت بدورها في إثراء الموروث الحضاري العباسي على وجه خاصّ، والإسلامي بصورة عامّة. وكان العصر العباسي الثاني خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين قد شهد ازدهاراً ملحوظاً في الحياة العلميّة؛ نتيجة التحولات السياسيّة التي مرّت بها الدولة الإسلاميّة عبر امتداد تاريخها وصولاً إلى هذه الحقبة الزمنية، وما تخلّل ذلك كلّ من مؤثرات داخلية وخارجيّة صقلت بنية هذه الحضارة، وأوصلتها إلى هذا المستوى من الرُقّي والازدهار، وبالتزامن مع ذلك لعبت عواصم الولايات الإسلاميّة ومدنها الرئيسية كبغداد والبصرة ودمشق والفسطاط وغيرها، دوراً مهماً في ذلك، وشكّلت بدورها مراكز علمية مهمّة، وقبلّة توافد إليها جموع العلماء على اختلاف تخصصاتهم العلميّة⁽²⁾.

وشكّلت خلافة المكتفي بالله فترة مهمّة من مراحل هذا الازدهار العلمي الذي شهده العصر العباسي الثاني، ولعبت ثقافته دوراً مهماً في ازدهار الحركة العلميّة، خاصّة الأدبية منها؛ إذ لطالما شهد مجلسه عدداً من المساجلات الشعرية التي دارت رحاها بينه وبين جلسائه من الشعراء والأدباء؛ التي دلّت بدورها على مدى تمكّنه من علوم اللغة العربية وآدابها وفنونها؛ ومن قبيل ذلك أنّه نقد شعراً نظمهم متوجّ بن محمود بن مروان في حضرته؛ بعد أن أخطأ في ضبط بعض حركاته⁽³⁾، وفي موقف آخر لام المكتفي بالله متوجّاً على شعر كان قد نظمهم جدّه مروان بن أبي الجَنُوب*، هاجم فيه عليّاً

(1) الدوري، تاريخ، ص (140-141). الأُلشي، ص (360-364).

(2) الأُلشي، ص (395-403).

(3) سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 337.

* مروان بن أبي الجَنُوب: بن مروان، أبو السَّمُط، وُصِفَ بأنّه من شعراء عصره المتقدمين، تقَرَّب من الخلفاء؛ فقد نادى باللّه، ولكنّ الأخير سخط عليه ونفاه إلى اليمامة، ثمّ اتصل بالمتوكل على اللّه، فأمر بإحضاره، وحين قدم إلى سامراء صار من المقربين إليه، ونظم في مدحه عدداً من القصائد، فنال بسبب ذلك كثيراً من العطاء. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج 15، ص (197-198). ابن خلّكان، ج 5، ص 193.

بن أبي طالب⁽¹⁾، كما ظهرت كفاية المكتفي بالله الأدبية عندما خالف يحيى بن علي المنجم حول هوية البيت الشعري الأكثر احتواءً لمعاني الفجور والفسق؛ حيث أشار الأخير إلى قول أبي نواس*:

(البحر الطويل)

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ

وتغلب الخليفة عليه بشهادة جلسائه عندما استحضر قول الحسين بن الضحّاك (ت.250هـ/864م)**:

(البحر المجتبى)

أَتَبَعْتُ سُكْرًا بِسُكْرٍ وَأَبْتَعْتُ خَمْرًا بِقَمَرٍ⁽²⁾

ويبدو أن ثقافة المكتفي بالله وجهت عنايته إلى ضرورة تبني سياسة قائمة على تشجيع العلم والعلماء، وأظهر في غير موقف حرصه على التقرب من العلماء؛ رغبةً منه في الوقوف على ما خلصت إليه آراؤهم واجتهاداتهم العلميّة؛ ولعلّ من أبرز الأمثلة الدالّة على ذلك علاقته بقدامة بن جعفر (ت.329هـ/941م)، صاحب كتاب الخراج وأحد أعلام عصره في علوم الفلسفة واللغة، فقد نسبت المصادر التاريخيّة أنّ ارتداد قدامة عن النّصرانيّة واعتناقه الإسلام كان على يد المكتفي بالله⁽³⁾،

(1) المرزباني، ص242.

* أبو نواس: الحسين بن هانئ، وُلِدَ في الأهواز حوالي عام 136هـ/754م، ونشأ في البصرة، وهو أحد عمالقة الشعر في العصر الإسلامي، وقيل فيه: إنّه لو أدرك العصر الجاهلي لما فُضِّل عليه أحد، وشهد له الجاحظ بأنّه لم ير: "رجلاً أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبي نواس"، وُصِفَ بأنه كان كثير المجون، انتقل إلى بغداد، واتصل بخلفاء بني العباس، وكانت له مواقف مع أبي جعفر المنصور ومحمد المهدي، ثمّ رحل إلى دمشق، ومنها إلى مصر، وبعدها عاد إلى بغداد، حيث توفّي فيها، ووقعت وفاته بين 195-198هـ/811-814م، ومن أجود قصائده خَمْرِيَّاتُهُ، وله من الدواوين الفكاهة والانتناس في مجون أبي نواس. يُنظر: الخطيب البغدادي، ج8، ص(475-492). الزركلي، ج2، ص225.

** الحسين بن الضحّاك: أبو علي، عُرِفَ بالخليع؛ لكثرة مُجونه، من شعراء العصر العباسي، وُلِدَ في البصرة عام 162هـ/779م، ونشأ فيها، ثمّ انتقل إلى بغداد، واختصّ في منادمة الخلفاء منذ عهد الرشيد حتّى آخر أيام المستعين بالله، وعُرِفَ عنه تعلّقه بمحمد الأمين (193-198هـ/809-814م)، ومولاته له حتّى إنّه رثاه في كثير من القصائد، ووُصِفَ شعره بالرفيق والعذب. يُنظر: الصفي، ج12، ص(235-238). الزركلي، ج2، ص239.

(2) أبو هلال العسكري، ج1، ص202. الراغب الأصفهاني، ج1، ص781.

(3) ابن النديم، ص144. الصفي، ج24، ص(153-154).

ومن العلماء الذين كان للمكتفي بالله فضل في علوّ نجمهم أبو بكر محمد بن يحيى الصولي؛ بعد أن قرّبه منه، وجعله من جلسائه، فكان ذلك سبباً في انتظام حال الصولي، ومداومته على مجالسة الخلفاء⁽¹⁾.

وأبدى المكتفي بالله اهتماماً بالعلوم الدينية⁽²⁾، خاصّة علم الفقه؛ فقد ورد عنه أنّه كلّف الإمام الطّبري بتأليف كتاب يجمع له فيه آراء العلماء واجتهاداتهم في المسائل الفقهية، من دون أن يتعرّض لها بأيّ خلاف، وعندما فرغ من ذلك أمر له الخليفة بمكافأة، غير أنّه امتنع عن قبولها، واكتفى منه بأن يأمر له صاحب الشرطة أن يمنع الناس من دخول مقصورته يوم الجمعة إلّا بعد انتهاء الخطبة، فأجيب إلى ذلك⁽³⁾، كما أبدى اهتماماً بعلم الكلام؛ وقد ظهر ذلك حينما عُقدَ في حضرته مجلس للشاعر يحيى بن علي المنجّم، والذي كان حينذاك من أعلام المتكلّمين والمعتزلة⁽⁴⁾، وكان أيضاً حريصاً على تعلّم التاريخ ومطالعة أخبار الزمان المنصرم؛ ومن قبيل ذلك أن كلّف أحد وزرائه بالشرع بإعداد كتاب له بهذا الخصوص⁽⁵⁾.

وكان لوزراء المكتفي بالله اهتماماتهم أيضاً في مجال الحياة العلميّة؛ فقد كلّف الوزير القاسم بن عبيد الله عام 290هـ/903م الطبيب والفيلسوف إسحاق بن حنين بتأليف كتاب مُبسّط ومختصر يقف فيه على كلّ من اشتغل بالطب والفلسفة منذ القدم حتّى تاريخ إعداد الكتاب؛ فدوّن فيه مؤلّفه تاريخ الأطباء والفلاسفة⁽⁶⁾، أمّا العباس بن الحسن فقد اتصل بالطّبري، وطلب منه أن يُعدّ له كتاباً يشرح فيه مختصر مذهبه في الفقه، ونزولاً عند رغبته ألف الطّبري كتاب الخفيف، وأراد الوزير أن يكافئته فأمر له بألف دينار، إلّا أنّه رفض قبولها⁽⁷⁾.

(1) الصولي، اخبار، ص 69. إبراهيم الحصري، ج 4، ص (1137-1138). ابن خلّكان، ج 4، ص (359-360).

(2) للاطلاع على الحياة الدّينيّة العباسيّة منذ عهد المتوكل على الله حتّى نهاية عهد المقتدر بالله، يُنظر: Melchert, Christopher, Religious Policies of the Caliphs from al-Mutawakkil to al-Muqtadir, A H 232-295/ A D 847-908, Islamic Law and Society, Vol. 3, No. 3 (1996), pp. 316-342.

(3) ابن عساكر، ج 52، ص 194. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 489. الذهبي، سير، ج 14، ص 270، ص 272.

(4) ابن خلّكان، ج 6، ص 198.

(5) ابن الطقطقا، ص 7.

(6) ابن حنين، ص 149.

(7) ابن عساكر، ج 52، ص 194. الذهبي، سير، ج 14، ص 270.

وجرت العادة أن تُقسم العلوم الإسلامية من حيث موضوعاتها وطريقة تعلّمها إلى قسمين رئيسين، هما: العلوم النقلية التي تشمل العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية وآدابها وفنونها، أما القسم الثاني فهو العلوم العقلية، كالطب، والفلسفة، والكيمياء، والفلك، والتاريخ، والجغرافيا⁽¹⁾، وقد شهد عهد المكتفي بالله نبوغ عدد من العلماء في بعض فروع هذه العلوم.

وفيما يتعلّق بالعلوم النقلية، خاصّة علوم اللغة العربية وآدابها وفنونها، فقد علا نجم عدد من الشعراء كان أبرزهم الأمير العباسي عبد الله بن المعتز الذي عُدّ من فحول الشعراء في العصر العباسي الثاني؛ فقد كان شاعراً جيد القريحة، رقيق الألفاظ والمعاني، وإلى جانب ذلك حاز ابن المعتز ثقافة واسعة⁽²⁾، وممّا وُصِفَ به أنّه "كان غزير الأدب، بارعاً في الفضل، مليح الشعر"⁽³⁾، وجالس المكتفي بالله ابن المعتز وقربه منه؛ فنشأت علاقة طيبة ومتينة بين الرجلين⁽⁴⁾، وكثيرة هي المواقف التي مُدح بها الخليفة على لسان ابن المعتز الذي لطالما نظم قصائده مشيداً به وببطولاته وانتصاراته⁽⁵⁾.

وممّن اشتهر أيضاً من علماء اللغة في عهد المكتفي بالله الأديب أبو بكر محمد بن يحيى الصولي الذي كان "أحد الأدباء المتفنتين في الآداب والأخبار والشعر والتواريخ"⁽⁶⁾، وحظي بمنزلة رفيعة عند المكتفي بالله؛ فقد كان من ندمائه المقربين إليه، وكثيراً ما تردّد اسمه في عدد لا يُحصى من المواقف التي جرت في حضرة الخليفة⁽⁷⁾، ولطالما أثارت مهارته في الشطرنج إعجابه وانبهاره⁽⁸⁾.

وفي مجال العلوم العقلية؛ فقد شهد علم الطب طفرة علمية برزت ملامحها في صعود نجم عدد من الأطباء، كان أبرزهم أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (250-313هـ/864-925م)، وفضلاً عن كون

(1) ياسين، ص (و- ز).

(2) كرم البستاني، مقدمة ديوان ابن المعتز، ص (5-6).

(3) ابن الجوزي، ج 13، ص 84.

(4) ابن العمراني، ص 150.

(5) الثعالبي، ثمار، ص 190. إبراهيم الحصري، ج 4، ص (908-909). ابن العديم، ج 2، ص 943. ابن خلكان، ج 4، ص 340. الكتبي، ج 3، ص 6.

(6) الذهبي، تاريخ، ج 7، ص 696.

(7) المسعودي، مروج، ج 4، ص 228. ابن النديم، ص 167. المزرباني، ص 329، ص 342. بازيار العزيز بالله الفاطمي، ص 120. إبراهيم الحصري، ج 4، ص 1137. ابن العمراني، ص 251. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 337. ابن خلكان، ج 4، ص (359-360).

(8) إبراهيم الحصري، ج 4، ص (1137-1138). ابن خلكان، ج 4، ص (359-360). الصفدي، ج 5، ص 126.

الأخير أحد أعلام الطب في العصر الإسلامي؛ فقد كانت له اهتماماته الخاصة في علوم الفلسفة والكيمياء، غير أنه نبغ في الطب، وألّف فيه عدداً من المؤلفات بنحو فاق غيره من العلوم التي اشتغل بها، ولعلّ أشهرها هو كتاب الحاوي الذي عدّ لفترة طويلة أكبر موسوعة طبية مدونة في اللغة العربية⁽¹⁾، وعندما انتقل الرازي من الري إلى العراق أقام في بغداد مدة من الزمن⁽²⁾، وتتسبب إليه بعض المصادر التاريخية أنّه تولّى تدبير بیمارستان بغداد في عهد المكتفي بالله⁽³⁾.

ومن الأطباء الذين ذاع صيتهم في عهد المكتفي بالله يوسف الساهر⁽⁴⁾، ويبدو أنّه كان نصرانياً؛ بدليل اشتغاره بلقب القسّ، في حين جاء لقبه الساهر؛ بسبب مواظبته على السهر؛ نتيجة إصابته بورم سرطاني في مقدّمة رأسه، حيث كان ذلك يحول بينه وبين النوم⁽⁵⁾، وألّف يوسف القسّ في الطبّ كُنَاشَه* الخاص الذي اشتهر فيما بعد باسمه⁽⁶⁾، ونبغ أيضاً من الأطباء أبو يعقوب إسحاق ابن حنين (215-298هـ/830-910م)⁽⁷⁾، وإلى جانب انشغاله بالطب، فقد كان له أيضاً اهتماماته في الفلسفة، غير أنّه أبدع على نحو خاصّ في الترجمة؛ فقد استطاع أن ينقل عدداً لا بأس به من كتب الفلسفة والرياضيات من اللغة اليونانية إلى العربية⁽⁸⁾، وجمعت بين ابن حنين والوزير القاسم بن عبيد الله علاقة طيبة؛ فقد كان من أخصّ جلسائه وأوثقهم إليه، ولطالما أفضى إليه بأسراره⁽⁹⁾.

وظهر في عهد المكتفي بالله عدد من العلماء الذي جمعوا بعضاً من فروع العلوم العقلية والعقلية؛ وكان في مقدّمة هؤلاء الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب الشهرة الواسعة، وأحد أعلام الأمة في علوم التفسير والحديث والفقه والتاريخ⁽¹⁰⁾، ووقف إلى جانبه في هذا المجال تلميذه أبو

(1) وينس، مادة الرزي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج17، ص (5047-5048).

(2) ابن أبي الأصبعية، ص414. يُنظر أيضاً: وينس، مادة الرزي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج17، ص5048.

(3) ابن خلّكان، ج5، ص175. الذهبي، سير، ج14، ص354.

(4) ابن النديم، ص356. ابن أبي الأصبعية، ص278. ابن العبري، ص268. الصفدي، ج29، ص171.

(5) ابن أبي الأصبعية، ص278. ابن العبري، ص268. الصفدي، ج171.

* الكُنَاشَه: كلمة آرامية، معناها مجموعة، وتُطلق على المؤلفات المتعلقة بالبحوث الطبية. يُنظر: دوزي، ج9، ص153.

(6) ابن النديم، ص356. ابن أبي الأصبعية، ص278. ابن العبري، ص268. الصفدي، ج29، ص171.

(7) الزركلي، ج1، ص294.

(8) الزركلي، ج1، ص294. سوتر، مادة إسحاق بن حنين، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج3، ص709.

(9) ابن النديم، ص343. ابن خلّكان، ج1، ص205.

(10) ابن خلّكان، ج4، ص191. الذهبي، تاريخ، ج7، ص161.

أحمد يحيى بن علي المنجم (241-300هـ / 855-913م)⁽¹⁾، وكان الأخير على دراية واسعة ببعض فروع الأدب والعلوم الشرعية والفلسفة⁽²⁾، غير أنه نبغ في الشعر أكثر من غيره؛ فقد احتل مكانة مرموقة بين نظرائه، حتّى وُصِفَ بأنّه من "أشعر أهل زمانه"⁽³⁾، وإلى جانب ذلك فقد كان أحد أعلام زمانه في الاعتزال⁽⁴⁾، واشتغل أيضاً بالفقه؛ فدوّن كتاباً فيه سمّاه الإجماع في الفقه⁽⁵⁾، ويبدو أنّ ثقافة ابن المنجم الواسعة جعلت منه جليساً مقرباً للخلفاء؛ فقد نادى المعتضد بالله، ثمّ علت منزلته عند المكتفي بالله الذي اختصّ به⁽⁶⁾، وقدمه على كثير من خواصّه وجلسائه⁽⁷⁾.

الأحوال العمرانيّة

على الرّغم من قصر مدة حكم المكتفي بالله؛ فقد استطاع أن يخلف بعض المآثر العمرانيّة، التي ظلت لفترة طويلة من أبرز المعالم الحضاريّة الدالّة على عظيم التطور والازدهار الذي وصل إليه فن العمارة العبّاسيّة. وأول ما يُنسب إليه في هذا المجال جامع القصر الذي بُني مكان المطامير التي أقامها المعتضد بالله داخل القصر الحسني، وكان الناس في عهد الأخير يصلّون الجمعة داخل هذا القصر دون أن يكون فيه مسجد؛ فقد كان يؤدّن لهم بالدخول إليه وقت الصلاة، ثمّ يُصرفون بعد انقضائها، وعندما بويع المكتفي بالله نزل بالقصر الحسني، وأمر أن تُهدّم مطاميره؛ لإقامة مسجد جامع، ولمّا انتهى من بنائه صار الناس يدخلون إليه دون الحاجة إلى إذن، ويمكنون فيه حتّى آخر النهار⁽⁸⁾.

(1) الخطيب البغدادي، ج16، ص340. الذهبي، سير، ج13، ص405.

(2) الخطيب البغدادي، ج16، ص340. ابن خلّكان، ج6، ص198. الذهبي، سير، ج13، ص405.

(3) الخطيب البغدادي، ج16، ص340.

(4) ابن خلّكان، ج6، ص198.

(5) الذهبي، سير، ج13، ص405.

(6) الخطيب البغدادي، ج16، ص340. ابن خلّكان، ج6، ص198. الذهبي، سير، ج13، ص405.

(7) ابن خلّكان، ج6، ص198.

(8) الخطيب البغدادي، ج1، ص(428-429). ابن الجوزي، ج13، ص(5-6). يُنظر أيضاً: سركيس، ص10.

وعُرفَ جامع القصر عبر التَّاريخ بغير اسم؛ فالى جانب الاسم الأوَّل⁽¹⁾، اشتهر أيضاً بجامع الخليفة⁽²⁾، ثمَّ عُرِفَ بعدها بجامع الخلفاء⁽³⁾، ويُرجَّح أنَّ تاريخ هذا الاسم يرجع إلى القرون الثلاثة الأخيرة⁽⁴⁾، وبعد أن أعاد والي بغداد سليمان باشا الكبير (1193-1217هـ/1779-1802م)* بناءه من جديد في تسعينيات القرن الثَّاني عشر الهجري/ثمانينيات القرن الثَّامن عشر الميلادي، اشتهر باسم جامع سوق الغزل؛ بسبب محاذاته لهذه السوق، وعلى الرَّغم من ذلك فقد بقي اسم جامع الخلفاء هو الأكثر شهرة وتداولاً حتَّى يومنا هذا⁽⁵⁾.

وحظي هذا الجامع بمكانة رفيعة في التَّاريخ العبَّاسي السِّيَّاسي والديني على حدِّ سواء؛ فقد مكث لفترة طويلة واحداً من المساجد الثلاثة الجامعة التي تُقام بها صلاة الجمعة في بغداد إلى جانب كلِّ من مسجد المنصور، ومسجد الرُّصافة الذي بناه الهادي⁽⁶⁾، وعُدَّ جامع القصر المسجد الرئيس للدولة العبَّاسيَّة طيلة عقودها الأربعة الأخيرة؛ فقد كانت تُقرأ فيه عهود تولية القضاء، وفيه كان يُصلى على أعيان الدَّولة وعلمائها، وكان تُعقد في جنباته حلقات العلم التي كان يديرها الفقهاء والمحدثون والمنظرون على اختلاف علومهم⁽⁷⁾.

ولم يصل إلينا كثير من التفاصيل حول مرافق الجامع المعمارية؛ غير أنَّ مئذنته كانت ولا تزال أحد أبرز معالمه المعمارية⁽⁸⁾، وزار الرَّحالة الأندلسي ابن جبیر (ت. 614هـ/1217م) هذا الجامع بحدود

(1) ابن ظافر الأزدي، ج2، ص379. ابن دحية الكلبي، ص94. النويري، ج23، ص9. يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص124-125. سركيس، ص21.

(2) ابن جبیر، ص183. يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص125. سركيس، ص21.

(3) جواد؛ سوسة، ص125. سركيس، ص21.

(4) سركيس، ص4.

* **سليمان باشا الكبير**: من أبرز مؤسسي حكومة المماليك في العراق (1163-1247هـ/1749-1831م)، يُعدَّ عهده العصر الذهبي لمماليك العراق، وُصِفَ بأنَّه رجل دولة؛ فقد كان حاكماً مهيباً، مخلصاً في عمله، فرض رقابة صارمة على كبار موظفيه، وأثَّر عنه حرصه على إحقاق العدل ورفع الظلم عن الرعية، وكان مقتصداً في نفقاته حتَّى عيَّر بالبخل، وقد أقام سليمان باشا علاقة جيدة مع بريطانيا حتَّى يضمن تزوِّده بالسلاح والعتاد والخبراء، ولم يكن للدولة العثمانية التي كانت منهمكة في مشاكلها مع الأوروبيين أيَّ تدخلات في شؤون العراق الداخليَّة خلال عهده. يُنظر: طقوش، تاريخ العراق، ص(54-55).

(5) جواد؛ سوسة، ص125. سركيس، ص21.

(6) الخطيب البغدادي، ج1، ص(428-429). ابن الجوزي، ج13، ص(5-6). يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص125.

(7) جواد؛ سوسة، ص125.

(8) جواد؛ سوسة، ص(124-125). سركيس، ص(2-4).

ثمانينيات القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ووصف معامله بإيجاز قائلاً: "جامع الخليفة...، وهو جامع كبير، فيه سقايات عظيمة، ومرافق كثيرة كاملة؛ مرفق الوضوء والظهور"⁽¹⁾، ولم يمضِ زمن طويل على تاريخ هذه الزيارة، حتّى دُمّر الجامع بأكمله على يد التتار بعد دخولهم إلى بغداد سنة 656هـ/1258م⁽²⁾، ثمّ ما لبث أن أعيد بناؤه من جديد عام 678هـ/1279م بما فيه مئذنته، وبحدود القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، عانى من الإهمال والخراب، وتهدّمت بعض أجزائه، وكان قد اقتطع جزء من جانبه الشرقي لصالح إقامة سوق للغزل؛ ولعلّ ذلك كلّ ما دفع والي بغداد سليمان باشا إلى الشروع عام 1193هـ/1779م ببناء جامع جديد متصل بالجهة الغربية للمئذنة⁽³⁾، وفي سنة 1395هـ/1957م تعرّضت بعض أجزاء هذا الجامع للهدم؛ إثر توسعة الشارع المحاذي له، ولم يبقَ من شواهد التّاريخيّة إلا مئذنته(يُنظر: الملاحق، شكل رقم 3)⁽⁴⁾.

ويُعدّ أيضاً قصر التاج (يُنظر: الملاحق، خريطة رقم 1) من أبرز المآثر المعمارية التي شيّدها المكتفي بالله⁽⁵⁾ على الجانب الشرقي من نهر دجلة⁽⁶⁾ أسفل القصر الحسني⁽⁷⁾، وقد سبق للمعتضد بالله أن اختار لهذا القصر موقعه واسمه، وشرع في بناء أساساته، مستخدماً في ذلك الحجارة التي نقلها من القصر الأبيض*، وفي أحد الأيام رأى المعتضد بالله دخاناً يرتفع إلى موضع هذا القصر؛ فصرف نظره عنه، وبنى بدلاً عنه قصر الثريا الواقع على بُعد ميلين منه⁽⁸⁾، وحين تولّى المكتفي

(1) ابن جبير، ص 183.

(2) سركيس، ص (14-15).

(3) جواد؛ سوسة، ص 125. سركيس، ص 15، ص (19-20).

(4) جواد؛ سوسة، ص 125.

(5) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 416. ابن الجوزي، ج 12، ص 335. الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص (3-5). الحموي، الخزل، ج 1، ص 76. ابن دحية الكلبي، ص 94. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 172. ابن الطقطقا، ص 258. الأربلي، ص 238. النويري، ج 23، ص 9.

(6) الحموي، الخزل، ج 1، ص 76.

(7) جواد؛ سوسة، ص 125.

* **القصر الأبيض**: أحد أبرز المعالم المعمارية الموجودة في مدينة المدائن الفارسية، ويعود تاريخ بناء هذا القصر إلى الحقبة الساسانية. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 85. الجُمَيري، ص (9-10).

(8) الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 4. الحموي، الخزل، ج 1، ص 80.

بالله الخلافة، شرع عام 290هـ/903م، ببناء قصر التاج من جديد⁽¹⁾، ونقلًا عن ابن الجوزي فقد أتم بناءه وفرغ منه في الثالث والعشرين من شعبان 294هـ/الثامن من يونيو 907م⁽²⁾.

وعَهْدَ المكتفي بالله إلى أبي عبد الله النكري مهمّة الإشراف على بناء هذا القصر⁽³⁾، ثم أمره بهدم القسم الأكبر من القصر الأبيض؛ بغية استغلال حجارته في تشييد مرافق القصر، ويبدو أنّ الخطوة الأولى كانت استكمال بناء الأساسات التي كان قد شرع بها المعتضد بالله؛ ولهذا الغرض استُخدمت شرفات* القصر الأبيض، وبعد أن أتم ذلك نقض ما تبقى من شرفات هذا القصر وجدرانه، واستغلها لبناء مسناة التاج* المحاذية لنهر دجلة، وحُمِلَ بعدها ما كان في أساسات القصر الأبيض وشُيِّدَتْ به أعالي التاج وشرفاته، وكان من أبرز معالم هذا القصر المعمارية قُبَّتُهُ التي اشتهرت باسم قُبَّة الحمار⁽⁴⁾؛ "وإنما سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنه كان يُصعد إليها في مدرج حولها على حمار لطيف، وهي عالية مثل نصف الدائرة"⁽⁵⁾، وتكوّنت واجهة هذا القصر من خمسة عقود، محمول كلّ منها على عشرة أعمدة أسطوانية يبلغ ارتفاع الواحد منها خمسة أذرع⁽⁶⁾، وشيّد المكتفي بالله خلف هذا القصر مجموعة من القباب والمجالس اللامتناهية في اتساعها وعلوها، ليضيف بذلك مزيداً من عناصر الجمال والإبداع إلى هذا الصرح المعماري⁽⁷⁾.

(1) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 85.

(2) ابن الجوزي، ج 13، ص 50.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 5.

* **شُرُفَات**: مفرد شُرْفَة، وقد أُطلق هذا اللفظ في الموروث المعماري؛ للدلالة على الزوائد المعمارية التي كنت توضع على أعالي القصور وأسوار المدن وواجهات المساجد والمدارس، وغيرها من المنشآت المعمارية، وعلى الأغلب أنّها ساحة بارزة مبنية وفق نمط معيّن، تتيح لمن يقف عليها الإشراف على مَنْ هم أسفل منه. يُنظر: ابن منظور، ج 9، ص 171. مرتضى الزبيدي، ج 23، ص (501-502). رزق، ص (161-163).

** **المسناة**: أشبه بسدّ، وهي حائط يُبنى في وجه المياه؛ حتّى يحجزها، وتحتوي جدرانها على فوهات لمرور الماء تُفَتِّح بقدر الحاجة. يُنظر: أبو حبيب، سعدي، القاموس، ص 186. قلعي، وآخرون، ص 429. أنيس، وآخرون، ص 457.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 85، ج 2، ص (3-5). يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص (125-126).

(5) الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 5.

(6) الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 5. الحموي، الخزل، ج 1، ص 80. يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص 126.

(7) الخطيب البغدادي، ج 1، ص 416. ابن الجوزي، ج 12، ص 335. سبط ابن الجوزي، ج 16، ص 172. الأريلى، ص 238.

ابن كثير، ج 13، ص 394. يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص 126.

وأضاف المقتدر بالله خلال خلافته بعضاً من المرافق المعمارية حول قصر التاج⁽¹⁾، وأصبح مع الوقت المركز الرسمي للخلفاء⁽²⁾، وحافظ على هيئته المعمارية إلى أن تعرّض سنة 549هـ/1154م إلى حريق هائل؛ نتيجة تعرّضه لصاعقة، وأتت النيران التي استمرت تسعة أيام على جميع مرافقه، وصيرته أثراً بعد عين، وأظهر الخليفة القائم آنذاك وهو المقتفي لأمر الله (530-555هـ/1136-1160م)* تحمّساً لإعادة إعمارهِ، غير أنّه سرعان ما فترت عزيمته، وبقي الأمر على حاله إلى أن أعاد المستضيء بأمر الله (566-575هـ/1180-1170م)** بناء التاج من جديد⁽³⁾ عام 574هـ/1179م⁽⁴⁾، وعلى الأغلب أنّ معظم آثاره قد اندثرت، ولم يتبقّ لها أيّ وجود في العصر الحالي.

ومِمّا يُنسب إلى المكتفي بالله فيما يتعلّق بالنواحي الحضاريّة المعمارية رغبته في نقل أسد همدان إلى بغداد، الذي كان في حينها من آيات المدينة المعمارية؛ فقد سبق له أن شاهده وأثار إعجابه، فكتب إلى والي المدينة يأمره بنقله إليه، وحين اجتمع الأخير بالأهالي رفضوا طلب الخليفة؛ واعتبروا هذا الأسد جزءاً من موروث بلادهم الحضاري الذي لا يحقّ لأحد أن يستأثر به دونهم، وأخذ الوالي يبذل جهده في صرف نظر الخليفة عن ذلك؛ موضحاً له صعوبة إتمام هذه العمليّة التي تحتاج إلى فيل وعجلة، وتستوجب في الوقت ذاته قطع مسافات طويلة، وحين اطّلع المكتفي بالله على ذلك فترت عزيمته، وعدل عن مسعاه، فبقي أسد همدان في موضعه⁽⁵⁾.

(1) الخطيب البغدادي، ج1، ص416. ابن الجوزي، ج335. سبط ابن الجوزي، ج16، ص172. يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص126.

(2) جواد؛ سوسة، ص125.

* **المقتفي لأمر الله**: أبو عبد الله، محمد بن أحمد المستظهر بالله (487-512هـ/1094-1118)، وُلِدَ عام 489هـ/1096م، وهو من خلفاء العصر السلجوقي (447-656هـ/1055-1258م)، ويُعدّ أحد أعظم خلفاء عصور الضعف، وقد استطاع أن ينفرد بشؤون الحكم بعد أن كسر شوكة السلاجقة، وصار هو صاحب الأمر والنهي في دولته، ووُصِفَ بأنّه كان محمود السيرة، مؤمناً، شجاعاً، حليماً، عالماً مواظباً على دراسة القرآن والحديث، وقد طالت أيامه حتّى توفّي. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج12، ص(98-100). الزركلي، ج5، ص317.

** **المستضيء بأمر الله**: أبو محمد، الحسن بن يوسف المستجد بالله (555-566هـ/1160-1170م)، وُلِدَ عام 536هـ/1141م، تولى الخلافة بعد وفاة والده، وسار بالناس سيرة حسنة، وكان كثير الصدقة والإنفاق، حريصاً على إظهار العدل، شغوفاً بالعلم، وفي عهده سقطت الدولة الفاطمية 567هـ/1171م في مصر، وبها أُقيمت له الخطبة، وضُرِبَت النقود باسمه. يُنظر: الذهبي، تاريخ، ج12، ص(551-553).

(3) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص5. الحموي، الخزل، ج1، ص(80-81). يُنظر أيضاً: جواد؛ سوسة، ص126.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص5.

(5) نفسه، ج5، ص415.

الخاتمة

لعب المكتفي بالله دوراً سياسياً بارزاً في خلافة والده؛ ما أكسبه نفوذاً كبيراً داخل مؤسسات الدولة، وقد هيّأه ذلك على نحو جيد لتسلّم مقاليد الحكم، وعلى الرغم من ذلك لم يُسمّ ولي للعهد إلا في أواخر أيام والده، وبعد وفاة الأخير ببيع لمكتفي بالله بالخلافة، ولعب الوزير القاسم بن عبيد الله والقادة دوراً كبيراً في إنجاز هذا القرار، ولما وفد الخليفة إلى بغداد قادماً من الرقة عمل على تأكيد بيعته عن طريق التقرب من العامة والخاصة على حدّ سواء.

شهدت حدود الدولة العباسية في عهد هذا الخليفة، باستثناء العراق والشّمال الشّامي، حالة من المدّ والجزر؛ تبعاً لعوامل القوة والضعف التي اعترت الخلافة العباسية، والدويلات السياسية المستقلة، وقد حقّق المكتفي بالله الإنجاز الأعظم بهذا الخصوص عندما استعاد مصر وما تبقى من بلاد الشّام من سيادة الطّولونيين.

سارع المكتفي بالله فور تسلّمه الحكم، تحت تأثير وزيره القاسم بن عبيد الله، إلى التخلّص من القائد بدر المعتضدي الذي مثّل الرتبة الأعلى في الجيش العباسي، دون أن يُظهر الأخير أيّ بوادر للعصيان، وشهدت ولايات الشرق الأقصى والعراق وبلاد الشّام اندلاع عديد من التمردات التي غلب عليها طابع الضعف، حيث لم تجد الدولة صعوبة في إخمادها، ولم يمضِ وقت قصير على إخضاع مصر حتّى استغلّ الخليجي هشاشة المرحلة الانتقالية، فسارع إلى انتزاعها من يد العباسيين بعد أن نصّب نفسه وصياً على الحقّ الطّولوني في حكم مصر، وكاد هذا التأثير أن ينفصل بمصر لولا أن وظّفت الدولة العباسية قدراً كبيراً من إمكانياتها العسكرية؛ لإفشال هذه الحركة الانفصالية.

بلغت الحركة الإسماعيلية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/أواخر القرن التاسع الميلادي ذروة نشاطها الدعوي، وقد امتازت بدقة تنظيمها، وتنوّع أساليبها الدعوية؛ ما مكّنها من بسط نفوذها على مناطق شاسعة في بلاد اليمن والمغرب، وقطفت هذه الدعوة ثمارها بعد أن استطاعت تأسيس دولة لها في بلاد المغرب، وجاء اختيار هذه الرقعة الجغرافية بعد أن انفرد القرامطة بزعامة الوجود الإسماعيلي في شبه الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشّام.

انبثق القرامطة من رحم الحركة الإسماعيلية، وسرعان ما انشقوا عنها، ودخلوا معها في حالة عدا، وقام القرامطة في عهد المكتفي بالله بعديد من الثورات في بلاد الشام والعراق، التي كان أخطرها حركة كل من صاحب الشامه وزكرويه، وعلى الرغم من الخسائر التي تكبدتها الدولة العباسية في أثناء تصديها لهم، إلا أنها استطاعت بفعل قوتها العسكرية والمالية من إخماد فتيل هذه الثورات والقضاء عليها، وبذلك نجحت في اجتثاث خطرهم من العراق وبلاد الشام، وترغم أبو سعيد الجنابي الوجود القرمطي في بلاد البحرين، وبعد نجاحه في إخضاع هجر سنة 290هـ/903م استقل ببلاد البحرين عن الخلافة العباسية، وأسس له فيها دولة قمرطية، في حين شهدت بلاد اليمن، حيث النفوذ العباسي الهش، نشاطاً شيعياً مطرداً قاده الزيدون بزعامه الإمام الهادي إلى الحق، والإسماعيليين بزعامه الحسن بن فرج بن حوشب وعلي بن الفضل، وقد استطاعت هذه الأطراف أن تخضع مناطق شاسعة من هذه البلاد لنفوذها، ولم تحافظ الحركة الإسماعلية على وحدتها؛ إذ ما لبث أن انشق ابن الفضل عنها، وحارب ابن حوشب، فشكّل ذلك إيذاناً بانحسارها داخل اليمن.

وشكّلت حالة القوة والضعف التي تمرّ بها الدويلات المستقلة العامل الأبرز الذي حدّد من خلاله المكتفي بالله طبيعة علاقته بها، وعلى صعيد العلاقات الخارجية؛ فقد استعادت الدولة العباسية هيبتها بعد التفوق العسكري الذي حقّقه على الإمبراطورية البيزنطية، لا سيّما بعد أن شنت حملة ناجحة على مدينة سالونيك، وقد أجبر ذلك بيزنطة على الدخول في مفاوضات مع الخلافة العباسية، نتج عنها تنفيذ فداءين بين الطرفين، ويبدو أنّ هذا التفوق الإسلامي لفت أنظار الأميرة بيريثا بنة لوثير الثاني الكارولنجي إلى المكتفي بالله، التي سعت بدورها إلى التقرب منه بعد أن وجّهت له سفارة بهذا الخصوص، وكان هدفها يتمحور حول إبرام تحالف مشترك مع الدولة العباسية ضدّ الإمبراطورية البيزنطية.

حافظ المكتفي بالله على مركزية منصبه بعيداً عن أيّ مؤثرات داخلية وخاصة الحاشية، وباستثناء فارس الداية لم ترد أيّ إشارة عن أيّ دور لعبته الحاشية وخاصة الحريم في الحكم، وبذلك صان المكتفي بالله هبة الخلافة، ومارس دوره باقتدار في إدارة مؤسسات الدولة، فانتعشت المؤسسة الإدارية وعلى رأسها الوزارة التي مارست بكفاية عالية مهامها في إدارة دفة الحكم، وفرضت الدولة

هيمنتها على المؤسسة العسكرية التي حافظت على ولائها لها، حيث نفذت واجباتها الأمنية الموكلة إليها باقتدار.

أبدى المكتفي قصوراً كبيراً في معالجة مسألة ولاية العهد؛ فقد امتنع عن تعيين أحد الأمراء العباسيين الأكفاء في هذا المنصب، وأصرّ على تولية أخيه جعفر على الرغم من صغر سنّه؛ ما أتاح الفرصة أمام وزيره وكتّاب دواوينه للعب دور كبير في اختيار الخليفة الجديد، وقد تمخّضت هذه الظروف عن تعيين جعفر المقتدر بالله وهو لا يزال في الثالثة عشر من عمره، حيث كانت تلك سابقة خطيرة لم تشهدها مؤسسة الخلافة من قبل.

وحرص المكتفي بالله على ضبط الموارد المالية بما يتوافق مع إمكانيات الدولة الاقتصادية، وفي المقابل فرض رقابة صارمة على النفقات، فحقّق ذلك انتعاشاً كبيراً في خزانة الدولة المالية، وإلى جانب هذا الاستقرار المالي فقد تأثّر النشاط الاقتصادي إيجابياً بالإصلاحات الاقتصادية الحاصلة في عهد المعتضد بالله، كما شهد عهد المكتفي بالله نبوغ عدد من العلماء في مختلف العلوم النقلية والعقلية، وأخيراً شيّد هذا الخليفة بعض العمائر التي كان من أبرزها جامع الخلفاء، وقصر التاج.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

ابن الأبار، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله (ت. 658هـ/1260م): إعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشر، ط1، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1961م.

إبراهيم الحصري، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي القيرواني (ت. 453هـ/1061م): زهر الآداب وثمر الألباب، 4 أجزاء، تحقيق: زكي مبارك ومحمد محي الدين، ط4، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

الأبشيهي، أبو الفتح، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت. 852هـ/1484م): المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، (د.ط)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).

الآبي، أبو سعد، منصور بن الحسين الرازي (ت. 421هـ/1030م): نثر الدر في المحاضرات، 4 أجزاء، تحقيق: خالد محفوظ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

ابن الأثير، أبو الحسن، عز الدين علي بن محمد (ت. 630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، 11 جزءاً، تحقيق: محمد الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

ابن أبي أصيبعة، أبو العباس، أحمد بن القاسم بن خليفة (ت. 668هـ/1270م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (د.ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

إدريس الحمزي، عماد الدين إدريس بن علي الحمزي (ت. 714هـ/1314م): كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، تحقيق: عبد المحسن المدعج، ط1، مؤسسة الشرع العربي، الكويت، 1992م.

الأربلي، أبو محمد، عبد الرحمن بن إبراهيم (ت. 717هـ/1317م): خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، تحقيق: مكي السيد جاسم، (د.ط)، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).

بازيار العزيز بالله الفاطمي، أبو عبد الله، الحسن بن الحسين (ت. أواخر ق 4هـ/10م): البيزرة، تحقيق: محمد كرد علي، (د.ط)، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1953م.

البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز (ت. 487هـ/1094م): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، 4 أجزاء، تحقيق: مصطفى السقا، ط3، عالم الكتاب، بيروت، 1983م.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين يوسف (ت. 874هـ/1470م):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16 جزءاً، (د. ط)، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1963م.

- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، جزآن، تحقيق: نبيل محمد أحمد، (د. ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1997م.

التنوخّي، أبو علي، المحسن بن علي (ت. 384هـ/994م):

- الفرج بعد الشدة، 5 أجزاء، تحقيق: عبود الشالجي، (د. ط)، دار صادر، بيروت، 1978م.

- نشوؤ المحاضرة وأخبار المذاكرة، 8 أجزاء، تحقيق: عبود الشالجي، ط1، دار صادر، بيروت، 1995م.

ثابت بن سنان، أبو الحسن، ثابت بن سنان بن قرة الصابي (ت. 365هـ/976م): تاريخ أخبار القرامطة، جمعه وحققه سهيل زكار ونشره في مؤلفه الجامع في أخبار القرامطة، جزآن، (د. ط)، التكوين للتأليف والنشر، دمشق، 2007م.

الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت. 429هـ/1037م):

- الإعجاز والإيجاز، تحقيق: إبراهيم صالح، ط1، دار البشائر، دمشق، 2001م.

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).

ابن جبير، أبو الحسن، محمد بن أحمد (ت. 614هـ/1217م): رحلة ابن جبير، (د. ط)، دار الهلال، بيروت، (د. ت).

ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي (ت. 598هـ/1200م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 19 جزءاً، تحقيق: محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1995م.

ابن الحائك الهمداني، أبو محمد، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت. 334هـ/946م): صفة جزيرة العرب، (د. ط)، مطبعة بريل، ليدن-هولندا، 1884م.

ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد (ت. 465هـ/1063م): جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).

الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله (ت. 626هـ/1229م):

- معجم البلدان، 5 أجزاء، (د. ط)، دار صادر، بيروت، 1977م.

- معجم الأدباء، 7 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م.

- الخزل والدأل بين الدور والدارات والديرة، جزآن، تحقيق: يحيى زكريا ومحمد أديب، (د. ط)، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1998م.

الجميري، أبو عبد الله، محمد بن عبد المنعم (ت. 900هـ/1494م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.

ابن حنين، ابو يعقوب، إسحاق بن حنين (ت. 298هـ/910م): تاريخ الأطباء والفلاسفة، تحقيق: فؤاد سيد، ط2، بيروت، دار الرسالة، 1985م.

ابن حوقل، أبو القاسم، محمد بن حوقل (ت. بعد 367هـ/977م): صورة الأرض، جزآن، ط2، دار صادر، بيروت، 1929م.

الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي (ت. 463هـ/1070م): تاريخ بغداد، 17 جزءاً، تحقيق: بشار عواد، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001.

ابن خلدون، أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد (ت. 808هـ/1406م): تاريخ ابن خلدون، 8 أجزاء، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، (د. ط)، دار الفكر، بيروت، 2000م.

ابن خلّكان، أبو عياش، شمس الدين أحمد بن محمد (ت. 681هـ/1282م): وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط)، دار صادر، بيروت، 1978م.

ابن دحية الكلبي، أبو الخطاب، عمر بن الحسن (ت. 633هـ/1236م): النبراس في تاريخ خلفاء بن العباس، تحقيق: عباس الغزاوي، (د. ط)، مطبعة المعارف، بغداد، 1946م.

الدّلّجي، شهاب الدين أحمد بن علي (ت. 838هـ/1435م): الفلاكة والمفلوكون، (د. ط)، مطبعة الشعب، القاهرة، 1904م.

الدميري، أبو البقاء، كمال الدين محمد بن موسى (ت. 808هـ/1405م): حياة الحيوان الكبرى، جزآن، تحقيق: أحمد حسين بسّج، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2002م.

الدوادري، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (ت. 737هـ/1366م): كنز الدرر وجامع الغرر، 9 أجزاء، تحقيق: بيرند راتكه، (د. ط)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1982م.

الذهبي، أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن أحمد (ت. 748هـ/1347م):

- العبر في خبر من غبر، 4 أجزاء، تحقيق: محمد السعيد زغلول، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1985م.

- سير أعلام النبلاء، 25 جزءاً، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 17 جزءاً، تحقيق: بشار عواد، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد بن الفضل (ت. 502هـ/1108م): محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، جزآن، تحقيق: عمر الطباع، ط1، دار الأرقم، بيروت، 1999م.

ابن الزبير، أبو الحسن، أحمد (ت. القرن 5 هـ/11 م): الذخائر والتحف، تحقيق: محمد حميد الله، (د. ط)، (د. ن)، الكويت، 1959م.

الزمخشري، أبو القاسم، محمود بن عمر الخوارزمي (ت. 538هـ/1143م): ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، 5 أجزاء، تحقيق: عبد الأمير مهنا، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1992م.

ابن الساعي، علي بن أنجب (ت. 674هـ/1275م): مختصر أخبار الخلفاء، ط1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1891م.

السالمى، عبد الله بن حميد (ت. 1332هـ/1913م): تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جزآن، تحقيق: إبراهيم طفيش، ط2، مطبعة الشباب، القاهرة، (د. ت).

سبط ابن الجوزي، أبو المظفر، يوسف بن عبد الله (ت. 654هـ/1256م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، 23 جزءاً، تحقيق: زاهر إسحق و آخرون، ط1، دار الرسالة العالمية، بيروت، 2013م.

ابن سعيد، أبو الحسن، نور الدين علي بن موسى (ت. 685هـ/1286م): المقتطف من أثار الطرف، تحقيق: سيد حنفي حسنين، (د. ط)، دار الذخائر، القاهرة، 2004م.

ابن سعيد القرطبي، عريب(ت. 369هـ/979م): صلة تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د. ط)، دار سويدان، بيروت، (د. ت) .

ابن سينا، أبو علي، الحسين بن علي(ت. 428هـ/1036م): القانون في الطب، 3 أجزاء، ط1، تحقيق: محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.

السيوطي، أبو الفضل، عبد الرحمن بن أبي بكر(ت. 911هـ/1505م):

- تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد غسان، ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2013م.

- لبّ اللباب في تحرير الأنساب، جزآن، تحقيق: محمد أحمد وأشرف أحمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.

ابن شداد، أبو عبد الله، محمد بن علي بن إبراهيم(ت. 684هـ/1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، 3 أجزاء، تحقيق: يحيى عبادة، (د. ط)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.

ابن الصّابي، أبو الحسن، هلال بن المحسن(ت. 448هـ/1056م):

- رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، 1986م.

- الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، (د. ط)، مكتبة الاعيان، (د.م)، (د.ت).

الصّحاري، أبو محمد، عبد الله بن محمد الأزدي (ت. ق 5هـ/6م): كتاب الماء، 3 أجزاء، تحقيق: هادي حسن، ط2، وزارة التراث والثقافة، عُمان، 2015م.

الصفدي، أبو الصفاء، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت. 764هـ/1362م): الوافي بالوفيات، 29 جزءاً، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 2000م.

الصولي، أبو بكر، محمد بن يحيى (ت. 335هـ/964م):

- أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة، (د. ط)، المطبعة السلفية، القاهرة، 1922م.

- أخبار الراضي بالله والمتقي لله، تحقيق: ج. هيورث. دن، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979م

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت. 310هـ/922م): تاريخ الرسل والملوك، 10 أجزاء، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط2، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

ابن الطقطقا، أبو جعفر، محمد بن علي بن طباطبا (ت. 709هـ/1309م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (د. ط)، دار صادر، بيروت، (د.ت).

ابن ظافر الأزدي، أبو الحسن، جمال الدين علي بن ظافر الأزدي (ت. 613هـ/1216م): أخبار الدول المنقطعة، جزآن، تحقيق: عصام هزيمة وآخرين، ط1، مؤسّسة حمادة ودار الكندي للنشر، إريد، 1999م.

ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر، أحمد بن محمد (ت. 328هـ/939م): العقد الفريد، 9 أجزاء، تحقيق: عبد المجيد الترجيني، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1983م.

ابن العبري، أبو الفرج، غريغوريوس بن أهرون (ت. 685هـ/1286م): تاريخ مختصر الدول، تحقيق: الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، ط2، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1994م.

ابن العديم، أبو القاسم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت. 660هـ/1261م): بغية الطلب في تاريخ حلب، 12 جزءاً، تحقيق: سهيل زكار، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

ابن عذاري، أبو العباس، محمد المراكشي (ت. نحو 695هـ/1295م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 4 أجزاء، تحقيق: ج. كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن(ت. 571هـ/1176م): تاريخ مدينة دمشق، 80 جزءاً، تحقيق: محبّ الدين عمر العمري، 80 جزءاً، (د. ط)، دار الفكر، بيروت، 1995م.

ابن العِماد الحنبلي، أبو الفلاح، عبد الحي بن أحمد بن محمد(ت. 1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 11 جزءاً، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير للطباعة والنشر، بيروت، 1989م.

العلوي، علي بن محمد بن عبيد الله(ت. منتصف ق 4هـ/10م): سيرة الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين، تحقيق: سهيل زكار، (د. ط)، (د. ن)، بيروت، 1972م.

ابن العُمراني، محمد بن علي(ت. 580هـ/1184م): الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السّامرائي، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999م.

غرس النعمة الصابئ، أبو الحسن، محمد بن هلال الصابئ(ت. 480هـ/1087م): الهفوات النادرة، تحقيق: صالح الأشتري، ط1، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1967م.

الغزولي، علي بن عبد الله(ت. 815هـ/1412م): مطالع البدور في منازل السرور، جزآن، ط1، (د. ن)، (د. م)، 1882م.

أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد(ت. 356هـ/967م): مقاتل الطالبين، تحقيق: أحمد صقر، ط4، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2006م.

الفَيّومي، أبو العباس، أحمد بن محمد بن علي(ت. 770هـ/1368م): المصباح المنير، (د. ط)، مكتبة لبنان، بيروت، 1978م.

القضاعي، أبو عبد الله، محمد بن سلامة(ت. 454هـ/1062م): عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق: جميل عبد الله المصري، (د. ط)، مركز البحوث وإحياء التراث، مكة المكرمة، 1995م.

القلقشندي، أبو العباس، أحمد بن علي(ت. 812هـ/889م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، 15 جزءاً، تحقيق: محمد حسين وآخرين، (د. ط)، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2012م.

الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاکر(ت. 764هـ/1362م): **فوات الوفيات والذيل عليها**، 5 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (د. ط)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

ابن كثير، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن عمر(ت. 774هـ/1372م): **البداية والنهاية**، 21 جزءاً، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، الجيزة، 1998م.

كشاجم، أبو الفتح، محمود بن الحسين الكاتب(ت. 360هـ/970م): **المصايد والمطارد**، تحقيق: محمود أسعد طلس، (د. ط)، مطبعة دار اليقظة، بغداد، (د. ت)

الكندي، أبو عمر، محمد بن يوسف(ت. بعد 350هـ/961م): **الولاء وكُتّاب القضاة**، تحقيق: رفن گست، (د. ط)، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.

مجهول(ت. ق 12هـ/17م): **تاريخ أهل عمان**، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، ط2، (د.ن)، (د.م)، 2005م.

مُرْتَضَى الزبيدي، أبو الفيض، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني(ت. 1205هـ/1791م): **تاج العروس من جواهر القاموس**، 40 جزءاً، ط2، مطبعة الكويت، الكويت، 1975م.

المرزباني، أبو عبد الله، محمد بن عُمران(ت. 384هـ/994م): **المَوْشَح في مآخذ العلماء على الشعراء**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1995م.

المسعودي، أبو الحسن، علي بن الحسين(ت. 346هـ/957م):

- **التنبيه والإشراف**، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصادق، (د. ط)، مكتبة الشرق الإسلاميّة، مصر، 1938م.

- **مزوج الذهب ومعادن الجواهر**، 4 أجزاء، تحقيق: كمال حسين مرعي، ط1، المكتبة
العصرية، بيروت، 2005م.

ابن مسكويه، أبو علي، أحمد بن محمد (ت. 421هـ/1030م): **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، 7 أجزاء،
تحقيق: سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003م.

ابن المعتز، أبو العباس، عبد الله بن محمد (ت. 296هـ/909م): **ديوان ابن المعتز**، (د.ط)، دار
صادر، بيروت، (د.ت).

المقريزي، أبو محمد، تقي الدين أحمد بن علي (ت. 845هـ/1442م):

- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، 3 أجزاء، تحقيق: جمال الدين الشيال،
ط2، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996م.

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية**، 4 أجزاء، تحقيق:
خليل المنصق، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1998م.

ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم (ت. 711هـ/1311م): **لسان العرب**، 15 جزءاً،
(د. ط)، دار صادر، بيروت، (د.ت).

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت. حوالي 395هـ/1004م): **ديوان المعاني**،
جزآن، (د. ط)، عالم الكتاب، بيروت، (د.ت).

الهمذاني، محمد بن عبد الملك (ت. 521هـ/1127م): **تكملة تاريخ الطبري**، تحقيق: محمد أبو
الفضل إبراهيم، (د.ط)، دار سويدان، بيروت، (د.ت).

ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن إسحاق (ت. 380هـ/990م): **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدد، (د.ط)،
(د.ن)، (د.م)، (د.ت).

نشوان الحميري، أبو سعيد، نشوان بن سعيد(ت. 573هـ/1177م): الحور العين، تحقيق: كمال مصطفى، ط2، المكتبة اليمنية، صنعاء، 1985م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت. 733هـ/1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، 33 جزءاً، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وآخرين، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2004م.

النيسابوري، أحمد بن إبراهيم(ت. أواخر ق 4هـ/10م): استتار الإمام عليه السلام وتفرّق الدعاة في الجزائر لطلبه، تحقيق: و. إيفانوف، ترجمة: محمد كامل حسين، مجلة كلية الآداب، مجلد 4، عدد 2، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1939م.

ابن الوزير، أبو القاسم، الحسين بن علي المغربي(ت. 418هـ/1027م): أدب الخواص في المختار من بلاغات قبائل العرب وأخبارها وأنسابها وأيامها، تحقيق: حمد الجاسر، (د.ط)، دار اليمامة، الرياض، 1980م.

يحيى الشهاري، يحيى بن الحسين بن محمد بن القاسم(ت. 1090هـ/1679م): أنباء الزمن في أخبار اليمن، تحقيق: محمد عبد الله، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت).

اليعقوبي، أبو يعقوب، أحمد بن يعقوب بن جعفر(ت. 292هـ/905م): البلدان، تحقيق: محمد أمين، (د.ط)، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ت).

ثانياً: المراجع

أحمد، حسن: قيام الدولة الزيدية في اليمن (280-298هـ/893-911م)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.

إسماعيل، محمود: الأغالبة (184-196هـ) سياستهم الخارجية، ط3، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2000م.

أنيس، وآخرون: المعجم الوسيط، ط4، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة، 2004م.

- بيطار، أمينة: تاريخ العصر العباسي، ط4، جامعة دمشق، دمشق، 1997م.
- تدمري، عمر عبد السلام: لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية (132-358هـ / 750-969م)، ط1، دار جروس برس، طرابلس، 1992م.
- جواد؛ سوسة: دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، (د. ط)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1958م.
- الجنزوري، عليّة عبد السميع: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، (د. ط)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1979م.
- حبيب، زينب: معجم الأمراض وعلاجها، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2010م.
- أبو حبيب، سعدي: القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، ط2، دار الفكر، دمشق، 1988م.
- حسن، زكي محمد: الفن الإسلامي في مصر، (د. ط)، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2020م.
- حمدي، حافظ أحمد: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، (د. ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1950م.
- الخربوطلي، علي حسني: المسعودي، ط2، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).
- الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.
- دفترى، فرهاد: معجم التاريخ الإسماعيلي، ترجمة: سيف الدين القصير، ط1، معهد الدراسات الإسماعيلية، بيروت، 2016م.
- الدوري، عبد العزيز:
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط2، دار الشرق، بيروت، 1947م.

- نشأة علم التاريخ عند العرب، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.
- العصر العباسي الأول -دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006م.
- دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م.
- النظم الإسلامية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008م.
- دوزي، رينهارت بيتر آن: تكملة المعاجم العربية، 11 جزءاً، ترجمة: محمد النعيمي وجمال خياط، ط1، وزارة الثقافة والعلوم، العراق، (1979-2000م).
- دي خويه، ميكال: القرامطة نشأتهم، دولتهم، وعلاقتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق: حسني زينه، ط1، دار ابن خلدون، بيروت، 1978م.
- رزق، عاصم محمد: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م.
- رمزي، محمد: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، قسمان، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م.
- رنسيमान، سنتيفن: الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.
- زامبور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: زكي محمد وآخرين، (د. ط)، دار الرائد العربي، بيروت، 1980م.
- الزحيلي، محمد: تاريخ القضاء في الإسلام، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 8 أجزاء، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.

زكار، سهيل: الجامع في أخبار القرامطة في الأحساء والشّام والعراق واليمن، جزآن، (د.ط)،
التكوين للتأليف والنشر، دمشق، 2007م.

الزهراني، ضيف الله يحيى: النفقات وإدارتها في الدولة العباسية، ط1، مكتبة الطالب الجامعي،
مكة المكرمة، 1986م.

زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، 4 أجزاء، (د. ط)، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012م.

سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، (د. ط)، مؤسسة شباب الجامعة،
الإسكندرية، (د. ت).

سالم؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، جزآن، (د.ط)، مؤسسة
شباب الجامعة، الإسكندرية، (د. ت).

السامرائي، حسام الدين: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة (247-334هـ/
861-945م)، ط2، دار الفكر العربي، (د. م)، 1982م.

سورديل، جانين ودومينيكيوس: معجم الإسلام التاريخي، ترجمة: أ. الحكيم وآخرين، (د. ط)، الدار
البنانية للنشر الجامعي، أنطالياس، 2009م.

الشيخ، محمد: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، (د. ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.
طقوش، محمد سهيل:

- تاريخ الدولة العباسية، ط7، دار النفائس، بيروت، 2009م.

- تاريخ العراق الحديث والمعاصر، ط1، دار النفائس، بيروت، 2015م.

العابد، مفيد رائف: معالم تاريخ الدولة الساسانية، ط1، دار الفكر، دمشق، 1999م.

العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والفاطمي، (د. ط)، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت).

عبيد، طه خضر: تاريخ الدولة البيزنطية، ط1، دار الفكر، عمان، 2010م.

عمر، فاروق: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (247-334هـ / 861-946م)، ط2، مكتبة المثنى، بغداد، 1977م.

عُمران، محمود سعيد: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، (د. ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م

عنان، محمد عبد الله: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط5، الناشر حسين عنان، (د.م)، 1997م.

غنيم، إسمت: الإمبراطورية البيزنطية وكرت الإسلامية، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، 1983م.

فرحات، محمد: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، 2013م.

الفي، عصام الدين: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، (د. ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م.

قلعجي، وآخرون: معجم لغة الفقهاء، ط2، دار النفائس، (د. م)، 1988م.

كحالة، عمر رضا: معجم القبائل العربية القديمة والحديثة، 5 أجزاء، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م.

لويس، بُرنادُ:

- أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، راجعه وقدمه: خليل أحمد خليل، ط1، دار الحداثة، (د.م)، 1980م.

- اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة: ماهر عبد القادر، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1996م.

متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جزآن، ترجمة: محمد أبو ريده، ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت.).

المقحفي، إبراهيم: معجم البلدان والقبائل اليمنية، 3 أجزاء، ط5، الجيل الجديد، صنعاء، 2011م.
مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987م.

هننس، فالتر: المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة: كامل العسيلي، (د.ط)، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، (د.ت.).

النخيلي، درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم، (د.ط)، جامعة الإسكندرية، مصر، 1974م.

ثالثاً: الرسائل الجامعية غير المنشورة

الألشي، ناريمان صادق: الدولة العباسية في عصر المعتضد بالله (279-289هـ/892-902م) (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1988م.

التميمي، أيمن سليمان: السجون في العصر العباسي (132-334هـ/750-945) (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 1997م.

حجو، مسامح يوسف: ولاية العهد في العصر العباسي الثاني (247-334هـ/861-945م) (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة، 2012م.

أبو سنيينة، زياد سلمان: القرامطة في السودان وبلاد الشام (رسالة دكتوراه غير منشورة)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 1998م.

العزي، محمد فياض: **الخلاف بين الجيش والدولة في ظلّ العباسيين خلال الفترة (247-334هـ/861-945م)** (رسالة ماجستير غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، إربد، 2001م.

المطيري، فهد: **التاريخ الاقتصادي للدولة العباسية في العصر العباسي الثاني (247-334هـ)** (رسالة دكتوراه غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، إربد، 2015م.

نصر، ميساء عبد الرؤوف: **هلال ابن الصّابي (ت. 448هـ/1056م) وكتابه تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2017م.

ياسين، معالي محمد: **الأوضاع العلمية في الأندلس خلال عصر الإمارة الأموية، وعلاقتها مع بلاد المغرب والمشرق (138-316هـ/756-928م)** (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2017م.

رابعاً: الموسوعات

موجز دائرة المعارف الإسلامية، 33 جزءاً، ط1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة، 1998م.

خامساً: الأبحاث المنشورة

ببلياييف، ي.أ: **الحالة الاقتصادية في عصر الخلافة العباسية، المورد، وزارة الإعلام العراقية، العدد الأول لسنة 2007م، ص(5-33).**

السامرائي، حسام الدين: **الخلافة العباسية والحركات المضادة بعد منتصف القرن الثالث الهجري، حوليات آداب عين شمس، كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد 36، 2008م، ص(89-131).**

سركيس، يعقوب: **منارة جامع سوق الغزل**، مجلة لغة العرب العراقية، وزارة الإعلام، العدد 6، 1928م، ص(21-2).

عباس، علي كاظم: **دراسة نقود عباسية في المتحف البريطاني**، آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد 64، 2012م، ص(386-351).

العلي، أحمد صالح: **قُضاة بغداد في العصر العباسي**، المجمع العلمي العراقي، مجلد 18، بغداد، 1969م، ص(208-145).

سادساً: **المراجع الأجنبية**

Finlay, George, **History of the Byzantine Empire from DCCXVI to MLVII**, William Blackwood and Sons, London, 1853.

Hamidullah, Muhammad, **The Embassy of Queen Bertha of Rome to Caliph al-Muktafe billah in Baghdad**, Journal of the Pakistan Historical Society, 1 (1953): (1-29).

Lapina, Elizabeth, **St. Demetrius of Thessaloniki: Patron Saint of Crusaders**. Viator: Medieval and Renaissance Studies, 40 (2), 2009, (93-112).

Melchert, Christopher, **Religious Policies of the Caliphs from al-Mutawakkil to al-Muqtadir**, A H 232-295/ A D 847-908, Islamic Law and Society, Vol. 3, No. 3 (1996), pp. 316-342.

Metcalf, Alex, **The Muslims of Medieval Italy**, Edinburgh University Press; Edinburgh, 2009.

Panayiotou, Stavros, **Arab-Byzantine seafaring in the Balkans and Eastern Mediterranean: the portrait of Leo of Tripoli and Damian of Tyre through primary sources**, Bulgarian e-Journal of Archaeology, Supplementa 7 (2019) (333–345).

Russell, Eugenia, **Demetrius of Thessaloniki**, Peter Long, Oxford, 2010.

Tougher, Shaun, **The Reign of Leo VI (886-912)**, Brill, Leiden, New York, Koln, 1997.

الملاحق

- الجداول

- الوثائق

- الأشكال

- الخرائط

الجدول

جدول (1):

خلفاء العصر العباسي الثاني (232-334هـ/847-946م)

الرقم	ال خليفة	فترة الحكم
1	جعفر المتوكل على الله بن المعتصم	(232-247هـ/847-861م)
2	محمد المنتصر بالله بن المتوكل	(247-248هـ/861-862م)
3	أحمد المستعين بالله بن المعتصم	(248-252هـ/862-866م)
4	محمد المعتز بالله بن المتوكل	(252-255هـ/866-869م)
5	محمد المهدي بالله بن الواثق	(255-256هـ/869-870م)
6	أحمد المعتمد على الله بن المتوكل	(256-279هـ/870-892م)
7	أحمد المعتضد بالله بن الموفق	(279-289هـ/892-902م)
8	علي المكتفي بالله بن المعتضد	(289-295هـ/902-908م)
9	جعفر المقتدر بالله بن المعتضد	(295-320هـ/908-932م)
10	محمد القاهر بالله بن المعتضد	(320-322هـ/932-934م)
11	محمد الراضي بالله بن المقتدر	(322-329هـ/934-941م)
12	إبراهيم المتقي لله بن المقتدر	(329-333هـ/941-944م)
13	عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي	(333-334هـ/944-946م)

الوثائق

وثيقة (1):

كتاب صاحب الشامة إلى عامله على ناحية حمص جعفر بن حميد الكردي

"ومن كتب صاحب الشامة إلى بعض عماله: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله، الداعية إلى كتاب الله، الذاب عن حرم الله، المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين، ومُذِلّ المنافقين خليفة الله على العالمين، وحاصد الظالمين، وقاصم المعتدين، ومبيد الملحدين، وقاتل القاسطين، ومهلك المفسدين، وسراج المبصرين، وضياء المستضيئين، ومشتت المخالفين، والقيّم بسنة سيد المرسلين، وولد خير الوصيين، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين، وسلّم كثيراً، إلى جعفر بن حميد الكردي:

سلام عليك؛ فاتني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يُصلي على جدّي محمد رسول الله، أمّا بعد، فقد أنهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة، وما فعلوه بناحيك، وأظهروه من الظلم والعيث والفساد في الأرض، فأعظمنا ذلك، ورأينا أن ننفذ إلى ما هناك من جيوشنا من ينقم الله به من أعدائه الظالمين، الذين يسعون في الأرض فساداً، وأنفذنا عطيماً داعيتنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص، وأمددناهم بالعساكر، ونحن في أثرهم، وقد أوعزنا إليهم في المصير إلى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا، ونحن نرجو أن يجربنا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا في أمثالهم، فينبغي أن تشدّ قلبك وقلوب من معك من أوليائنا، وتثق بالله وينصره الذي لم يزل يعوّده في كلّ من مرق عن الطاعة، وانحرف عن الإيمان، وتبادر إلينا بأخبار الناحية، وما يتجدّد فيها، ولا تخفِ عني شيئاً من أمرها إن شاء الله.

سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وصلى الله على جدّي محمد رسول الله، وعلى أهل بيته وسلّم كثيراً"

الطبري، ج10، ص105.

وثيقة (2):

كتاب العامل عامر بن عيسى العنقائي إلى صاحب الشامة

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لعبد الله أحمد الإمام المهدي المنصور بالله، ثم الصدر كله على مثال نسخة صدر كتابه إلى عامله الذي حكينا في الكتاب الذي قبل هذا الكتاب، إلى ولد خير الوصيين صلى الله عليه، وعلى أهل بيته الطيبين، وسلم كثيراً. ثم بعد ذلك من عامر بن عيسى العنقائي، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أما بعد، أطل الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام الله عزه وتأييده، ونصره، وسلامته، وكرامته، ونعمته، وسعادته، وأسبغ نعمه عليه، وزاد في إحسانه إليه، وفضله لديه. فقد كان وصل كتاب سيدي أمير المؤمنين أطل الله بقاءه، يعلمه فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده إلى ناحيتنا؛ لمجاهدة أعداء الله بنى الفصيصة والخائن ابن دحيم، وطلبهم حيث كانوا، والإيقاع بهم وبأسبابهم وضياهم، ويأمرني -أدام الله عزه عند نظري في كتابه- بالنهوض في كل من قدرت عليه من أصحابي وعشائري للقائهم، ومكانفة الجيش، ومعاضدتهم، والمسير بسيرهم، والعمد كل ما يؤمن إليه ويأمر به، وفهمته، ولم يصل إلى هذا الكتاب -أعز الله أمير المؤمنين- حتى وافت الجيوش المنصورة، فنالت طرفاً من ناحية ابن دحيم، وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية؛ ليلقوه بمدينة أرامية.

ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد في درجة الكتاب الذي اقتصصت ما فيه في صدر كتابي هذا، يأمرني فيه بجمع من تهيأ من أصحابي وعشيرتي، والنهوض إلى ما قبله، ويحذرنى التخلف عنه. وكان ورود كتابه على وقت صحّ عندنا نزول المارق سبك عبد مفلح مدينة عرقه في زهاء ألف رجل، بين فارسٍ وراجل، وقد شارف بلدنا، وأطلّ على ناحيتنا، وقد وجّه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين -أطل الله بقاءه- إلى جميع أصحابه، ووجهت إلى جميع أصحابي، فجمعناهم إلينا، ووجهنا العيون إلى ناحية عرقه؛ لنعرف أخبار هذا الخائن، وأين يريد، فيكون قصدنا ذلك الوجه، ونرجو أن يظفر الله به، ويمكن منه بمنّه وقدرته.

ولولا هذا الحادث، ونزول هذا المارق في هذه الناحية، وإشرافه على بلدنا لما تأخرت في جماعة أصحابي عن النهوض إلى مدينه أرامية، لتكون يدي مع أيدي القواد المقيمين بها؛ لمجاهدة من بتلك

النّاحية حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، وأعلّمت سيدي أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- السبب في تخلفي عن مسرور بن أحمد، ليكون على علم منه. ثمّ إنّه أمرني، أدام الله عزّه، بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذي برأيه، وامتثلت ما يأمرني به إن شاء الله، أتمّ الله على أمير المؤمنين نعمه، وأدام عزّه وسلامته، وهنّأه كرامته، وألبسه عفوه وعافيته.

والسلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي، وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار".

الطّبري، ج10، ص(105-107).

وثيقة (3):

رسالة الأميرة بيرثا بنة لوثير الثاني الكارولنجي إلى المكتفي بالله

"بسم الله الرحمن الرحيم، حفظك الله بسلطانه أيها الملك، الجيد العهد، القوي السلطان، من كل أعدائك، وثبت لك ملكك، وأدم سلامتك في بدنك ونفسك منذ الآن إلى الأبد، أنا برتا بنت الأوتاري الملكة على جميع الفرنجيين، أقرأ يا سيدي الملك عليك السلام، إنه جرت بيني وبين ملك إفريقية صداقة؛ لأنني لم أكن أتوهم أن ملكاً يكون فوقه يملك الأرض إلى هذه الغاية، إن مراكبي كانت قد خرجت، فأخذت مراكب ملك إفريقية وكان رئيسها خادماً له، يُقال له علي، فأسرته ومئة وخمسين رجلاً كانوا معه في ثلاثة مراكب، وبقوا في ملكي سبع سنين، ووجدته عاقلاً فهماً، فأعلمني أنك ملك على جميع الملوك، وقد صار إلى مملكتي خلق كثير، فلم يصدقني منهم عنك إلى هذا الخادم الذي يحمل إليك كتابي هذا، وقد بعثت معه هدايا ممّا (12ب) في بلدي، وجعلتها تكرمة لك، واستجلاباً لمودتك، وهي: خمسون سيفاً، وخمسون ترساً، وخمسون رمحاً فرنجية، وعشرون ثوباً منسوجة بالذهب، وعشرون خادماً، وعشرون جارية، وعشرة أكلب كبار لا تطيقها السباع، وسبعة بزاة، وسبعة صقورة، ومضرب حرير بجميع آلاته، وعشرون ثوباً معمولاً من صوف يخرج من قعر البحر يتلون لوناً في كلّ ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيّار تكون ببلاد فرنجة إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً، وصققت بأجنحتها حتى يعلم ذلك، وخرز تجتذب النصول، والأرجة بعد بناء اللحم عليها بغير وجع.

وعرّفني أن بينك وبين ملك الروم المقيم بالقسطنطينية صداقة، وأنا أوسع منه سلطاناً وأكثر جنوداً؛ لأنّ سلطاني على أربع وعشرين مملكة، وكلّ لسان مملكة مخالف للسان المملكة التي تليها، وفي مملكتي مدينة رومية العظمى، والحمد لله، وقال لي فيك قولاً حسناً ملاً به قلبي ممّا أنت عليه في أمورك، وأنا أسأل الله العون على مصدقتك والصلح بيننا ما أحببت من السنين، فإنّ الأمر في ذلك إليك، والصلح شيء لم يطلبه أحد من أهل بيتي ولا قرباتي ولا جنسي قطّ، ولم يكن أحد يخبرني عن جيوشك وكراماتك التي أنت فيها على ما أخبرني به هذا الخادم الذي أرسلت به إليك، فعليك، يا سيدي في محبة الله أكثر، السلام، واكتب إليّ بصحبتك وفي جميع حوائجك في مملكتي وبلدي

مع علي هذا الخادم، ولا تحبسه قبلك؛ ليجيبني عنك، فإنني متوقعة لموافاته، وقد حملته سراً يقوله لك إذا رأى وجهك وسمع كلامك، ليكون هذا السر بيننا، لا أحب أن يقف عليه أحد غيرك وغيري وغير هذا الخادم، وكبت الله عدوك، وجعله وطء قدمك، والسلام".

نص ثانٍ مكمل لرسالة بيرثا الأولى:

"وجمعت ذلك كله؛ ليأخذه، فقال: إنه يخاف أن يتصل خبره بصاحب إفريقية مولاه، فيجيء هو ويأخذ ذلك، ورجوت أن يكون الأمر كما ذكر إن شاء الله، وأن يرد عليّ بجواب كتابي هذا إليك، فقد استحلقت على ذلك بالأيمان والعهد التي تأخذها أنت عليه، ليكون رسلاً بيننا، وجميع ما يخطر بقلبك مما تحتاج إليه من مملكتي، فهو لك، وما أحتاج أنا أيضاً إليه مما في مملكتك، سألتك إياه، هذا الكلام لم تنتهياً ترجمته، ويكون بيننا عهد، وأرسل إليك بجميع من قد حوينا من أسرى المسلمين. ثم اتصل الكلام بما في الأول".

ابن الزبير، ص(51-54).

وثيقة (4):

كتاب المكتفي بالله الذي ردّ فيه على الأميرة بيرثا

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد، فإنّ الله المتوحد بملكه، اللطيف بعباده، قاسم شيم الفضل بينهم، وباسط يد الطول والإنعام عليهم، قسم لأمر المؤمنين ما اختصّه به من خلافته، وأصار إليه من وراثته سلطانه، أشرف أخلاق المكارم وأسبق منازلها، وجعل العدل والفضل يكتنفانه في كلّ سبيل يلتحقها، وعادة اللّين والمخشنة معهودة منه في حالتي وجوبها ليحتوي على الشرف الأعلى عادلاً وفاضلاً، ويشتمل على الكرم الأذكى مانعاً وباذلاً، ويفوز بالخلق الأنقى قابضاً وباسطاً، الله حميد مجيد.

وانّه أنهى إلى أمير المؤمنين أنّ خادماً يُسمّى عليّاً ورد باب أمير المؤمنين، ووصف أنّه وافدٌ عنك بكتاب تذكير فيه أحوالاً جرت بينك وبين الملك على إفريقية في التجاذب والتحارب، صار في خلالها هذا الخادم ومئة وخمسون رجلاً كانوا معه في ثلاثة مراكب خرجت إليك من قبله أسرى في يدك، فبقوا في ملكك سبع سنين، وأفرجت تلك الأحوال عن صداقة بينك وبينه.

وانّك لم تتوهمي أنّه يكون فوقه ملك أعلى منه حتّى أعلمك هذا الخادم أنّ أمير المؤمنين ملك ملوك الأرض، وعرفك من أنحاء فضله ما بعثك على إنفاذه إلى أمير المؤمنين.

وانّك أردت أن تنفذي معه هدية من أصناف الأسلحة والأمتعة والخدم والجواري الصقالبة، والجوارح المعلّمة، فكره الخادم حمل ذلك إشفاقاً من أن يتصل خبره بالملك على إفريقية، فيعترضه في الطريق، ويسلبه إياه، فأخرجت الأمر في إنفاذه، وقدمت التوجيه بالخادم ليعود إليك جواب الكتاب، ويكون رسولاً بين أمير المؤمنين يحمل إليك ما يخطر بقلب أمير المؤمنين ممّا يحتاج إليه من مملكتك، ويؤدي عنك ما تسألين أمير المؤمنين الأمر بإتحافك ممّا في ممالكه على عزمة تكون من أمير المؤمنين تصدين معه إلى أمير المؤمنين ما تحويه مملكتك من أسرى المسلمين.

إنّه عرفك إلى ذلك أنّ بين أمير المؤمنين وبين عظيم الروم المقيم بقسطنطينية وإنّك منيفة الخطر عليه؛ إذ كان سلطانك يشمل على أربع وعشرين مملكة، لكلّ واحدة منها لغة تخالف لغة الأخرى،

وفيهـا مـدينة رومية العظمى، وتعرضين في فحوى خطابك بصلح يوقعه أمير المؤمنين لك، وبسلم يعقده بينه وبينك، وتصلين ذلك بذكر ما أوعزت إلى الخادم فيه بما يسره إلى أمير المؤمنين على جميع ما تضمنه هذا الكتاب، وفهمه.

وأمير المؤمنين يفتتح قوله بحمد الله وشكره على ما أعطاه من النعمة النفيسة في أخلاقه وأعرافه، ومنحه من الفضائل المقصورة في مناقبه ومفاخره، وظاهر له من الكرامة في نشر ما أفرد به خصائصه، وأسعده بجزيل المواهبه فيه من شيم التطول والتفضل في أطراف الأرض وأقطارها، وتمكين ذلك في أنفس الأملاك المتفاوتة المنازل في أكنافها وأطرافها، فكل على اختلاف محلهم وتباين مذاهبهم وتقاذف مطارحهم ينزع إلى اقتناء مرتبة إليه في لطفة يجتنبها منه، أو عطفة يبذلها له، أو حال من البسط والإيناس يوجبها فيه، متغايرين على ذلك، متنافسين فيه، مستشعرين لباس الرغبة والرغبة له، ليتم الله على أمير المؤمنين نعمته ويزيده من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

ويعلمك أمير المؤمنين أن الذي أنبأت عنه، وأوفدت هذا الخادم فيه، وأحببت إيقاعك إياه، من خلال تسهيل المواصلـة والملاطفة بين أمير المؤمنين وبينك واقع لك عند أمير المؤمنين الموقع الذي ترجينه، وتناهت أمنيـتك إليه... من المكاتبـة، واستدعيت من المراسلة ورغبت إلى أمير المؤمنين فيه من أسباب المهاداة والملاطفة، ومقابلته بما أومأت إليه من إصداره أسرى المسلمين، وأوجب ذمة الإسلام بمالهم، فإن التمسيتـه على هذه السبيل وجدت أمير المؤمنين سمحاً بذلك وعلى أشرف أحواله وأؤكد شرائطه، إيجاباً لحقك ورعاية لزمام رغبتك، وبالله التوفيق.

وأما الذي وصفت من أن الخادم عرفك إياه من صداقة بين أمير المؤمنين وبين عظيم الروم المقيمين بقسطنطينية، وذكرت من إشراف خطرك عليه، وأن ممالكك أوسع من ممالكه، فما كان ليعزب عن أمير المؤمنين مقدار كل عظيم من عظماء الأمم ممن يروس من أمتـه ويتسع فيه من أرضه على عدد بين منازلها، وتفاوت بين ممالكها، مراعاة لذلك بغير إشرافه واعتناؤه بحق سياسته وتديبره، وليس بين أمير المؤمنين وبين هذه الفئة من مراسلة وملاطفة أمر يحضره اسم على ما يبتدرونه من المكاتبـة، ويرغبون إليه فيه من المراسلة، فإذا استوجب هذه المسألة أمير المؤمنين (2) المحقق: العبارة هنا مضطربة) اسم لصداقة (؟)، لكنه إيناس يوجبـه أمير المؤمنين لهم على المنزلة من أمير

المؤمنين، كنت الارة فيهم على حسب تقدّمك في شرف الحال والنعمة، فاعلمي ذلك، واعلمي في مكاتبة أمير المؤمنين ومراسلته والانبساط إليه على حسبه إن شاء الله، وقد أدى الخادم السر الذي ذكرت إيداعك إياه، ويحمل في جوابه ما يؤدّيه بإذن الله، والسلام على من اتّبع الهدى".

ابن الزبير، ص(54-59).

الأشكال



شكل (1): الحملة الإسلامية على مدينة سالونيك وَفَق إحدى الرسومات البيزنطية.

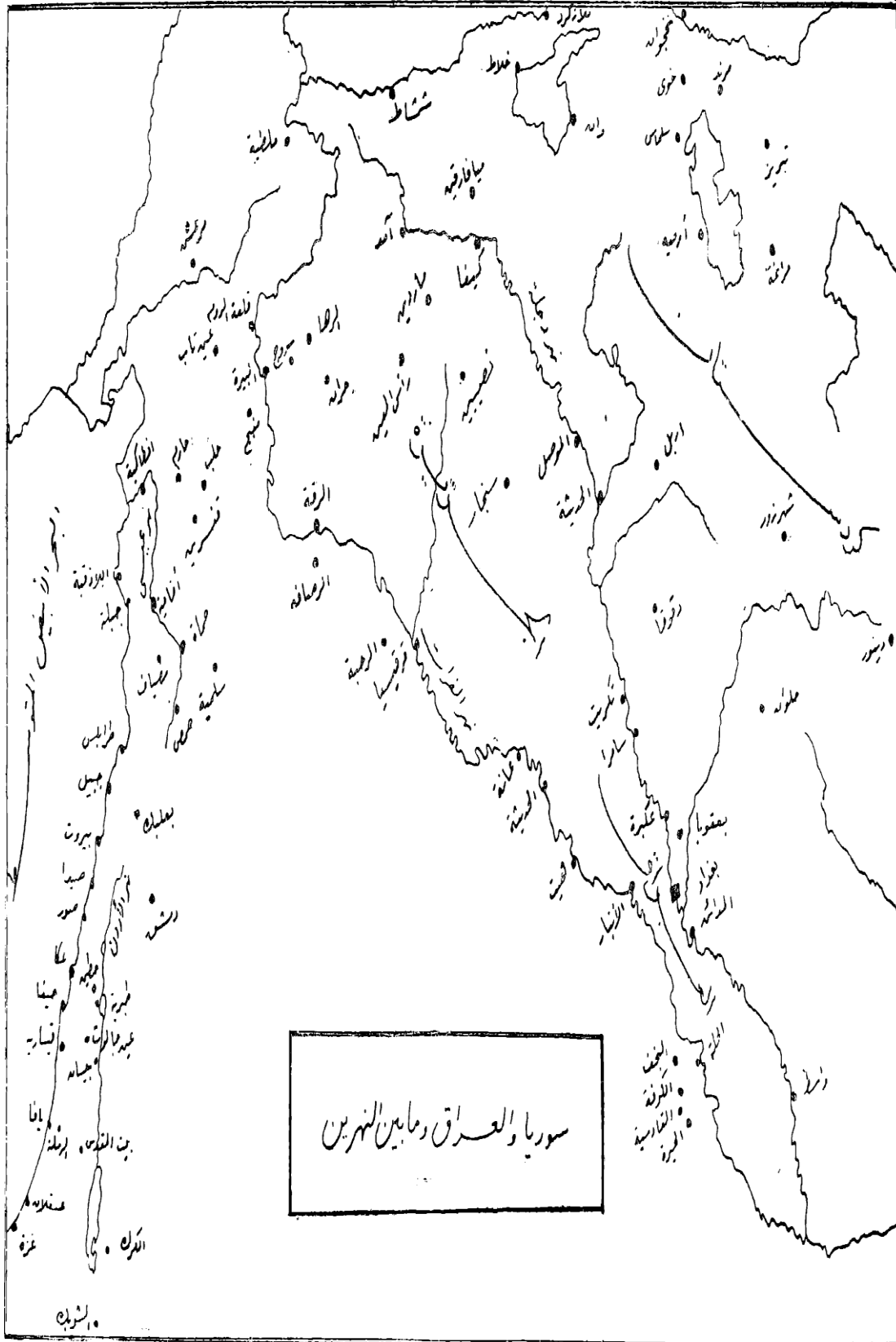
Panayiotou, p339.



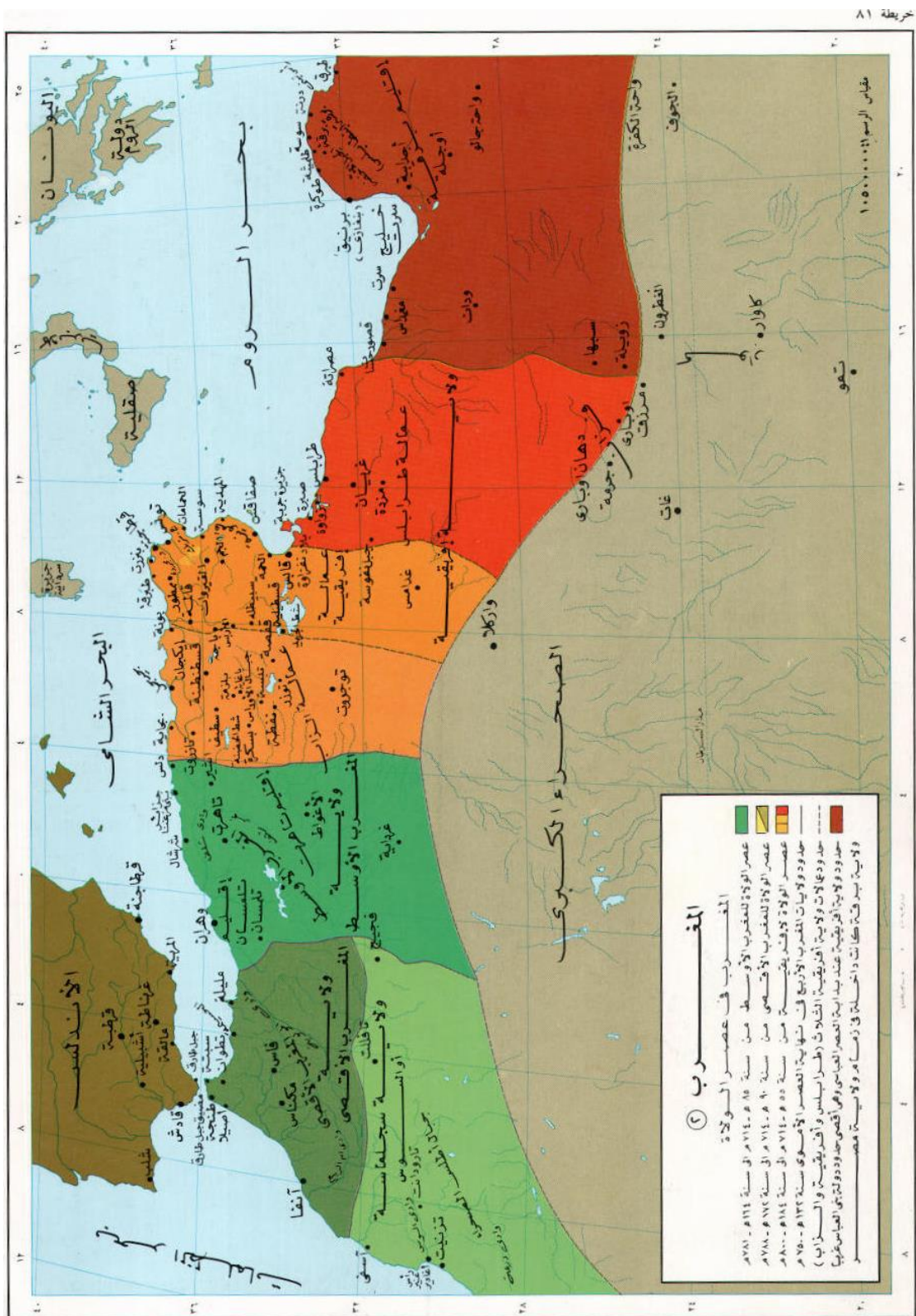
شكل (2): دينار ذهبي ضُربَ في عهد المكتفي بالله عام 292هـ/904م. عباس، ص378.



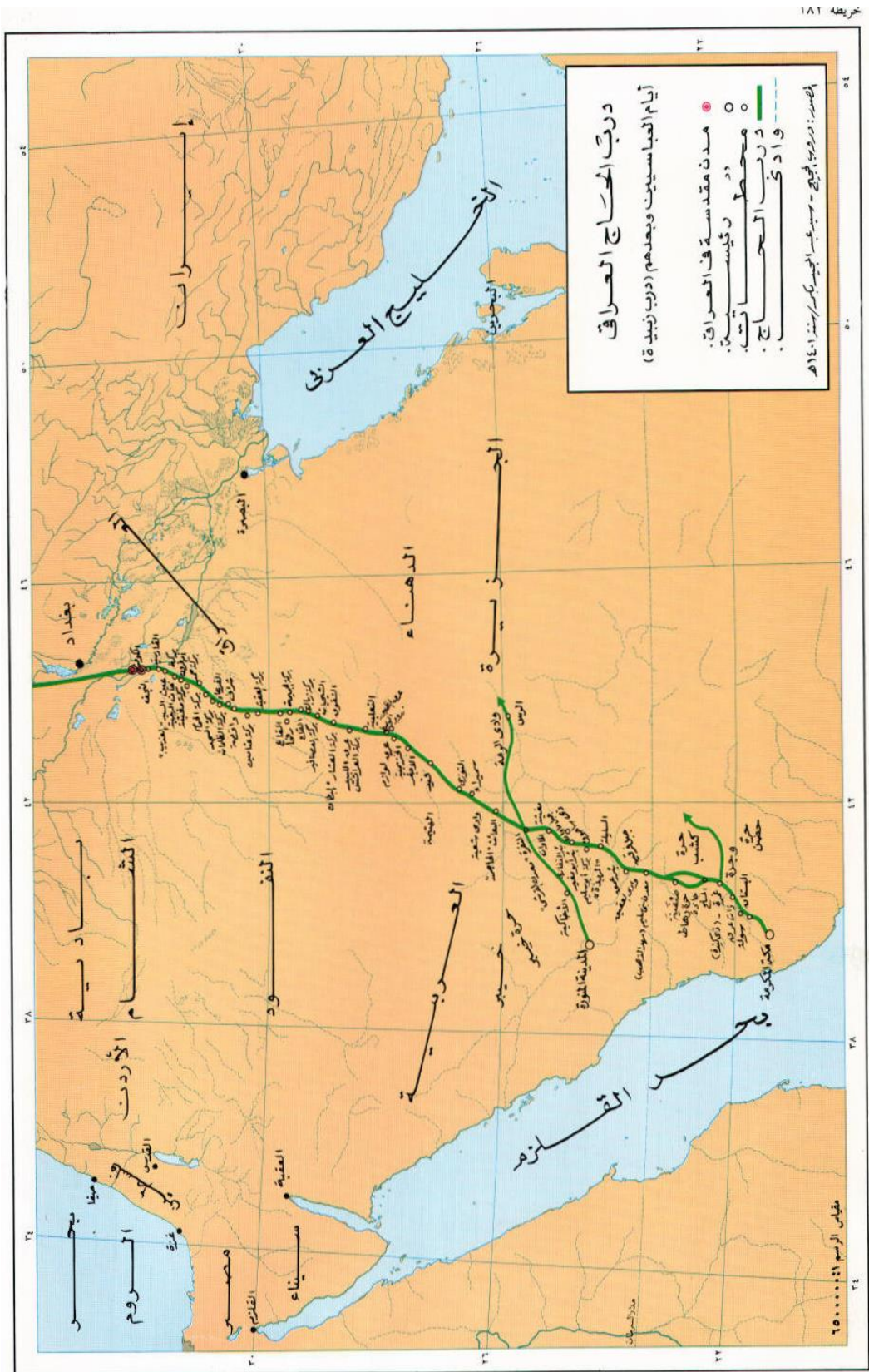
شكل (3): جامع الخفءاء في بغداد. مجهول، الموسوعة الحرة - ويكيبيديا



خريطة (2): سورية والعراق وبلاد ما بين النهرين. حمدي، ص 16.

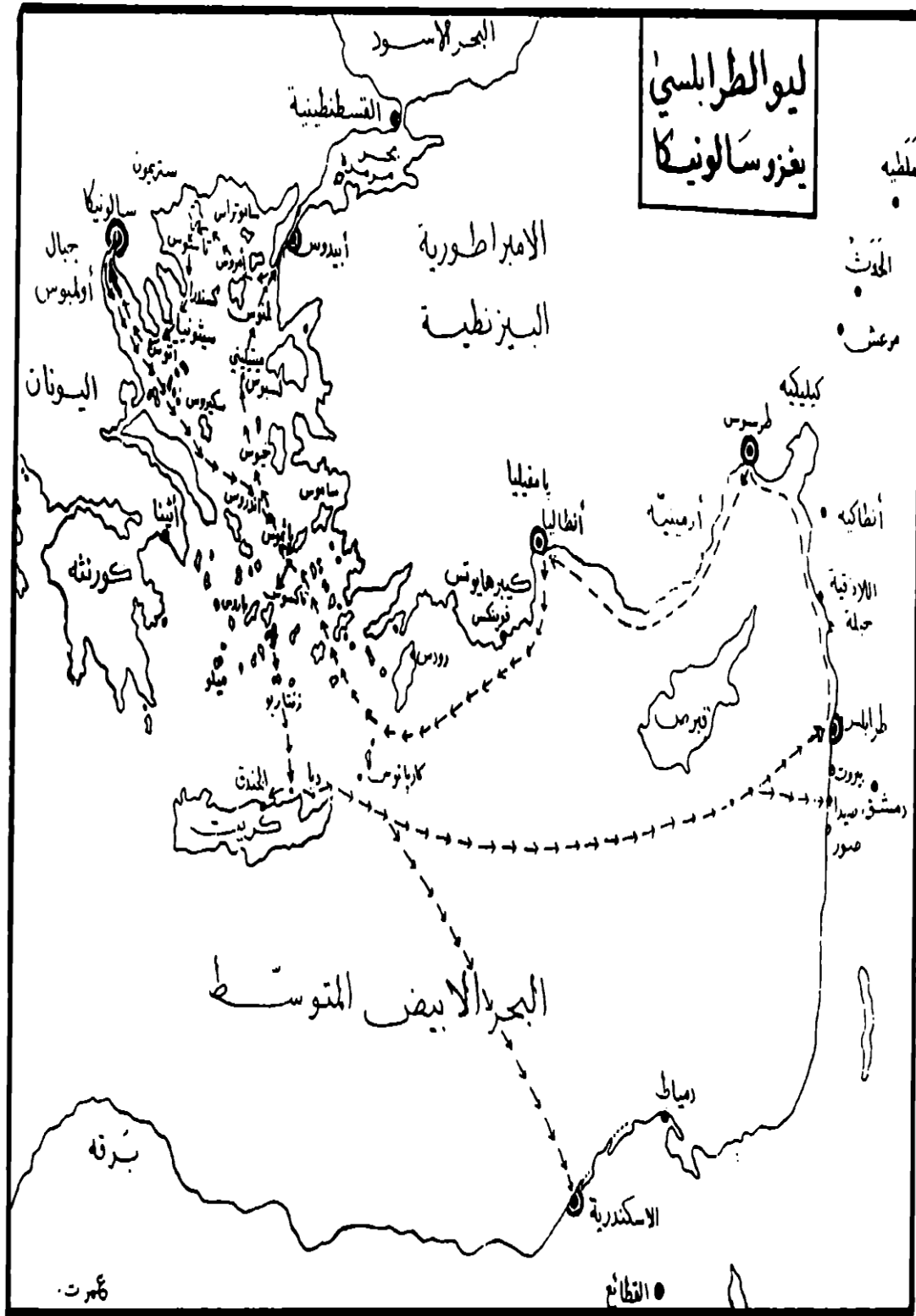


خريطة (4): بلاد المغرب الإسلامي. مؤنس، ص 158.



خريطة (6): طريق الحج العراقي. مؤنس، ص 390.

309



خريطة (8): مسار حملة غلام زرافة على مدينة سالونيك. تدمري، ص 323.

An- Najah National University
Faculty of Graduate Studies

**Abbasid State in the Reign of Caliph
al-Muktafi Ali Bin Ahmad
(289-295 H/902-908 A.D)**

By
Shafi Abdullatif Mohammad Bsharat

Supervisor
Dr. Amer Al-Qubbaj

**This Thesis Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the Degree of Master of History, Faculty of Graduate Student, Al-Najah
National University, Nablus- Palestine.**
2021

**Abbasid State in the Reign of Caliph al-Muktafi Ali Bin Ahmad
(289-295 H/902-908 A.D)**

**By
Shafi Abdullatif Mohammad Bsharat**

**Supervised by
Dr. Amer Al-Qubbaj**

Abstract

Al-Muktafi Billah, Abu Mohammad, Ali Ibn Ahmad Al-Mu'tadid Billah was born in (264 A.H/ 877 A.D). He was raised under the care of his father and his grandfather, Al-Muwaffaq Billah, who dedicated Ibn Abe Al-Donia – one of the finest scholars of that era- to enrich and discipline him so he gained a unique level of culture and literature. He was a father of more than a son, who all played important roles in the Abbasid Caliphate political and civilized history. His father, Al-Mu'tadid Billah, enrolled him in many ruling matters, especially after he assigned the state of Al-Jibal to him, and then he was the ruler of Qinnasrin as well as the capitals and the island. After that and in the year of (289 A.H/902 A.D) when his father passed away, he became the caliph. But the caliphate he inherited was suffering of division movements so his first mission was to regain the unity, later on, that was his most prominent achievement in this field because he succeeded in reuniting Al-Sham and Egypt to the state.

Al- Muktafi began his reign by killing the commander Badr Al- Mutadidi, then many revolutions started in several states, but most of them were weak, except Al- Khaleeji revolution in Egypt. Al- Muktafi era witnessed the final years of Ismailism, but Al- Muktafi couldn't capture the Ismailism Imam, Obied Allah Al- Mahdi who managed to flee from Salamiyah to The

Maghreb and then launched the Fatimid Caliphate in (296 A.H/ 909 A.D). Zokrawieh and his sons ruled the Qarmatians in Al- Sham and Iraq, and started many revolutions that ended with huge failure and with the killing of its leaders, Zokrawieh included, while the Qarmatians of Bahrain, led by Abu Saied Al- Janabe, achieved notable successes that ended with the independence of Bahrain in (290 A.H/ 903 A.D). Although Ismailism managed to make big successes in Yemen in the era of Al- Muktafi, but it lost all of what it gains after the counter revolution by Ali ibn Al- Fadhl (297 A.H/ 910 A.D). Al- Mukafi followed his predecessors step by approving the sovereignty Samanid over their territories. In exchange, the Samanid leader Ismail ibn Ahmad strengthened his relationships with the Abbasid Caliphate. Talking about the Tulunids, as soon as they started to weakened, Al- Muktafi Billah take the advantage of this and eliminated it in the year of (292 A.H/ 905 A.D). On the other hand, the increase of the power of Abu Abdullah Al- Sheae in The Maghreb made the Aghlabids prince Zeyadtu Allah the Third strengthen his relationship with the Abbasid Caliphate, hoping the he will get the Caliphate to help him in their war.

In his reign, there were few encounters between the Abbasid Caliphate and the Byzantine Empire. The most prominent victory between these encounters was the conquest of Thessaloniki city by the Islamic navy in (291 A.H/ 904 A.D). Then both of the nations agreed more than once to the exchange of the prisoners deal, especially in (292 A.H/ 905 A.D) and (295 A.H/908 A.D). Externally, the Caliph hosted the ambassador of Prince Bertha of Savoy in (293 A.H/ 906 A.D). Civilizational, Al- Muktafi Billah

has a financial method of saving and cutting the expenses so the financial status and the economic situation flourished. On the other hand and in that era, Abbas Ibn Al- Hasan succeeded Al- Qasim Ibn Obied Allah in ruling the ministry and both of them were had great influence and enriched the state. The military also did his part efficiently without participating in the political matters. Al- Muktafi Caliphate also has such great qadis (judges) who enriched and created an atmosphere of integrity and independence. As his successor, the Caliph- before his death in (295 A.H/ 908 A.D) chose his brother Jafar, and he was